الدكتور
مصطفى البغا
كلية الشريعة ـ جامعة دمشق

حاضر العالم الإسلامي

لطلاب السنة الاولى

الطبعة السادسة

١٤١٩ ـ ١٤٢٠ هـ

١٩٩٨ ـ ١٩٩٩ م

الدكتور
مصطفى البغا
كلية الشريعة ـ جامعة دمشق

حاضر العالم الإسلامي

لطلاب السنة الاولى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين .

وبعد فهذه بحوث في حاضر العالم الاسلامي ، جمعتها على عجل كي لتمكن من وضع مرجع في المقرر بين يدى الطلاب في مطلع الفصل الدراسي ، ولضيق الوقت لم يكن لي فيها الا الجمع وبتصرف يسير في بعض البحوث لا يكاد يذكر ولذا كان فيها بعض جوانب نقص ، اهمها انها موضوعات كتبت في فترة مضى عليها على الاقل عشرون عاما ، وعنوان البحث يوحي ان المضمون قد كتب حديثا وتناول واقع العالم الاسلامي حتى اليوم الذى كتبت فيه .

الله تعالى نسأل ان توفي بنصيب كبير من الغرض المقصود بهذا المقرر ، أن تسنح الفرصة لكتابة كاملة ووافية ، انه اكرم مسؤول .

تمهيـــــد :

بدأ الاسلام في بقاع مكرمة تقع في الجانب الغربي من الجزيرة العربية ، ولكن هذه المنطقة الضيقة ما لبثت ان اتسعت ، وانتشر نورها حتى شمل الجزيرة العربية برمتها شمالا وجنوبا ، شرقا وغربا . ومن هذه الجزيرة انتقل الاسلام الى شتى الاقطار والامصار في العالم.

ففي آسيا شمل بلاد الشام والعراق وما اليهما في الشمال ، ثم اتجه الى الشرق حتى عمّ ايران ، ومن الجزيرة العربية كذلك وغيرها من الاقطار الاسلامية حتى بلغ الهند والصين واندونيسيا والملايو واليابان .

وفي افريقيا شملت الدولة الاسلامية مصر والسودان والحبشة وغيرها ، كما شملت طرابلس وتونس والجزائر ومراكش وكثيرا من الاقطار في شرق افريقية وغربها .

وفي اوربا امتد الاسلام عبر جبل طارق في اسبانيا حتى وصل الى جنوب فرنسا ، ثم الى البلقان وسواحل اوربا من طريق البوسفور والدردنيل وبحر مرمرة ، كما نفذ اليها من طريق سيبيريا الغربية حين تدفقت الشعوب التركية والمغولية الاسلامية ، وسيطرت على الاناضول وحوض الفولجا وسهولها والطرف الجنوبي الشرقي من روسيا والسواحل الشمالية لبحر قزوين والبحر الاسود . وما لبث نور الاسلام ان عم اكثر جزر البحر الابيض المتوسط ، وفي مقدمتها صقلية ومالطة وكريت وقبرص ورودس . وكذلك دخل الاسلام امريكا الشمالية ، وامريكا الجنوبية ، وانتشر في شتى البقاع والاصقاع .

وسنتناول في هذا البحث الاسلام في مختلف القارات ، مبينين فضله على الحضارة الاوروبية ، واثر علماء الاسلام وفلاسفته وحكمائه

وعباقرتـــــه في الثقافـــــة الغربيـــــة .

وجدير بالذكر ان الاسلام دين الحرية والاخاء والمســـــاواة ، لا يعرف الظلم الى مبادئه سبيلا ، ولا الطغيان الى تعاليمه طريقا . فهو دين السماحة وسجاحة الخلق وصفاء الطبع ونقاء الطوية ، ولم يكن حد السيف او أسنة الرماح سببا لانتشاره في يوم من الايام . فالرسول قد كتب الى مختلف الملوك والاقيال والامراء يدعوهم الى الاسلام .

ويقال ان الكتاب الذى ارسله الرسول صلى الله عليه وسلم الـــى هرقل كان كما يلي :

" من محمد بن عبد الله ورسوله الى هرقل ، السلام على مـــن اتبع الهدى . اما بعد ، فاني ادعوك بدعاية الاسلام ، فأســـلم تسلم ، وأسلم يوءتك الله اجرك مرتين فان توليت فان عليك اثم الاريسيين . « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون "

اما كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم الى كسرى ملك الفــــرس فقد جاء فيه :

" بسم الله الرحمن الرحيم

" من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس ، سلام على مـــن اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وشهد ان لا اله الا الله ، وانـــى رسول الله الى الناس كافة لينذر من كان حيا . أسلم تسلم ، فان أبيت فعليك اثم المجوس "

كما ارسل الرسول الكريم الى النجاشي ملك الحبشة كتابا آخر ،

وهكذا تبين لنا ان الرسول الكريم لم يكن يفرض الاسلام على الناس فرضا ،انما كان يدعوهم بالتي هي احسن . . . بل انه ــ صلوات الله عليه ــ قاسى من اجل هذه الكتب التي ارسلها الى الملوك والاقيال ضروبا من الهوان ،وصنوفا من العذاب .

ومن ذلك ان كسرى فارس ثارت ثائرته ، واشتد ضيقه ، وعظم حنقه عندما تسلم كتاب الرسول ، وارسل الى عامله على اليمن ــ وهو " باذان" ــ يأمره بأن ينهض لتأديب هذا الرجل ،وجاء في انذاره "ابعث الى هذا الرجل الذى بالحجاز رجلين من عندك جلدين فليأتيا لي به " .

وأرسل " باذان " امتثالا لامر كسرى ، رسولين من قبله الى الرسول يدعوانه الى المثول بين يديه ،ووصل الرسولان الى الطائف ، وقابلا نفرا من قريش ، فسألاهم عن الرسول : فأخبرهما احدهم انه بالمدينة . واستبشر الجمع بما ينوى كسرى فارس صنعه ، ورفع احدهم صوته قائلا : " ابشروافقد نصب له كسرى ملك الملوك ،كفيتم الرجل " .

ومضى الرجلان يضربان في فجاج الارض حتى وصلا الى الرسول الكريم فأخبراه ان كسرى يطلب مقابلته ،ويرغب في حضوره . فصرفهما الرسول على ان يلتقي بهما في الغد . وهبط الخبر من السماء على رسول الله المصطفى ان الله قد سلط على كسرى ابنه شيرويه فقتله .

وحان موعد الرجلين ،فذهبا لمقابلة الرسول الكريم . ولشد ما كانت دهشتهما عندما فاجأهما بمصرع كسرى بيد ابنه شيرويه ، فطار لبهما وطاش عقلهما ، وكادا يصعقان من هول المفاجأة . . . وملك احدهما اعصابه ،وقال موجها الخطاب الى النبي الكريم :

" انا قد نقمنا عليك ما هو ايسر من هذا ، افنكتب هذا عنك ونخبر به الملك ؟ " . فأجاب النبي محمد(ص)" اخبراه ذلك عني ، وقولا له ان ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ ملك كسرى . . . وقولا له انك ان اسلمت اعطيتك ماتحت يديك ، وملكتك على قومك من الابناء " .

فرجع الرسولان الى باذان ، واخبراه بما قصه عليهما الرسول . فاشتدت دهشة باذان ، وتملكه الذهول واستبد به العجب ، وقال : " والله ما هذا بكلام ملك ، واني لأرى الرجل نبيا كما يقول . ولننظر فيما قال ، فلئن كان هذا حقا فانه لنبي مرسل ، وان لم يكن فسنرى فيه رأينا " .

ولم تلبث الايام ان جعلت الخبر المسموع حقيقة ملموسة ، تراها العين كما تسمعها الأذن ، ووافى باذان كتاب " شيرويه " وفيه يقول : " أما بعد ، فاني قد قتلت كسرى ، ولم اقتله الا غضبا لفارس لما استحل من قتل اشرافهم . فاذا جاءك كتابي هذا فخذ لي الطاعة ممن قبلك ، وانظر الرجل الذى كان كسرى كتب فيه اليك (يعني الرسول عليه الصلاة والسلام) فلا تهجه حتى يأتيك امرى فيه " . فلما انتهى كتاب شيرويه الى باذان قال : " انَ هذا الرجل لرسول " . أسلم واسلم من كان معه من الفرس ببلاد اليمن .

وهكذا كان الرسول الكريم يرسل الكتب الى الملوك والاكاسرة لاقيال من اجل هداية الناس ونشر الاسلام ، ولم تكن هذه الكتب ائل عنف وارهاب ، او ذرائع للبطش والتنكيل ، انما كان يدفع بالتي احسن ، بل كان — كما اسلفنا القول — يتحمل ألوانا من العسف ضيق ، وضروبا من الوعيد والتهديد من جانب هوءلاء القوم .

وكان صلوات الله عليه يقابل هذا كله بصدر رحب ونفس راضية مرضية ، تستمرىء العذاب في سبيل الاسلام ، وتتحمل الصعاب في سبيل نشر الرسالة الربانية بين العالمين . وقد كان عليه الصلاة والسلام ينتصر على خصومه بما أوتي من طهارة نفس وصفاء قلب . وكان سبحانه وتعالى ينفث فيه سره ،فاذا العَصِيُّ من الامور سهل ، واذا القَصِيُّ من الطِّلاب دانٍ ،واذا الحق منتصر على الباطل . ان الباطل كان زهوقا .

وتقول بعض الروايات العربية ان هرقل ملك الروم كان يميل الى الاسلام ،ومن ذلك ما رواه الطبرى في الجزء الثالث من تاريخه ، من انه لما وصل اليه كتاب الرسول ،وهو بالشام يريد العودة الى القسطنطينية ، جمع الروم وقال لهم :

" يامعشر الروم ،اني عارض عليكم امورا فانظروا فيما قد اردتها . قالوا : وما هي ؟ قال : تعلمون والله ان هذا الرجل لنبي مرسل . انا نجده في كتابنا ،نعرفه بصفته التي وصف لنا ، فهلم فلنتبعه فتسلم لنا دنيانا وآخرتنا . فقالوا : نحن نكون تحت يدي العرب ، ونحن اعظم الناس ملكا واكثرهم رجالا وافضلهم بلدا ؟ قال : فهلم فأعطيه الجزية في كل سنة أكسر عني شوكته ، وأستريح من حربه بمال اعطيه اياه . قالوا : نحن نعطي العرب الذل والصغار بخراج يأخذونه منا ،ونحن اكثر الناس عددا واعظمهم ملكا وامنعهم بلدا ؟ لا والله لا نفعل هذا ابدا . قال : فهلم فلأصالحه على ان اعطيه ارض سورية ويدعني وأرض الشام . فقالوا له : نحن نعطيه ارض سورية ،وقد عرفت انها سرة الشام ؟ والله لانفعل هذا ابدا ، فلما آبوا عليه قال : أما والله لترون انكم قد ظفرتم اذا امتنعتم منه في مدينتكم . ثم جلس على بغل له ، فانطلق

حتى اذا اشرف علي الدرب استقبل ارض الشام ثم قال : السلام عليكم ارض سورية تسليم الوداع ، ثم ركض حتى دخل القسطنطينية " .

وقد تمشت هذه الكتب مع ما جاء في القرآن الكريم من دعوة الى نشر الاسلام بين العالمين ،كقوله تعالى : " قل يا ايها الناس الى رسول الله اليكم جميعا " ،وقوله : " وما ارسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا ،ولكن اكثر الناس لا يعلمون " . وقوله تعالى : " ومن احسن دينا ممن اسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفا" .

والرسول ــ قبل هذا كله وبعد هذا كله ــ لم يجبر غير المسلمين على الاسلام اجبارا ،انما جعل لهم الخيار بين الاسلام او دفع الجزية . وقد قال الله تعالى في كتابه الكريم : "ولا يجرمنكم شنآن قوم على الا تعدلوا ،اعدلوا هو اقرب للتقوى " . فأرست هذه الآية الكريمة اساس التزام عام شامل يقضي بتحري العدالة المطلقة مع غير المسلمين على وجه عام ، سواء كانوا اصدقاء ام اعداء، من اهل الذمة ام من المحاربين .

وجاء في آية اخرى " وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين " . ومعنى هذا ان على المسلمين ان يلتزموا ادق قواعد العدالة والانسانية والاستقامة حتى في قتالهم مع من يعتدون عليهم للقضاء على الاسلام نفسه .

ويروى ان النبي عندما ارسل احد جيوش المسلمين الى القتال قال : "انطلقوا باسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله ،ولا تقتلوا شيخا فانيا ولا طفلا صغيرا ولا امرأة ،ولا تغلوا وضموا غنائمكم واصلحوا ، واحسنوا ان الله يحب المحسنين "

وفي حديث آخر نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قتل الكهنة

والرهبان المتعبدين في الاديرة والصوامع .

وبذلك تنحصر اباحة القتل في رجال العدو القادرين الذين يدخلون بالفعل الى ميدان القتال ، والقتال نفسه لم يكن المسلمون ينفرون اليه الا تأمينا لدعوتهم ، او درءا لخطر داهم او شك ان يحيق بهم ، ويهدد مصالحهم ، ويكاد يعصف بحياتهم ، ويدمر بيوتهم ومساجدهم . ومخافة ان يتمكن العدو منهم فيستبيح اموالهم ومحارمهم ، وينهب ديارهم ومنازلهم .

وعندما وقع الرسول الكريم الصلح مع يهود خيبر اعطاهم صحائف التوراة معززة مكرمة ، مما يدل على كرم خلاله وحسن سجاياه ، وتزوج من صفية بنت حيي بن اخطب حفظا لكرامتهم . واستبقى اليهود في الارض ، وحقن دماءهم ، وعاملهم معاملة طيبة .

وعندما بعث ابو بكر الصديق الجيوش لفتح الشام تحت امرة اسامة بن زيد ، عملا بوصية الرسول الكريم ، امر الجند بتجنب السلب والمخادعة ونقض العهود والتمثيل بأحد ، واوصاهم الا يقتلوا طفلا او شيخا فانيا او امرأة ، والا يجتثوا النخيل ولا يحرقوه ، ولا يحطموا اية شجرة مثمرة ، ولا يذبحوا شاة ولا بقرة ولا جملا الا لصد غائلة الجوع ، واخبرهم انهم سيجدون رهبانا يتعبدون في اديرتهم ، وامرهم ان يتركوهم وشأنهم ولا يمسوهم بسوء .

اما عمر بن الخطاب فقد منح اليهود حماية دينهم ، وامنهم على حياتهم واموالهم وكنائسهم وصلبانهم . فلا تهدم كنائسهم ، ولا تتخذ منها منازل ، ولا يمسها احد بسوء ، وكل ماورد في هذا العهد مخفور باسم الله ورسوله وخلفائه والمسلمين عامة ، على شرط ان يدفع الناس الجزية بانتظام .

وعاهد خالد بن الوليد اهل الحيرة في جو من الحرية ، بلا تهديد ولا وعيد ، فجاء في هذا العهد : " هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد نقباء اهل الحيرة ، ورضي بذلك اهل الحيرة وامرهم به . عاهدهم على مائة وتسعين الف درهم تقبل في كل سنة جزاء على ايديهم في الدنيا ، رهبانهم وقسسهم ، الا من كان منهم على غير ذى يد ، حبيسا عن الدنيا تاركا لها . وعلى المنعة ، وان لم يمنعهم فلا شيء عليهم حتى يمنعهم " .

ولم يكتف بذلك بل قال : " وجعلت لهم ايما شيخ ضعف عن العمل او اصابته آفة من الآفات ، ان كان غنيا فافتقر ، وصار اهل دينه يتصدقون عليه ، طرحت جزيته ، وعيل من بيت المسلمين وعياله ما اقام بدار الهجرة ودار الاسلام " .

ويذكر التاريخ ان المسلمين كانوا يعوضون الناس عن الضرر الذى يلحقهم خطأ من المسلمين . ومثال ذلك ان ذميا جاء الى عمر بن الخطاب في اثناء فتوح الشام ، وشكا اليه ان بعض المسلمين قد قطعوا عنبا من كرومه دون اذن منه ، فخرج عمر من المعسكر فاذا به يرى مسلما خارجا من الكرم وقد حمل بعض العنب على درعه ، فصاح به في غضب وحدة : " وأنت ايضا قد شرعت ترتكب مثل هذه الحماقات ؟ " . فاعتذر الرجل بأنه لم يفعل ذلك الا لاشتداد جوعه ، فأمر عمر بأن يعوض الرجل عما فقد من عنبه حتى ارضاه .

وعند ما شرع عمر بن الخطاب ينظم ادارة العراق عقب فتحها ، استدعى زعماء البلاد غير المسلمين الى المدينة ليستشيرهم ويستأنس بآرائهم . وجاء في المقريزى انه كان يفعل كذلك فيما يتعلق بمصر . فاستشار المقوقس عظيم القبط في امور شتى .

وعند ما فتح عمر بن الخطاب الشام صالح اهل " ايلياء" ، وامن اهلها على انفسهم واموالهم وكنائسهم وصلبانهم ، واعطاهم عهدا بذلك ،وهو المعروف بالعهدة العمرية ،وقد اوردها محمد بن جرير الطبرى في تاريخه ،وهذا نصها :

" بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما اعطى عبد الله عمر امير المؤمنين اهل ايلياء من الامان ،اعطاهم امانا لانفسهم واموالهم ، ولكنائسهم وصلبانهم . وسقيمها وبريئها وسائر ملتها : انه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينقص منها ولا من حيزها ، ولا من صلبهم ولا من شيء من اموالهم ،ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار احد منهم ،ولا يسكن بايلياء معهم احد من اليهود .

" وعلى اهل ايلياء ان يعطوا الجزية كما يعطى اهل المدائن ، وعليهم ان يخرجوا منها الروم واللصوص ، فمن خرج منهم فانه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ،ومن اقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على اهل ايلياء من الجزية ،ومن احب من اهل ايلياء ان يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيوتهم وصلبهم ، فانهم آمنون على انفسهم وعلى بيوتهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم ،ومن كان بها من اهل الارض ، فمن شاء منهم قعد و عليه مثل ما على اهل ايلياء من الجزية ومن شاء سار مع الروم ،ومن شاء رجع الى اهله ، وانه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم . وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين اذا اعطوا الذى عليهم من الجزية".

وقد كتب هذا العهد في العام الخامس عشر للهجرة ، وشهد عليه : خالد بن الوليد ،عمرو بن العاص ، عبد الرحمن بن عوف ، معاوية بن ابي سفيان .

وعندما انتشر نور الاسلام الى شتى الاقطار والامصار ،كانت الشريعة الاسلامية كعادتها تكفل لغير المسلمين كافة الحقوق . فالاسلام لا يعرف التعصب ولا الظلم ، بل يفسح صدره للاقليات التي لا تدين به ، ويأمر برعايتها وحمايتها .

وهذه الحقائق كلها تدل دلالة واضحة على ان الاسلام لم يضطهد في وقت من الاوقات المسيحية او اليهودية او غيرهما من الاديان ، انما كان يرعى معتنقيها ،ويعاملهم باللين والرفق والعدل ،ولم يستخدم يوما وسائل العنف او القسوة مع اصحاب المذاهب الاخرى ، بل على العكس من ذلك كان يستعين بهم في كثير من الامور والمهام ،ولم تكن هذه الامور بسيطة او طفيفة ، انما كانت احيانا امورا تتصل بالوزارة او الولاية او نحو ذلك من المناصب الكبرى في الدولة .

ولم تكن الضريبة التي يدفعها المسيحيون او اهل الذمة في صورة (جزية) تعني فرض سلطة القوى على الضعيف ، او الظافر على الخاسر ، او المنتصر على المخذول ، انما كانت تدفع مقابل الحماية التي كفلتها لهم سيوف المسلمين . ولما قدم اهل الحيرة هذه الجزية ذكروا صراحة عند تقديمها انهم انما دفعوا الجزية على شريطة (ان يمنعونا هم واميرهم البغي من المسلمين وغيرهم) . وكذلك سجل خالد في المعاهدة التي ابرمها مع بعض اهالي المدن المجاورة للحيرة قوله : " فان منعناكم فلنا الجزية ،والا فلا " .

وقد حدث ان رفع هرقل راية العصيان ضد المسلمين ، ورغب في الانقضاض عليهم واخذهم بالغدر والخيانة ، فلما علم ابو عبيدة قائد العرب بذلك ، كتب الى عمال المدن المفتوحة في الشام

يأمرهم برد ما جبي من الجزية في المدن ، وكتب الى الناس يقـــول : " انما رددنا عليكم اموالكم لانه بلغنا ما جمع لنا من الجموع ، وانكـم قد اشترطتم علينا ان نمنعكم ، وانا لانقدر على ذلك . وقد رددنا عليكم ما اخذنا منكم ،ونحن لكم على الشرط ، وما كتبنا بيننا وبينكـم ان نصرنا الله عليهم " . وبذلك ردت مبالغ طائلة من مال الدولـــة ، فدعا المسيحيون بالتبركة لروءساء المسلمين وقالوا : " ردكم الله علينـــا ونصركم عليهم (اي على الروم) ، فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئا ، واخذوا كل شيء بقي لنا " .

وليس من شك في ان هذه القصة التي رواها ابو يوسف فـــــي كتاب الخراج ،تدل دلالة واضحة على ان المسلمين لم يكونوا ينوون للمسيحيين او غيرهم من الطوائف شرا ،ولم يكونوا ينهبون منهـــــم اموالهم ، او يستلبون منهم حقوقهم ، انما كانوا يفرضون الجزية عليهم حتى يدافعوا عنهم ، ويحموا جانبهم من غائلات المعتدى الاثيـــم ، ويقفوا لاعدائهم بالمرصاد ، فكانوا يحصنون المدن والثغور ،ويبنـــون القلاع والحصون ،ويرابطون في عدتهم وسلاحهم للدفاع عنهم ، وحماية حقوقهم بالنفس والنفيس .

والسيف لم يكن مصلتا على رأس احد من الناس ليكون مسلمـــا ، ولم يكن المسلمون يلجأون الى وسائل التعذيب التي لجأ اليهـــــا المشركون لصرف الناس عن الاسلام ،لم يكن المسلمون يصنعـون صنيـــع المشركين عندما أحضروا بلالا موءذن الرسول والقاه خلف الجمحي فــي الرمضاء على وجهه وظهره في وقدة الظهيرة ، ثم امر بالصخرة الكبيرة فألقيت على صدره ووقف يتشفى فيه قائلا له : " هكذا حتى تموت ، او تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى " .وكان ورقة بن نوفل يمر به وهو

يقول : "احد . احد" ،فيقول ورقة : "احد . احد والله يابلال"
ولم يزل على هذا العذاب الاليم حتى اشتراه ابو بكر واعتقه .

ولم يصنع المسلمون بمخالفيهم في الدين صنيع المشركين بعمار بن ياسر وابويه ،اذ كانوا يخرجونهم الى الاسطح اذا حميت الرمضاء ويعذبونهم بحرها ،فيمر بهم الرسول فيقول : "صبرا آل ياسر ، موعدكم الجنة" . ولما مات ياسر من العذاب اغلظت امرأته سمية القول لابي جهل ، فطعنها بحربة قضت عليها ، فكانا اول شهيدين في الاسلام ،ثم امعن المشركون في تعذيب ابنهما عمار بالحر تارة ،وبوضع الصخرة على صدره تارة ، ثم بالتغريق تارة اخرى .

ولم يكن المسلمون يفعلون مع المذاهب الاخرى ما فعلته قريش مع المسلمين من اجل الايمان بالاوثان ، وعبادة الاصنام ، والكفران بالواحد القهار ، بل كانوا على النقيض من ذلك كما رأينا ، يتخذونهم اخوانا ،ويعاملونهم معاملة طيبة كريمة .

وكل هذه الحقائق تنهض ادلة ناصعة ، وحججا دامغة على ان الاسلام لم يكن في فترة من الفترات دين عنف او قسوة ،او بغي وتسلط . حقا كان لابد للمسلمين ان يعملوا على نشر الدعوة ، وحقا كان لابد لهم من حماية جانبهم ،وصيانة موقفهم والذود عن حياضهم ومن اجل ذلك قاموا ببعض الفتوح ،بيد ان هذه الفتوح كلها لم تكن للبطش والارهاب ،وانما كانت للهداية والايمان .

وجدير بالذكر ان الجزية التي كان يدفعها اهل الذمة في هذه الفتوح كانت تعفيهم — فضلا عن النواحي سالفة الذكر — من الخدمة العسكرية الاجبارية التي كانت فرضا واجبا على المسلمين الذين يؤدون في الوقت نفسه فرض الزكاة من اموالهم . وهذا دليل

قاطع على ان الاسلام لم يحاب فريقا دون فريق . وكانت الزكاة تنفق في وجوه البر والخير وعلى الفقراء والمساكين وابناء السبيل ،ولم يعف الاسلام قادرا من ادائها .

فالمسلمون لم يبح لهم ان ينعموا ويغنموا في الوقت الذى يتعذب فيه اخوان لهم . والمسلمون لم يبح لهم ان يسعدوا ويهنأوا في الوقت الذى يشقى فيه اخوان لهم ، لان الاسلام دين التعاطف والتآلف والاخوة والمودة والتراحم . وهذه الضريبة كان يدفعها اهل الذمة مساهمة في توطيد اركان هذا الصرح العظيم ، صرح الانسانية التي ترغب في بناء عزتها ومجدها على اسس من التضامن الاجتماعي ،والتواصل الروحي ، والترابط الاخوى بين الطوائف المختلفة دون ضن ولا بخل ،ودون تردد ولا احجام .

وهنا يجب ان نوضح ان الاسلام لم يهدف الى الاستعباد او الاستعمار ،انما كان يهدف الى حماية الحقوق وصيانة الحريات ، فهو يحتم على المسلم ان يدافع عن الذمي ويحميه — ولو ببذل نفسه — من غير ان يتعرض الذمي لخطر ولا قتال ، ولا يكلف هذا الذمي سوى قليل من المال على هيئة جزية . وشتان بين ما يلجأ اليه الاستعمار في العصر الحديث وما اتبعه الاسلام من نظم سوية وقوانين عادلة ، فالاستعمار في العصر الحديث يعمد الى تجنيد اهل المستعمرات وتعريضهم للاخطار ،ويرغمهم على القتال دفاعا عن مستعمرى بلادهم .

الاستعمار الاوربي يضحي بالقادرين من اهل مستعمراته دفاعا عن نفسه ،وليبقى اهل المستعمرات خاضعين له . فهو يذلهم ويستعبدهم في سبيل تفوقه وانتصاره ، وتحقيق اهدافه ، والوصول الى اغراضه . اما الاسلام فلم يكن ولن يكون فيه شيء من

هذا ، فهو يسوى بين المحكومين والحاكمين في الحقوق والواجبات .
لا يعرض اهل الذمة لخطر ولا لقتال ، ولكن يدفع عنهم الخطر ، ويبعد عنهم الاذى ، ولا يكلفهم الا دفع ضريبة ضئيلة ، مساهمة في الاستعداد لدرء الخطر ، وسياسة امور الدولة ، واقامة حدود الله بين الناس في ظل المحبة والعدل والرحمة ، دون كبر ولا استعلاء ، ودون عجرفة ولا رياء ، ودون امتهان القوى للضعيف ، واحتقار الغني للفقير .

وقد ظل الاسلام راسخا في البلاد التي اخذته مأخذ العقيدة والايمان ، فآمنوا به بعد بحث طويل ، ونظر عميق ، وتأمل كثير ، ولكنه انحسر عن البلاد التي لم يأخذه اهلها مأخذ الجد . زد على ذلك ان قوى الشر قد تضافرت على محاربة الاسلام ، فما لبث ان انسحب من صقلية وايطاليا واسبانيا ، بيد انه ترك فيها حتى اليوم آثارا هيهات ان تمحوها الايام .

وقد توغل الاسلام في اوربا عن طريق صقلية والاندلس . وضرب المسلمون في هذه البلاد المثل الاعلى للسماحة ونبل الخصال ، وعدم التعصب او الانحياز . وقد ذكر الكونت " هنرى دى كاستر " في كتابه " الاسلام : خواطر وسوانح " ان محاسنة المسلمين للمسيحيين زادت في بلاد الاندلس حتى صار سكانها في حالة اهنأ من التي كانوا عليها منذ ايام خضوعهم لحكم قدماء الجرمانيين الذين يقال لهم (القوط الغربيون) .

ويقول دوزى : " ان هذا الفتح لم يكن مضرا بالاندلس وما حصل من الاضطراب والهرج بعده لم يلبث ان زال باستقرار الحكومة الاسلامية في تلك البلاد . وقد ابقى المسلمون سكانها

على دينهم وشرعهم وقضائهم ، وقلدوهم بعض الوظائف ، حتى كان منهم موظفون في خدمة الخلفاء ، وكثيرون منهم تولوا قيادة الجيوش . وتولد عن هذه السيادة الرحيمة ان انحاز عقلاء الامة الاندلسية الى المسلمين وحصل بينهم زواج كثير . وكم من اندلسي بقي على دينه ، ولكنه اعجبته طلاوة التمدن العربي فتعلم اللغة العربية وآدابها ، واصبح القسس يلومونهم على ترك ألحان الكنيسة والتعلق بأشعار الفاتحين .

" وكانت حرية الاديان بالغة منتهاها ، لذلك لما اضطهدت اوربا الموسويين ، لجأوا الى خلفاء الاندلس في قرطبة ، ولما دخل الملك كارلوس الى سرقسطة امر جنوده بهدم جميع معابد اليهود ومساجد المسلمين ، قال : ونحن نعلم ان المسيحيين ايام الحروب الصليبية مادخلوا بلادنا الا واعطوا السيف في يهودها ومسلميها ، وذلك يؤيد ان اليهود انما وجدوا مجيرا وملجأ في الاسلام ، فان كانت لهم بقية حتى الآن فالفضل فيها راجع لمحاسنة المسلمين ولين جانبهم " .

وقد تمكن الاسلام من التوغل في افريقيا لانه لم يفرق بين الابيض والاسود ، فالناس جميعا سواسية كأسنان المشط . ولم يتحرج المسلمون من الزواج من الزنجيات ، وانجبوا منهن عددا كبيرا من الاطفال المسلمين الذين لم يكادوا يبلغون سن الشباب حتى ازدادت حميتهم ، واشتد دفاعهم عن الاسلام . وذهب بعض الزنوج الى ان الاسلام دين السود ، وان المسيحية هي دين البيض. وقد جاءهم هذا الاعتقاد لان الاسلام سهل لهم امور العبادة ، ومكنهم من الوصول الى ارقى الدرجات .

وورد في القرآن ما يفيد ان بعض الانبياء كانوا سود الوجوه .

ومن ذلك موسى عليه السلام الذى جاء في وصفه في سورة طـــــه " واضمم يدك الى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء " ، كما جاء فـــي سورة الاعراف " ونزع يده فاذا هي بيضاء للناظرين . قال المـــلأ من قوم فرعون ان هذا لساحر عليم " . وقد اثر عن الرسول صلى الله عليه وسلم انه قال : " اسمعوا واطيعوا ولو ولي عليكم عبد حبشي " .

وكان من نتيجة دخول الاسلام في افريقيا الاستوائية أن تهذبت نفوس الزنوج ، وامتنع المسلمون منهم عن اكل لحم البشر ، وارتـــدوا ما يستر عوراتهم ، والاهالي الذين لم يكونوا يغتسلون قط اقبلوا علـى التطهر والاغتسال ، وكان الوضوء من الاسباب الداعية الى نظافتهم . زد على ذلك ان الشعور بالقيم الاخلاقية بدأ بتجسم ويتضح ، واختفت وسائل السلب والنهب التي كانت متفشية بين القبائل الزنجيـــــة ، واصبح المسجد قبلة انظار الزنوج يؤدون فيه فرائضهم ، ويصلـــون فيه صلواتهم الخمس في جو يسوده الجلال والوقار .

وقد كتب " ميك " في كتابه " قبائل نيجيريا الشمالية " يقول : " ان الاسلام لم يترك اثرا عميقا في التركيب الجنسي لهذه الشـعوب فحسب ، بل انه جاء بحضارة جديدة اتاحت للشعوب الزنجيـــــة طابعا حضاريا متميزا لا يزال واضحا حتى اليوم ، موءثرا في نظمهـــم السياسية والاجتماعية ، ذلك ان الاسلام حمل الحضارة الى القبائـل المتبربرة ، وجعل من المجموعات الوثنية المنعزلة المتفرقة شعوبـــا ، وجعل تجارتها مع العالم الخارجي ميسورة ، فقد وسع آفاقهـــم ، ورفع من مستوى الحياة بخلق مستوى اجتماعي ارقى ، وخلع على اتباعه الكرامة والعزة واحترام الذات واحترام الآخرين . لقد ادخل الاســلام فن القراءة والكتابة ، وحرم الخمر واكل لحوم البشر والاخذ بالثأر ،

وغير ذلك من العادات الوحشية ، واتاح للزنجي السوداني الفرصة لان يصبح مواطنا حرا في عالم حر " .

وليس من شك في ان هذا الاعتراف الصريح الذى ذكره ميك في كتابه ، يقف بجانب الاسلام في دعوته انه دين مبادئ تهوي اليها النفوس من كل جانب ، لا دين سيف مصلت على رقاب الضعفاء ليرغمهم على اعتناقه عنوة وقهرا .

اما الاسلام في آسيا فقد توغل في الصين والهند والملايو واندونيسيا والفلبين وغيرها من البلاد الآسيوية ،وشعر اهل هذه البلاد — وكلهم من الشعوب الصفراء — بأنهم لا يختلفون في قليل او كثير ولا يفترقون من قريب او بعيد عن الشعوب البيضاء . وقد كان التعليم والاقناع وحدهما الوسيلة التي استخدمها الدعاة المسلمون في نشر الاسلام . ولم يلبث الاسلام ان وجد تربة خصبة في هذه البلاد .

وقد شجع الخلجيون — وهم اسرة اسيوية عاشت في القرن الثالث عشر للميلاد والربع الاول من القرن الرابع عشر — اهل آسيا على اعتناق الاسلام . وفي ذلك يقول الرحالة (ابن بطوطة) في رحلته : " انهم قد سنوا عادة تقديم الشخص الذى دخل حديثا في الاسلام الى السلطان الذى كان يكسوه كسوة حسنة ، ويعطيه قلادة واساور من ذهب بحسب قدره ومنزلته " .

كما شجع الامير شاه تغلق (١٣٥١—١٣٨٨م) الهنود على اعتناق الاسلام ، وقال في مذكراته : " لقد شجعت رعاياي الكفار على اعتقاد دين النبي ، واعلنت لهم ان كل شخص يترك هذه العقيدة ويصبح مسلما يعفى من الجزية او ضريبة الرأس . ولما تقدم

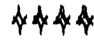
هذا النبأ بمسامع الناس ، تقدم الهندوس زرافات ووحدانا ، وسمح لهم بأن ينالوا شرف الاسلام ،ومن ثم اخذوا ينثالون من كل حدب وصوب . ولما اعتنقوا الاسلام اعفوا من الجزية ،ومنحوا الهدايا ومظاهر التكريم " .

وهكذا كان للامراء والحكام دور كبير في نشر الاسلام بين الرعية زد على ذلك ان كثيرا من النفوس تفتحت لعقائد الاسلام الشريفة ، وعرفت مزاياه الكثيرة ، واستجابت لدعوة الداعين اليه فنعمت بما كفله للمسلمين من حقوق رفيعة .

فالمسألة لم تكن مسألة هزيمة ولا اندحار ، انما كانت مسألة استمالة واقتناع اولا وقبل كل شيء ، ذلك ان السيف لو استطاع ان يترك اثرا فان اثره لا يلبث ان يندمل او يسلم الى الهلاك . والدين الذى يتوارثه الناس كابرا عن كابر ،وجيلا بعد جيل ،لأبد انه متغلغل في القلوب ،مستقر في النفوس ، وانه يسرى في الصدور مسرى الدماء في العروق . وقد استقر الاسلام في آسيا وغيرها من القارات عشرات القرون ،ولو كان السيف وسيلته لاختفى باختفاء السيف ، ولزال بزوال السلطان .

فالدليل على انه عقيدة وايمان انه استمر هذه المئات من السنين دون ان يعتريه ضمور ولا اضمحلال ، ودون ان يدركه فتور ولا خور، او تزعزعه اى قوة وتطوح به ، بل على النقيض من ذلك نجد في الهند والصين واندونيسيا وغيرها من البلاد الآسيوية مسلمين يتمسكون بالعقائد الاسلامية تمسكا شديدا ،ويعانون المشاق والمتاعب من اجل السفر الى بيت الله الحرام وتأدية فريضة الحج ،

وهم لا يعبأون بما يتجشمونه من صعاب ، وما يكابدونه من آلام ، لانهم يعتقدون كغيرهم من المسلمين في الثواب والعقاب ،ويؤمنون بأن في اداء هذه الفريضة ثوابا عظيما واجرا جزيلا .



لمحة تاريخية

ابتعث الله عز وجل نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم . والناس في جاهلية جهلاء مابين وثني عاكف على أصنامه يسألها العون ويطلب منها فصل الخطاب ،وكتابي مشرك أضاع معالم دينه واتخذ احباره ورهبانه أربابا من دون الله . والنفوذ السياسي في العالم مقسم بين دولتين ، بين أكاسرة الفرس في الشرق ، وقياصرة الروم في الغرب . وقد جهدت كل من هاتين الدولتين الا تدع بقعة من البقاع المعمورة في القارات الثلاث بعيدة من سلطانها أو قادرة على عصيانها . والصحراء الجرداء التي كانت بين هاتين الدولتين امتد سلطان كل منهما الى الجانب الذي يليه منها فاتخذت فيها اتباعا يطيعونها ويحتمون بها ويلوذون بجوارها كما سنرى ذلك فيما بعد ــ فارس تسيطر على الحيرة واليمن ،وبيزنطة تسيطر على أرض غسان والبتراء وبدأ رسول الله ــ صلوات الله عليه ــ دعوته في مكة لاعادة بناء الحضارة النبوية وبناء الانسان الكامل بدأ يبني بمفرده ،وجميع من حوله هدامون ، وكانت سلسلة من الوقائع الظافرة والصبر الطويل والخلق العظيم لا ينتهي الناظر من تمليها وفهم اسرارها ومراميها على صفحات السيرة النبوية الرائعة ،فما اختار الله تعالى نبيه الى جواره حتى كانت الجزيرة العربية قد دخلت في الاسلام وتتابع من بعده ــ صلوات الله عليه ــ أصحابه واتباعه من المسلمين الاوائل على حمل المشعل بارادة قوية وعزم جبار فهبوا كالاعصار الهائل مكتسحين المارد الفارسي في الشرق فسادوا بلاد فارس ،وموغلين في الفتح الاسلامي في بلاد الروم ــ ولاسباب هذه الفتوح وهذا الصمود حديث سنعرضه عليكم في محاضرات قادمة ــ ولم تستطع امجاد فارس ولا حول الروم ان تصدهم عن غايتهم .

ومن ثم أخذ المسلمون ينتشرون انتشار البرق فلم يمض قرن واحد على وفاة الرسول الكريم حتى كانت دمشق والقدس وبابل والمدائن

واصفهان والاسكندرية وطرابلس وقبرص وكثير غيرها تتداعى وتسقط عند اقدام المسلمين . وسريعا ماتبعتها تونس والجزائر والمغرب مستسلمة للمسلمين الفاتحين .

وبعد أن وصل المسلمون الى شواطيء الاطلسي انقلبوا شمالا ونزلوا بقيادة القائد العظيم طارق بن زياد عند ذلك الجبل الاسباني الذى لا يزال يحمل اسمه حتى الآن ثم نراهم بعد ذلك بفترة وجيزة يكتسحون جبال البرانس . بل يتوغلون في أرض الفرنجة . ولو لم يصدهم شارل مارتل عن توغلهم هذا في سنة / ٧٣٢ / لاستطاعوا بسط سيطرتهم على القارة الاوروبية بأسرها .

أما بالجانب الشرقي فنجد المسلمين يحتلون ترانسوكسانيا ويصلون الى نهر الهندوس ومع ان رقعة الدولة لم تتسع اتساعا كبيرا في ايام العباسيين - ٧٥٠ - ١٢٥٨ م - فان النشاط الاجتماعي الثقافي ازدهر ايما ازدهار في ابان حكمهم الذى دام خمسة قرون وانتشرت الصناعات العقلية بشكل لم يعهده تاريخ الانسانية من قبل، وعندما سقطت الخلافة العباسية استولى على العالم الاسلامي ذعر هائل .

وبسبب من اتساع رقعة الدولة وضعف الخلفاء الذين جاؤا في أواخر العهد العباسي ظهر عدد من السلالات والخلفاء فاستغل المغول نواحي ضعفها المتعددة وقضوا قضاء تاما على حكم العباسيين . وهدموا حاضرة الخلافة العباسية (بغداد) واستمرت أعمال الابادة والافناء في جميع الولايات الاسلامية الوسطى طيلة أربعين عاما، ولكن المماليك الذين كانوا يحكمون مصر يومئذ وتقدموا بشجاعة وبأس واوقفوا المغول عند حدود فلسطين، ولولاهم لوصل المغول بنارهم وسيوفهم الى قلب مصر والى البلدان الاسلامية الاخرى في افريقيا، وهكذا نرى أن تيقظ المماليك وتنبههم وشجاعتهم قد انقذت المسلمين في افريقيا من اجتياح المغول ووحشيتهم

وفظاظتهم .

وبينما كان العباسيون يلقون الهزيمة على أيدى المغول كانت الخلافة الاموية في اسبانيا تزداد قوة وبأسا . كما كانت تبسط سلطان مدنيتها على أوربا، وبفضل عظمة غرناطة ومنجزات قرطبة الثقافية أضحت الاندلس هي المستوى الامثل لطالبي العلم والمعرفة. في تلك الايام الغابرة المجيدة التي بلغت فيها الاندلس عز مجدها الاسلامي كانت كلمة التمدن مرادفة لكلمة الاسلام " وكان على الانسان ليكون متمدنا . . . . أن يكون مسلما .

وهكذا كان تأثير المسلمين الثقافي العظيم في تلك الأيام التي كان الفاطميون يبنون دولتهم في مصر ويزيدون من قوتها وبأسها، لقد أنشاوءا مدينة القاهرة وبنوا فيها الجامع الأزهر الشهير، وكان المسلمون في الفترة نفسها يثبتون اقدامهم في صقلية وجنوب ايطاليا. وفي القرن الحادى عشر الميلادى كان القائد المقدام محمود الغزنوى ينشر لواء الاسلام في البلدان النائية الممتدة من جزيرة الملح الكبرى غربا عبر نهر الاندوس الى بلاد البنجاب وملتان والسند وغوجارت شرقا. وقد أدت هذه الفتوحات بالنتيجة الى قيام عدد من الدول والسلالات في الهند، وفي هذا القرن كذلك ـ الحادى عشر ـ اكتسح السلاجقة جميع المنطقة الواقعة بين دلهي وسمرقند والبحر الابيض المتوسط، ومن هذه القبيلة السلجوقية انحدر العثمانيون بعد ذلك بقرنين اثنين .

* الحروب الصليبية :

ثم رمت أوروبا العالم الاسلامي عن قوس واحدة في حرب صليبية غشوم دامت بضعة قرون وصمد لها العالم الاسلامي وخرج من الهجوم كما خرج من قبل في حروبه مع المغول والتتار وقد استطاع الصليبيون بفضل جهودهم المشتركة وبفضل تخاذل المسلمين أن يحتلوا القدس سنة (١١٠٩)م

ولم يقو الخليفة العباسي على مقاومة هذه الحملات الغازية واستطاع ذلك الايوبيون المستقلون الى أن جاء المجاهد صلاح الدين آخر الأمر وأنزل بالصليبيين -وعلى رأسهم رجال بارزون من أمثال رتشارد قلب الأسد- الهزيمة والعار واستطاع صلاح الدين ذلك القائد المسلم العظيم أن ينقذ القدس من أيدى وحوش الصليبيين في سنة (١١٨٧)م.

* الأندلس :

وازدهر الاسلام في اسبانيا طيلة سبعة قرون وكانت اسبانيا مركزا طليعيا للاسلام في اوروبا والمؤرخون من مسلمين وغير مسلمين متفقون على أن حكم المسلمين في اسبانيا قد غمر البلاد بالسلام والأمن والبحبوحة وان المسلمين قد بداؤا في تلك البلاد عهدا من الحضارة لم تعهده من قبل فانشأوا المدارس والجامعات واستحدثوا محاصيل زراعية جديدة وطوروا صناعات لم تكن معروفة من قبل ،اما اسهام المسلمين في ميدان الفنون والعمارة فقد كان اسهاما رائعا الى أبعد الحدود وليس قصر الحمراء في غرناطة والقصر في اشبيلية الا بعضا من الأمثلة على اسهامهم النبيل في ميدان الجمال المعمارى.

وفي سنة ١٤٩٢ وهي السنة التي اكتشف بها كولومبس العالم الجديد بدأ فصل جديد بالنسبة الى بلدان أوروبا الغربية ، الا أنه في السنة نفسها مع الأسى والأسف سقطت غرناطة في أيدى الاسبان النصارى فكان ذلك بداية النهاية بالنسبة لحكم المسلمين في اسبانيا .

صقلية :

امتد سلطان المسلمين على صقلية اكثر من مائتي عام منذ بداية القرن التاسع حتى منتصف القرن الحادي عشر . وفي صقلية أنشأ المسلمون ثقافة لم تستطع الا أن تبسط نفوذها على أوروبا عامة وايطاليا خاصة .

الهند :

واذا وصلنا الى الهند وجدنا " بابر " يضع أسس امبراطورية جديدة ودولة حديثة هي دولة مغول الهند . وفي ابان حكم المسلمين كانت الهند تتصف بالتقدم والازدهار، وكانت مركزا للفنون والعلوم. وقد عرف مغول الهند بعد لهم، وللمرة الاولى في تاريخ هذه البلاد الطويل : توحدت الهند تحت أمر اورانك زيب، ولكن الانحلال والتفسخ مالبث أن فعلهما بعد موته . وبدأ الانكليز بدهائهم ومكرهم يثبتون اقدامهم في الهند متبعين قاعدة: فرق تسد. وافلحوا أخيرا في خلع آخر أباطرة مغول الهند في سنة ١٨٥٧ .

وبعد تسعين سنة من جهاد المسلمين في الهند اضطرت انكلترا الى الرحيل، وظهرت دولة باكستان على خريطة العالم كوطن اسلامي جديد .

الملايو واندونوسيا :

وكانت الملايو واندونوسيا على الطرق التجارية للمسلمين . ذلك أنها تقع على الطريق البحرى بين الاراضي الاسلامية والصين . وهكذا ظهر الاسلام في تلك الاصقاع وكما جاء الانكليز الى الهند تجارا، وكذلك جاء الهولنديون الى اندونوسيا في مطلع القرن السابع عشر، ثم استعبدوا أهلها وظلموا فيها الى أن طردوا منها آخر الأمر في سنة ١٩٤٩ . لتصبح اندونوسيا جمهورية مستقلة .

الدولة العثمانية :

اما الدولة العثمانية فقد وضع أسسها في مطلع القرن الرابع عشر أمير سلجوقي يدعى عثمان، وقد تمكن العثمانيون كما هو معروف من فتح القسطنطينية عاصمة الامبراطورية البيزنطية، واسموها اسلامبول أي مدينة الاسلام، وعرفت فيما بعد باسم استانبول، ولم يلبث العثمانيون أن احتلوا البلاد العربية وبقيادة السلطان سليمان — من أعظم سلاطينهم — افتتحوا اذربيجان وتونس وليبيا وبيساريا . وغيرها وحاصر الاتراك مدينة فيينا .

حاضرة العواصم الاوروبية ـ أول مرة سنة ١٥٢٩ . ثم حاصروها للمرة الثانية سنة ١٦٢٣ ولكن القوى الاوروبية المتضافرة أنقذت فيينا . ومنذ ذلك الحين لم يحرز الاتراك أى تقدم جديد في أوروبا .

ايران ومصر :

وفي ايران كان الصفويون قد وطدوا سلطتهم في سنة ١٥٠٠ ولكن ايران لم تصبح دولة قوية الا في عهد السلطان عباس (١٦٢٩) ومصر التي كانت جزءا من الامبراطورية العثمانية ، خضعت حينا من الدهر للحكم الفرنسي أيام نابليون الا أنها حققت استقلالها في مطلع القرن التاسع عشر بزعامة محمد علي وزاد فتح قناة السويس في سنة ١٨٦٩ من مكانة مصر واهميتها .

الاسلام في افريقيا :

ان افريقيا هي القارة الوحيدة التي يمكن تسميتها بالقارة المسلمة من بين قارات العالم لأن (١٥٠) مليون نسمة من مجموع سكانها البالغين (٢٥٠) مليونا هم مسلمون ، ولان مايقرب من ثلثي دولها المستقلة أغلبية سكانها من المسلمين ، ولان غالبية سكانها الى الشمال من الصحراء الكبرى مسلمون ، كما أن في جنوب هذه الصحراء نسب متفاوتة منهم .

وقد بدأ اتصال الاسلام بافريقيا في حياة الرسول الكريم نفسه صلى الله عليه وسلم . وذلك عندما لجأ بعض المسلمين بناء على أوامره الى الحبشة ـ وكان الاستقبال الحسن الذى لقيه المسلمون من ملك الحبشة ـ النصراني ـ هو الذى جعل هذا العطف في قلوب المسلمين عليها ، وفي الوقت الذى بسط فيه المسلمون سلطانهم على السودان في الجنوب بعد فتح مصر في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وفتحوا كذلك ليبيا وتونس والجزائر والمغرب فان الحبشة دخلت في الاسلام دون فتح ، فبعد هذه الفتوحات في القارة الافريقية انحدر قسم من

المسلمين من المغرب شمالا الى اسبانيا وانحدر قسم آخر جنوبا فاكتسحوا بحيرة تشاد ودارفور وكردفان وكانوا واودية النيجر والسنغال متجاوزين اقتحام الحبشة .

وقد ظلت هذه المناطق في افريقيا الغربية مرتبطة حتى القرن السادس عشر بأوثق الروابط مع افريقيا الشمالية المسلمة ومع اسبانيا المسلمة كذلك .

وقد ازدهر في افريقيا في تلك المناطق مملكة سنغهاى وازدهر الى جانبها ممالك اسلامية أخرى هي غانا ومالب وبورنو. وكانت هذه الدول ذات الحضارات العربية الزنجية تضارع أكثر دول أوروبا الغربية تقدما. وكانت تيمبكتوا – عاصمة سنغهاى تفتخر بتجارتها المزدهرة ومؤسساتها التربوية العديدة ومبانيها الجميلة . عندما سقطت اسبانيا فقدت بلدان افريقيا الغربية المسلمة تلك الصلة التي كانت تستمد منها طاقتها واندفاعها . وقد جاء الدفع الديني العظيم في القرن الحادى عشر عندما شق داعية مسلم عظيم يدعى ابن ياسين طريقة بين البربر في الجنوب في البلاد التي تعرف حاليا بموريتانيا, وقد قام تلاميذه ونشروا رسالة الاسلام في جميع المنطقة الغربية التي تشمل حاليا السنغال ومالي والمناطق المجاورة لها . وكانت الامبراطورية الزنجية الكبرى هي امبراطورية مالي التي ازدهرت بين القرنين الحادى عشر والخامس عشر والتي تبعتها مملكة سنغهاى في افريقيا الغربية (١٤٦٨ – ١٥٩١) وهاتان المملكتان كان لهما الفضل في اعطاء الاسلام مكانة ومنزلة ساميتين في جميع هذه البلدان الواقعة في افريقيا الغربية .

وعلى الجانب الشرقي نرى أن الاسلام قد عبر البحر الاحمر وتغلغل في جميع المناطق الساحلية بما فيها ارتيريا والحبشة والصومال وتجاوزها الى عدد من البلدان في الجنوب .

وقد سقطت بوابة افريقيا الشرقية ونعني بها (مومباسا) في أيدى

المسلمين سنة ١٦٩٦ وما ان حل عام ١٧٨٧ حتى كان امام مسقط قد استولى على جزيرة زنجبار ومن هذه الجزيرة الصغيرة بدأ الاسلام توغله في افريقيا الشرقية وبخاصة تانغانيقا التي ماتزال عاصمتها دار السلام تشهد باسمها على مؤسسي هذه المدينة الساحلية المهمة. ومنذ سنة ١٧٦٥ حتى ظهور البرتغاليين على المسرح كان الشاطيء الافريقي الشرقي بأكمله تحت سيطرة المسلمين وإمرة السلطنات الاسلامية المختلفة التي كانت تعرف مجتمعة بامبراطورية الزنج، وكان الشاطيء الشرقي برمته يعرف لدى المسلمين بزنجبار أو الشاطيء الأسود .

<u>الاستعمار الاوروبي لأفريقيا</u> :

بدأ أولا اوربيون بافريقيا في القرن الخامس عشر . وكانت صلاتهم هذه تزداد عمقا وقوة قرنا بعد قرن الى أن بدأ الاوربيون تسابقهم على المستعمرات في افريقيا في القرن التاسع عشر .

ففي القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر انهمك الاوربيون (البرتغاليون والبريطانيون والهولنديون والفرنسيون وغيرهم) الى حد كبير في تجارة الرقيق التي كانت تعود عليهم بأكبر الربح . وكان الاوربيون يتخذون من المناطق الساحلية (السنغال – غينيا – وسيراليون وغانا الخ) مركزا لنشاطهم . وكان البريطانيون منهم بصورة خاصة يرسلون السفن معبأة بالعبيد الا فارقة الى مستعمراتهم الجديدة في امريكا .

كانت افريقيا الغربية هي المعين الذى كان الاوربيون يستقون منه العبيد الذين كانوا يصطادونهم للعمل في مزارعهم والقيام بسائر الأعمال في العالم الجديد . وكان الرق هو التجارة التي تدر أعظم الربح على اولئك الذين زعموا فيما بعد أن الله تعالى قد حملهم عبء الرجل الأبيض لتمدين العالم .

ومن الأمور الجديرة بالاعتبار هنا قبل متابعة البحث أن مفهوم الرق

عند الاوربيين مرتبط بسواد البشرة، وان السبيل الى استرقاق هؤلاء الذين هم أحرار كاملوا الحرية ، والمسلمون منهم متحضرون أكثر من السادة البيض . . . . هو القرصنة والخطف من الشواطيء . والكلام على (الرقيق الأبيض) في نظام الاسلام ومقارنته بهذا الاسترقاق الاوروبي البشع موضع آخر غير هذا الموضع . وبلغت تجارة الرقيق اوجها في القرن الثامن عشر والى البريطانيين يعود الفضل في أنهم سبقوا الأمم الاخرى وقادوها في هذه التجارة القبيحة الشنعاء ولقد قيل استنادا الى مصادر موثوق بها أن السفن البريطانية وحدها قد نقلت بين عامي ١٦٨٠ ـ ١٧٨٦ مليونين من العبيد ـ او بتعبير أدق من السود المختطفين من افريقيا الغربية الى مستعمراتهم في امريكا . ويعترف المؤرخون بأن الشحنات السنوية في السنوات الاخيرة من القرن الثامن عشر قد بلغت مائة ألف . وانه حتى في النصف الاول من القرن التاسع عشر كانت الشحنات تبلغ قرابة خمسة وثمانين الفا في السنة . هؤلاء المناكيد من بني البشر الذين كانوا يشترون بأبخس الاثمان أو يصطادون صيدا كما يصطاد الحيوان . وكانوا يباعون في امريكا ويشترى بأثمانهم الغراء والسكر والعسل الاسود والخشب وسواها من المواد الأخرى التي كانت تباع بأثمان فاحشة في أوروبا وأسواق العالم كان هؤلاء العبيد يحشرون كالسردين في سفن العبيد وكانوا يعطون من الزاد مايكفي لسد رمقهم . بل لابقائهم على قيد الحياة فحسب . وكانوا يجلدون لأيما تقصير أو خطأ يرتكبونه فلا عجب اذا مات أكثرهم على الطريق، وعندما بدأ بعضهم في القاء أنفسهم في البحر تخلصا من ذلك العذاب شرع أسيادهم في ربطهم بالسلاسل منعا لهم من الهرب. والحق ان بامكان الباحث أن يكتب المجلدات اذا ماأراد أن يصف بالتفصيل الطريقة التي كان اولئك العبيد يعاملون بها بعد صيدهم من البائعين والمشترين على حد سواء . ان الطريقة التي كانوا يساقون بها بعد صيدهم

في ظل بنادق أسيادهم ـ البيض المتحضرين ... أو عملائهم الى الشاطئ حيث يحشرون في السفن حشرا تشكل هي أيضا فصلا من فصول التاريخ التي تزري بمخازي التتر والمغول واحزابهم .

وما ان أطل القرن العشرون حتى كان الاوربيون قد اقتسموا افريقيا كلها تقريبا باستثناء جمهورية ليبريا الصغيرة، ونالت حصة الاسد كل من بريطانيا وفرنسا، فقد حصلت كل منهما على مناطق بلغت مساحتها ثلاث ملايين ميل مربع .

وقد استولت الدول الاوروبية على هذه المساحات الشاسعة تارة بالحروب وطورا بالخيانة وعن طريق الحصول على تواقيع الرؤساء البسطاء الاميين على معاهدات بيضاء .

وتحت تأثير الاستعمار الغربي فرضت خريطة جديدة على القارة الافريقية عندما شرعت هذه الدول المستعمرة في خلق بلدان جديدة عن طريق رسم حدود اعتباطية بين المناطق ـ المختلفة ـ ولم تكن افريقيا من قرن في ظل الامراء المسلمين تعرف الحدود ـ واوجدت فيها الى جانب ذلك طبقة خاصة من النخبة التي تدور في فلكها وكان معظم هذه الطبقة من النصارى، وأصبح التعليم هو السلم الحقيقي للوصول الى مرتبة الزعامة وكانت الارساليات المسيحية تحتكر العلم والتعليم في جميع هذه الجيوب الاستعمارية تقريبا مما يفسر كون السياسة والاقتصاد في أيدى هذه النخبة المسيحية الجديدة . حتى في المناطق التي تقطنها أغلبية مسلمة .

" الاسلام والمسلمون في القرن التاسع عشر "

انتهى الاسلام في أوائل القرن التاسع عشر للميلاد الى نهاية جزره من القوة النفسية والقوة المادية لأنه تلقى من القرون الأربعة السابقة أثقالا من المتاعب والأواء لم تمتحن أمة من قبله بمثلها، وكان بعضها كافيا للقضاء على دولة الفراعنة والاكاسرة في الزمن القديم، وان هذا الميدان من ميادين المقارنة التاريخية لفارقا يبدو لنا في كثير من الصورتين عظمة الدين وعظمة السياسة، فان دول السياسة تذهب ولا تعود ولا يوجد بعدها من يحاول اعادتها، ولكن دولة الدين - أو على الأصح قوة الدين تبقى من وراء الأمم والحكومات كانها القوام الذى تتعاقب عليه بنية في أثر بنية .
وهو باق يتجدد ولا يتسلم للفناء ولا نعرف من المؤرخين من يستغرب مصاب الاسلام بعد ما تلقاه من الضربات منذ القرن العاشر الى القرن التاسع عشر للميلاد وانما الغريب عند هم هو تلك القوة المنيعة التي صابر بها الكوارث والشدائد زهاء تسعة قرون ولم يزل بعدها وحدة انسنبلنية هائلة تتخذ مكانها بين هيئات الامم، ولا تزال على أمل وثيق في المزيد. وتستطيع أن تتخيل تلك القوة المنيعة بنظرة سريعة نعرض فيها طائفة من الكوارث والشدائد التي صابرتها وصبرت عليها وهي محيطة بها من خارجها وناجمة من داخلها وبين ظهرانيها فقد مضت القرون الاربعة بين القرن الحادى عشر والقرن الخامس عشر في منازلة الجيوش الصليبية ولم تكد هذه الحروب تنتهي حتى خلفتها حروب " المسألة الشرقية " وهي التي وقفت فيها الدولة العثمانية - وكانت يومئذ دولة الخلافة تناهض غارة بعد غارة من غارات الاوربية التي تألبت عليها واطلقت عليها اسم " الرجل المريض " لانها كانت تتنازع ميراثه وهو بقيد الحياة، ولم تكد حروب المسألة الشرقية تنتهي بتنافس الورثة على بقية الميراث حتى اعقبتها حملات الشركات وأصحاب الديون ومعها حملات الاستعمار والتبشير .

وقبل الحروب الصليبية وبعدها كان العالم الاسلامي عرضة لاهوال الغارات من قبل آسيا الوسطى التي كانت ترسل الفوج من عشائر التتر والمغول بقيادة جنكيز خان وهولاكو وغازان وتيمورلنك واتباعهم من القادة والامراء وهم لا يفهمون معنى الغلبة الا أنها قدرة على الفتك والتدمير وان أعظم المنتصرين من يقاس انتصاره بعدد من قتل من المحاربين وغير المحاربين وعدد ماضرب من المدن والقرى في الطريق ومنهم من كان يظهر الاسلام ويغير على ممالكه لانها في زعمه تساس على خلاف الشريعة الاسلامية وفي خلال ذلك جميعه كانت الدولة الاسلامية تتسع وتمتد حتى ينقطع مابينها من الصلة ويتعذر على القائمين بها ان يجمعوها الى حكومة واحدة وكان اتساع الافاق بصحبة اختلاف المواقع واختلاف السكان واختلاف المصالح والاهواء فلا تلبث أن تتمزق ثم تتمادى على البغي والعدوان . ضربات لم تصمد لمثلها دولة من الدول الجامعة أو الدولة التي سميت بالامبراطوريات في الزمن القديم .

الحروب الصليبية وأثرها على العالم الاسلامي :

ولقد رأينا كثيرا من المؤرخين يوازنون بين اخطار هذه الضربات ويجعلون الحروب الصليبية في مقدمتها أو يجعلونها فاتحة الضربات يتلوها ماتعاقب بعدها من الاخطار أو الاخطاء، وهذه الحروب ولا نكران كانت من أعظم الاخطار التي امتحنت بها الأمم الاسلامية، ولكننا نعتقد أن الخطر فيها انما كان على نقيض المفهوم من هذا الخطر في عرف الجملة من مؤرخيها، لأنها في الواقع لم تنهك قوة الامم الاسلامية ولم تتركها مؤقتة بالهزيمة في نظر نفسها .

١ـ بل تركتها وقد اورثتها افراطا في الثقة برجحانها وافراطا في سوء الظن باعدائها، وقد كان هذا هو باب الخطر الجسيم الى عدة قرون .

٢- ومن آثار الحروب الصليبية التي لا تفوت أحدا من المؤرخين انها جاءت بالترك العثمانيين من أواسط آسيا الى أرض الروم ودفعتهم الى مقابلة الغارة بمثلها في صميم الديار الاوروبية .

٣- وانها ايقظت الشرق الاسلامي كله من تخوم الصين الى جوف الصحراء الكبرى في القارة الافريقية ، وان أحمق الحمقى من الصليبيين كان أنفعهم وأقدرهم على انكاء الحمية في نفوس الامراء والسلاطين وان منهم لمن شغله الملك فوق اشتغاله بالدين .

وقد كان وصف صلاح الدين بطل الحروب الصليبية غير مدافع في نظر الاوروبيين والشرقيين ولكن الصفة التي كانت غالبة عليه ولا شك هي صفة الحلم الراجح والاناة الهادئة وايثار الكسب بالسلم والمطاولة على الكسب بالعنف والهجوم .الا أن هذا الرجل الحليم الرصين ثارت ثائرته حتى الجنون حين سمع بعزم (ارنولد) صاحب الكرك على فتح الحجاز واعداده العدة في البر والبحر لاقتحام المدينة والمساس بالقبر الشريف.وسرى وعيد ارنولد في المشرق كله فنسى الخصوم خصومتهم والطامعون مطامعهم وأقسم صلاح الدين ليقتلن (ارنولد) بيده فكانت موقعة حطين التي تعد من وقائع التاريخ الحلية وظفر صلاح الدين بشرذمة من الملوك والامراء عفا عنهم جميعا الا (ارنولد) هذا فلم يقبل فيه شفاعة من أحد،وتناول سيفه وضرب عنقه بيده وهو يقول : برئت من شفاعة محمد ان قبلت في هذا الأحمق شفاعة شفيع.واستنكر الصليبيون أنفسهم حماقة (ارنولد) هذا لانهم ادركوا أنها استثارت من نفوس المسلمين كل قوة كامنة،واكسبتهم وقعة (حطين) بعد هزيمتهم في الوقائع التي سبقتها .

والأمة الاسلامية قد أنكرت على الاوروبيين الذين قدموا في جيوش الصليبيين ضروبا من الخشونة والجلافة حسبتها من البربرية التي تعافها وتشمئز منها.ورسخ في نفوسهم ان هؤلاء القوم ليسوا بالمسيحيين لأنهم لم

يعملوا بوصية واحدة من وصايا المسيح التي يحفظها المسلمون .

وكان أنكر ما استنكروه سماحهم بجلب النساء من بلادهم لمعاشرة الجند معاشرة الازواج بغير زواج .وكان أشد من ذلك نكراً أن يعظموا الصور والتماثيل عباد الاصنام للطواغيت والاوثان فلم ينظروا اليهم نظرة الاعين الى الاذنين وحسب بل وقرت في اخلادهم سخافة مايدعون من حق المطالبة بشيء قط باسم المسيح عليه السلام ،فهم في دعواهم مبطلون وهم غير أهل لتلك المطالبة لو كانوا صادقين .مثل هذا الشعور قد يحيك صدور الامم في أوقات كثيرة فلا يضرها بل يمدها في قوتها اذا خسرتها في ابان النمو والصعود ولكن الظروف التي تطورت اليها الحروب الصليبية لم تكن من هذه الاوقات بل صادفت على النقيض فترة ذات وجهين من قبل الشرق ومن قبل الغرب ،فكانت في الشرق فترة هبوط في النهضات العلمية وكانت في الغرب فترة صعود في النهضة العلمية الحديثة ،قامت بعدها أوروبا مقام القيادة على هذه النهضة ،وتخلف الشرق زمنا عن اللحاق بها ،وليس أخطر على الامم من الاكتفاء بالذات والاعتزاز بالرجحان في أمثال هذه الظروف .

تطور الظروف في اوروبا والعالم الاسلامي بعد الحروب الصليبية :

هبطت النهضات العلمية في الشرق بعد القرن الثاني عشر على أثر الغارات التي تعاورته في كل مكان وانصبت كوارث هذه الغارات خاصة على معاهد العلم والمكتبات فعصفت بالعشرات منها مابين بخارى وسمرقند ومرو وبغداد ودمشق وحمص وسائر المدن التي اشتهرت بمعاهدها ومكتباتها في الزمن القديم .ولايحصى عدد الكتب التي احترقت خلال غارات التتر والمغول وغارات الصليبيين بمئات الالوف ،وعدد المعاهد والمكتبات بالعشرات والمئات ،وانصرف الامراء وطلاب العلم عن العناية بالمدارس والمصنفات الى التأهب والاستعداد لدفع المغيرين ممن كانوا يتوقعون غاراتهم واحدة

تلو الأخرى بغير انقطاع وكثرت مطالب الحكام من المحكومين اضطرارا في أول الأمر ثم اختيارا واعتسافا مع تمادى الزمن حتى ساءت الصلة بين الحاكم ومحكوميه وتراخى الزمن على أثر الحروب الصليبية واستقرت الاحوال بعض الاستقرار فعاودت البلاد الاسلامية الوسطى شيئا من رخائهم على طريق التجارة الهندية ثم انقطع هذا الطريق واتجه الوراد الى غيره من الطرق حول القارة الافريقية فاجتمع سوء الحكم الى سوء الحال وشاعت الشبهة عن حق وعن باطل بين الرعاة والرعية .

"إعراض الشرق الاسلامي عن العلم والمعرفة"

وهذه هي الفترة التي كان ينبغي فيها للشرق الاسلامي أن يطلب المعرفة ويؤمن بضرورة العمل في التقدم أو يؤمن بمزايا العلم الحديث ولكنها كانت بحكم هذه الظروف جميعا هي الفترة التي اعرض فيها الشرق من كل حديث وهو يأتي على الخصوص من قبل القارة الاوروبية فتأخر عن ركب الحضارة العصرية زهاء قرن كامل لو أنه استفاد ناهضا ومجاريا للنهضة في مضارها لما قصر عن اللحاق بالسابقين .

سوء الظن بالمدارس العصرية :

وجاءت المدارس العصرية من جانبين كلاهما مظنة للتهمة وكلاهما موضع للحذر والاتقاء، جاءت المدارس العصرية على أيد الحكومات التي بلغ التنافر بينها وبين المحكومين حد العداء والاتهام بغير بحث ولا روية فكان الناس يحسبون التلميذ المطلوب للمدرسة كالعامل المطلوب للسخرة أو كالجندى الذى يساق الى المشقة والوبال في غير مصلحة ولا كرامة .

وجاءت المدارس العصرية أيضا على أيدى ارساليات التبشير التي صارحت الناس في ظل الامتيازات الاجنبية بفرضها من فتح المدارس وقبول التلاميذ بغير أجر في كثير من البلدان، فاحجم المسلمون عن تعليم أبنائهم في مدارسها وجاوزوا ذلك الى سوء الظن بالعلم نفسه وسوء الظن بينه المعلمين وايمان المتعلمين .

٤ـ وانقطع ما بين المسلمين وعلومهم الاولى فندر فيهم من كان يتعلم النافع منها كالفقه واللغة والادب والرياضة، وانقطع ما بينهم وبين العلوم العصرية فنظر الكثيرون منهم الى علوم الجغرافية والطبيعة والكيمياء كأنها الكفر البواح أو السحر المزيف، واتصل ما بينهم وبين الخرافة والجهالة بهذا الانقطاع بينهم وبين العلم الصحيح قديمه وحديثه، فاصطبغ فهمهم للدين بصبغة الجهل والتحريف وطلبوا الخلاص من غير بابه وتوسلوا للعمل فيه بغير أسبابه واتهموا الناصحين واسلموا قيادتهم للمدجلين والمحتالين .

في هذه الفترة كان الاسلام كما يفهمه الجهلاء ـ والجهلاء هم الاكثرون في سائر الامم ـ مزيجا من الخرافة والشعوذة ومن الطلاسم والاوهام ومن الوثنية وعبادة الموتى .

في هذه الفترة كان بعض المتعالين من ادعياء المعرفة يحكم بكفر القائلين بدوران الكرة الارضية ولا يتر في تكفير من يسميها بالكرة .

وفي هذه الفترة كان طلاب الفتوى من مشارق الارض ومغاربها يسألون عن الكبريت هل يجوز مسه وهل يجوز قدح النار منه وطبخ الطعام على تلك النار وفي هذه الفترة كان السائلون يسألون عن صناديق التوفير والادخار وعن معاملات التجارة من طريق المصارف والشركات ويحسبون ان اللياذ بالاضرحة والتوابيت وترتيل الاوراد والعزائم يغنيهم عن السعي والتدبير وعن الجهاد والاجتهاد وفي هذه الفترة على الاجمال كان المسلم يعيش في العالم كمن يعيش في خرابة مظلمة لا يدري من أين تسرى اليه عقاربها وحياتها ومتى تخرج عليه أشباحها وشياطينها وانقلب معنى الاسلام الى معنى المخافة والاتهام بعد أن كان أول معاني الاسلام الطمأنينة

ابى الخالق وخلقه وكان هذا الاسلام الذى صار اليه المسلمون مخافة لا سلم فيها ولا سلامة واتهاما لا تسليم فيه ولا مسالمة. قلنا: ان الافراط بالثقة بالنفس والاكتفاء بها كان فيما بعد الحرب الصليبية مضارعا للافراط في سوء الظن بالاعداء وتوهم الاستغناء عنهم والريبة بكل ما يأتي من قبلهم. وقلنا: انه اكتفاء بالذات وخيم المغبة في أمثال هذه الأحوال .

ونقول على الدوام: انه ما من شر يخلو من بعض الخير وما من ضرر مطلق ان كان معنى الضرر المطلق انه لا يقبل الترياق او لا يحتويه في كثير من الاحايين. هذه الفترة من الثقة العمياء لم تخل من فائدتها في المقاومة والامل في التبديل وفي عدل الله بين عباده، ولم تكد تبلغ أقصى مداها من الاشرار حتى جاءت بعدها نكبة الاستعمار بنقيض العبرة في دروس الحروب الصليبية لانها شككت المسلمين في كفايتهم واستغنائهم وشككهم في رجحانهم وغلبتهم وقام بين المسلمين من يقول لهم: ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وان الغربيين نجحوا وتقدموا لانهم أخذوا بالوصاية والاحكام التي كان المسلمون اولى بها لو عقلوا وصايا الدين واحكامه وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا .

نعم وفي اصطكاك الشرق الاسلامي مرتين بالقارة الاوروبية مصداق لهذه الآيات البينات انه سلم من الحروب الصليبية فاكتفى وقنع عما يحتاج اليه وانهزم في وجه الاستعمار فعرف حاجته وتقيا لنفسه واستقام على النهج الذى لا غنى له عن الاستقامة عليه وعادت به المأساة الى (العقيدة الشاملة) التي ميزته بين عقائد الاديان فهو في مدة اليوم بعيد منتصف القرن العشرين فان لم يبلغ من مدة اليوم ما يرجوه لقد ترك المرحلة التي انتهى فيها الى جزره في أوائل القرن التاسع عشر وما في ذلك من خلاف .

" العالم الاسلامي "

يمتد العالم الاسلامي في قلب العالم القديم ويغطي رقعة واسعة من قارتي آسيا وافريقيا في المناطق المعتدلة والمدارية وهو يشكل أكبر وحدة بشرية في العالم اذ يزيد عدد المسلمين على / ٦٠٠ / مليون نسمة – ويمتاز بقوة الروابط الروحية والفكرية والاجتماعية بين أبنائه كما يمتاز بفكرته الانسانية السامية، إنه يجمع في بوتقته عصارة الجهد البشري دون نظر الى جنس أو لون أو طبقة أو لغة. ويلتقي فيه العربي والعجمي والأبيض والأحمر والأسود على كلمة التقوى ومصلحة الجماعة . كما أن العالم الاسلامي يمتاز بأهميته الاقتصادية بما حباه الله من ثروات مادية عظيمة ففي مجال الصناعة يملك العالم الاسلامي نسبة كبيرة من المواد الاولية فهو يحتل الدرجة الأولى في انتاج البترول في العالم وفي الاحتياطي منه، وأهم آباره في السعودية والكويت وقطر وامارات الخليج والعراق وايران واذربيجان وداغستان وفي ليبيا والجزائر واندونسيا .

ويحتل الدرجة الاولى كذلك في انتاج القصدير الذي يستخرج من نيجيريا وماليزيا واندونسيا بكميات ضخمة. كما يحتل الدرجة الأولى في انتاج الفوسفات واكثرها في مراكش ثم في الجزائر وتونس، وفي العالم الاسلامي كذلك كميات كبيرة من النحاس والرصاص والمنغنيز في تركستان ثم المغرب ، كما أن فيه الذهب والفضة في السعودية وتركستان .

واذا أضفنا الى ذلك قيمة العالم الاسلامي الاستهلاكية عرفنا أهميته الاقتصادية التي دفعت الدول الصناعية المنتجة الى الاقتتال عليه وجعله مناطق نفوذ لها .

أما الزراعة في العالم الاسلامي فلا تزال أهم الموارد، وأهم المنتجات الزراعية القطن في مصر والسودان وسورية والعراق وتركستان واذربيجان، والمطاط في اندونسيا، وانواع الفواكه في لبنان وفلسطين والمغرب وفي كشمير

وتركستان ,والتمور في العراق ,ثم الحبوب في أكثر أجزاء العالم الاسلامي وكذلك فقد احتلت بلاد المسلمين منذ القديم مركزا تجاريا هاما بسبب موقعها الجغرافي في قلب العالم القديم وما تمتعت به من أمن وحيوية ابان الحكم الاسلامي المديد . ولما عرف به التجار المسلمون من أمانة وصدق فكانت قوافلهم تحمل البضائع من أقصى البلاد الى أقصاها ,ولم يكن للتجارة طريق الا في بلاد المسلمين اذ اكان المحيط الهندى وبحر العرب والبحر المتوسط والاحمر بحارا اسلامية كما كان بيدهم طريق الهند البرى عبر ممر خيبر الى خراسان والعراق والشام ومصر وبلاد المغرب ,وقد كان للتجار المسلمين فضل كبير في حمل الاسلام الى أقطار نائية لم تصلها جيوش الفتح فكانوا جنود الحق ورسل الخير .

" قارة آسيا "

آسيا أكبر قارات العالم وتبلغ مساحتها حوالى (٤١٥٠٠٠٠٠) كيلو متر مربع . . . وهي مشهورة بهضابها العظيمة وسهولها الخصيبة وأنهارها الغزيرة وأهم حاصلاتها الزراعية الرز هو غذاء السواد الاعظم من سكانها ثم القمح والدخن والقنب والكتان والشاى والفواكه وشجر جوز الهند. وتشتهر بحيواناتها ذات الفراء والحيوانات السائمة ,وآسيا غنية بالمعادن كالذهب والفضة والبلاتين والحديد والرصاص والنحاس والبترول. وآسيا مهد الشعوب القديمة ومرتع حضارتها ,وفيها ظهرت الديانات السماوية الكبرى المنتشرة في العالم اليوم ,ويقدر عدد سكان آسيا بـ / ١٣٠٠ / مليون نسمة. ويجتمع فيها اكثر الديانات المعروفة اليوم ,ويبلغ عدد المسلمين فيها حوالي (٤٧٠) مليون نسمة وهم يشكلون الاغلبية في أكثر من (٢٠) دولة آسيوية .

وسنتحدث بشيء من التفصيل عن أهم الاقطار الاسلامية في هذه القارة الاسيوية ,ونبدأ بلمحة عامة عن البلاد العربية .

خرج المسلمون من جزيرة العرب في القرن الاول الهجرى يرفعون راية الاسلام في أطراف الارض ودخل الناس في دين الله افواجا وانتشر الدين الاسلامي وانتشرت معه اللغة العربية لغة القرآن الكريم والحديث الشريف ولم تعد العربية محصورة في جزيرة العرب وأطراف الشام والعراق وانما امتدت في أقطار واسعة من آسيا وافريقية فكانت لغة البلاد الاسلامية الممتدة من الهند والصين وبخارى الى صقلية والمغرب والاندلس ثم وقف المد الاسلامي وضعفت العربية بضعفه فانحسرت عن كثير من الاقطار ولم يبق لها الا مايسمى اليوم بالبلاد العربية.

تقدر مساحة هذه البلاد العربية بـ / ١٢ / مليون كم٢ منها (٣٫٥) مليون في جنوب غربي آسيا و (٨٫٥) مليون في شمال افريقيا.

ويبلغ عدد سكانها (١٠٠) مليون يدين ٩٦ ٪ منهم بالاسلام والباقون من النصارى واليهود. نعمت البلاد العربية بنور الاسلام منذ الأيام الاولى فقد دخلت جزيرة العرب في الاسلام في حياة النبي صلى الله عليه وسلم وكان عليه الصلاة والسلام قد جهز قبيل وفاته جيشا لقتال الروم " وعقد الراية لاسامة بن زيد رضي الله عنه فحين تولى أبو بكر رضي الله عنه الخلافة لم يرض أن يحل الراية التي عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تشغله حروب الردة عن فتوح الشام ومضت جند الله تنطلق من الحجاز وحتى تم لها فتح الشام والعراق ومصر أيام عمر رضي الله عنه . أما الشمال الافريقي فقد انضم الى الدولة الاسلامية أيام الامويين وهكذا لم يمض القرن الاول حتى كانت البلاد العربية بلادا اسلامية تنطلق منها كتائب الفتح لتحمل نور الاسلام الى أرجاء الارض وظلت البلاد العربية قرونا عديدة تحت حكم الخلفاء وحكم الخلفاء حتى تعرض العالم الاسلامي لموجة الضعف فتوزعته الأيدى الطامعة.

ولما حل القرن العاشر الهجرى كانت زعامة العالم الاسلامي بيد

ثلاث دول هي دولة المماليك في مصر والشام والحجاز واليمن ودولة الاتراك العثمانيين في آسيا الصغرى ودولة الصفويين في ايران والعراق. وكان التنافس والنزاع بين هذه القوى الثلاث شديدا ثم تغير الميزان الدولي ولم ينقض هذا القرن العاشر حتى كانت الخلافة العثمانية تبسط نفوذها على معظم البلاد العربية .

فقد انتقلت الشام ومصر والحجاز الى حكم العثمانيين عندما هزم السلطان سليم جيش المماليك قرب حلب عام ٩٢٢ هـ ثم هزمهم عند القاهرة عام ٩٢٣ هـ وقضى على دولتهم وعندها أعلن حاكم الحجاز ولاءه للسلطان فقبل السلطان ولاءه وثبته في امارته ،اما اليمن التي كانت للأئمة الزيديين فقد كان العثمانيون ينجحون أحيانا في الاستيلاء على الموانيء فيها وعلى صنعاء وينهزمون أحيانا أخرى أمام هجمات الزيديين وأما العراق فقد استطاع السلطان سليمان سنة ٩٤١ هـ اخذه من الدولة الصفوية الشيعية وجعله ولاية عثمانية ولكن الصفويين عادوا فاستردوه حتى جاء مراد الرابع فاعاده الى جسم الدولة العثمانية.

كما احتل السلطان سليمان ميناء عدن ومسقط وعمان ثم احتل الاحساء والقطيف والكويت والبحرين ولكن السيادة الفعلية كانت للأمراء وشيوخ القبائل

وأما الشمال الافريقي فقد حكمته دولة الموحدين حتى سقطت سنة ٦٦٠ هجرى فقامت بعدها دويلات صغيرة لم تصمد لاطماع الاوروبيين الذين احتلوا الثغور فقد احتلت البرتغال ثغور المغرب كما احتل الاسبان ثغور طرابلس وتونس والجزائر في مطلع القرن العاشر فاستصرخ المسلمون العثمانيين فدخلوها وضموها الى بلادهم وحموها من الاوربيين ثم قامت فيها أسر حاكمة من أهلها حكمتها في ظل العثمانيين حتى غلب عليها الاوربيون من جديد واستعمروها وفي هذا القرن الأخير مرت على البلاد العربية احداث جسيمة متوالية كان لها أثر بالغ في كيانها واوضاعها الاجتماعية والسياسية .

" المد الاسلامي في آسيا وافريقيا "

* تمهيد :

ان العالم الاسلامي الحديث بأشكاله السياسية المختلفة وبأحواله المعيشية والفكرية والحضارية جاء نتيجة للظروف التي مر بها هذا العالم والعوامل التي تعاقبت عليه منذ اصطدامه مع العالم الاوروبي ابان الحروب الصليبية وما اصابه بعد ذلك من أسباب العناء والركود الى أن اصطدم مع هذا العالم مرة أخرى في حروب الاستعمار الحديث ، وما أصابه فيهما هذه المرة من (تحدى) الحضارة الاوربية والفكر الاوربي الحديث ثم ماوقع فيه بعد ذلك من (ردود الفعل) المختلفة تجاه هذه الحضارة الغنية التي استطاعت أن تترك على سطحه وفي أعماقه رواسب مختلفة لم يكن عالمنا هذا بعيدا عنها وهو يحاول تحديد موقفه من هذه الحضارة يضاف الى ذلك ان من أبعد الامور أثرا فيما آل اليه أمر العالم الاسلامي الحديث: الأحوال التي تقلبت فيها الدولة العثمانية خلال خمسة قرون . كانت في بعضها كفوا للدول الاوربية مجتمعات . وكانت في بعضها الآخر (الرجل المريض) كما اطلقوا عليها، الذى يحاول (الورثة) ان يقتسموا ميراثه وهو بقيد الحياة. هذا الى جانب التوسع الاقليمي وسعة الانتشار الذى أصابه الاسلام في آسيا وافريقيا في جميع عهد هذه الدولة . وفي بعض عهود الاستعمار أيضا وبخاصة في افريقيا . نظرا لنشاط الدعاة ورجال الطرق ردا على التحدى العنيف الذى أصيب به الاسلام والحضارة الاسلامية وحيث كانت الفرصة مهيأة لان يقارن أدنى رجل افريقي بين حضارة الاسلام وحضارة الرجل الأبيض ؟ ؟ وان شئت قلت : رسالة الرجل الأبيض، وأخيرا ففي الوقت الذى لا ننسى الدور البعيد الأثر الذى قامت به الارساليات والبعثات التبشيرية في التخطيط لعالمنا الاسلامي المعاصر بدليل ما نراه الآن في بعض الدول الافريقية التي يدين أهلها بالاسلام

وكيف أنها تدار بسياسة التبشير او تحكم من قبل بعض المتنصرة فـــان حديثنا في الدرس القادم عن الزحف الاستعماري على العالم الاسلامي سوف يشمل بالطبع الحديث عن هذه الارساليات لان التبشير والاستعمار (كماسنرى) صورتان لحقيقة واحدة وتلازما وتعاونا كأشد مايكون التعاون والتلازم كما مهد كل منهما للآخر ومكن له واذا حصل في كثيرمن الأحيان أن المبشر كان يقوم بدور المكتشف الذى سار على أثره المستعمر فـــان الاستعمار في الحقيقة اوجد (المناخ) المناسب الذى يستطيع فيـــــه التبشير أن يؤدى رسالته على (أحسن) وجه بما أمد بعثاته من دعم ومـــا أعطاها من الحماية وحرية العمل وبما أفسد بين يديها من خلق وسـخر من أقلام مستشرقين وباحثين ...... وبما رفع من اقليـات وتبـع مـن سياسات .

وقبل أن نبدأ الحديث عن هذا الزحف الاستعمارى على العالــم الاسلامي بوصفه السبب المباشر الذى أثر في العالم الاسلامي الحديث ، وكيف صمد العالم الاسلامي لهذا الغزو الى أن تطورت الاوضاع الى ماهي عليه الآن .... لا بد قبل ذلك من الحديث عن أغلبية الاسلام وعوامل انتشاره في آسيا وافريقيا .

انتشار الاسلام في آسيا وافريقيا :

ارتكز المد الاسلامي في العالم كما هو معلوم في مواضعه على مبــدأ نشر الاسلام وتحرير الشعوب من الجاهليات ولقد بلغ هذا المد الموجـه في عصر الفتوحات الاولى يوم قضى المسلمـون على الدولة الفارسـية ويوم نازلوا دولة الرومان الشرقية فحرروا بلاد الشام وشمال افريقيا وعبروا البحر الى الاندلس لقد هزمت أمام هذا المد الجديد الدولتــــان الكبيرتان اللتان كانتا تتقاسمان العالم المعمور في ذلك الحين دولــة الاكاسرة في المشرق ودولة القياصرة في المغرب وكانت هذه الهزيمـــة

يومئذ من أعجب العجب في تواريخ الدول لانها تمت في بضع سنوات ولأنها جاءت من مكان لا يحسب له في نظرهما أى حساب ؟ جاءت من صحراء جزيرة العرب التي كانت هاتان الدولتان تحفلان بما يجرى حولها ولا تكترثان لما يجرى في داخلها وقد امتد سلطان كل منهما الى الجانب الذى يليه فاتخذت فيه اتباعا يطيعونها ويحتمون بها ويلوذون بجوارها فارس تسيطر على الحيرة واليمن وبيزنطة تسيطر على أرض غسان والبتراء وتهم ان تنصب لها أميرا على الحجاز يدين لها بالولاء ويحرس لها طريق الشام من أوله في الجزيرة العربية .

ولهذا لما جاء الى كسرى رسول من قبل هذه الجزيرة وسأل عن شأنه فقيل له: انه يحمل رسالة من نبي ظهر في العرب يدعوه الى دينه ؟ ضحك غاضبا أو غضب ضاحكا وأمر من يذهب الى ذلك النبي الجسور فيأتيه به حيا أو ميتا ليلقى جزاءه على الجسارة التي اجترأ بها على الشاهنشاه ملك الملوك ولما تسمع القوم في الجزيرة العربية ان ذلك النبي يهم أن يحارب القيصر في عقر داره سخروا وقالوا عساه يحسبها غزوة من غزوات البادية . ولكن القوة التي انطلقت لتوقع الهزيمة بالدولتين معا جاءت من حيث لا تتوقعان جاءت من وراء الرمال وان شئت قلت : جاءت من وراء الغيب .

غلب المسلمون في هذه المدة وانساحت العقيدة الاسلامية تهزم امامها عقائد موروثات وقيل في تفسير هذا الغلب ماقيل وظن من ظن ان الاسلام انتشر في العالم بقوة السيف ونسي أولا ان التمكن الذى أصابه الاسلام في نفوس معتنقيه والذى ساعده على ذلك الغلب .

وكان السيف في قلب هؤلاء المعتنقين لا في أيديهم يوم كانوا مضطهدين مطاردين في مكة ونسي معه ان الله تعالى يقول : (لا اكراه في الدين) .

— ثم نسي ثانيا — وهذا مايجب تأكيده وفهمه حق الفهم — ان الانتشار .

الا وسع للاسلام في العالم قد تم بعيدا عن الحروب والسياسات بل تم في حال تدهور المسلمين السياسي والاجتماعي ولا بد من التأكيد على هذه النقطة كما أشرت لفهم حركة التحول الى الاسلام في آسيا وافريقيا حتى في عصور الاستعمار والاحتلال .

يدل على هذا أن البلاد التي قلت فيها حروب الاسلام وانعدمت هي البلاد التي يقيم فيها اليوم أكثر مسلمي العالم وهي بلاد اندونيسيا والهند والصين وساحل القارة الافريقية ومايليها من سهول الصحارى الواسعة فان عدد المسلمين فيها قريب من أربعمائة مليون ولم يقع فيها من الحروب بين المسلمين وأبناء تلك البلاد الا القليل الذى لا يجدى في تحويل الآلاف عن دينهم ، بل الملايين .

يقول سير توماس آرنولد في كتابه القيم : (الدعوة الى الاسلام) :
(ولم يكن النشاط الروحي للاسلام كما زعم عدد كبير من الناس متمشيا مع سلطانه السياسي بل على العكس من ذلك : نجد أن فقدان السلطة السياسية والانتعاش المادى يعمل على ابراز أجمل الصفات الروحية التي تعد أصدق البواعث التي تحفز على القيام بأعمال الدعوة .

هذا ماقاله آرنولد وهو يعلل نجاح الدعاة المسلمين في افريقيا وآسيا وفي حمل الشعوب والقبائل على الدخول في الاسلام في القرن التاسع عشر والقرون السابقة ؟ اى في عصور ضعف المسلمين السياسي وتفرقهم وعصور الاستعمار الذى اطبق على العالم الاسلامي من أقصاه الى أقصاه ولا بد من البحث عن السبب الحقيقي في غلبة الاسلام وقوة انتشاره وهذا السبب يكمن في العقيدة الاسلامية ذاتها . أى أن السبب الاهم في انتشار الاسلام هو سبب ذاتي يعود الى الاسلام نفسه وقد يضاف الى هذا السبب عوامل أخرى طارئة أو مساعدة أو ظروف خاصة لانتشاره في مكان فوق مكان آخر ولكن يبقى السبب الذاتي السابق هو العامل الاول والاهم في حركة غلبة الاسلام

* السبب الذاتي لانتشار الاسلام :

ان قوة العقيدة الاسلامية وغلبتها لسائر العقائد والاديان تكمن هنا في نقطتين هما البساطة والشمول .

١ـ بساطة العقيدة الاسلامية :

تتمثل هذه البساطة في مبدأ الوحدانية الذي يعتبر جوهر الفكر الاسلامي والحضارة الاسلامية والحديث عن ان الاسلام (دين الفطرة) لانه دين الوحدانية بأصفى معانيها وأجلى صورها حديث معروف ولكن بساطة هذا الدين ووضوحه يتمثل ـ بدوره أيضا ـ في قدرة أى داعية من الدعاة مهما كانت درجة ثقافته على حمله والدعوة اليه . بل يتمثل في ايمان الناس بهوهم يرون مسلما صحيح الاسلام يقوم بفروض هذا الدين وما يوجبه عليه من الاخلاق والمعاملات يقول آرنولد في كتابه المشار اليه آنفا (ان هذه العقيدة البسيطة لا تتطلب تجربة كبيرة للايمان ولا تثير في العادة مصاعب عقلية خاصة . . . ولما كانت خالية من المخارج والحيل النظرية اللاهوتية كان من الممكن أن يشرحها أى فرد حتى أقل الناس خبرة بالعبارات الدينية النظرية) ويقول أيضا عن أثر التجار في نشر الاسلام : (واذا مادخل مثل هذا الرجل قرية وثنية فسرعان مايلفت الانظار بكثرة وضوئه وانتظام أوقات الصلاة والعبادة التي يبدو فيها كما لو كان يخاطب كائنا خفيا . وان مايتحلى به من سمو عقلي وخلقي ليفرض احترامه والثقة به على الاهالي الذين تستميلهم هذه الصفات الحميدة والذين يجدون عنده الاستعداد والرغبة في أن يمدهم بمزايا هذا الدين الذى يتعبد هو على وفق أحكامه . ويقول آرنولد أيضا : فاذا استطاع رينان أن يقول مادخلت مسجدا قط دون أن تهزني عاطفة حادة أوبعبارة أخرى دون أن يصيبني أسف محقق على أنني لم أكن مسلما كان من اليسير أن ندرك كيف أن منظر التاجر المسلم في صلاته وسجداته الكثيرة وعبادته

للاله الذى لا يراه في سكينة واستغراق قد يوءثر في الافريقي الوثني .

ان التاجر هنا لم يقم بأكثر من اعطاء صورة عملية لوضوح هذه العقيدة التي يعتنقها وبساطتها تاركا لهذه العقيدة نفسها أن تؤدى دورها في واجب الايمان بها والدعوة اليها .

فاذا ذكرنا ان الاسلام ليس فيه هيئة دينية خاصة تكون على درجة معينة من الثقافة الدينية يناط بها أمر الدعوة الى الدين والتبشير به كما هي الحال في النصرانية مثلا ونظرنا الى واقع انتشار الاسلام في آسيا وافريقيا وغلبته في هذا المضمار على جهود المبشرين الضخمة التي تمولها وتدعمها أغلب الدول الاوربية بين يدى الاستعمار أو تثبيتا لأركانه . ادركنا سر العقيدة الاسلامية ذاتها في هذا التوسع والانتشار . يقول القسيس جون تكل عن انتشار الاسلام في الاقاليم الهندية ـ وكان ذلك في سنة ١٩١١ ـ ان الاسلام آخذ في الازدياد وان تكن المجهودات التي تبذل في سبيل انتشاره تكاد تكون في حكم العدم ويقول القسيس زويمر في العام نفسه في مؤتمر التبشير المشهور الذى عقد في لكنو في الهند (ولا تخلو بلدة في آسيا وافريقيا من سكان مسلمين وقد يكون المسلمين أقل من غيرهم في بعض هذه البلاد الا أن هذه الاقلية في نمو مستمر وفي بلاد التبت المقفلة أبوابها في وجوه الاجانب عشرون ألف مسلم والاسلام منتشر في الكونغو وبلاد الكاب وهو في نمو مستمر في بلاد الحبشة والمبشرون المنتشرون على ضفتي النيل وشرقي افريقيا وبلاد النيجر والكونغو يرفعون أصواتهم بالشكوى من انتشار الاسلام بسرعة في هذه الانحاء ثم يقول وبالرغم من انتشا في الهند الهولندية قد لقي موانع من مجهودات جمعيات التبشير الهولندية والالمانية فهو يتوطد ويثبت ففي صومطره اكتسح الاسلام الارجاء الوثنية وفي جاوه ظهر بمظهر جديد على أثر تأسيس المدرسة الجامعة الاسلامية .

وما زال الوطنيون سكان البلاد الاصليون ـ يدخلون في شبكة الاسلام الى درجة يتعذر فيها على المبشرين المسيحيين أن يلقوا لأعمالهم رواجا .

وهذا يفسر الموقف الذى اتخذته كثير من هيئات التبشير المسيحية حيث أخذت على عاتقها إبعاد الناس عن الاسلام حين لم تنجح في حملهم على الدخول في النصرانية .

ب ـ الشمول في هذه العقيدة :

أما هذه النقطة ـ او الميزة ـ فقد حقق بها الاسلام الصفة الكبرى للعقيدة الدينية على أتم شروطها .فكان بذلك العقيدة المثلى (للانسان) لانها خاطبت فيه جميع ملكاته ومشاعره الواعية خاطبت فيه العقل والروح والضمير جميعا ،كما أنها لم توزعه في الدنيا والآخرة وفرضت عليه أن يستقبل الاولى وهو يولى ظهره للأخرى أو وزعته بين الروح والجسد أو فرقت بين ماالله ومالقيصر ؟؟ لقد خاطبت الانسان على أنه (كل) شامل فاراحته من فصام العقائد التي تشطر السريرة شطرين ثم تعيا بالجميع بين الشطرين على وفاق ـ كما يقول الاستاذ العقاد رحمه الله وينبغي ألاّ نغفل هنا عن أثر التبعية الغربية وانكار وجود خطيئة موروثه في هذا الشمول النفسي والقضاء على الفصام السابق .

ان العقيدة الشاملة لا يتجلى شأنها العظيم في شيء كما يتجلى واضحا قويا في عمل الفرد في نشر العقيدة الاسلامية (فقد أسلم عشرات الملايين في الصحارى الافريقية وفي الارخبيل الاندونسي على يدى تاجر فرد أو صاحب طريقة متفرد في خلوته لا يعتصم بسلطان هيكل ولا بمراسم كهانة وتصنع هنا قدرة الفرد الواحد مالم تصنعه جموع التبشير ولا صطوة الفتح والغلبة ،يؤكد ذلك ان هذا الشمول ليس من البعد والعمق بحيث يحتاج ادراكه الى دراسة وتمحيص ،بل يدركه الناظر القريب في أحوال المسلم في معيشته و عبادته ويكفي أن يرى المسلم في أية بقعة من الأرض مستقلا بعبادته عن الهيكل.

والصنم والا يقرنه والوثن ليعلم الناظر اليه أنه وحدة كاملة في دينه وليعلم من ثم كل مايرغبه في ذلك الدين وهو يرى الدين كله حكرا للكاهن ووقفا على المعبد وعالة على الشعائر والمراسم .

فاذا أضفنا الى ذلك ان العقيدة الاسلامية توصف بالشمول لأنها تشمل الأمم الانسانية جميعا كما تشمل النفس الانسانية بجملتها من عقل وروح وضمير — لان الاسلام ليس دين أمة واحدة ولا دين طبقة واحدة وليس هو للسادة المسلطين دون الضعفاء المسخرين ولا هو للضعفاء دون السادة ولكنه رسالة بني الانسان من كل جنس وقبيل وقفنا على سبب آخر من أسباب غلبة هذه العقيدة أو بعبارة أدق اتضح لنا جانب آخر من جوانب هذا الشمول الذى ساعد على الغلبة والانتشار وأخيرا فان هذه العقيدة الشاملة (هي التي افردت الاسلام بمزية لم تعهد في دين آخر من الاديان الكتابية فان تاريخ التحول الى هذه الاديان لم يسجل لنا قط تحولا اليها من دين كتابي آخر اذ كان المتحولون الى المسيحية أو الى اليهودية قبلها في أول نشأتها اما وثنية على الفطرة لا تدين بكتاب ولم تعرف قبل ذلك عقيدة التوحيد أو الاله الخالق المحيط بكل شيء ولم يحدث قط في أمة من الأمم ذات الحضارات العريقة انها تركت عقيدتها لتتحول الى دين كتابي غير الاسلام انما تفرد الاسلام بهذه المزية دون سائر العقائد الكتابية فتحولت اليه الشعوب فيما بين النهرين وفي أرض الهلال الخصيب وفي مصر وفارس وهي أمة عريقة في الحضارة كانت قبل التحول الى الاسلام تؤمن بكتابها القديم وتحول اليه اناس من أهل الاندلس وصقلية كما تحول اليه اناس من أهل النوبة الذين غيروا على المسيحية أكثر من مائتي سنة ورغبتهم (جميعا فيه : ذلك الشمول الذى يجمع النفس والضمير ويعم بني الانسان على تعداد الاقوام والاوطان ويحقق المقصد الاكبر من العقيدة الدينية فيما امتازت به من عقائد الاخلاق وآداب الاجتماع) .

* **الأسباب الأخرى لانتشار الاسلام :**

وينبغي ألا نهمل بعد ذلك الاسباب الأخرى الخارجية والداخلية التي ساعدت على انتشار الاسلام في العالم وبخاصة في افريقيا وآسيا ــ المجال الطبيعي القريب من مركز الدعوة الاسلامية ــ كالمساواة العملية الرائعة وفقدان روح السيطرة والاستعمار وحماسة المؤمنين الجدد في التبشيرية والدعوة اليه ...... الخ هذه الأسباب ولكنها في الواقع لا تعدو بأن تكون نهاية المطاف أثرا من آثار العقيدة الشاملة التي تحدثنا عنها آنفا . والأمر الذي يمكن اضافته الى ماقدمناه هو الحديث عن (وسائل) وصول هذه الدعوة الى الناس وهنا تعمل (القدوة الحسنة) عملها في الاقناع وأفضل ماتكون هذه القدوة حين تترجم للعقيدة السابقة بدقة واخلاص فعل كثير من الدعاة والتجار ورجال الطرق الصوفية . ويمكن القول ــ على سبيل المثال ــ ان التجانية نجحوا في نشر الدعوة الاسلامية منذ مستهل القرن التاسع عشر في بعض أجزاء آسيا وفي السودان . وفي افريقيا الفرنسية (سابقا) وبين البدو والمقيمين في أقصى جنوبي المغرب الأقصى ... وان السنوسية التي أنشأها الفقيه الجزائرى سيدى محمد ابن علي السنوسي في سنة ١٨٣٧ متأثرا بالدعوة الوهابية كانت من أقوى الفرق الصوفية أثرا في افريقيا خاصة كما كان لهم أثر بارز في آسيا أيضا كان مركز السنوسية واحة جغبوب في الصحراء الليبية بين مصر وطرابلس وفي هذه القرية كان يتعلم كل عام ــ في نظام دقيق ديني وعسكرى ــ مئات من الدعاة ثم يرسلون الى كافة أجزاء افريقيا الشمالية وفي أرجاء السودان والحبشة وسنغامبيا والصومال كافة وفي بلاد العرب والعراق ــ وفي ارخبيل الملايو في آسيا .

* **الزحف الاستعمارى على العالم الاسلامي :**

لا حاجة بنا الى الحديث عن ضعف الدولة العثمانية وعن طمع

الدول الاوربية مجتمعة في ميراثها وهي على قيد الحياة وعن الغـــز و الاستعمارى للوطن العربي منذ القرن التاسع عشر .

ولما كانت الدولة العثمانية ممثلة الخلافة الاسلامية والحكم الاسلامي منذ أن تولى العثمانيون قيادة العالم الاسلامي فان انقضاض الدول الأوربية على (أملاك الرجل المريض) وانتزاعها بالقوة يحمل في طياته معنـــى محاولة القضاء على الاسلام والانتصاف من المسلمين واذا لم يكن في وسعنا أن نسلسل الاحداث التي عصفت بالعالم الاسلامي منذ الحروب الصليبية الى أن تولى العثمانيون قيادة العالم الاسلامي ــ لأنها معلومة مـــن مواضعها في كتب التاريخ ــ وان نتحدث عن الدور المجيد الذى قام به العثمانيون في عهود دولتهم الأولى والذى ردوا فيه الكرة على أوروبا حتى طرقوا أبواب (فيينـــا) حاضرة البلاد الاوروبية في ذلك الحين ــ مرتين ــ فان مما تجدر الاشارة اليه والحديث عنه هو اعطاء تفسير علمي لذلك الغزو الاستعمارى الحديث للعالم الاسلامي على ضوء هذه الاحداث وذلك قبل أن نتحدث عن ألوان هذا الاستعمار في كل من افريقيا وآسيا والذى يفسر هذا الغزو أمران : الأمر الأول : انه حلقة من حلقات الصراع بين الحضارة الاسلامية والحضارة الرومانية وقد كانت الحروب الصليبية الأولى التـــي ابتدأت في أواخر القرن الخامس الهجرى الحادى عشر الميلادى ــ حلقة أخرى من حلقات هذا الصراع الذى كان في هاتين المرتين صراعا عسكريـــا شاملا وبعيد المدى ولقد فشلت الحروب الصليبية في القضاء على الاســلام وأهله أو في تحويل المغول الى المسيحية دفعة واحدة ــ حتى تبقـــى الأماكن المقدسة في قبضة المسيحية على أقل تقدير ــ ولكن آثارها المباشرة استمرت في عهد السياحات البحرية والـــى عهد استكشاف كولومب ــ كمـــا يؤكـــد المؤرخون .

ويعود السبب في ذلك الى أن أوروبا جعلت همها بعد فشل هذه

الحروب في كسب المعركة القادمة عن طريق التبشير فوسعت من نطـــاق ارسالياتها التبشيرية منذ سقوط/معقل آخر للصليبيين في بلاد الشام عام واحد وتسعين ومائتين وألف ميلادية حتى القرن الخامس عشرعهد الكشوف الذى ركبت فيه البرتغال مغامرة مخفية لا في سبيل حماية المبشرين وتأمين سبل العمل لهم وان كانت لهم ذلك بل في سبيل الوقوف في/وجه المد الاســلامــي الجديد هذه المرة يقول ارنست باركر (فلما اتصلت الارساليات بالحروب الصليبية اتسعت غايتها حتى تعدت الحدود التي كانت قد رسمت لها . وظهر أمثال رايمند لل الذى كان ينادى بوجوب استبدال الحملة الصليبية ببعثة تبشيرية وان يقوم التبشير السلمي مقام الحملة الحربية وبهذا أصبـح تحويل آسيا الى المسيحية فرضا قائما بنفسه .

ويقول ادوين بلس في كتابه (ملخص تاريخ التبشير) ان ريمـون رول الاسباني هو أول من تولى التبشير بعد أن فشلت الحروب الصليبية فـــي مهمتها) وخرجت ارساليات كثيرة على نحو (شاهد على التركيز الوطيـــد) كما يقول باركر الا أن كل ذلك لم يجد نفعا فقد منيت كل هذه المحاولات أخيرا بالفشل .

يقول باركر : (وهكذا نرى أن ذلك المشروع الذى كان يرمي الى تحويل المغول الى المسيحية دفعة واحدة فيوجد آسيا المسيحية واوروبا المسيحية حتى يطبقا على الاسلام فلا يصبح الا عقيدة كليلة الانتشار لا وجود لها الا في جزء من اسبانيا وركن من بحر الروم فقد تضاءل واختفى) وذلك بعد أن عم الاسلام وسط آسيا في منتصف القرن الرابع عشر وبعد أن اقفلت أبواب الصين في وجه الأجانب سنة ١٣٧٠ (فكانت الخاتمة ان قطع السبيل على المسيحية ومهد الطريق للاسلام الذى بلغ شأوا بعيدا من الاتســاع وترامت أطرافه بفضل الاتراك العثمانيين) وامام هذه الهزيمة التي منيــت بها حركة التبشير كان لا بد من توجيه ضربة سريعة الى العالم الاسلامي

قبل أن يستفحل الخطر والواقع ان (بارقا آخر لمع في خيال الغرب) كما يقول باركر (وكان هذا الأمل الجديد أمينا أن يشعل ثورة من أعنف ثورات التاريخ ذلك ان الطريق الارضي وقد قفل فلماذا لا تسلك المسيحية سبيل البحر لماذا لا تبحر الى الشرق فتهاجم الاسلام وتستولي على القسطنطينية من الخلف .

(تلك كانت فكرة كبار المسيحيين الذين كانوا يحملون الصليب فوق صدورهم والذين كانوا يعتقدون مخلصين انهم بعملهم هذا يجاهدون لاستعادة الأراضي المقدسة).

ثم يقول باركر (واذا كان قد قدر لكولومب أن يجد جزائر الكاريبيه في طريقه بدلا من كاثاى فاننا نستطيع أن نقول بحق : ان الاسبان الذين عاونوه قد كسبوا قارة جديدة للمسيحية ، وان الغرب استطاع أن يعيد رجحان الميزان لصالحه بسبيل لم تكن تخطر على بال) .

ونضيف هنا ايضاحا لمقالة المؤرخ الدكتور باركر هذه ان فتح القسطنطينية والقضاء على الدولة الرومانية العتيقة ــ التي ناصبت المسلمين العداء منذ القرن السابع للميلاد ــ قد تم على أيدى الأتراك العثمانيون في أواسط القرن الخامس عشر (سنة ١٤٥٣) وان سقوط غرناطة آخر معاقل الاسلام في اسبانيا قد تم سنة ١٤٩٢ في أواخر هذا القرن حين اجتمع على حربها الملك فرناند والملكة ايزابيلا حاكما أكبر الامارات الاسبانية (ارجوان وقشتاله) لقد كان رد الفعل الاوروبي الصليبي قويا وحاسما وفي الوقت الذى اعتذر فيه ملوك اوروبا وامراؤها عن تقديم المعاونة لكولومب في مشروعه فان الملك فرناند والملكة ايزابيلا تقدما لمعاونة هذا المشروع الذى انتهى الى ماانتهى عليه . وغير ميزان القوى كما يقول باركر . ولا نتوسع هنا بمتابعة الحوادث التي انتهت بحروب الاستعمار والدور الذى أدته ارساليات التبشير ولكننا نقول : ان شعبي اسبانيا والبرتغال

اللذين زهاهما الانتصار على المسلمين في الاندلس تابعوا رسالتهم السابقة في محاولة تطويق العالم الاسلامي والانتصاف من المسلمين الذين حكموا شبه جزيرة الاندلس (اسبانيا والبرتغال) مدة ثمانية قرون فخرج كبار الملاحين على الصورة التي أشار اليها باركر يبحثون عن مجاهيل الأرض ـ وهذا مايفسر كونهم من الاسبان والبرتغال دون الشعوب الاوربية الاخرى (بغية الوصول الى الهند والجزائر الشرقية) او الى آسيا الاسلامية التي لم تنجح حركة المبشرين فيها في العقدين الماضيين وحتى يتحول طريق التجارة مع بلاد الشرق عن المرور بمصر والشام (وهذا مافطن له العثمانيون الاشداء في هذا الوقت فتقدموا لحكم البلاد العربية من يد المماليك سنة ١٥١٧ ونجحوا بذلك في حماية هذه البلاد من الخطر البرتغالي) حتى تضعف هذه البلاد فيعودون الى حكم الاراضي المقدسة من جديد ؟ .

واستطاعت البرتغال المرور حول افريقيا حتى وصلت الى سواحل الهند قبيل مغيب شمس القرن الخامس عشر . أما الدور الذى بدأت تؤديه ارساليات التبشير مع هذه السياحات البحرية فبحسبنا منه ماقاله ادوين بلس في كتابه (ملخص تاريخ التبشير) ، (ان المبشرين الكاثوليك دخلوا ربوع افريقيا منذ أواخر القرن الخامس عشر) أى في (أثناء الاكتشافات البرتغالية) كمايشرح ذلك بلس نفسه .

ثم بدأ المبشرون باداء دور المكتشف الذى يمهد الطريق للاستعمار حتى تمكن العالم الاوروبي خلال بضعة قرون من أن يحتل آسيا وافريقيا عسكريا وان يقدم للمبشرين بدوره الحماية اللازمة لاداء عملهم ويهيىء لهم المناخ الملائم لتنصير العالم الاسلامي يقول زوير : على ان أبواب التبشير صارت مفتوحة الآن في ممالك الاسلام الواقعة تحت سلطة النصرانية مثل الهند والصين الجنوبية الشرقية ومصر وتونس والجزائر)

ولما اعدت الجمعيات التبشيرية عدتها منذ عام ١٩٠٠ وأرسلت مبشريها الى السودان ليقوموا (بالتبشير العلني) شجعتهم انكلترا البروتستنت والكاثوليك منهم على حد سواء (ولما لم تستطع هذه الجمعيات ان تخطو في التبشير خطى منتجة استعانت بالدول المستعمرة فاعانتها تلك الدول في أماكن متعددة كالبحرين واليمن وبعد أن استولى الانكليز على عدن اتخذ المبشرون عدن مركزا يرسلون منه بعثاتهم التبشيرية الى قلب بلاد العرب وكذلك فعل المبشرون في جزر الهند الشرقية في جاوه وسومطره وسواهما) وقد اقترح المبشر وطسون ان تتعاون الحكومات الغربية في سبيل منع انتشار الاسلام بين القبائل الوثنية في افريقيا حتى تكون مهمة المبشر اهون لفقدان المنافسة . ويقول غاردنر : ان نزول الارساليات المسيحية على ساحل غانا من نهر غامبيا الى نهر النيجر للتبشير بين الوثنيين من أهل افريقيا . ثم احتلال الدول الاوروبية لهذه المناطق ولما وراءهما جعل الاسلام والنصرانية وجها لوجه في تلك الاصقاع كل دين يحاول أن يجذب اليه اولئك الوثنيين ثم يقول : (ولم يكن في الأمر منافسة لو لم تقف الدول الاوروبية بجانب مبشريها) وقال جيبب : ان القسم الاكبر من المسلمين تحت حكم الدول النصرانية فيجب الاستفادة من هذه الحالة الراهنة وصرح رشتر بأن واجب هذه الدول إذن أن تمهد السبيل لتبديل دين هؤلاء الرعايا . وقد اعتبر زويمر نفسه احتلال الجيش الفرنسي لمقاطعة (واداى) في افريقية سنة ١٩١٠ ، أهم حادث سياسي في هذا العصر لأن هذه الحادثة كما يقول ستقلل نفوذ المشايخ السنوسية بحيث لا يستطيعون الوقوف في طريق التقدم الاستعمارى والتجارى في بلاد الشام . ومهما كان الرأى في هذه الصلة (التنظيمية) المتبادلة بين التبشير والاستعمار فان مما لا خلاف فيه ان الارساليات التبشيرية ــ التي حلت محل الحملات الصليبية كما رأيت

كانت طليعة الغزو الاستعماري الجديد – وان حدث هذه الارساليات ان اشارت بأن يتقدمها الجيش أولا فان ذلك لم يحدث على التحقيق قبل القرن التاسع عشر بعد أن بلغ المبشرون في تمهيد الطريق اكثر مايستطيعون وبعد أن بلغت الدولة العثمانية من الضعف مايمكن معه اختراق سورها بطريق عسكرى على أن بعض الباحثين والمؤرخين لا يرون في رغبة المبشرين السابقة في أن يتقدمهم الجيش أولا اكثر من أن هذا الأمر يسهل مهمتهم ويختصر لهم الطريق في سبيل تعاون الجميع على أداء رسالة الحروب الصليبية التي فشلت في أدائها .

وخلاصة القول : في هذا الامر الاول الذى فسر الزحف الاستعمارى على العالم الاسلامي – ان الكسب الهائل الذى حققه الغرب عن طريق الكشوف الجغرافية وماتبع ذلك من تحويل طرق التجارة عن البلاد الاسلامية والذهب الذى بدأ يتدفق على الغرب المسيحي من افريقيا والعالم الجديد والى جانب نظام الاقتصاد الاوروبي الربوى كل ذلك قد حقق ثورة صناعية لم يعرف العالم لها مثيلا من قبل ولا نتحدث هنا عن أثر الحروب الصليبية – واحتكاك الغرب بالشرق في هذه الثورة ولا عن اثر المنهج التجريبي الذى اخذته اوروبا عن العالم الاسلامي لان ذلك معروف في مواضعه ولكننا نقول : ان العالم الاسلامي الذى لم يقم بمثل هذه الثورة الصناعية الجبارة لاسباب معروفة في مواطنها أيضا قد وقع في فترة هبوط علمي وتخلف على أثر الغارات التي تعاورته من كل مكان واذا كان قد خرج منتصرا في الحروب الصليبية الطاحنة فان الاثر السيء الذى خرج به من هذه الحروب يتمثل في فرط الثقة بالنفس واحتقار كل مايأتي من العالم الاوروبي المسيحي بعد أن وقف على اخلاق فرسان الحروب الصليبية وعلم كذبهم وادعاءهم في حمل رسالة المسيح عليه السلام حتى بات يعتقد أن خيرا لا يأتي من قبل هؤلاء وانهم ليسوا أهلا للمدنية أو

الحضارة . ولو أن هذا الاعتقاد او الشعور خامر الامة الاسلامية في وقت النمو والصعود أو في وقت آخر لماضرها بل ربما نفعها وزاد من قوتها ولكن صادف على النقيض (فترة ذات وجهين من قبل الشرق ومن قبل الغرب) فكانت في الشرق فترة هبوط في النهضات العلمية وكانت في الغرب فترة صعود في النهضة العلمية الحديثة قامت بعدها اوروبا مقام القيادة على النهضة وتخلف الشرق الاسلامي زمانا عن اللحاق بها وبقي على هذا التخلف مستعصيا بثقة لا تغني عنه شيئا وبمورثات من عصور الانحطاط القريبة كانت بالقياس الى النهضة الاوربية الشاملة التي جاءت على أعقاب الحروب الصليبية ورد فعل لها كافية لان ترد اوروبا المسيحية الضربة للعالم الاسلامي وتستأنف حملة استعمارية صليبية جديدة . يقول الدكتور باركر (ونستطيع القول : ان الحروب الصليبية قد بدأها السلاجقة المعسكرون في نيقية في آسيا وختمها الاتراك العثمانيون المعسكرون في أوروبا نفسها على نهر الدانوب) ثم يتابع القول (ولكننا نستطيع اذا اتخذنا وجهة أخرى بأن الأمور عادت الى ما كانت عليه قبل خمسمائة عام : اى حماية فرنسية على الاماكن المقدسة التي يحكمها المسلمون والواقع ان معنى الحرب الصليبية في الاستعمار الحديث قد صرح به قادة جيوش هذا الاستعمار في أكثر من مناسبة كما أكده كتاب اوروبا وشعراؤها وبحسبنا في نهاية المطاف ما قاله الكاتبان كوليت وفرانسيس جانسون عن الجزائر البعيدة عن الاماكن المقدسة وحيث بلغ العنف الاستعماري أوجه الشديد (لقد أيقن الجزائريون منذ الأيام الأولى للاحتلال أن هدف الفرنسيين كان القضاء على الاسلام ومن أجل ذلك ادركوا جميعا ان عليهم أن يعتصموا بالاسلام حتى يقدروا على التحرر. ثم يقرران (والواقع ان الاحتلال الفرنسي للجزائر كان منذ البدء يحمل هذا المعنى من الحرب الصليبية). راجع كتاب التبشير والاستعمار للدكتور عمر فروخ .

الأمر الثاني : ولكن معنى الحرب الصليبية هذا في الغزو الاستعماري للعالم الاسلامي يفسر في الواقع دوافع هذا الغزو والحامل عليه كما رأينا وهو ان لم ينفك عن هذا الغزو في الحقيقة فان ذلك، لا يعني ان أهدافا أخرى لا يمكن أن تنضاف اليه في الطريق واذا تجاوزنا الأهداف المتناثرة التي تذكر عادة في هذا الطريق مثل الطمع في خيرات الشرق وأخذ العبيد للعمل في مناجم الذهب والحديد والاحلام التي كانت تداعب خيال القادمين الى بلاد الف ليلة وليلة الخ فان الأمر الأساسي الذى يفسر حركة الاستعمار الحديث بالاضافة الى الروح الصليبية هوان الاستعمار قد أضحى في الحقيقة رسالة الرجل الاوروبي الذى بات يعتقد معها انه يقدم للشعوب المستعمرة بفتح الميم (ملح المدنية وروحها على حد تعبير للمستشرق ومستشار وزارة المستعمرات الفرنسية المسيو (هانتو) أو أنه يجعلها تتدرج في سبيل الحضارة كما قال وليم بال كسراف الذى كان يقول انه متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب أمكن معها للعزل أن يتدرج في تلك السبيل وأمام هذه الرسالة التي بدأ يؤديها الرجل الأوروبي تكون مناخ استعمارى كامل ينشأ فيه الطفل منذ ولادته وكان هذا المناخ يعم الجو الحضارى من شرقه الى غربه بحيث لا نستغرب أن يقوم كاتب كبير قصاص في أواخر القرن الماضي مثل جوليفير ليصف ملحمة لا تمت بشيء الى بطولة قومه الفرنسيين ولا للجيش الفرنسي بل هي ملحمة تصف فتح روسيا للبلاد الاسلامية في بخارى هذه القصة ان دلت على شيء، فانما تدل على سيادة المناخ الاستعمارى العام من شرق البلاد وغربها بحيث كان الضمير الاوروبي المتحضر في الاشتراك في هذه الملحمة التي نسميها الفتوحات الاستعمارية . ولهذا فقد شاركت أغلب الدول الاوروبية في هذه الملحمة وهرعت للسيطرة واقتسام الغنائم وحتى الافراد الذين تربوا في ظل هذا المناخ هرعوا هم أيضا بقدراتهم الخاصة للاشتراك

في هذه الفتوح والاكتشافات فقد غادر استانلي في أواخر القرن الماضي وطنه ونزل افريقيا لان بقعة من بقاعها كما شاهدها على الخريطة لم تلون بلون تابع للدول الاستعمارية وأراد أن يلونها بحيث يقدمها هدية لاوروبا كمستعمرة . . .

وبعد أن تم له وضع اليد أهدى الكونغو فعلا لملك بلجيكا يقول بلس وتوافد المبشرون على افريقيا الوسطى عقب بعثة لفن ستون واستانلي سنة ١٨٧٨ فاقتسموا مناطقها مع اختلاف جنسياتهم بين الالماني واسكتلندى وانكليزى ومورافي وقد بدء التنافس بين الدول الاوروبية واضحا بعد وقت قصير من تحرك البرتغال السابق.أبحر البرتغاليون من شبه جزيرة الاندلس كما قدمنا فدار (دياز) حول رأس الرجاء الصالح واكتشف كولمبوس القارة الامريكية بعد شهور من سقوط غرناطة بأيدى النصارى الاسبان عام ١٤٩٢ وفي سنة ١٤٩٧ سار فاسكودى غاما مترسما خطى سلفه دياز فاستدار حول رأس الرجاء الصالح ووصل الى موزامبيق ومالندى حيث الحكم العربي الاسلامي ثم شق طريقه الى قاليقوط ثم عاد الى لشبونا سالكا نفس الطريق الذى بدوءا من قبل.وبعد أن أنشأ البرتغاليون المستعمرات على ساحل افريقيا الشرقي تمكنوا مابين سنة ١٥٠٢ ـ الى ١٥٠٩ من انهاء السيطرة الاسلامية على شرقي افريقيا والمحيط الهندى واقامة ثلاث مستعمرات أو محطات استعمارية رئيسية في كلوا موزمبيق وسوفالا الى جانب مستعمرات أخرى في زنزبار وبنما أخذت الدول الاوروبية الاخرى تسلك نفس طريقهم فقد استدارت سفينة فرنسية حول رأس الرجاء الصالح في سنة ١٥٢٩ وبدأت أول سفن الانكليز تدخل هذه الميدان في سنة ١٥٨٠ وهو العالم الذى بدء فيه البرتغال تفقد مستعمراتها بعد ضمها الى اسبانيا واقتفت سفن هولندا أثرها في سنة ١٥٩٥ وفي عام ١٥٩١ تمكن لانكستر الانجليزى أن يصل الى الهند سالكا نفس الطريق البرتغالي القديم

وتأسست شركة الهند الشرقية سنة ١٦٠٠ .

وأخذت كل من انجلترا وهولاندا ترسلان السفن التجارية المسلحة لتنتشر من البحر الاحمر الى جزائر الفليبين وقصدت هذه الجهود الى القضاء على البرتغاليين ... وأصبح الانجليز والهولنديين والفرنسيين في صراع مستمر من أجل السيادة قرنا من الزمن فقد تفوق الهولنديون أول الأمر على الانجليز فأنشؤا مستعمرة في جزيرة موريتيس سنة ١٦٤٤ واستولوا على جزيرة سيلان من البرتغاليين سنة ١٦٥٨ وفي نهاية هذا القرن انتشرت المستعمرات والشركات وفي نهاية هذا القرن انتشرت المستعمرات الهولندية في الخليج العربي وعلى سواحل الهند وفي ارخبيل الملايو ولكنهم انسحبوا من هذه البلاد في منتصف القرن الثامن عشر وركزا نشاطهم في جزر الهند الشرقية مع احتفاظها بسيلان ومستعمرة الرأس .

وقد أخذ الانجليز والفرنسيون يدعون وراثة املاك البرتغاليين فالفرنسيون تأسست شركتهم في جزر الهند الشرقية سنة ١٦٤٤ واحتلوا جزيرة بربون في المحيط الهندي وأخذوا يستعمرون جزيرة مدغشقر وخلفوا الهولنديون في جزيرة موريس التي اطلقوا عليها اسم ابل دي فرانس سنة ١٧١٢ وبلغ النشاط الفرنسي مداه في منتصف القرن الثامن عشر ففي سنة ١٧٥٥ أصبح لهم ممثل في البصرة ؟؟؟ وفي ذلك الوقت بدأ الانجليز يهتمون اهتماما خاصا بالهند فاحتلوا سوارات ومدارس وكلكتا وانتزعوا تجارة الخليج العربي من الهولنديين ثم خرجوا في صراعهم مع الفرنسيين ظافرين فانتصروا في حرب السبع سنوات واصبحت بريطانيا القوة الاوروبية الاولى في الشرق الاقصى وخاصة بعد انتصارها على نابليون .

وبقيت السيادة الاسلامية في جميع ارجاء افريقيا الشمالية الشرقية حتى احتل الامبراطور منليك هرر سنة ١٨٨٦ ثم استولت ايطاليا على لمنطقة الشمالية التي تعرف الآن باسم ارتيريا ثم قسمت البلاد التي تقطنها

القبائل الصومالية الاخرى بمقتضى المعاهدة التي ابرمت بين بريطانيا وفرنسا وايطاليا واثيوبيا ؟؟؟ وذهبت البلاد الصومالية نهبا موزعا بين هذه الدول وقد دخلت فرنسا في سباق جديد مع بريطانيا التي مضت قدما في مد رقعة أملاكها في افريقيا من الجنوب الى الشمال غدت هي رقعة أملاكها من الغرب الى الشرق وفي مؤتمر برلين سنة ١٨٨٥ اتفقت الدول ـ التي اضحت تدعى بالدول العظمى على تقسيم افريقيا وفي سنة ١٨٨٨ عقدت بريطانيا وفرنسا مؤتمرا لتحديد مناطق النفوذ الخاصة بكل منهما .

ولم يبزغ نجم القرن العشرين حتى كان الاوربيون اقتسموا افريقيا كلها تقريبا باستثناء جمهورية ليبريا الصغيرة ونالت حصة الاسد كل من بريطانيا وفرنسا التي حصلت كل منهما على مناطق بلغت مساحتها ثلاثة ملايين ميل مربع هذا الجشع الاستعماري العجيب سيبقى محتاجا الى تفسير ان لم يفهم على انه رسالة قامت لادائها اوروبا في عصر النهضة وعلى أن / مبرر / عاشت عليه حضارتها الجديدة ؟ وهذا لا ينفي كما قدمنا دوافعه الصليبية ورد الفعل تجاه العالم الاسلامي لان ارساليات التبشير لم تنقطع لحظة واحدة خلال هذه الحركة الاستعمارية الرهيبة واذا تجاوزنا التسلسل المفروض في هذا البحث لتشير الى أن هذه الارساليات قد احتكرت العلم والتعليم في جميع تلك الجيوب الاستعمارية تقريبا فان هذا ما يفسر كونه الزعامة الادارية والسياسة الاقتصادية الجديدة الآن في ايدي النخبة المسيحية حتى في مناطق التي تقطنها اغلبية مسلمة لان التعليم الآن هو السلم الحقيقي للوصول الى الزعامة .

دور المؤسسات التي تركها الاستعمار

في العالم الاسلامي

تقسم هذه المؤسسات الى نوعين :

١ـ مؤسسات السياسة والحكم .

٢ـ مؤسسات التربية والتعليم والقضاء وانظمة الدول بوجه عام .

كانت الديموقراطية ومايتبعها على سبيل المثال وما يتبعها من احزاب وانتخابات وبرلمان أبرز ماورثه العالم الاسلامي من مؤسسات الحكم الاوروبي حتى صارت هذه المؤسسات في بعض الاحيان العنوان الاهم والشغل الشاغل للزعماء والرؤساء وربما المفكرين كذلك .

ويبدو أن الاستعمار الاوروبي قد اطمئن على مستقبل العالم الاسلامي لانشغاله بهذين النوعين من المؤسسات أو بعبارة أدق لأنه شغله بقضية الحكم والانتخابات عن قضية اصلاح المؤسسات التربوية والتعليمية والقضائية ونحو ذلك ولانه من وجه آخر ترك من ورائه قادة وافرادا كثيرين تربوا على هذه المناهج وأخذوا على عاتقهم عبء حمايتها والدفاع عنها وكانت مقاليد الحكم والتوجيه بأيديهم كما هو معلوم لكن الذى حدث في العالم الاسلامي ان كاد المسلمون من خلال مؤسسات الحكم والديموقراطية التي ورثوها عن العالم الاوروبي أن يعيدوا للعالم الاسلامي وجهه الجديد وفي هذا مافيه من خطر على استمرار الاستعمار الثقافي والاقتصادى من ناحية ومافيه بعد ذلك من تهديد للحضارة الاوروبية بأسرها وهي حضارة كما يقول أهلها دخلت في آخر أطوار انتهاء الحضارات وسقوطها (مرحلة الغريزة) .

ولا شك ان المفكرين الفلاسفة وعلماء الاجتماع الاوربيين يدركون أن الاسلام والمسلمين هم الوريثون لهذه الحضارة ولهذا كان تدخل العالم الاوروبي مرة أخرى حادا وحاسما عندما ازهقت روح الحرية في العالم الاسلامي واقيم على أشلائها أنظمة حكم فردية أبقت على ذلك المناخ الاستعمارى ثقافيا واقتصاديا وأبعدت المسلمين عن مقاعد التوجيه والارشاد ويبدو أن سقوط بعض الصروح الاستعمارية على أيدى الزعيم الجديد

كان شرطا من شروط اعطائه هذا يأمر به وينهى حتى يأخذ منه النـــاس يدل على ذلك بقاء تجربة الديموقراطية في بعض الشعوب التى رحـــل عنها الاستعمار في الوقت الذى رحل فيه عن بعض الشعوب الاسلامية كما هي الحال في الهند والباكستان .

موقع العالم الاسلامي ومزايا هذا الموقع

الخصائص العامة لجغرافية العالم الاسلامي :

نقصد بالعالم الاسلامي :

مجموعة الدول التي يزيد عدد المسلمين فيها (٥٠) بالمائة مـــن مجموع السكان ويبلغ عدد هذه الدول ثلاثا واربعين دولة . ويبلغ مجموع مساحتها نحوا من ثلاثين مليون كيلو متر مربع اى مايزيد قليلا عن ثلاث وعشرين بالمائة من مساحة اليابسة وعدد سكانها يزيد عن ستمائة مليون والواقع ان العالم الاسلامي اوسع من مجموع الدول الاسلامية المذكـــورة آنفـا لان هناك اقاليم اسلامية في دول غير اسلامية مثل كشـــمير في الهند والتركستان في الصين وروسيا كذلك وجزيرتا زنجبار وتنزانيا وغيرهما ونكتفي هنا باعطاء فكرة عن الخصائص العامة للموقع وللموارد الطبيعية وعـــن السكان في مجموع الدول الاسلامية السابقة .

أولا :ـ الموقــع :

يقع العالم الاسلامي في اسيا وافريقيا ويشكل كتلتين من الـــدول المتجاورة والكتلة الاولى وهي الاهم والاكبر تمتـــد من المحيط الاطلســـي غربا حتى باكستان الغربية شرقا ومن الصومال جنوبا حتى كرخستان شمالا وتبلغ مساحة هذه الدول اكثر من سبعة وعشرين مليون كيلو متر مربع وعدد سكانها حوالي اربعمائة مليون نسمة ، يزيد عدد سكانها المسلمون نحو ثلاثمائة وخمسين مليون نسمة وفي اراضي هذه الكتلة تقع مفاتيح البحـــر

الاسود (مضيق البوسفور والدرنيل) ومفاتيح البحر الابيض المتوسط (مضيق جبل طارق وقناة السويس) ومفاتيح البحر الاحمر (قناة السويس ومضيق باب المندب) ومفاتيح للخليج العربي (مضيق هرمز) وعبر دول هذه الكتلة تمر أهم الطرق البرية والبحرية والجوية بين الشرق والغرب مما ساعد على نمو التجارة فيها منذ القديم .

وتتألف الكتلة الثانية من اندونيسيا واتحاد ماليزيا وتبلغ مساحتها اكثر من مليوني كم ٢ وعدد سكانها حسب الاحصاءات القديمة (٢١٨) مليون نسمة منهم (١١٥) مليون من المسلمين وتقع ضمن هذه الكتلة الممرات البحرية في المحيط الهندي والهادي وبين قارتي آسيا واستراليا مما ساعد كذلك منذ القديم على تقديم التجارة فيها .

ويتمتع هذا الموقع الجغرافي للدول الاسلامية بمكانة استراتيجية هامة وخاصة أثناء الحروب العالمية ، كما أن الاتصال الجغرافي بين الدول الاسلامية يزيد المقدرة الدفاعية والهجومية لاى دولة اسلامية لانه يمكن امدادها بالمحاربين والعتاد الحربي برا وجوا من الدول الاسلامية الاخرى غير أنه يوجد في العالم الاسلامي الآن مناطق ضعف عسكرى هي الباكستان الشرقية (بنغلادش) مساحتها (١٤٠) ألف كيلومترمربع وعدد سكانها مليونا نسمة . وبشكيريا وتاتاريا ومساحتها (٢٠٠) ألف كم ٢ وعدد سكانها اكثر من مليوني نسمة ويحيط بكل منهما دول غير اسلامية وقد رسمت الهند عام ١٩٧١ موضوع سلخ باكستان الشرقية وساعدت فيه وقد امكنها التدخل بسبب الاتصال الجغرافي البرى معها بينما فشلت باكستان في انقاذ اقليميها الشرقي بسبب عدم اتصاله به وبعده عنها .

ثانيا : الموارد الطبيعية :

يمكن تصنيف الموارد الطبيعية الى قسمين :

- الموارد الحرارية والمائية والترابية والنباتية التي لا بد منها لتطوير

الزراعة .

ب ـ الموارد الاولية والوقود اللازم لتطوير الصناعة . فالقسم الأول من الموارد موزع ومنتشر في مختلف المناطق بينما يوجد القسم الثاني في مناطق محدودة .

آ ـ الموارد الحرارية والمائية والترابية والنباتية ومستقبل تطوير الزراعة :

تبلغ مساحتها الأراضي العامة في الدول الاسلامية (٢٩٥٠) مليون هكتار تتوقف قيمتها الزراعية على وحدة العوامل للحياة النباتية (حرارة ـ مياه ـ التربة ـ النبات) وعلى طرق استغلالها من جهة أخرى. الحرارة وأثرها :

١ ـ ان العالم الاسلامي غني جدا من الطاقة الحرارية الشمسية المتجددة فالتوازن الحرارى للاشعاع الشمسي في أغلب مناطق العالم الاسلامي يبلغ من (٦٠ ـ ١٢٠) حرة في السم٢ في السنة لذلك يحتاج الروسي والكندى على سبيل المثال الى وجبات غذائية كثيرة موكزة من اللحم والزبدة والسكر لكي يفي نفسه من برد الشتاء بينما يكفي المصرى والسوداني نصف الكمية التي يحتاجها الروسي والكندى وبنوعية أخرى كذلك (الخضار والفواكه البان زيوت نباتية) .

يضاف الى ذلك ان الحرارة فوق الصفر البيولوجي اللازم لبدء النمو النباتي وهو وسطي الحرارة اليومي + ٦ والحرارة اللازمة لبدء النمو النباتي النشيط وهي وسط الحرارة اليومي فوق + ١٠ تتوافران في أغلب مناطق العالم الاسلامي على أغلب مدار السنة .

أما في شمال الاتحاد السوفييتي وكندا فتتوفر هذه الدرجات من الحرارة لمدة (١٠٠) = ١٨٠ يوما فقط وذلك يمكن جني

محصولين أو ثلاثة محاصيل في أغلب مناطق العالم الاسلامي بينما لا يجني اكثر من محصول واحد في شمال الاتحاد السوفييتي وكندا .

٢- وكذلك الاتربة في العالم الاسلامي غنية بالاملاح المعدنية ويستثنى من ذلك التربة المدارية الحمراء في جنوبها .

٣- اما انهطال (الامطار والثلوج والبرد) فقليل بشكل عام وموزع بشكل متفاوت وتنعكس قلة الانهطال هذه على الحياة النباتية والامكانيات الزراعية فالصحارى تشكل (٦٣ ٪) من مساحة العالم الاسلامي والمراعي (١٧ ٪) من المساحة وكلا المنطقتين غيرصالحة لقيام الزراعة البعلية كما تشغل الغابات (٩ ٪) منه أيضا .

أما المنطقة الصالحة للزراعة البعلية المستقرة فستبلغ(١١ ٪) من المساحة العامة يزرع منها الخمسان والثلاثة أخماس الباقية مناطق بور ومناطق لم تستصلح بعد . يستنتج ماتقدم ان مشكلة تطوير الزراعة الاولى هي تأمين المياه للري بغية الاستفادة من الموارد الحرارية الهائلة والمواد الغذائية في التربة .

وفي العالم الاسلامي كما نعلم عدد كبير من الانهار على كل حال لا يستفاد منها على نحو ملائم بالاضافة الى أن الدراسات الجيولوجية المعاصرة ماتزال تكشف عن كميات هائلة من المياه الجوفية الموزعة حتى في الصحارى .

٤- يمتد العالم الاسلامي من اندونيسيا الواقعة على خط العرض (١٠) جنوب خط الاستواء حتى بكشكيريا وتاتاريا على خط (٥٦) عرض شمال خط الاستواء ومعنى ذلك أن العالم الاسلامي يمتد على بيئات زراعية متنوعة جدا لذلك فان تحسين البذور الزراعية والسلالات الحيوانية وتوزيعها في الاقاليم المناسبة

لها سيزيد من مردود الهكتار وبتخفيض كلفة الانتاج وسيؤدى
هذا من أهم الامور الى التكامل هذه الاقاليم اقتصاديا من جهة
أخرى فمثلا ان الفواكه والخضار اكثر حلاوة وعطرية وألذ طعما
وأبكر نضجا بعدة (٤ — ٦) أشهر في المناطق الجنوبية في العالم
الاسلامي منها في المناطق الشمالية مما يمكن من تصديرها من
المناطق الاولى الى المناطق الثانية .

٥— تعرف الزراعة في العالم الاسلامي كل أشكال الاستثمار الزراعي من الزراعة البدائية التي تعتمد على الجهد البشرى والحيواني الى أحدث المزارع العلمية الرأسمالية والتعاونية ومزارع الدولة المجهزة بأحدث الآلات وان لم يكن من الضرورى أن يكون مردود هذه الاراضي المزروعة بأحدث الآلات أفضل من تلك المزروعة بالادوات القديمة .

٦— في ضوء هذه المعطيات ومعطيات أخرى كثيرة نستنتج مايلي :

آ— يوجد نقص في انتاج الحبوب والسكر يستعاض عنه بانتاج الفواكه والخضار وهذا يعني ان العالم الاسلامي يحقق الاستقلال الذى تفتقر اليه أكثر الدول الصناعية كانكلترا وايطاليا وبولندا ولكن توزيع الثروة الزراعية في البلاد الاسلامية متفاوت ومابنقص قطر منها يمكن أن يعوضه قطر آخر .

ب— تسهم الدول الاسلامية في تجارة المواد الزراعية بتصدير القطن والتبغ والمطاط والخضار والثمار المبكرة والمتأخرة النضج وغيرها وهذا سليم تماما لان الهكتار المزروع بهذه الغلال يعطي دخلا أعلى بعدة مرات من زراعته بالقمح . وقد انتجت الدول الاسلامية (٥٥) ٪ من المطاط و (٤٠ ٪) من القطن في العالم.

جـ ـ المواد الخام والوقود وامكانية تطوير الصناعة :

تتألف القشرة الأرضية في العالم الاسلامي من الصخور النارية الحاوية على معادن (فلزية) كالحديد والنحاس والكروم وغيرها ومن الصخور الحاوية على المعادن اللافلزية كالبترول وغيرها . وقد بلغ انتاج فلز الحديد في الدول الاسلامية الواقعة خارج الاتحاد السوفياتي في عام ١٩٦٨ مقدار (١٩) مليون طن بينما انتجت الجمهوريات الاسلامية في الاتحاد السوفييتي (١٦) مليون طن من فلز الحديد .

ومن الوقود انتجت الدول الاسلامية الواقعة خارج الاتحاد السوفييتي ٧ ملايين من الفحم في حين انتجت الجمهوريات الاسلامية في الاتحاد السوفييتي (٦٩) مليون طن من الفحم ويعوض البترول هذا النقص من انتاج الفحم بل ان مكانة البترول الآن في الصناعة وفيما يشتق منه من الصناعات التحويلية أفضل بكثير من الفحم وغيره ، كما يعوض النقص أيضا في انتاج الدول الغنية اذا انتجت الدول الاسلامية خارج الاتحاد السوفييتي عام ١٩٦٨ مقداره (٥١ ٪) من انتاج الدول الرأسمالية المتقدمة صناعيا ودول العالم الثالث .

كما أنتجت الجمهوريات الاسلامية في الاتحاد السوفييتي مقدار (٥٨ ٪) من مجموع البترول في الاتحاد السوفييتي ، ونستخلص بما تقدم أن أهم الوقود والمواد الاولية في العالم الاسلامي هي البترول والفوسفات .

فالبترول لا بد منه لتحريك وسائل الانتاج والقتال الحديثة وينتج العالم الاسلامي منه أكثر من نصف انتاجه في العالم أجمع

أما الاحتياطي فأكثر من ثلثين والفوسفات مادة أولية سواء لصنع المخصبات الزراعية أو القنابل المحرقة وينتج العالم الاسلامي اكثر من ثلث انتاج العالم .

كما يوجد اليورانيوم في النيجر ومصر وغيرها من الدول الاسلامية .

٧ — الخصائص الكمية والنوعية للسكان وعوامل الوحدة واللقاء بين شعوب العالم الاسلامي :

يبلغ عدد المسلمين في العالم حوالي (٦٠٠) مليون نسمة عام ١٩٦٨ وهم يتزايدون بسرعة ويبلغ تزايدهم السنوى (٣ ٪) تقريبا ولهذا التزايد نتائج اقتصادية واجتماعية وسياسية وعسكرية هامة .

من المتوقع ان يتضاعف عدد المسلمين خلال الخمس وعشرين سنة القادمة .

* ويتوزع المسلمون في العالم على الشكل التالي :

١ — دول اسلامية (اكثرية سكانها مسلمون) وعددها (ثلاثة واربعون) دولة ويعيش فيها مايقارب من (٦٠٠) مليون منهم حوالي (٥٠٠) مليون من المسلمين .

٢ — دول تشكل فيها الاقليات الاسلامية نسبة كبيرة تتراوح من : (١٠ — ٤٥ ٪) من عدد السكان وعددها (١٨) دولة وعدد المسلمين (٧٥) مليون .

٣ — دول تشكل فيها الاقليات الاسلامية نسبة ضئيلة تتراوح من (١) الى (١٠) بالمائة من عدد السكان وعددها سبعة عشر دولة .

٤ — دول نسبة المسلمين فيها أقل من واحد في المئة وهي دول العالم الجديد (أمريكا الشمالية والجنوبية) استرالية واغلب الدول في

أوروبا الغربية ويعيش فيها حوالي مليون مسلم .

* الخصائص النوعية للسكان :

ونعني بها الانسجام الفكري والاجتماعي والكفاءة الانتاجية :

١ـ يتكون المسلمون من مختلف الأجناس والشعوب ولا حاجة بنا هنا الى التذكير بأن الاسلام دين الفطرة وانه يتصف بالعموم والشمول والعالمية وان المساواة تشكل روح الحضارة الاسلامية في الوقت الذي شكلت فيه الروح الامبراطورية المبرر الذي قامت عليه الحضارة الرومانية وفي الوقت الذي شكلت فيه الروح الاستعمارية روح الحضارة الاوروبية المعاصرة .

ونتيجة لذلك فان المسلمين اليوم يتألفون من الشعوب التالية :

آـ شعوب الملايو في اندونيسيا واتحاد ماليزيا (١٨ ٪) من المسلمين والشعوب الباكستانية (١٧ ٪) والاتراك (١٢ ٪) والمغول (١٢ ٪) والشعوب السوداء (٣ر١١ ٪) والهنود (٣ر١٠ ٪) والايرانيون والافغان (٦ر٧ ٪) والصينيون (٤ ٪) والبربر (٢ ٪) وغيرها .

ان التزواج بين الشعوب الاسلامية خلال (١٤) قرنا أدى الى تقاربها من الناحية العرقية .

٢ـ الانسجام الفكري والروحي للمسلمين :

يمكن تلخيص هذا الامر بالنظرة المشتركة الخاصة للمسلمين للكون فبينما تهتم المجتمعات العلمانية (الرأسمالية والاشتراكية) بالكيان المادي للانسان وتهمل الجانب الروحي يجمع الاسلام بين هذين الجانبين وبينما يقدس المجتمع الرأسمالي الملكية الفردية ويلغي المجتمع الاشتراكي الملكية الفردية لوسائل الانتاج يوفق الاسلام بين الحفاظ على كيان الفرد وحقوق المجتمع . وسوف

نعود للحديث عن عوامل الوحدة واللقاء في فقرة خاصة ونكتفي هنا بالاشارة الى أن اختلاف المسلمين في فهمهم للعقيدة الاسلامية التي تجمعهم وما تبع ذلك من شيع وفرق واحزاب لم يؤثر على وحدة المسلمين كعالم يؤثر في مجرى حياتهم اليومية لأن الخلاف اما أن يكون فرعا أو أن يحمل طابع السياسة ولم يختلف أحد على المبادىء الاساسية في الاسلام .

٣- **الكفاءة الانتاجية للسكان :**

ان ثروة الامم لا تعتمد على الموارد الطبيعية بقدر ما تعتمد على الكفاءة الانتاجية للسكان التي تتوقف على العوامل التالية :

آ- مستوى تنظيم القوى المنتجة الاجتماعية فحتى الآن لا توجد منظمة علمية واقتصادية وسياسية وعسكرية على مستوى العالم الاسلامي على غرار الجامعة العربية يضاف الى ذلك أن المعاهد الاسلامية العليا - الازهر في مصر - القرويين في فاس - عاجزة عن القيادة الفكرية للعالم الاسلامي ناهيك عن المعاهد العليا في الدول المتقدمة صناعيا .

ب - نسبة السكان العاملين لمجموع السكان وهي ضئيلة في العالم الاسلامي .

بسبب النسبة العالمية للاحداث - الاطفال - دون سن العمل ولان العالم الاسلامي لا يزال بتخطيط في موضوع خروج المرأة للعمل أو ايجاد العمل الذي يلائمها ، كما أنه فقد مبدأ التخصص بين المرأة والرجل وهذا التخصص الذي يتيح انتاجا اكبر بالنسبة للرجل وانسانا أفضل بالنسبة للمجتمع -٢- مستوى الخبرة الفنية - وهو ضعيف أيضا في العالم الاسلامي فحتى الآن لا تقيم فيه معاهد بحث علمي ومؤسسات انتاجية متخصصة تخصصا دقيقا .

كما في الدول الصناعية واذا أردنا الدقة في هذا العامل لقلنا ان العالم الاسلامي ماتزال تحكمه ظروف خاصة حتى تبقى فيه هذه الخبرة ضعيفة والدليل على ذلك مانراه الآن من هجرة الأدمغة والعقول من هذا العالم الى العالم الصناعي . وخلاصة القول ان العالم الاسلامي يتمتع بموقع استراتيجي هام وفريد وله موارد حرارية ومائية وترابية ونباتية ضخمة لتطوير زراعته ومعادن ووقود وفيرة لتطوير صناعته وقوة بشرية هائلة متزايدة بسرعة وهي عالية المثل ولكن ينقصها حسن الاستفادة والتوجيه والبدء الحقيقي من الزات حتى يبدأ المسلمون بدورة حضارية جديدة بعد افلاس النظم الرأسمالية والاشتراكية وبدلا من أن يكدسوا منتجات الحضارة عندهم كما هي الحال في أكثر بقاع العالم الاسلامي حتى الآن .

* عوامل الوحدة واللقاء بين الشعوب الاسلامية :

من الملاحظ في عالم اليوم اتجاه اكثر دول العالم نحو التجمع كما نرى الآن الاحلاف بين الدول الشرقية وفي السوق الاوروبية المشتركة ودول عدم الانحياز ومنظمة الوحدة الافريقية واللقاء العربي الافريقي وغير ذلك بل ان بعض دول اليوم وشعوبه تنسى عداوتها التقليدية مع بعض الشعوب الاخرى في سبيل هذا التكتل والتجمع كما هي الحال بين أعضاء السوق الاوروبية المشتركة ، كما أن الروابط بين بعض الشعوب والتكتلات الأخرى ربما كانت أوهى من بيت العنكبوت في مثل هذا العالم تبرز كتلة الشعوب الاسلامية كوحدة وتميزه على الرغم من المحاولات الدائبة لتمزيق شعوب هذا العالم ضمن التكتلات الأخرى السابقة .

ان الشعوب الاسلامية اليوم بينها من أسباب الوحدة واللقاء بمقياس العصب اكثر مما تملكه أية مجموعة أخرى فالعالم الاسلامي بالاضافة

الى مزايا الموقع التي تحدثنا عنها سابقا انلهذا العالم تاريخه المتميز وحضارته وخصائصه كما أن له دوره الذى يقوم به في المستقبل القريب وعلى الرغم من كثرة هذه العوامل التي توحد بين الشعوب الاسلامية الاّ أنها في التحليل الأخير تعود بنا الى العقيدة الاسلامية وما تتحلى به من مزايا وخصائص تحقيقا لقول الله تعالى (انما المؤمنون اخوة) وقوله عز من قائل(لو انفقت ما في الارض جميعا ماالفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بين قلوبهم)ولهذا فان من الخطأ عدالاسلام قسيما (واحدمنها) لهذه العوامل في الوقت الذى تعود جميع العوامل اليه في نهاية المطاف .

ولعل هذا بطبيعة الحال أن يذكرنا بماهية العوامل التي تلتقي عليها الشعوب اليوم وهي عوامل فكرية وشعورية واعتقادية في المقام الأول كما نلحظ ذلك في الدول التي تضم اكثر من قومية واحدة والاقتصاد هنا وسيلة لا غاية بدليل اجتماع الشعوب التي تنطلق من ثقافة واحدة ومن تصور اعتقادى واحد وقد نقف عند اللغة والتاريخ في الاعتبار الاول بوصفهما أهم عنصرين من عناصر تشكيل القومية عندالقوميين لنثبت أن العالم الاسلامي يشكل وحدة متكاملة حتى على هذا الصعيد ولكن نقدم قبل ذلك الملاحظات التالية :

١ـ يخلط الكثيرون بين مفهوم القومية ومفهوم الامة وقد ظن بعض القوميين ان الواحدة تحل محل الثانية وهذا خطأ ربما كان مصدره ان بعض القوميات في بعض مراحل التاريخ كانت تنزع الى تشكيل أمة خاصة بها ، كما حصل في اوروبا في عصر القوميات ولكن الواقع يثبت امكانية قيام أمة تضم بين جنباتها اكثرمن قومية واحدة وليست القومية في نظر الاسلام بأكثر من انتماء وانتساب لا يجوز له أن يصبح غاية في نسبه فضلا عن أن يتخذ عقيدة

أو دينا يحل محل الدين قال الله تعالى : يا أيها النـــاس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائــل لتعارفـوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم .

فقد أشارت الآية الكريمــة الى وحدة الاصل الانساني ثــم أشارت بعد ذلك الى مبدأ تقسيم الناس الى شعوب وقبائـــــل ثم حددت الغاية من هذا الجعل والتقسيم وانه التعـــارف والتعاون لتكمل البشرية بعضها بعضا تأكيدا لوحدة الأصــل السابق لا ليفخر بعضهم بذلك على بعض أو يتخذ من هـــذا الانتماء عقيدة أو دينــا .

٢- ان عوامل تشكيل الأمم ليس ثابتا كما يظن بعض الباحثين عند مــا يريدون الخلافة والنقاش في هذا الموضوع ان الاتجاه الذى أشرنا اليه في صدر هذا البحث ـ اتجاه الشعوب نحو التجمع ـ يدل على هذا التبدل والتطور في عوامل نشأة الأمــم ومن الخطأ البين الظن بأن شعوب العالم اليوم تلتقي على مثل العوامل التـــي التقت عليها الشعوب في عصر التخلف وفي عصور الجاهلية .

٣- واذا أردنا أن نضع يدنا على القانـــون الذى يحكم تطور هــذه العوامل لاحظنا أنه يشير الى التخفف من الروابط الماديـــة كالارض والجنس والاقتصاد والمال صعدا نحو الروابط الفكريــة والمعنويــة و هذا هو الذى دعا الاسلام اليه وهو في نفس الوقت يمثــل مرحلة هائلة في تقدم الانسان .

* اللغـــة :

تعتبر اللغة العربية من أهم عوامل الوحدة واللقاء بين الشـــعوب الاسلامية وان كانت بعض هذه الشعوب لا تتحدث بها في البيت والسوق والمجتمع وقبل الحديــث عن هذه النقطة نورد مايلي :

١ ـ ان التوسع الذى اصابته اللغة العربية بوجه عام كان بفضل الاسلام وتحت راية القرآن وما أظن أن واحدا من القوميين يناقض هذه النقطة وان كان بعضهم حاول فك الارتباط بين اللغة العربية والاسلام نظرا لوجود عرب غير مسلمين/ومسلمون غير عرب وسوف يتضح لنا بعد قليل ان هذا التقسيم لا قيمة له عندما نحلل ماهي اللغة وكيف تكون عاملا من عوامل الوحدة واللقاء .

٢ ـ وكان الأصل عندنا كذلك أن يتم التعريب حيث تم انتشار الاسلام في العالم عملا بقاعدتين اثنتين :

الأولى : عالمية الدعوة الاسلامية .

الثانية : ماوصف الله به عز وجل كتابه الكريم من أنه بلسان عربي مبين بل ان القارىء لترجمة القرآن الكريم لا يعتبر قارئا للقرآن ولا ينبغى عليه كذلك الثواب الذى وعد به النبي (صلى الله عليه وسلم) قارىء القرآن أن يكون له بكل حرف عشر حسنات .

ولتخلف حرية التعريب عن حركة انتشار الاسلام في العالم أسباب خارجة عن طبيعة القرآن الكريم نفسه ومن أشهر هذه الأسباب سببان :

الأول : ان انتشار الاسلام في اغلب بقاع العالم الاسلامي اليوم انما تم عن طريق بعض الدعاة والمرشدين من التجار وغيرهم الذين عبروا الى افريقيا وجنوب الصحراء أو بحروا بسفنهم الشراعية تجاه ارخبيل الملايو .

وكان في وسع التاجر الفرد أن ينقل المئات أو الألوف الى الاسلام بالدعوة والقدوة والاسوة الحسنة ولكنه لم يكن في وسعه ان يعرب لسانهم بحال من الأحوال .

الثاني : ان كثيرا من الشعوب والسلالات التي دخلت في الاسلام نهضت بالدعوة اليه والفتح له قبل أن يتسرب لسانها هي كما هي الحال عند المغول والأتراك العثمانيين وغيرهم .

٣- ومن المؤكد على كل حال ان اللغة العربية معروفة عند جميع المسلمين بدون استثناء العربي و غير العربي منهم ويكفي أن نذكر التعريب الذى أصاب العلم الديني في جميع أنحاء العالم الاسلامي وعلى نحو عال ودقيق كما هي الحال عليه الآن في ندوة العلماء بالهند والمدارس الشرعية في الاقليم الشمالي من نيجريا والمدارس والجامعات الاسلامية في اندونيسيا وغيرها كثير .

بالاضافة الى تعلم جميع المسلمين قدرا من العربية يصحح به صلاته وعبادته على الاقل .

٤- وقد اسهمت اللغة العربية نتيجة احتكاك المسلمين من غير العرب باخوانهم العرب المسلمين هذا الاحتكاك التاريخي الطويل أسهمت اما في تطعيم لغاتهم أو لهجاتهم المحلية أو في صنع بعض اللغات الجديدة بين ظهرانيهم كلغة الاردية التي تبلغ نسبة الكلمات العربية فيها اكثر من (٣٠ ٪) والتي يتحدثها الشعب الباكستاني .

ولدينا الآن مجموعة من اللغات الشرقية يطلق عليها بعض الباحثين اللغات الاسلامية وهي عندنا لغات الشعوب الاسلامية وتكتب بالحرف العربي كالفارسية والتركية .

٥- وأخيرا وبالاضافة الى كل ماقدمناه فان الشعوب الاسلامية غير العربية لا تختلف عنا في مضمون اللغة العربية وان اختلفت معنا في أداة التعبير عنها ذلك ان اللغة ليست عبارة عن مجموعة

من الاصوات او الحروف لكن كل لغة من لغات العالم عبارة عن فكر ووعاء لحضارة معينة ويقول بعض علماء التربية ـ فيليب فنكس.

ان اللغة هي عبارة عن مجموعة أو نظام من الرموز يحكي تاريخ حضارة وأمة معينة ويقول أيضا (ان دراسة اللغة الاجنبية ليست فائدتها محصورة في تعلم لسان جديد لكن فائدتها تكمن في الاطلاع على ثقافة أمة أخرى وحضارتها واللغة العربية بهذا الاعتبار هي وعاء الاسلام والحضارة الاسلامية والتاريخ الاسلامي .

والشعوب الاسلامية غير العربية ـ كما قلنا ـ تؤمن معنا بهذا المضمون الثقافي والحضاري وان اختلفت معنا في اداة التعبير عنه ولهذا فان لغاتها الخاصة بها تكاد تكون محصورة في السوق والحاجات اليومية ولم ترتفع الى مستوى لغة الثقافة والحضارة .

وان أثرها السيء على اللقاء بين الشعوب الاسلامية ليس بأبعد من أثر اللهجات العامية التي نتحدث بها في الشعوب العربية نفسها والخلاصة : فان اللغة العربية بهذا الاعتبار تعتبر من أهم عوامل الوحدة واللقاء بين الشعوب الاسلامية على حد سواء وينبني على هذا بطبيعة الحال ان الطرح القومي لموضوع اللغة ليس في وسعه أن يمزق وحدة العالم الاسلامي ووحدة شعوبه .

* التاريخ :

يعتبر التاريخ في الطرح القومي كذلك العنصر الثاني الأهم في وحدة الشعوب ولكننا لا نجد فيه كذلك الا عاملا هاما موحدا لامفرقا بين الشعوب الاسلامية جميعا لان تحليل عنصر التاريخ سينتهي بنا كما رأينا في عنصر اللغة السابق الى الوحدة الفكرية والثقافية والشعورية التي تمثلها العقيدة الاسلامية .

ان التاريخ يؤدي دوره في ربط الشعوب وفي تشكيل ذاكرة مشتركة

بينها وفي التوحيد بين آمالهم وذكرياتهم الماضية ونظرتهم الى المستقبل لا بمجرد كونه مجموعة من الحوادث مرت على الآباء والاجداد الذين كانوا في بقعة واحدة ولا يكفي مجرد مرور هذه الحوادث لتشكيل تلك الذاكرة أو توليد هذا الشعور بل لا بد أن تكون نظرتنا الى هذه الحوادث جميعا واحدة حتى يؤدي دوره المأمول أو المرتقب وعلى العكس من ذلك يمكن اعتبار التاريخ من أكبر وأهم عوامل الشقاق والنزاع اذا اختلفت النظرة اليه والى احداثه وبالتالي اختلف الشعور الذي يجده كل واحد منا تجاه هذه الأحداث . ولا خلاف على أن هذه النظرة المشتركة انما هي وليدة الفكر الواحد والعقيدة الواحدة . ولهذا كانت نظرة جميع المسلمين الى تاريخهم نظرة واحدة فهي تشترك اليوم في تقسيم التاريخ الى مرحلتين تاريخ ماقبل الاسلام ـ وتسمية تاريخ الجاهلية وهو عندها تاريخ ميت لا يذكي ولا يغير بالانتماء الى جانب دون آخر بل لا يحمل على الاعتذار والافتخار بشيء من احداثه ووقائعه ورجاله وشخصياته الا على معنى مكارم الاخلاق التي أقرها الاسلام فيما بعد ودعا اليها . .

والتاريخ فيما بعد الاسلام ـ التاريخ الاسلامي وينظر الجميع اليه نظرة اعتزاز وافتخار ويشعرون جميعا بروح الارتباط به بما يشعر بأداء دوره بينهم من ناحية وبتميز الخارجين عنه من ناحية أخرى بمعنى أننا لو طرحنا الموضوع على الصعيد القومي لوجدنا ان المسلمين من غير العرب قد يكونون أقرب الى الارتباط بالتاريخ من بعض العرب أنفسهم حيث يظهر التاريخ كما أشرنا سابقا كعامل مفرق لا عامل موحد عندما ينظر بعض العرب أنفسهم على سبيل المثال لحادثة هامة على أنها فتح وتحرير ويراها عرب آخرون انها احتلال واستعمار.

ان التاريخ الذي يذكي في نفوس أبناء العالم الاسلامي جميعا روح

الارتباط بالعرب فيفرح المسلم الهندي بانتصار أجداده أمام جحافل العرب المسلمين لان هذا الانتصار هيء له الفرصة الدخول في الاسلام والهداية اليه .

ان هذا المسلم ارتبط معنا بالتاريخ بعد ارتباطه باللغة وهذا يؤكد في نهاية المطاف ان جميع العوامل التي يمكن الحديث عنها بالاضافة الى اللغة والتاريخ كالاقتصاد والآمال المشتركة والثقافة والعادات الاجتماعية انما تعود في نهاية المطاف كما عاد عنصر اللغة والتاريخ الى العقيدة والنظرة المشتركة الى الكون وهذا هو مصداق قوله عز وجل (انما المؤمنون أخوة) وقوله تعالى : (لو انفقت مافي الارض جميعا ماألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم) وقوله (صلى الله عليه وسلم) المسلم أخو المسلم وقوله صلى الله عليه وسلم (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه) .

وأخيرا ونظرا للتاريخ من هذا الاثر فقد حاولوا تشويهه وحاولوا احياء تاريخ ماقبل الاسلام من أجل تمزيق المسلمين وتفريقهم لان المنطقة التي انتشر فيها الاسلام في العالم شهدت أعرق حضارات التاريخ . وان اعتزاز كل شعب اسلامي بحضارة من هذه الحضارات يعتبر من وجهة نظر الاعداء من أسباب الخلاف والخصام وتقليل دور هذا التاريخ الحي .

* * *

أفغانستان

* الموقع والمساحة والمعالم الطبيعية :

تقع في وسط آسيا وتجاور الاتحاد السوفياتي (تركستان الغربية) في الشمال والصين الشعبية (تركستان الشرقية) في أقصى الشمال الغربي وباكستان في الشرق والجنوب وايران في الغرب وتبلغ مساحتهـــا (٠٠٠ر٦٥٠) كم٢.

وهي محاطة باليابسة وليس لها منفذ على البحر وتمتاز بكثرة جبالها العالية و هضابها الواسعة ففي الشمال الشرقي من البلاد تتربع هضبـــة باميرا على هضاب العالم وأشدها وعورة وتسمى سقف الدنيا وتقع بيـــن افغانستان وباكستان والصين .

وتتفرع منها جبال هندكوش العالمية التي تمتــد نحو الغرب والجنوب على شكل مروحة وجبال سليمان التي تشكل في معظم أجزائها الحد الطبيعي بين افغانستان وباكستان ، أما قلب افغانستان فتشغله هضاب فســيحة هي أهم مناطق الرعي في البلاد .

وفي الشمال يمر نهر جيحون (امو داريا) الذى يفصل بيـــن أفغانستان والاتحاد السوفييتي .

* المدن الرئيسية :

وفي افغانستان مدن كثيرة أهمها كابل (العاصمة) وهرات وقندهار ومزار شريف وغزنة .

* التاريـــخ :

عرفت بــلاد الافغان في القديم باسم اريانا وفي صدر الاســـلام باسم خراسان ثم أخذت في العصر الحديث اسم افغانستان وقد وصلهـــا الفتح الاسلامي في عهد الخليفة الثالث عثمان رضي الله عنه (٢٣) هجرى وحل الاسلام فيها محل البوذيــة والزردشتيه وقد أصبحت بلاد الافغـــان

بعد ذلك مركزا اسلاميا انطلق منه المد الاسلامي فمن هناك قام الفاتح المسلم محمد بن القاسم بفتح بلاد السند ووصل الى حدود الملتان ومن تلك الجبال انحدر السلطان محمود الغزنوى ينشر لواء الاسلام عبر نهر السند الى بلاد البنجاب والملتان والسند وغوجارت ومن كابل انطلق محمد بابر يتوغل في بلاد الهند ويؤسس الدولة المغولية التي انتشر الاسلام في عهدها حتى بلغ اقاصي الهند .

وفي القرن الماضي اخذت روسيا تزحف وتتوسع في أواسط آسيا فاحتلت بخارى وسمرقند واتجهت نحو بلاد الافغان فقاتلها الافغانيون ولن يمكنوها من احتلال بلادهم كما حاول الانكليز الذين كانوا قد تمكنوا من الهند أن يمدوا نفوذهم الى افغانستان فاشتبكوا مع القبائل الافغانية التي تتاخم الهند الانكليزية بمعارك ضارية ومتواصلة وأخيرا تمكن الانكليز من احتلال مناطق من بلادهم ولكنهم ذاقوا المر من بأس الافغانيين فكانوا لا يستقرون في كابل وقندرهار حتى يثور عليهم المسلمون وينكلوا بهم ولا يزال الانكليز يذكرون تلك الثورة التي افنى فيها الثوار وهم دون خمسة آلاف الجيش الانكليزى الذى كان حوالي (١٧) ألفا بمعداته الحديثة .

وقد تعلم الانكليز من تلك الموقعة ان الافغانيين غير جيرانهم الهنود وان الافغاني لا يقبل ان يطأ الأجنبي أرضه . وكان من أفضل امراء الافغان في تاريخها الحديث الأمير عبد الرحمن الذى وسع حدود بلاده من جهة الشرق واستولى على ولاية كافرستان التي هدى الله اهلها على يده الى الاسلام فسماها نورستان ثم جاء من بعده ابنه الاكبر حبيب الله ثم ابن حبيب الله امان الله الذى اشعل الحرب ضد الانكليز فصالحوه على الاعتراف باستقلال الافغان في الامور الخارجية ، كما باشر بتنظيم المملكة وتدريب الجيش وأرسل عددا وافرا من الطلاب للتحصيل في اوروبا ومن جملتهم اولاده واخواته الصغار ولكنه تطرف في الميل الى التغريب والاقتداء بالاوروبيين في كل شيء واعجبه مسلك مصطفى كمال في تركيا

وكثر كلامه في القضاء على العادات الاسلامية القديمة والتخلص من حجاب المرأة فانتقض عليه الشعب المسلم والجأه الى الفرار من بلاده ولكن البلاد وقعت في قبضة ابن السقاء وهو أحد قطاع الطرق المخربين وقد حكم البلاد عدة أشهر الى أن وصل السردار محمد نادر خان وكان قائد الجيوش الافغانية التي ابلت بلاء حسنا في حربها الانكليز وقاد رجال القبائل ضد ابن السقاء وقتله فاجتمعت كلمة الافغانيين عليه ونودى به ملكا على افغانستان باسم محمد نادر شاه عام ١٣٤٨ هـ ١٩٢٩ م ٠

ونهض محمد نادر شاه باعباء الملك الى ان اغتيل عام (١٩٣٣ فتسلم زمام الأمور ابنه محمد ظاهر شاه.

* **الحياة الاقتصادية :**

يعيش اكثر الشعب على الزراعة والرعي وتعتمد الزراعة المنتشرة في السهول والاودية على الرى وأهم المنتجات الزراعية القمح والشعير والرز والفواكه والقطن والسكر وأشهر ثروتها الحيوانية غنم الكركول (استركان) ذو الصوف الثمين وهو من أجود الانواع في العالم وتكثر الاحراج في أطراف الجبال والبلاد غنية بالمعادن ولكنها لم تستغل بعد بشكل جيد وأهمها الفحم الحجرى والحديد والنحاس .

أما الصناعة فقد اشتهر الافغانيون منذ القديم بصناعة السجاد كجيرانهم الايرانيين كما تقدمت في السنوات الاخيرة صناعة النسيج والاسمنت والسكر ولا تزال طرق المواصلات في افغانستان سيئة بسبب كثرة الجبال ووعورة الارض وقد اهتمت الدولة حديثا بشق الطرق وانشاء المطارات في عدد من البلدان ومنها المطار الدولي في كابل .

ووحدة النقد هي الافغاني وكل دولار يساوى ٢٢٫٥٠ افغانيا .

* **السكان واللغة والتعليم :**

يبلغ عدد السكان حسب تقديرات الدولة عام ١٩٦٣ — ١٤٫٦٨٤٫٠٠٠

نسمة (٩٩ ٪) منهم مسلمون معظمهم من أهل السنة وفيهم قليل من الشيعة ويتبع أهل السنة هناك مذهب الامام أبي حنيفة . وأغلب السكان من أصل قوقازى من البختونية والتاجيك ويميل الافغانيون من الأصل البختوني الى سكنى الجبال والرعي وقيادة القوافل التجارية ويتكلمون اللغة البختونية (البوشتو) التي تعد اللغة الرسمية للبلاد وهم يشكلون (٦٠ ٪) من السكان وأهم قبائلهم الباتان التي تقطن جبال سليمان .

أما التاجيك فيميلون الى الزراعة ويستقرون في السهول الزراعية القريبة من الحدود الايرانية وهم زراع وصناع وتجار مهرة ويتكلمون اللغة الفارسية وهوءلاء يشكلون (٣٠ ٪) من السكان وهم من أصل ايراني ولكنهم من أهل السنة المعروفين بتشددهم في الدين وهناك عناصر أخرى من السكان من أصل تركي ومغولي ومنهم الهزارة الذين يتبعون المذهب الشيعي .

والافغانيون معروفون بتمسكهم بآداب الدين الاسلامي وحرصهم على أداء فرائضه وهم مشهورون بالكرم والشجاعة وحسب الاستقلال .

وقد حرص الافغانيون منذ القديم على نشر الثقافة الاسلامية ولا تزال المعاهد الدينية في بلاد الافغان تضطلع بجانب كبير من مهمة التعليم كما أسست الحكومة حديثا الى جانبها المدارس الابتدائية والثانوية وجعلت تعليم الدين الاسلامي فيها اجباريا وأنشأت جامعة كابل . ولكن التعليم لا يزال مع ذلك محدودا .

=======

" الباكســـتان "

* **الموقعوالمساحة والمعالم الطبيعية :**

تتألف الباكستان من وحدتين جغرافيتين تفصل بينهما في أقرب نقطة مسافة (١٧٠٠) كم٢ وتبلغ مساحتها الكلية (٩٤٤٫٦٦٨) كم ٢

وتقع باكستان الغربية شمال غربي الهند وتتاخم في الشمـــال أفغانستان وفي الغرب ايران وتطل في الجنوب على بحر العرب. وتتباين طبيعة أراضيها من القمم الشاهقة المغطاة بالثلوج في الأجزاء العليا من جبال هيملايا الى صحراء السند القاحلة .

أما باكستان الشرقية فتقع شمال شرقي الهند وتتاخم مقاطعـة اسام الهندية وعلى طول الحدود الشمالية والشرقية واقليمي بنغال الغربي وبهار الهنديين من الغرب كما تجاور بورما في الجنوب الشرقي ، أما فـي الجنوب فتتفتح على خليج البنغال وتضم باكستان الشرقية القسم الاكبر في دلتا الغانج ، وهي سهول مفتوحة للمؤثرات البحرية القادمة من خليـج البنغال .

* **المدن الرئيسـية :**

في باكستان الغربية : اسلام اباد (العاصمة وهي في طورالانشاء) راولبندي (العاصمة المؤقتة) ، كراتشي (اكبر مدن باكستان) وميناؤها على بحر العرب و يزيد عدد سكانها (١٫٥) مليون حيدر اباد السـند وفي باكستان الشرقية دكا (عاصمة باكستان الشرقية) شيتاغونغ (وهـي ميناء على خليج البنغال) .

* **التاريـخ :**

كانت بلاد الهند قبـل بضع و عشرين سنة تضم جمهوريتي الهند وباكستان وقد عرف العرب بـلاد الهند منذ أقدم العصـور وتبادلـوا

معها التجارة من طريق البحر وحين جاء الاسلام حمل التجار والدعاة المسلمون هذا الدين الى أرض الهند ولم يتدخل الفتح الاسلامي الا في أواخر القرن الاول حين اعتدى الهنود بأمر من ملكهم داهار على التجار المسلمين فتقدم الجيش الاسلامي بقيادة محمد بن القاسم وهزم داهار وفتح جزءاً من بلاد السند ،كما استولى على الملتان في البنجاب وجعل لاهور مركزاً للثقافة الاسلامية وانتشر الاسلام في عهده انتشارا كبيرا وامتد في حوضي السند والغانج .

وفي مطلع القرن السابع الهجري قامت سلطنة دلهي الاسلامية في قلب شبه القارة الهندية ثم أسس بابر امبراطورية المغول الاسلامية الهند عام ٩٦٢ هـ وانتشر الاسلام في عهدها حتى بلغ أقاصي الهند وكان من أعظم ملوكها شاه جيهان واورانجزيب وفي القرن الثاني عشر الهجري تسابق الانكليز والفرنسيون على حيازة مناطق واسعة من الهند في الوقت الذي كان فيه المراتبون والسيخ يعملون على هدم الامبراطورية المغولية وقد استطاع الانكليز في القرن الماضي أن يتغلبوا على منافسيهم الفرنسيين وينفردوا بالسيادة في معظم أجزاء الهند وفي عام ١٢٧٣هـ ١٨٥٧ م ، ثار المسلمون في الهند على شركة الهند الشرقية البريطانية التي [illegible] تحكم البلاد فتدخلت الحكومة البريطانية بالعساكر [illegible] على آخر سلاطين الدولة المغولية وحينئذ [illegible] الانكليز في اخماد الثورة الى تفرق الكلمة اذ لم تنهض الولايات الهندية المستقلة لمساعدة الثوار .

وقد أخذ البريطانيون أثناء حكمهم يقصون المسلمين عن المراكز الادارية والمالية والعسكرية واستطاعوا بمحاباتهم الهندوس واعتمادهم عليهم واثارتهم احقادهم على المسلمين أن يقضوا على الممالك الاسلامية ويستقروا في الهند مدة طويلة وكانوا يحاربون الهنود بالهنود وقد جندوا منهم جيشا كبيرا بلغ أيام الحرب العالمية الثانية مليوني جندي .

ثم تنبه الهنود وحاولوا التخلص من الاستعمار البريطاني فاسس بعض زعمائهم سنة ١٣٠٢ هـ – ١٨٨٥م حزب المؤتمر الهندى الوطني الذى كان هدفه الاول حصول الهند على الحكم الذاتي. وتعاون المسلمون والهندوس في هذا المؤتمر فاضطرت بريطانيا الى أن تجعل للهنود نصيبا في حكم بلادهم وكان من أبرز زعماء هذا المؤتمر غاندى ومحمد علي جناح.

* تقسيم البلاد وقيام باكستان:

ولكن الحقد الوثني الدفين في نفوس الهنادك يعضده الحقد الصليبي عند المحتلين لم يترك مجالا للتعاون بين المسلمين وجيرانهم الهندوس الذين حاولوا تجاهل المسلمين والاعتداء على حقوقهم حتى بات التعايش معهم صعبا. وبعد أن كان المسلمون حكام الهند أصبحوا محكومين – للهندوسيين الذين اسرعوا الى تعلم اللغة الانكليزية واستلام الادارات تحت اشراف البريطانيين وزادت المنافسة بين الشعور الاسلامي والقومية الهندية التي كانت تتمتع بحماية البريطانيين وتشجيعهم. وشعر المسلمون بضرورة الانفصال وآمنوا بأنه لا بد من قيام دولة للمسلمين تحميهم من أذى جيرانهم واعتدائهم عليهم وهكذا ولدت فكرة باكستان وتمخض هذا الشعور أول الأمر عن تأسيس (الرابطة الاسلامية) عام ١٣٢٤هـ ١٩٠٦م وقد تعاونت الرابطة اول الامر مع حزب المؤتمر في حرب الانكليز ولكنها ادركت بعد ذلك ان اتجاه المؤتمر هو انشاء حكم هندى يتجاهل وجود المسلمين لان الهندوس هم الاغلبية فاعلنت الرابطة استقلالها وعملها لخدمة المسلمين والمطالبة بحقوقهم واقامة وطن لهم يمارسون فيه حياتهم الاسلامية وحين قامت الحرب العالمية الاولى اخذ المسلمون يناوئون – البريطانيين وقامت الثورات الداخلية وتحمل المسلمون أبشع أنواع الأذى من الانكليز الذين حملوا المسلمين تبعة العصيان المدني ومناصرة الدولة

العثمانية وامتلأت السجون بالمسلمين في الوقت الذى كان الهندوسيون يوالون الانكليز ويفكرون باستئصال المسلمين من بلاد الهند .

لذلك لم يعد من الممكن أن يرضى المسلمون الهنود بهذه الحال ولم يجدوا بدا من جمع شتاتهم والعمل لقيام دولة تحفظ عليهم دينهم وتحميهم من ظلم جيرانهم .

وكان من اعلام المفكرين العاملين لقيام الدولة الاسلامية شاعر الاسلام في الهند محمد اقبال وزعيم الحركة السياسية محمد علي جناح ويعد اقبال اول من فكر بانفصال الولايات التي تسكنها اغلبية من المسلمين وقد اعلن ذلك عام ١٩٣٠ في اجتماع حزب الرابطة الاسلامية في اسلاماباد وكان اقبال رئيس المؤتمر في ذلك الاجتماع وقد توفي اقبال قبل ان تتحقق امنيته بولادة باكستان .

أما محمد علي فقد كان زعيما عمليا أصر على قيام دولة باكستان ، وأعلن ان المسلمين لن ينزعوا من اعناقهم نير الانكليز باغلال الهندوس وقد وقف في وجه نهرو الذى حاول ان يتجاهل وجود المسلمين حين صرح بأن في الهند حزبين هما الحكومة الانكليزية وحزب المؤتمر الهندى وكان حزب المؤتمر آنذاك مواليا للانكليز وكان المسلمون يسامون سوء العذاب في السجون والمعتقلات فأعلن محمد علي جناح عندئذ بصراحة قائلا بل ان هناك حزبا ثالثا هو الامة الاسلامية فلم يبق بعدها لاى مسلم عذر في ان يبقى عضوا في المؤتمر الهندى او بعيدا عن الرابطة الاسلامية وفي عام ١٣٥٩ هـ - ١٩٤٠ م عقدت هذه الرابطة اجتماعا كبيرا حضره مائة الف مسلم اكدوا عزمهم على قيام الدولة الاسلامية وقرروا ان تتخذ الدولة المأمولة اسم باكستان ومعناه الارض الطاهرة .

وحاول الهندوس الذين أرادوا أن يسيطروا على جميع الهند منع المسلمين من اقامة دولتهم ولكنهم رضخوا أخيرا أمام صمود المسلمين

وتصميمهم على اقامة كيان مستقل لهم . وبدأ غاندى يفاوض محمد علي جناح في موضوع تقسيم الهند وقامت الثورات والمذابح وجاءت انتخابات ١٩٤٦ م صارخة بفوز حزب الرابطة بمقاعد المسلمين فلم يعدبا مكان الحكومة البريطانية والهندوس تجاهل رغبة مائة مليون مسلم في أن يعيشوا أحرارا في دولة مستقلة فوافق البرلمان البريطاني في عام ١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧ م على قيام حكومتين في الهند باسم (الهند) و (باكستان) ولكن أرض الهند لم تقسم بين الهندوس والمسلمين قسمة عادلة بل سيطر الهندوس ويدعمهم الحقد الصليبي البريطاني على كثير من بلاد المسلمين وكانت حكومة الهند ترسل الجيش ليستولي على المقاطعات المختلف عليها كما حدث في كشمير التي تبلغ نسبة المسلمين فيها اكثر من ٨٠٪ وكما حدث في حيدر اباد وكذلك استأثرت بالموانى الهامة مثل بمباى وكلكتا وبالمدن الكبيرة كدلهي وبمعظم الثروة الوطنية وأموال الدولة .

ولم يطفئ هذا كله الحقد الوثني بل قام الهندوسيون والسيخ بمذابح وحشية بين المسلمين وقتلوا مئات الالوف في دلهي وامرتسار وغيرهما وفي عربات القطارات المكتظة بالمسلمين المهاجرين من أطراف الهند الى دار الهجرة (باكستان) وكان الجيش الهندى هو الذى يشرف على هذه المذابح وهو الذى يطرد المسلمين الآمنين من بيوتهم في المناطق التي قررت حكومة الهند أن تكون تابعة لها . واستقبل المسلمون في باكستان تسعة ملايين من اخوانهم المهاجرين بروح اسلامية عالية مما اعاد الى الاذهان ذكرى استقبال الانصار اخوانهم المهاجرين .

وصبر المسلمون على هذه المحنة وسقوا غرستهم الغالية بالدم الطاهر واستطاعوا رغم محنتهم القريبة وامكاناتهم المادية المحدودة ان يقيموا بايمانهم دولتهم الفتية ولم يكن لهذه الدولة دور للحكومة أو رصيد يذكر من المال أو مصانع كافية أو جيش منظم فتعطلت مرافق

الحياة واضطربت الادارات ولكن لم تلبث باكستان ان تغلبت على المصاعب وبنت دولتها وصار لها جيش قوى واقتصاد ثابت . وقد تولى الزعيم محمد علي جناح منصب الحاكم العام في باكستان (١٣٦٦هـ - ١٣٦٧هـ) الموافق لـ (١٩٤٧م - ١٩٤٨م) ثم خلفه بعد وفاته الخوجا ناظم الدين ثم غلام محمد ثم الجنرال اسكندر ميرزا الذى انتخب رئيسا موءقتا فأعلن الاحكام العسكرية واقال اعضاء الحكومتين المركزية والاقليمية وحل البرلمان واوقف العمل بالدستور وعين الجنرال محمد ايوب خان القائد العام للجيش رئيسا للادارة العسكرية وحيث ثار الجيش على اسكندر ميرزا تسلم أيوب خان زمام الامور عام (١٣٧٨ = ١٩٥٨م) .

ولما قامت الاضطرابات الاخيرة وسادت الفوضى ارجاء البلاد وعجز الرئيس ايوب خان عن اعادة الاستقرار اعتزل الحكم واستلم مهامه السيد يحيى خان الذى قام أخيرا بتنفيذ وعده بالعودة بالبلاد الى نظام الديمقراطي فقام باجراء انتخابات عامة في البلاد أسفرت عن فوز حزب عوامي برئاسة مجيب الرحمن باغلبية مطلقة في باكستان الشرقية وفي برلمان البلاد كذلك وعند فوز حزب الشعب بقيادة ذو الفقار علي بوتو أغلبية مقاعد باكستان الغربية ويخشى من بوادر الانفصال بين اقليمي البلاد لان في بعض البنود الستة التي خاض الشيخ مجيب الرحمن الانتخابات على أساسها مايشير الى نوع من الاتحاد الفدرالي بين الاقليمين ولعل الدوائر الاستعمارية والامريكية بصفة خاصة تغذى مثل هذه النزعة التي وقعت في كفتها أحداث الاعصار الرهيب الذى اجتاح باكستان الشرقية موءخرا ويخشى أن يضرب بهذه الانتخابات عرض الحائط ويبقى الجنرال يحيى خان يدير دفة البلاد اذا لم يحسن زعيما الحزبين الموافقة بين رغبات أهالي الاقليمين على الشكل الذى يحفظ للبلاد وحدتها الكاملة بوجه الجارة العدو الهند .

* الحياة الاقتصادية :

باكستان من البلاد الزراعية ،وتعتمد الزراعة في كثير من مساحتها على مياه الانهار ، لذلك قامت فيها السدود الكثيرة ، ويعمل ثلاثة أرباع السكان بالزراعة ، وهي تنتج كميات كبيرة من الرز والقمح والجوت (القنب) والقطن والشاي والبذور الزيتية . ويزرع أكثر الجوت في باكستان الشرقية وهو من أفضل الانواع المعروفة في العالم وتنتج منه باكستان (٨٠ ٪) من محصوله العالمي .

وفي باكستان ثروة حيوانية جيدة تساعد مع صيد الاسماك الكثيرة في سد حاجة السكان الغذائية كما تعد الاحراج الكثيرة واردا لا يستهان به في اقتصاديات البلاد .

باكستان غنية بالمعادن ولكنها لم تستغل على نطاق كبير ،ففيها البترول والغاز الطبيعي والفحم والكروم .

أما الصناعة فهي تتقدم مستمرا وقد اتسعت صناعة الغزل والنسيج وصناعة السكر والاسمنت والجوت والزجاج والورق والمحركات . كما انشئت مصانع للراديو والمصابيح الكهربائية والاسمدة الكيماوية وفي باكستان اليوم مصانع لصب الحديد والفولاذ وتركيب القطر الحديدية.

وقد تطورت صناعة السفن الحديثة والموانيء الباكستانية ـ كرتشي وشيتاغونج.

وعملت الدولة على تحسين طرق المواصلات التي كانت محدودة عند التقسيم وفيها اليوم شبكة جيدة من السكك الحديدية اما الملاحة الداخلية فتعد من الوسائل الرئيسية للمواصلات في باكستان الشرقية وكراتشي اكبر مركز للطيران في البلاد .

ووحدة النقد في باكستان هي الروبية وتساوى ٢١ ٪ من الدولار.

السكان واللغة والتعليم :

بلغ عدد سكان الباكستان حسب تقديرات الامم المتحدة لعام

١٩٦٢ (٩٦٫٥) مليون نسمة (٨٨٪) منهم مسلمون ، أما الباقـــون فأكثرهم من الهندوس .

ويتصف الشعب الباكستاني بالذكاء والقوة والجلد والزهد بالمظاهر المادية وهو معروف بتمسكه بالاسلام ورغبته في خدمة العلوم الاسلاميـــة ولا سيما الحديث . ويتكلم أهل باكستان الشرقية اللغة البنغالية وأهـــل باكستان الغربية اللغة الاوردية ولا تزال للغة العربية مكانتها في نفـوس الباكستانيين لانها لغة الاسلام وهي منتشرة ومعروفة عند طلبة العلم .

وفي باكستان معاهد وجامعات اسلامية كثيرة تهتم باللغة العربية والعلوم الاسلامية وقد تقدم التعليم بعد الاستقلال تقدما ملموسا . وأصبح فيها عدد كبير من المدارس الابتدائية والثانوية والكليات الجامعية ويدرس الدين الاسلامي في كافة المدارس والكليات بالاضافة الى تعليمه فـــــــي المساجد والموءسسات الدينية الخاصة .

* الاوضاع الحاضرة :

باكستان جمهورية فتية ودينها الرسمي هو الاسلام . وقد لقيت منذ قيامها صعوبات كثيرة داخلية وخارجية كان من أهمها تقسيم البلاد وتعيين الحدود ولا تزال كشمير من أهم القضايا التي تشغل بال المسلمين فكشمير يربطها بباكستان روابط متينة ليس للهند منها فأرضها جزء طبيعي مـن باكستان الغربية ومن جبالها العالمية تنبع مجارى ونهر السند والاسلام دين غالبية السكان ولكن الهند ضمت القسم الاكبر من كشمير اليها بالقـوة وحين ثار المسلمون في كشمير مطالبين بالانضمام الى اخوانهم المســلمين أرسلت حكومة الهند الى كشمير مائة الف من جنودها ودعمت حكم المهراجا الحاكم الهندوسي ، كما أرسلت باكستان جيشا لمساعدة أهل كشمير .

فتدخلت هيئة الامم المتحدة وقررت وقف اطلاق النار واجـــراء استفتاء حـــر تحت اشرافها ولكن الهند لم تنفذ فعادت الحرب ثانيـــة بين الدولتين ثم توقفت دون ان تحل المشكلة .

ومن المصاعب التي تقف في وجه تقدم باكستان انقسامها الى وحدتين وصعوبة الاتصال بينهما مما سهل للاعداء الخارجيين استغلال هذا الامر واثارة المشكلات ودفع المعارضة المنحرفة للمطالبة بالانفصال وتجزئة باكستان الى دولتين خطوة كبيرة الى تهديم هذه الدولة التي جمعها الاسلام وباكستان محاطة باعداء كثيرين فهي تجاور الهند الجارة اللدود التي لا تفتأ تعمل على ابتلاع باكستان واذلال سكانها المسلمين . كما أنها تجاور الدول السوفياتية المتربصة بالاسلام والتي لا تزال تحرك اتباعها لاثارة الفتن واستغلال الظروف القاسية التي تمر بها باكستان .

وعلاقة باكستان بالدول الاسلامية جيدة . وقد كانت علاقتها بأفغانستان اول الامر سيئة بسبب النزاع على الحدود ثم عادت العلاقات الطيبة وهناك صلات تجارية وثقافية بين باكستان وكثير من الاقطار الاسلامية وفي باكستان اليوم حركة اسلامية قوية وتعد (الجماعة الاسلامية) التي يرأسها السيد ابوالأعلى المودودي من أقوى الجماعات العاملة في ميدان الدعوة الاسلامية ولما كان الاسلام هو المبرر الوحيد لوجود باكستان وعلى أساسه قامت هذه الدولة الفتية .

فان الشعب المسلم بباكستان مصمم على أن يكون الاسلام نسيج حياته وهو يسعى وراء علمائه العاملين ليحقق هذه الأمنية الغالية واذا لم يسارع المسؤولون الخطى الى تطبيق أحكام الاسلام استفحل خطر التيارات المنحرفة التي تتجاوب مع مكايد الاعداء المتربصين وتنحرف بالارض الطاهرة عن الخط السليم الذى رسمه لها البناة المخلصون (راجع مجلة الاسبوع العربي العدد /٦٠٦/ تاريخ ١٨ كانون ثاني سنة /١٩٧١/) .

=====

" اندونيسيا "

* **الموقع والمساحة والمعالم الطبيعية :**

تعني اندونيسيا جزر الهند الشرقية وهي ارخبيل عظيم يقع جنوبي شرقي آسيا . ويتألف من ١٣٦٧٧ جزيرة منها ٦٠٤٤ جزيرة مأهولة .

وأكبر هذه الجزر مساحة (كاليمانتان) ، (وهي جزيرة بورنيو — باستثناء القسم التابع لماليزيا ثمسومطرة وايرايان الغربية وسولاويسي وجاوة وماد ورا . ولكن أهم هذه الجزر وأكثرها سكانا جزيرة جاوة وفيها العاصمة جاكرتا وتبلغ مساحة اندونيسيا / ١٫٩٠٠٫٠٠٠ /كم٢ ترتفع في أوساط الجزر الكبرى سلاسل من الجبال مكسوة بغابات كثيفة وفي بعض الجبال براكين قسم منها مشتعل ،اما السفوح والسهول الساحلية فهي مناطق زراعية غنية .

* **المدن الرئيسية :**

أهم المدن الاندونوسية في جاوة : جاكرتا وهي العاصمة ويقدر عدد سكانها الآن بنحو (٤) ملايين نسمة وهي ميناء هام وفيها اكبر مركز للخطوط الحديدية والبرية في البلاد ثم سوار بابا وباند ونغ وجوكجاكرتا . وفي سمطرة ميدان وبالبانغ وفي كاليمانتان : بنجرماسين .

* **التاريخ :**

تأثرت اندونيسيا في القديم بجاراتها فتفشت فيها الهندوسية والبوذية وحين جاء الاسلام حمل التجار المسلمون من الهند والبلاد العربية مشعل الهداية الى هذه الجزر ولكن انتشار الاسلام بقي محدودا حتى مطالع القرن السادس الهجرى .

اذ استطاع بعض الدعاة بوعظهم نشر الدين الاسلامي في بعض أرجاء سومطرة وحين اهتدى ملك سومطرة الى الاسلام في القرن السابع الهجرى قامت هذه الجزيرة اول مملكة اسلامية اهتمت بنشر الاسلام في تلك الربوع النائية ويروى لنا ابن بطوطة في رحلاته أخبارا ممتعة

من هذه الدولة الاسلامية المزدهرة وما جاء القرن التاسع الهجرى حتى عم الاسلام سكان جزراندونيسيا وقامت فيها ممالك عديدة .

وهكذا بزغ نور الاسلام في تلك الجزر الخضراء ووصل الى مالم تصل اليه جيوش الفاتحين وان دخول مائة مليون نسمة في الاسلام في تلك البلاد البعيدة على الرغم من الاستعمار الاوروبي الطويل وحرية العقيدة للمسلمين لدليل على عظمة الاسلام وسهولة اهتداء الفطر السليمة اليه .

ولو لم تحمله اليها كتائب الفتح التي كانت تزيح من طريقها الطغاة المتعنستين .

ولكن التجار البرتغاليين الذين وصلوا الى تلك الجزر في اوائل القرن العاشر الهجرى وجدوا فيها حكومات ضعيفة وطمعوا في موقع هذه الجزر وثرواتها الطبيعية فبسطوا سلطانهم التجارى على بعض مرافئها .

وجاء بعد ذلك التجار الاسبنيون ثم زاحمهم الهولنديون الذين أسسوا شركة الهند الشرقية ونجحوا سنة ١٠٦٥ هـ = ١٦٥٥ م عقد معاهدة مع اندونيسيا وبدأوا استثمارهم للبلاد . وبتصفية أعمال الشركة التجارية اشرفت الحكومة الهولندية مباشرة على ادارة تلك الجزر . ولقد استمرت مقاومة الشعب لهذا الاستعمار البغيض طول مدة حكمه وبخاصة في شمال سومطرة التي تسقط نهائيا عام ١٣٢٥ هـ = ١٩٠٧ ولكن الثورات العنيفة كانت تقمع بوحشية وحين اشتعلت نار الحرب العالمية الثانية احتل اليابانيون اندونيسيا واطلقوا سراح زعمائها المعتقلين فأعلن الزعماء الاندونيسيين استقلال البلاد وقيام الجمهورية اندونيسيا المستقلة وبسطوا نفوذهم على جاوة ومادورة وسومطرة ولكن الهولنديين الذين عادوا الى البلاد مع الجيوش البريطانية في أعقاب الحرب قاوموا الحركة الوطنية ونشب القتال واستمر طويلا

حتى اضطرت هولندا أخيرا الى الاعتراف بالحكومة الاندونيسية ونقل السلطات اليها عام ١٣٦٨ هـ - ١٩٤٩م وتولى الدكتور احمد سوكارنو زعيم الحزب الوطني رئاسة الجمهورية بينما تولى الدكتور محمد ناصر رئيس الحزب ماشومي (مجلس شورى مسلمي اندونيسيا) .

ثم زميله في حزب ماشومي الدكتور سوبكيمان رئاسة الوزراء ثم قامت في البلاد انتخابات مجلس نيابي كان بينها حزب ماشومي والحزب الوطني أقوى الاحزاب فألف الحزب الوطني حكومة ائتلافية ولكن هذه الدولة الفتية تعرضت منذ نشأتها لمشكلات داخلية اذ دارت رحى الخلاف بين زعماء البلاد حول الأسس التي تقوم عليها هذه الجمهورية الجديدة ولقد رفضت الجمعية التأسيسية محاولة الرئيس سوكارنو انفراده بالسلطة ومناداته بنظرية الديموقراطية الموجهة فألغى الجمعية التأسيسية ثم حل البرلمان وحارب الاحزاب المعارضة لسياسته الفردية فقام بوجههزعماء حزب ماشومي أقوى حزب سياسي في البلاد مع بعض زعماء المعارضة وفريق من ضباط الجيش واعلنوا الثورة المسلحة ولكن سوكارنو يحتال على قادة الثورة ويسجنهم ويقضي على ثورتهم ثم اعتمد على الجيش الذى أصبح له نفوذ كبير بعد القضاء على هذه الثورة وقد اصبح سوكارنو الحاكم المطلق بعد أن اعطته الجمعية التأسيسية الجديدة لقب القائد العظيم وانتخبته عام ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣ م رئيسا مدى الحياة وجعله فوق الدستور .

وقاوم سوكارنو الحزب الاسلامي المعارض واعتمد على الحزب الوطني وعلى الحزب الشيوعي المؤيد لسياسته وعمل على انتشاره ودعمه حتى أصبح أقوى حزب شيوعي في العالم الاسلامي وظن هذا الحزب أنه أصبح قادرا على قطف الثمرة واستلام الحكم فتعجل في الوثوب على اكتاف سوكارنو الى قيادة الجيش واغتال الجنرالات الستة بمجزرة رهيبة سنة ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥ ولكن هذه المحاولة فشلت بفضل وعي الشعب الاندونيسي المؤمن ، اذ

برزت الى الساحة منظمة اتحاد الطلبة المسلمين في اندونيسيا وقادة الشعب في حركته ضد هذه المحاولة وتسلم السلطة سوهارتو الذى انتخب عام ١٣٨٧ هـ — ١٩٦٨ م رئيسا للجمهورية .

* الحياة الاقتصادية :

تتمتع اندونيسيا بثروة طبيعية ضخمة بسبب غنى التربة ووفـــرة الامطار ولكن الاستعمار الهولندى عمل خلال قرونه الثلاثة على الاستثمار بخيرات البلاد وترك غالبية الشعب في حالة فقـــر وحين نالت البـــلاد استقلالها بدأت تعمل على حسن الاستغلال لموارد ها الطبيعية والاستفادة منها في بناء اقتصاد متين ومن أهم هذه الموارد الحاصلات الزراعية الكثيرة فهي تنتج (٤٠ ٪) من المطاط في العالم كما تزرع الرز والقمح وقصب السكر وزيت البلح والكينا والبن والشاى والكاكاو والافادية (البهارات) .

كمـا تستفيد من الاخشاب في غاباتها الكثيفة والاثمار من سواحلها الممتدة وتغطي الغابات ثلثي مساحة اندونيسيا وتغطي أخشاب التاكـــا وغيرها كما ان السواحل الطويلة تمد الشعب بمورد غذائي جيد وأهم معادنها البترول والقصدير والبوكيست والمنغنيز والحديد .

أما الصناعة فلا تزال ضعيفة لا تقوم بحاجة البلاد واهمها صناعـة النسيج التي تقدم الملبوسات الاندونيسية التقليدية وفي البلاد خطوط مواصلات متنوعة وكافية وبخاصة في جاوة وتعتمد المواصلات في كثير من الجزر على الخطوط البحرية حيث تلعب السفن الشراعية دورا هاما في التجارة الداخلية وفـــي ندونيسيا كذلك عدة موانئ نشيطة للتجارة الخارجية وأهمها في جاكرتا وسورابا وميدان .

وفي جاكرتا مطار دولي والوحدة النقدية هي الروبيه ويساوى الدولار الامريكي (٤٥) روبية .

* السكان واللغة والتعليم :

بلغ عدد السكان حسب تقدير الحكومة لعام ١٩٦٧ م (١١٠) ملايين نسمة وهي بذلك خامس دولة في العالم في تعداد السكان وتأتي بعد الصين الشعبية والهند والاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الامريكية ويجتمع حوالي (٧٠) مليون نسمة في جاوة ومادوره ، بينما يقل عدد السكان كاليانتان وايريان الغربية ، ويبلغ المسلمون (٩٤ ٪) من مجموع السكان .

أما الباقون فهم من الوثنيين والنصارى ولغة السكان هي الاندونيسي الشبيهة بلغة الملايو ، وكانت تكتب مثلها بحروف عربية ولكن عهد الاستعمار الطويل أحل محلها الحروف اللاتينية .

أما اللغة العربية فهي معروفة عند كثير من طلاب العلم ، وهناك آلاف المدارس الاسلامية في اندونيسيا تعلم اللغة العربية والدراسات الاسلامية ولغة القرآن وأهمها الجامعة الاسلامية في جوكرتا .

****

ـ افريقيـــا ـ

قبل حديثنا من البلاد الاسلامية في القارة الافريقية لابد من كلمة وجيزة في التعريف بهذه القارة .

هي احدى قارات العالم القديم وتبلغ مساحتها حوالي (٣٠) مليون كم٢ ويفصلها عن اوروبا في الشمال البحر الابيض المتوسط وعن آسيا فـــي الشرق المحيط الهندى والبحر الاحمر ، بينما يمتد المحيط الاطلسي فـــي غربها من مضيق جبل طارق الى رأس الرجاء الصالح .

وتقع معظم القارة في المناطق المدارية ولكن أطرافها معتدلـــة المنـــاخ .

وتشغل الصحارى مساحة واسعة من اراضيها . ومصادر القـــوة المائية متوفرة ولكنها لم تستغل بعد . وتقوم الزراعة معتمدة على المطـــر والري في كثير من الجهات والثروة المعدنية فيه لا بأس بها ولها الصدارة بين قارات العالم في انتاج الماس والذهب واليورانيـــم ولكن القارة فقيرة نسبيا في البترول .

دخل الاسلام الى القارة الافريقية منذ أيامه الأولى حين هاجـــر المسلمون الاولون الى الحبشة هجرتهم الاولى ووجدوا في النجاشي ملجـــأ يحميهم من ظلم كفار قريش ثم دخل المسلمون هذه القارة فاتحين أيـــــام عمر رضي الله عنه ولم يلبث شمال افريقيا ان دخل في حكم الاسلام . ومنـــذ ذلك الحين قامت للاسلام دولته في هذه القارة وأخذ يمتد نحو الجنوب باحتكاك المسلمين بالافريقيين الوثنيين حتى أصبح الدين السائد فـــي شمال افريقيا واوسطها وقد نشر الاسلام في تلك الربوع حضارته الانســـانية : واخرج الناس من الوثنية وعبادة الطوطم الى عبادة الله وعلم تلك القبائل التائهة في دوامة الصحراء باعماق الغابات كيف يرقى الانسان الى حضـــارة اللباس والعلم ومكارم الاخلاق .

ظل الاوروبيون النصارى يجهلون هذه القارة فيما عدا الشريط الشمالي منها حتى كان القرن التاسع الهجري حيث بدأ الغزو البرتغالي ثم تسابقت الدول الاوروبية الى اكتشاف مجاهل افريقية واستعمار أقطارها طمعا في خيراتها وموارد ها البكر . ومنذ عشرين سنة لم يكن في افريقيا كلها من الدولة المستقلة الا مصر والحبشة وليبيريا واتحاد جنوب افريقيا وكان استقلالها غير تام .

وبدأت شعوب افريقيا بعد الحرب العالمية الثانية تكافح من أجل التحرر والاستقلال ولم يمض غير سنوات معدودة حتى أصبحت معظم الاقطار الافريقية تملك استقلالها .

حاول الاستعمار الاوروبي خلال السنين الطويلة التي حكم فيها افريقيا ان يمد جذوره ويستقر في هذه القارة الغنية بثرواتها الطبيعية وموارد ها الكثيرة فشجع استيطان الاوروبيين فيها وملأها بالمبشرين وساعدهم على نشر النصرانية التي أخذت طريقها بصعوبة الى بعض القبائل الوثنية في افريقيا الجنوبية والوسطى . ولكنها استطاعت بعد بدعم من الاستعمار الذى ساد القارة قرونا أن تصل ببعض اتباعها الى مراكز الحكم والادارة في كثير من الاقطار الافريقية ولكن الاسلام بما فيه من مقومات تنسجم مع فطرة الانسان السليمة لا يزال يغالب النصرانية ويسابقها على الرغم من قسوة ظروفه وضعف دعاته . وقد بلغ عدد المسلمين فيها اكثر من (١٧٠) مليون وهم اغلبية السكان في هذه القارة .

======

نيجيريا

* الموقع والمساحة والمعالم الطبيعية :

تحدها شمالا النيجر وشرقا الكمرون ، وجنوبا خليج غينيا على المحيط الاطلسي وغربا داهومي وتبلغ مساحتها (٩٥٢ر٩٦٨) كم٢.

وتنسب نيجيريا الى نهر النيجر الذى يمر فيها . وتتكون أراضيها من سهول ساحلية واسعة تتوسطها دلتا وتقسم اودية نهرى النيجر وبينونيجريا الى ثلاثة أقسام تتكون منها الاقاليم الثلاثة.

// الشمالي والغربي والشرقي //

* الاقاليم والمدن الرئيسية :

نيجيريا جمهورية اتحادية عاصمتها لاغوس وتضم أربعة أقاليم تكون اتحادا فيدراليا وهي :

١ـ الاقليم الشمالي : عاصمة (كادونا) وأهم مدنه كانو ـ وسكوتو ـ وزاريا وكاتسينا .

٢ـ الاقليم الغربي : وعاصمته (أنانان) ومن مدنه اغبوموشو ـ واشغبو.

٣ـ الاقليم الشرقي : وعاصمته (انوفو) ومن مدنه اونيتشا ـ وبورهاركور.

٤ـ الاقليم الغربي الاوسط : وعاصمته (بنين) ومن مدنه سبيل وقد شكل بعد الاستقلال عام ١٩٦٢م نتيجة استفتاء عام.

كذلك نعد في هذا الاتحاد الكمرون الشمالي الذى انضم الى الاتحاد عام ١٩٦١ وكان تحت الوصاية البريطانية . ومنطقة العاصمة الفيدرالية لاغوس . ولاغوس ميناء تجارى على خليج غينيا .

* التاريخ :

دخل الاسلام نيجيريا منذ القرن الثاني الهجرى مع التجار والمرشدين والوافدين من الشمال الافريقي وفي القرن الثامن الهجرى أخذت البلاد طابعا اسلاميا واضحا عندما دخل الفولانيون المسلمون نيجيريا وامتزجوا

• بطريقة سلمية بالهوسا في الشمال ، اما الجنوب فكانت قبائل اليوروبا لا تزال ممعنة بوثنيتها وقد ازدهرت الممالك الاسلامية في الشمال في نهاية القرن العاشر الهجرى فقامت فيه دول الهوسا ومملكة بورنو الاسلامية التي بلغت مستوى حضاريا جيدا .

ولكن الحضارة الاسلامية انحطت بعد ذلك في نيجيريا حتى كانت مطالع القرن الماضي اذ قام عثمان دان فوديو الفولاني بنشر تعاليم الاسلام واحياء الروح الدينية في البلاد وجمع زعماء الهوسا تحت ادارة واحدة واجتمعوا على دعوته وخلعوا عليه لقب أمير المؤمنين وأرسل أمراء لنشر الاسلام في الجنوب الوثني وامتد نفوذ الفولانيين المسلمين في الشرق والغرب والجنوب وبذلك قامت في الاقليم الشمالي من نيجيريا مملكة اسلامية مزدهرة .

وفي الوقت نفسه كان الاوروبيون قد تمكنوا في الجنوب في المناطق الوثنية وأقاموا علاقات تجارية مع اليوروبيين .

وفي سنة ١٢٤٦ هـ = ١٨٣٠ م تم للرواد الاوروبيين اكتشاف النيجر بكامله .

ولم يلبث المبشرون والتجار أن تبعوهم ليمهدوا الطريق للمستعمرين ابتداء من لاغوس وعلى ضفاف النيجر .

وبعد أن اتفق الفرنسيون والانكليز على الحدود بدأ الانكليز بالتوغل في الداخل وما جاء القرن الحالي الا وكانت نيجيريا محمية بريطانية في الشمال ومستعمرة في الجنوب وفي اعقاب الحرب العالمية الاولى احتل البريطانيون غربي الكاميرون وحكموها جزءا من نيجيريا .

ثم أخذت البلاد تتململ من حكم المستعمرين وتطالب بالتحرر من نيرهم وفي عام ١٣٧١ هـ = ١٩٥٢م ظهر في الاقليم الشمالي حزب مؤتمر الشعوب الشمالية) بزعامة الحاج أحمد وبلو ، أحد أحفاد

الشيخ عثمان دان فوديو وفي العام التالي طالبت الحكومة باستقلال نيجيريا فتم لها ذلك وظهرت جمهورية نيجيريا الاتحادية المستقلة وتولى رئاسة الجمهورية الدكتور ازيكيوى وبقي الحاج أبو بكر رئيسا للوزارة الاتحادية بينما كان السيد احمد بوطو رئيسا لحكومة الاقليم الشمالي . ولكن الاستعمار الذى ساءه أن يكون زعماء نيجيريا الشمالية والحكومة الاتحادية مسلمين خلافا لما هي في أغلب الدول الافريقية من حكم الاقلية المسيحية الاغلبية المسلمة فدفع قبائل الايبو أذنابه في البلاد الى أن ينفذوا بوحشية مجزرتهم الرهيبة فقام بعض ضباط الجيش باغتيال الشهيدين بوبكر تفاوه بليو واحمد وبلو ومن قدروا عليه من زعماء المسلمين وضباطهم البواسل في أواخر رمضان سنة ١٣٨٥ هـ كانون الثاني ١٩٦٦م وفر المجرمون بعد أن نفذوا مؤامرتهم واستلم زمام البلاد شريك القتلة الجنرال ايرونسي القائد العام للجيش ولم يدم الأمر طويلا حتى ثار الجيش النيجيرى على الضباط الخونة واسترد منهم مقاليد الحكم بعد أن انتقم منهم لزعمائه .

ولكن الاستعمار الخبيث لم يرضخ لانتصار أبناء البلاد فدفع الاقليم الشرقي (بيافرا) الى اعلان انشقاقه عن الدولة الاتحادية ، واستطاع هذا الاقليم المنشق بمساعدة الدول الاستعمارية وامداداتها المتواصلة الصريحة او المستترة بالصليب الاحمر أن يقاوم جيش الحكومة الاتحادية مدة طويلة ولكن مقاومة الانفصاليين انهارت أخيرا في ٥ ذى القعدة ١٣٨٩هـ كانون الثاني ١٩٧٠ م وهرب زعيمهم اوجوكو مع أعضاء حكومته ونحن لا نستبعد أن تظهر الصليبية والاستعمار مرة أخرى في زى جديد لتمثل دورها الخبيث على مسرح نيجيريا المسلمة .

* الحياة الاقتصادية :

نيجيريا بلد زراعي وتقع اكبر المساحات المزروعة في الشمال والجنوب وأهم المحصولات الزراعية الكاكاو وزيت النخيل والفول السوداني، ونيجيريا

غنية بالثروة الحيوانية والغابات .

أما المعادن فأهمها القصدير والكولمبيت (1) والفحم الحجرى — والبترول ولا تزال الصناعة ضعيفة ولكنها بدأت تتطور بسرعة بعد الاستقلال لأنها تملك اليد العاملة والمواد الاولية والأسواق الكبيرة .

وشبكة المواصلات في البلاد جيدة فهي تملك الطرق المعبدة والسكك الحديدية وتقوم فيها الملاحة النهرية والبحرية وفيها مطاران دوليان في كانوفي الشمال ولاغوس في الجنوب .

ووحدة النقد هي الجنيه النيجيرى . ويساوى في قيمته الجنيه الاسترليني .

* السكان واللغة والتعليم :

يبلغ عدد سكان نيجيريا (٥٥) مليونا و (٧٥ ٪) منهم مسلمون والباقون من الوثنيين والنصارى ويعيش في الاقليم الشمالي اكثر من نصف السكان ، (٩٩ ٪) منهم مسلمون وهم من قبائل الهوسا والفولا ويعملون بالزراعة والرعي والتجارة وللدين مكانة كبيرة في نفوسهم ولكنهم لا يزالون متخلفين سيطر عليهم بعض المعتقدات المنحرفة والعبادات الغريبة والطرق المنتشرة هناك متناحرة فيما بينها وأهم هذه الطرق التيجانية والقادرية . والمذهب السائد في نيجيريا ومعظم أقاليم افريقيا هو المذهب المالكي . وفي كل مدينة امير لا تقام صلاة الجمعة إلا في مسجده ولو ضاق على المصلين .

---

(1) : يستعمل الكولمبيت خليطا للفولاذ لتقوية مقاومته لدرجات الحرارة المرتفعة عندما يستعمل الفولاذ في توربينات الغاز ومحركات الطائرات النفاثة ويستخرج من نيجيريا (٨٠ ٪) من انتاج الكولمبيت في العالم .....

وقد عمل الاستعمار خلال حكمه على تجهيل المسلمين لاضعافهم وجعلهم عاجزين عن ادارة شؤون بلادهم لذلك نرى أكثر الموظفين والغنيين في الشمال من الايبو أو اليورييين النصارى .

أما اللغة السائدة فهي لغة الهاوسا التي يفهمها أكثر النيجيرين وتعد لغة التجارة في أكثر مناطق السودان وهي تكتب بالحروف العربية أو اللاتينية .

وأما العربية فلا تزال تحتفظ برصيد جيد عند المسلمين اذ يعدون تعلمها ضروريا لفهم أحكام الدين ولكن الاستعمار الذى أراد أن يقطع أواصر القربى بين المسلمين حارب المدارس العربية حربا لا هوادة فيها . وانشأت مدرسة الشريعة في كانو لتخريج القضاة والائمة المسلمين . وهي تهتم اهتماما كبيرا بتعليم اللغة العربية ويتفرع عنها عدد من المدارس الاسلامية .

أما الاقليم الغربي فتسكنه قبائل اليوروبا التي كانت ممعنة في الوثنية ولكن الوثنية كادت ان تنمحي هناك أمام الاسلام الذى امتد نوره من الشمال والمسيحية التي دخلت مع المستعمرين من الجنوب وقد تأثرت هذه القبائل بالعبادات الاوروبية .

ويعلم هذا المعهد الاسلام والعربية ويؤمه طلبة العلم من نيجيريا والبلاد الافريقية المجاورة .

وقد جاء في أهدافه أنه معهد اسلامي عربي لتعليم اللغة العربية والثقافة الاسلامية .

وللمعهد فرقة من الجوالة تسمى الجوالة العربية ويتبع هذا المعهد (٨٠) مدرسة لتعليم العربية والاسلام .

وأما الاقليم الشرقي فتعيش فيه قبائل الايبو التي تنصر معظمها بتأثير التبشير الذى سبق الى هذه المنطقة ونجح بعون المستعمرين وقد

شغل كثير من أبناء هذا الاقليم مناصب ادارية وعالية في الغرب والشمال وكانوا عونا للمستعمرين في حكم الاقليم النيجرية ولكن اهميتهم تضاءلت بعد الاستقلال وانتشار الوعي والثقافة في الاقليميين الشمالي والغربي وقد خلف المستعمر وراءه شعور العداوة والبغضاء بين أبناء هذا الاقليم وبقية النيجيريين .

وأما المسلمون في هذا الاقليم فهم قلة .

وقد سار التعليم في نيجيريا بعد الاستقلال خطوات واسعة وبخاصة في الاقليم الشمالي الذى ينتظر أن يلحق بركاب الاقاليم الأخرى وفي البلاد اليوم اكثر من الف مدرسة ثانوية وخمس جامعات ومئات المعاهد لاعداد المعلمين .

أما المدارس العربية في نيجيريا فمع أنها تبلغ (١٥٠) مدرسة تابعة الى مركز غيغي في الجنوب أو مدرسة الشريعة في كانو في الشمال فهي ضعيفة ولا تقف امام العدد الضخم من المدارس التبشيرية المدعومة بالاموال والاختصاصيين الذين يخططون للقضاء على الاسلام في افريقيا .

+++++++++++

الصومـــال

* **الموقع والمساحة والمعالم الطبيعية :**

تقع جمهورية الصومال شرقي افريقيا ويحدها من الشمال خليـــج عدن ومن الشرق والجنوب المحيط الهندى ومن الغرب كينيا واثيوبيــا (الحبشة) وتبلغ مساحتها (٦٨٥٠٠٠٠) كم^2 والبلاد بصـورة عامـــة هضبة بها سهل ساحلي قاحل .

* **المدن الرئيسية :**

أهمها مقاديش وهي العاصمة والميناء الرئيسي للصومال وتمتـاز بطابعها الاسلامي الواضح وفيها (١٤٨) مسجدا وكانت مركزا للصومــال الايطالي ثم هرجيسه وتقع في الداخل وكانت مركزا للصومال الانكليـزى . وكسماوى يووزيلع وبربره .

* **التاريــخ :**

كانت الصلة وثيقة منذ القدم بين الجزيرة العربية وبين الصومــال وغيره من بلدان شرقي افريقيا وحين جاء الاسلام ازدادت الصلة برحلـــة التجار وبهجرة بعض القبائل التي حملت الدين الجديد الى تلك المناطق وقد انتشر الاسلام انتشارا واسعا في الصومال بين القرنيين الرابع والسادس الهجريين وامتد الى داخل البلاد الحبشة النصرانية وقامت في الصومال عدة سلطنات اسلامية أهمها عدل ــ وايقان ــ وهرر .

وعندما دخل العثمانيون البلاد العربية بسطوا نفوذهم على الصومال وناصروا سلطانه الذى كان في صراع مع الأحباش النصارى . وعندما جـاء محمد علي باشا الوالي المصرى ضم اليه السودان وبلاد الصومال . وكـان الحاكم المصرى لبلاد الصومال يقيم في هرر التي كانت تعد عاصمة الصومال وتبيعها ثلاث محافظات في تاجورة ــ وزيلع وبربرة ولكن الحكم المصـــــرى مالبثان ضعف بعد محمد علي واشتد الأمر سوءا بعد الاحتلال البريطاني

لمصر مما زاد في سيطرة السلاطين المحليين .

وقد أخذ الاوروبيون في تلك الفترة يتطلعون الى احتلال سواحـــل البحر الأحمر ومضيق باب المندب مما جعل بلاد الصومال نهبا موزعــا في أيدى الطامعين عقدت بريطانيا عام ١٢٩٣ هـ ١٨٧٦م معاهــدة مع سلطان سومطرة واحتلت بعد ذلك زيلع وبربرة وأخرجت الموظفيـــن المصريين من اقليم هرروتوسعت في احتلالها حتى بلغت ماعرف بعد ذلــك باسم الصومال الانكليزى وعاصمته هرجيسه .

كما عقدت فرنسا معاهدة مع سلطان تاجورة عام١٣٠١هـ =١٨٨٤م ثم امتد نفوذها حتى شمل ماعرف بالصومال الفرنسي وعاصمته جيبوتي . وأما بريطانيا فقد دخلت الصومال حين استأجرت من سلطان زنجبار موانيء بنادر وعندها ضعف السلطان تنازل عن هذه الموانيء للايطاليين . وفـي تلك الفترة استولى امبراطور الحبشة على منطقتي هرر - واوغادين وأخـذ منطقة الهود من الانكليز وتكون الصومال الحبشي الذى لا يزال تحت حكم اثيوبيا وقد منحت الحبشة المناطق الداخلية من بنادر للايطاليين كمـا تنازلت انكلترا لايطاليا عن منطقة الجوبا السفلى وتشكل ماكان يسمى بالصومال الايطالي وهو أهم الاجزاء الصومالية واكبرها وكانت عاصمته مقاديشو .

كما أعطيت كينيا الاراضي الواقعة شرقي بحيرة رودوكوف وهي مـن الاراضي الصومالية .

* مشكلة الحدود :

أهم المشكلات التي يعانيها الصومال مشكلة الحدود مع الحبشة وكينيا وعودة الاقاليم المغتصبة الى الوطن الأم .

أما الحبشة فلا تزال تحتل مايعرف اليوم بالصومال الحبشي الـذى يضم مناطق هررواوغادين والهود وهي من أخصب المناطق الصومالية واغناها وقد احتلت الحبشة هذه المناطق بمعاونة الاستعمار الانكليزى والايطالـي

وأصبح الملايين من المسلمين تحت سلطان هيلاسيلاسي الحاكم النصراني المتعصب الذي أخذ على نفسه أن يبيد المسلمين في الحبشة والصومال وكان مما قاله في الكونغرس الامريكي أثناء زيارته للولايات المتحدة الامريكية ان أهم الاهداف التي نسعى اليها توحيد الدين واللغة في بلادنا وبدون ذلك لا يمكن أن نحقق شيئا من التقدم . وهو يريد بذلك افناء المسلمين واستئصال العربية في تلك البلاد الذبيحة وحين سئل عن المسلمين قال : (نعم توجد هناك اغلبية مسلمة في الجنوب) ، (اقليم هرر) اعتنقت الاسلام بتأثير الاجانب وقد وضعنا لها برامج منذ اثني عشر عاما فلا يمضي وقت طويل الا وقد عادت الى حظيرة دين آبائها) وقد قال مثل هذا في خطاب العرش الذي ألقاه عند افتتاح البرلمان المزيف عام ١٩٥٧ م .

وبذلك نرى أن هذه المنطقة تمر بأقصى مراحل الصراع الديني الذى دام قرونا بين الاسلام المنطلق من اقليم هرر وبين دولة النصرانية التي تحصنت في الحبشة .

وأما كينيا التي كانت مستعمرة بريطانية فقد ضم اليها الانكليز المناطق الصومالية الجنوبية المجاورة عندما تنازلت عنها ايطاليا للانكليز وحين استقلت جمهورية الصومال طالبت بتسوية الحدود مع كينيا وعرضت اجراء استفتاء لابناء المنطقة المختلف عليها ولكن جومو كينياتا الزعيم الكيني رفض اعطاء الحق لأهله ولا تزال الثورات المحلية قائمة في هذا الاقليم مطالبة بوحدة الصومال الذى يجمع بين أبناء الدين الواحد والمشاعر المشتركة .

وأما الصومال الفرنسي وعاصمته جيبوتي فان فرنسا التي خيرت مستعمراتها حسب دستور ديغول اقامت انتخابات مزيفة فيه وعملت على

بجعله تابعا لادارتها ولكن الشعب المسلم استنكر هذا الاسلوب الاستعماري الجديد وقام يطالب ولا يزال باستقلاله التام وانضمامه الى جمهورية الصومال وقامت في البلاد اشتباكات واضرابات كثيرة قمعتها فرنسا بالبطش وقد لجأ الى مقاديشو كثير من الوطنيين الفارين من ظلم فرنسا وشكلوا هناك جبهة تحرير الساحل الصومالي .

* الحياة الاقتصادية :

كانت بلاد الصومال حتى الاستقلال فقيرة ومتخلفة تعتمد على الأموال الأجنبية في اقتصادها ولكنها بدأت تطور اقتصاديا وترفع مستواه وبلاد الصومال صحراوية بالدرجة الاولى وفيها مراع واسعة تنمو أعشابها بسبب الرطوبة الناشئة من مجاورة الساحل وبسبب الامطار الصيفية وتشكل الثروة الحيوانية المورد الرئيسي في البلاد ويمتهن أكثر السكان الرعي .

أما الزراعة فتأتي بالدرجة الثانية وتعتمد على مياه الامطار وعلى الري في الجنوب وعلى ضفاف النهرين شبيلي وجوبا . وأخصب أراضي الصومال يقع تحت نفوذ الحبشة وأهم المحصولات الزراعية الموز والفول السوداني والسمسم . ويعمل بعض السكان في صيد السمك من المحيط الهندي والثروات الدفينه لا تزال مجهولة وقد دلت الدراسات الاخيرة على وجود البترول .

وأما الصناعة فقد عمل الاستعمار بأنواعه على تخلفها وفي الصومال طرق معبدة تربط مقاديشو بالمدن الرئيسية وفيها كذلك اربعة عشر مطارا تستخدم للنقل الداخلي .

والوحدة النقدية هي صومالو ويعادل شلنا استرلينيا واحدا .

* السكان واللغة والتعليم :

يقدر عدد سكان الصومال بحوالي (٣) ملايين نسمة جميعهم من المسلمين الذين يؤلفون شعبا واحدا له لغته الخاصة وتقاليده الموروثه

وهم من اهل السنة ومعظمهم يتبع مذهب الامام الشافعي . والشعب الصومالي ينحدر من قبائل البانتو الزنجية التي اختلطت بالقبائل العربية المهاجرة من بلاد العرب القريبة . وفي البلاد اليوم جاليات عديدة والحياة القبلية هي السائدة في الصومال والصومالي معروف بتمسكه الشديد بالاسلام وشجاعته وصبره وقوة احتماله المشقات ولا عجب في ذلك فهو ابن الصحراء وقد أظهر أيام الاستعمار ضروبا من الشجاعة وابى الذل ولكن ضعف السلاطين وتفرق الكلمة ووحشية المستعمرين مكنت للاستعمار في البلاد حتى كانت الحركات التحررية الاخيرة التي اجلت رجال الصليبية الطامعة .

وللصوماليين لغتهم الخاصة وهي ليس لها حروف مكتوبة ويحسن كثير من الصومالنيين العربية ويخطب بها خطباء المساجد وكثير من الصحف تصدر بعض صفحاتها باللغة العربية وبعضها الآخر باللغة الاجنبية التي كانت سائدة في المنطقة ايام الاحتلال .

أما التعليم فهو ضعيف لان الاستعمار بانواعه طبق سياسة التجهيل على ابناء الصومال وحارب الثقافة الاسلامية ولم يبق في البلاد الا كتاتيب بسيطة تتابع تعليم القرآن الكريم ومبادىء الكتابة بينما افتتح المدارس الاجنبية والتبشيرية التي تلقن الثقافة الاوروبية ولغة المستعمرين وتجنب الصوماليون هذه المدارس ليحفظوا في ابنائهم مقومات امتهم وكانت النتيجة انتشار الجهل والامية في البلاد .

وقد اهتمت الحكومة الصومالية المستقلة بالتعليم فافتتحت المدارس الوطنية الكثيرة في أنحاء الصومال ولكن المدارس الايطالية والانكليزية

لا تزال قائمة .

وقد أنشأت بعض البلدان العربية عددا من المدارس الاعدادية والثانوية ولعل أجمل مدارس الصومال وأكبرها مدرسة المؤتمر الاسلامي ومعهد الدراسات الاسلامية في مقاديشو .

****

- ارتيريـــــــا -

* **الموقع والمساحة والمعالم الطبيعية :**

تقع ارتيريا شرقي افريقيا على البحر الاحمر بين السودان واثيوبيا والصومال وتبلغ مساحتها (١١٩٠٠٠) كم٢ .

وتتكون من اقليمين : السهل الساحلي الضيق وتقوم فيه الزراعة والمرتفعات الداخلية وهي جبال صحراوية يمتهن سكانها الرعي .

* **المدن الرئيسية :**

اهـم المدن الرئيسية اسمرا وهـي العاصمة وتعد من المدن الجبلية ثم مصب ومصبوع وهما ميناءات على البحر الاحمر .

* **التاريـخ :**

عرفت ارتيريا الاسلام زمن الهجرة الاولى حين استقبل عثمان بن عفان وصحبه رضي الله عنهم ثم فتحت أيام الامويين وضمت الى الدول الاسلامية وقد ظلت تحتفظ بسيادتها في ظل الاسلام وحين دخل العثمانيون البلاد العربية في القرن العاشر احتلوا ميناء مصـوع وقسما كبيرا من ارتيريا ثـم خلفهم المصريون في حكم البلاد وفي عام ١٣٠٢ هـ = ١٨٨٥ م غـــــزا الايطاليون اراضي ارتيريا فذاق الاريتريون المر في هذا الاستعمار الوحشي وحين هزم الايطاليين في الحرب العالمية الثانية واخرجوا من ارتيريا حـل محلهم الانكليز . ثم وافقت الجمعية العامة للامم المتحدة على اقتـراح الولايات المتحدة الامريكية الذى يقضي باتحاد ارتيريا مع الحبشـــة اتحادا فيدراليا على أن يبقى لارتيريا استقلالها الذاتي فتم ذلك سـنة ١٣٧١ هـ = ١٩٥٢ م وخافت حكومة الحبشة من أن يطالب المســلمون في ارتيريا والحبشة بحقوقهم اذا قامت في البلاد حياة دستورية لمشــروع الامم المتحدة فاغتالت شروط الاتحاد واعلنت سنة ١٣٨٢هـ = ١٩٦٢ م

ضم ارتيريا نهائيا الى امبراطوريتها متجاهلة قرار الامم المتحدة . وقد عملت حكومة الجبشة متعاونة مع الاوروبيين والهيئات التبشيرية على سحق الاسلام في تلك البلاد ، فاغلقت جميع المدارس الاسلامية ومنعت تدريس اللغة العربية واضعفت معهد اسمرا الديني وهو المعهد الاسلامي الوحيد في البلاد كما حصرت التوظيف في الاقلية المسيحية والغت الاحزاب الاسلامية وكمت الافواه وملأت السجون والقبور بالمسلمين والثائرين على التعسف والظلم ولكن الارتيريين المسلمين لم تضعف مقاومتهم بل استمروا في جهاد هم متحدين الاعمال الوحشية التي يقوم بها سبط يهوذا وحامي النصرانية في افريقيا هيلاسيلاسي ولا تزال جبهة التحرير الارتيرية تقوم بجهد كبير في فضح جرائم الصليبية الحاقدة والتعبير عن آمال المسلمين في الخلاص من الاستعمار الحبشي الخبيث وهي تطلب من الامم المتحدة بالحاح ارسال لجنة حيادية للتحقيق في الشكاوى الموجهة ضد الحبشة والتأكد من رغبة الشعب الارتيرى في الحرية والاستقلال .

* الحياة الاقتصادية :

تقوم الزراعة في السهل الساحلي الضيق معتمدة على مياه الامطار أما الداخل فمعظمه جبال صحراوية لا تصلح للزراعة في الاجزاء القليلة التي يصيبها قدر كاف من المطر لذلك يقوم فيها الرعي . ويمتهن اكثر السكان تربية المواشي كجيرانهم الصوماليين . ولارتيريا أهمية تجارية لوقوعها عند مدخل البحر الاحمر وهي المنفذ البحرى الوحيد للحبشة ومعظم تجارتها تخرج عن طريق ميناء مصوغ ثم ميناء عصب وهناك خط حديدى يصل بموضوع مركز الادارة أسمرا ومنها الى اجوردات حيث يتفرع نحو الجنوب ونحو حدود السودان .

* السكان واللغة :

يبلغ عدد سكان ارتيريا (٢٫٥) مليون نسمة (٧٥٪) منهم مسلمون والباقون من النصارى الاقباط ومعظم السكان رعاة يعملون مع الرعي في جمع

الصمــغ .

وهم يختلفون من حيث الدين واللغة والجنس والتاريخ عــن الاحباش . فالارتيريون معظمهم يدين الاسلام ويتكلم اللغة العربيــة كما يتكلم بعضهم اللغة النيجيرية ولا صلة بين هاتين اللغتين وبين اللغة الامهرية الحبشية . لذلك لا يستطيع الارتيريون والاحبـــاش أن يتفاهموا ومعنى هذا دمج ارتيريا بالحبشة نوع من أنواع التسـلط والاستعمار . ونص الدستور الارتيرى على أن اللغة العربية هي اللغة الرسمية ولكن السلطات الاثيوبية بدأت باهمال الطلبات التي تكتــب باللغة العربية ثم احرقت الكتب العربية التي استوردها وزير المعــارف من القاهرة .

أما خريجوا الجامعات العربية فمنحتهم نصف مرتب خريجــي الجامعات الأخرى في عام ١٩٦٣ م منعت تدريس اللغة العربيــة حتى في المدارس الاولية وأمرت بتدريس الدين الاسلامي باللغة الامهرية وبدأت الثورة المسلحة فيها عام ١٣٨١ هـ أول أيلول ١٩٦١ م حين خرج الشيخ حامد عواتي رحمه الله الى الجبال على رأس مجموعة من الفتيان المجاهدين لا يزيد عددهم على (١٣) كانوا نواة جبهة التحريــــر الارتيرية ولم يكن معهم من الاسلحة غير تسع بنادق ايطالية عتيقة وبندقية انكليزية واحدة ولكنهم ثبتوا بفضل ايمانهم العميق بالله تعالى والتف حولهم الشعب الارتيرى وزاد عددهم واستطاعوا أن ينتصروا على الاحبـــاش في كثير من المعارك المشرفة . . . .

،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،،

" اثيوبيــــا "

* **الموقع والمساحة والمعالم الطبيعية :**

تحد اثيوبيا من الشمال ارتيريا ومن الشرق الصومال ومن الجنوب كينيا ومن الغرب السودان وتبلغ مساحتها حوالي مليون كم٢ .

وهي بلاد جميلة وعرة يصعب الانتقال فيها وتسقط فيها صيفـــا أمطار غزيرة يذهب قسم منها الى بحيرة تانا في الشمال الغربي حيث ينبـع النيل الازرق .

* **المدن الرئيسية :**

أهم المدن الرئيسية اديس أبابا العاصمة ، وهي مدينة تجاريـة وفيها تنتهي سكة الحديد التي تربط الداخل بالبحر ، ثم هررود وردوا وهما أهــم مدن المسلمين في اثيوبيا وهي مشهورة بكنائسها الكثيرة .

* **التاريخ :**

اثيوبيا كلمة يونانية تعني الوجه المحروق وقد عرف العرب هــذه البلاد باسم الحبشة نسبة الى قبيلة عربية هاجرت اليها عبر البحر الاحمر . وكان سكان اثيوبيا القدماء يهودا ثم دخلوا في المسيحية في القرن الرابـع الميلادي وارتبطوا بالاقباط في مصر .

وملكت اثيوبيا قبيل الاسلام اليمن وبنى أبرهة الاشرم الحبشـــي الكنيسة بصنعاء ليصرف الناس عن بيت الله الحرام اليها ، ثم كان ماكان من أعراض اليمن عن ذي الكنيسة واحداثهم فيها وغضب أبرهة وتوجه مـع جيشه أصحاب الفيل لهدم الكعبة وضلال كيده وهلاكه .

وحين جاء الاسلام شق طريقه في أيامه الأولى الى الحبشـــة فقد هاجر اليها المسلمون الاولون هجرتهم الاولى . ووجدوا في نجاشيها حاميا لهم وراضيا بدعوتهم ، اذ قال عن آيات الله التي سمعها ان هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة ومضت القرون الهجريـــة

الاولى والاسلام يأخذ طريقة ببطء الى نفوس الاحباش عن طريق التجار المسلمين الذين أينعت ثمراتهم في ارتيريا والصومال وأطراف اثيوبيا ، وما انتهى القرن الخامس الهجرى حتى كانت في تلك البقاع ممالك اسلامية مزدهرة وأخذ حكام الحبشة النصارى في تلك الفترة باضطهاد المسلمين وأشعلوا معهم حروبا ضارية استمرت خمسة قرون ولكن مد الاسلام لم يتوقف وفي القرن العاشر الهجرى قام بعض السلاطين المسلمين في الصومال بغزو اثيوبيا واخضاع كثير من أراضيها فدخل في الاسلام على أيديهم خلق كثير ، كان فريق منهم يتظاهر قبل ذلك بالنصرانية خوف البطش والاضطهاد . واستنجد حكام الحبشة النصارى بالبرتغاليين اخوانهم في الدين حين ظهروا في البحار فخفوا لنجدتهم وصدوا جيوش المسلمين ولكن الاسلام ظل يأخذ طريقه الى قلوب الكثير من الاثيوبيين على خوف من النجاشي وملائهم ان يفتنهم فأقض مضاجع كثير من المبشرين في اثيوبيا وخوفهم من ان يصبح المسلمون اكثرية في الحبشة وعندما تشوفت الدول الغربية الى حكم الحبشة حاولوا التقرب من ملكها منليك الثاني وأمدوه بالاسلحة الحديثة مقابل اعترافه بمناطق نفوذ لهم على البحر الاحمر واستغل منليك الفرصة وأخذ يبتلع الممالك الاسلامية ويوسع رقعة اثيوبيا على حسابها وبذلك ظهرت الامبراطورية الاثيوبية بحدودها الحالية . بعد أن كانت تحكم رقعة صغيرة وقد رافق احتلال هذه الممالك كثير من الأعمال الوحشية من قتل وسلب حتى كسرت شوكة المسلمين وقضي على سلطانهم في تلك البقاع وجاء الامبراطور ليج ياسوع بعد موت منليك فرفع الاضطهاد عن المسلمين حتى قيل أن اعتنق الاسلام ولكن حكمه لم يدم غير ثلاث سنوات اذ برأ البابا المسيحيين من قسم الطاعة له وغلب ليج ياسوع على أمره وجاءت بعده ابنة بتوابنة منليك ، ثم الرأس الذى صار امبراطور اثيوبيا ولقب بهيلا سيلاسي سنة ١٣٤٩هـ = ١٩٣٠م .

* **الحياة الاقتصادية :**

أهم صادرات اثيوبيا الحبوب والبن والعسل والجلود والذهب ومواصلاتها الداخلية صعبة ومتخلفة وأهم صلة لها بالعالم الخارجي سكة الحديد الوحيدة من اديس أبابا الى جيبوتي وقد ملكت بعد تسلطها على ارتيريا ميناءين هامين على البحر الاحمر وهما مصوع وعسب.

* **السكان واللغة والتعليم :**

يعيش في اثيوبيا اليوم حوالي (٢٢) مليونا و ٦٠٪ منهم مسلمون والباقون من النصارى والاقباط وفيهم بعض اليهود والوثنيين والسكان متحف للشعوب المختلفة في الدين واللغة والجنس والعادات ولا يزيد الاثيوبيون الاصليون على ثلث سكان اثيوبيا الحالية ويسكنون المناطق الوسطى والشمالية ومعظمهم من النصارى والاقباط وهم مرتبطون بالكنيسة المصرية ولا تزال فيهم آثار واضحة من عادات اليهود وشعائرهم الدينية وتكثر الكنائس في اثيوبيا .

كما يكثر رجال الدين ومعظمهم جهال منحلو الاخلاق لا يتعففون عن اتيان المنكرات ظنا منهم ان الله يغفر ذنوبهم .

المسلمون فيسكن اكثرهم في الشرق (الدناقل) والجنوب الشرقي (اراضي) الصومالية المغتصبة والجنوب (الجلا) وفي أقصى الشمال الغربي (حيث تعيش بطون من القبائل السودانية) . ويعيش معظمهم على شكل قبائل .

والحبشي بوجه عام ثبت قوى الاعصاب بارد المزاج ، قل ان يهيجه غضب أو يستخفه طرب وهو في اكثر حالاته مهذب يحتفظ في كلامه ولكنه معروف بالمكر وحسن الحيلة . مشهور بزخرفة القول وتمويهه وهو يحب الحرب ويصبر على اذاها يقسو على حيواناته ويقيمها على الخسف ويبذل خدمه ويروضهم على الضيم .

وكان الاثيوبيون النصارى الى عهد قريب يسومون اسراهم سوء العذاب

ويقتلون اعداءهم وخصومهم صبرا بعد أن يمثلوا بهم تمثيلا وحشيا . ومن عاداتهم الغريبة أكل اللحم النيء وهم مولعون بمعاقرة الخمرة واذا شربوا سكروا غابت احلامهم وفقدوا اخلاقهم وركبوا روءوسهم ومالوا الى الشر فتشاتموا وتنابذوا بالالقاب وتبادلوا الركل واللكم والطعن بالمدى . لذلك يفضل الرحالون الغربيون استخدام المسلمين الاثيوبيين في تجوالهم في ربوع اثيوبيا المختلفة لتجنبهم الخمور ولانهم أهدى وأصدق قيلا واقوم لذلك سبيلا .

أما اللغات في اثيوبيا فكثيرة متعددة تعدد الاجناس والقبائل وأشهرها .

الأمهرية وهي لغة الاحباش وقد جعلتها الدولة اللغة الرسمية كما جعلت الانكليزية اللغة الثانية وهي لغة التعليم للاطفال بعد سن التاسعة

وتصدر الجريدة الرسمية باللغتين الامهرية والانكليزية . اللغة العربية وهي منتشرة في المناطق الاسلامية وقد كانت لغة الثقافة والتجارة تدرس في المدارس الكثيرة المنتشرة في أنحاء البلاد ولكنها صارت الآن مطاردة تخالف سياسة الدولة في القضاء على الاسلام ولغته .

أما معاملة هيلاسيلاسي المسلمين فهي معاملة ملوءها الجور والحقد ومع ان الامبراطور معروف برقته في معاملة شعبه فهو يتابع مع المسلمين سياسة سلفه منليك وقد أخذ على نفسه كما صرح اكثر من مرة ان يقضي على الاسلام في الحبشة ويعيد في امبراطوريته دولة الحبشة النصرانية القديمة التي تجسد فيها الاحقاد الصليبية في موقفها ضد المد الاسلامي في افريقيا .

وقد اجتمع سنة ١٩٦٣ بأديس أبابا معظم روءساء الدول الافريقية لتنسيق العلاقات بينها وانتهى الموءتمرون الى انشاء منظمة الوحدة

الافريقية .

" السنغال "

* **الموقع والمساحة والمعالم الطبيعية :**

تقع على ساحل الاطلسي وتحد في الشمال موريتانيا وفي الشرق مالي وفي الجنوب غينيا وتبلغ مساحتها (١٩٧٫٠٠٠) كم٢ .

وتتألف بصورة عامة من سهول تخترقها اخاديد حفرتها أنهار السنغال .

* **المدن الرئيسية :**

(دكار) وهي العاصمة . وسانت لويس . وروفيك وكاولاك .

* **التاريخ :**

دخل الاسلام الى السنغال من الشمال بعد انتشاره في مراكش وموريتانيا وقد كانت السنغال خلال القرنين السابع والثامن الهجريين جزءاً من امبراطورية مالي الاسلامية التي اتخذت عاصمتها تمبكتو، ومدت سلطانها على مناطق واسعة في بلاد السودان الغربي وكان لها فضل كبير في نشر الاسلام وتثبيت دعائمه في معظم بلاد التكرور وقد وصل البرتغاليون الى سواحل السنغال في القرن التاسع الهجري طمعا في الذهب ثم نازعهم الانكليز ثم الفرنسيون الذين اقتصروا احتلالهم حتى أواخر القرن الماضي على الخط الساحلي وجعلوا منه قاعدة لعملياتهم الحربية في غربي افريقيا . وفي مطلع هذا القرن الهجري انهى الفرنسيون حكم قبائل الفولانيين المسلمين وضموا الاقاليم الى المستعمرات الفرنسية ومن بلاد السنغال امتد الاستعمار الفرنسي الى اواسط افريقيا.وفي اعقاب الحرب العالمية الثانية عندما اشتعلت الثورات التحررية في الاقطار الافريقية هبت هذه الاقطار تطالب باستقلالها وتمج المستعمرين عرض ديغول على المستعمرات الفرنسية في افريقيا دستوره الذى يخير الاقاليم المستعمرة بين أن تتمتع بالاستقلال الداخلي وتبقى أعضاء في مجموعة الشعوب الفرنسية فتكون السلطة المركزية لفرنسا

في الدفاع والاقتصاد والشؤون الخارجية وبين ان تحصل هذه الاقاليم على الاستقلال التام وعندها تقطع عنها فرنسا كل معونة.وقد جرى الاستفتاء في هذه الاقاليم وكانت طاقاتها محدودة بعد أن سلبها الاستعمار الطويل كل قدرة ففضل بعضها أن تبقى ضمن مجموعة الشعوب الفرنسية لئلا تقطع عنه فرنسا عونها المادي والفني .

وكانت السنغال جزءاً من افريقيا الغربية الفرنسية لحين ارادت فرنسا التخلي عن هذه البلاد جزأتها الى دول عديدة ومنها جمهورية السنغال التي رضيت ان تكون عضوا بمجموعة الدول الافريقية المرتبطة بفرنسا وكونت اتحادا مع مالي لم يكتب له طول العمر فانحل الاتحاد وأصبحت السنغال جمهورية مستقلة ولكنها بقيت مرتبطة بفرنسا وذلك عام ١٣٨٠ هـ = ١٩٦٠ م وتولى رئاستها ليوبراد ساخور الحاكم الحالي .

* الحياة الاقتصادية :

السنغال بلد زراعي واهم مزروعاته الفول السوداني والذرة الافرنجية وتربى فيه الابقار والاغنام ولكنه يستورد ماينقصه منها من موريتانيا . وتصاد الاسماك بكميات جيدة من سواحل الاطلسي وأهم المعادن المستخرجة فوسفات الكلسيوم وفوسفات الالمنيوم اما الصناعة فأهمها مصافي زيت الفستق في منطقة دكار ثم الاسمنت والنسيج وتعليب الاسماك وفي البلاد طرق معبدة حديثة وسكك حديدية تربط العاصمة دكار بالمدن الكبرى كما تصلح الانهار للملاحة الى حد ما . وتعتبر دكار اكبر ميناء في غربي افريقيا . ووحدة النقد هي الفرنك الجديد ويساوى الدولار الامريكي (٢٤٦٨٥٣ر٢) فرنكا .

* السكان واللغة والتعليم :

يبلغ عدد السكان في جمهورية السنغال (٣) ملايين نسمة (٩٥ ٪) منهم مسلمون والباقون من الوثنيين والنصارى الافريقيين

والاوروبيين . ويتكلم السكان لغات متعددة بحسب قبائلهم والفرنسية هي اللغة الرسمية وقد كانت السيادة للاسلام في هذه البلاد ولكن الاستعمار الفرنسي حين دخلها وكسر شوكة المسلمين فيها عمل بالتعاون مع الارساليات التبشيرية على نشر النصرانية والمدنية الاوربية ، كما جعل لغته الفرنسية لغة الادارة والتعليم في المدارس .

وقد قامت الارساليات التبشيرية بفتح المدارس الاجنبية فانها لابناء الفرنسيين والوثنيين وبعض المسلمين الذين رغبوا فيما عند المستعمرين من ثقافة ووظائف ادارية ولا تزال هذه الارساليات تشرف حتى اليوم على اكثر المدارس في الجمهورية ففيها حوالي (٧٠) مدرسة ابتدائية وخمس ثانويات من أصل خمسة عشر مدرسة للدولة . أما جامعة دكار فتقوم بنشر الثقافة الاوروبية وقد قاطع المسلمون المدارس الأجنبية خوفا على نفوس ابنائهم من ان تفسدها سموم المستعمرين ولكنهم عجزوا في الوقت نفسه عن نشر الثقافة الاسلامية والمحافظة على حيويتها مما كان له أثر واضح في تخلفهم وغيابهم عن المسرح السياسي والاجتماعي .

وحين اضطر المستعمرون الى أن يسلموا مقاليد الحكم الى أبناء البلاد رأوا في تلاميذهم من أبناء السنغال الذين تربوا في مدارس المبشرين اقرب الناس اليهم فاسلموها اكثر المناسب الادارية والفنية ومايزال الرئيس ليوبولد سنغور يحكم الاكثرية من أبناء السنغال .

* مـالي :

الموقع والمساحة والمعالم الطبيعية :

تقع جمهورية مالي في افريقيا الغربية ويحدها من الشمال الجزائر وموريتانيا ومن الشرق النيجر ومن الجنوب فولتا العليا وساحل العاج وغينيا ومن الغرب السنغال . وتبلغ مساحتها (١٢٠٤٠٠٠) ك م^2 يشكل شمالها جزءاً من الصحراء الكبرى بينما يجرى في جنوبها الخصيب نهر النيجر والسنغال .

* المدن الرئيسية :

باماكو وهي العاصمة وكاس وسيغو .

* التاريخ :

بدأ الاسلام بعد أن تمكن من شمال افريقيا يتسرب عبر الصحراء الى افريقيا الغربية تدريجيا ولكن أعظم انتصار احرزه الاسلام في تلك الاقاليم كان في القرن الخامس الهجرى على يد المرابطين الذين تزعموا حركة الاصلاح البربرية وحملوا راية الجهاد . فقد هجر المصلح البربرى عبدالله بن ياسين المسجد الذى كان قد بناه في جزيرة السنغال الادنى وراح يدعو ببرابرة ادرار (في موريتانيا) وزنوج تكرور الى اعتناق الاسلام فاعتنق ملك تكرور وأسرته الدين الاسلامي وتبعه بعد ذلك ماندينغ (مالي) الذى كان يقطن النيجر العليا كما اعتنق الاسلام في تلك الفترة ملك سونغاى في منطقة غاو في أواسط النيجر وبعد أن حرر هذا المصلح عبدالله من قبيلة لمتونه باحتلال كومبي عاصمة امبراطورية غانا ، وقضى على نفوذها في تلك المنطقة .

وفي القرن السابع الهجرى قامت مملكة مالي الاسلامية وبسطت نفوذها على بلاد تمبكتو وأراض واسعة حول النيجر الوسطى كما قامت في هذه المنطقة بعد ذلك امبراطورية غاو السونغية ثم ازدهر الاسلام في بلاد افريقيا الغربية في مطلع القرن الماضي على يد المصلح النيجرى الكبير عثمان دان بوالذى بدأ بنشر الاسلام مابين النيجر وتشاد وأسس امبراطورية سوكوتو . وقد خلفه في عمله العظيم سيكو حماد وبارى توكولورحاج عمر الذى نشر الاسلام في كثير من البلدان الافريقية ثم حارب الفرنسيين الذين كانوا يحملون بسط نفوذهم في المنطقة ولكن حين قتل الحاج عمر لم يتمكن ابنه من الوقوف في وجه الزحف الفرنسي وكذلك حين حاول ساموري امام غينيا تأسيس امبراطورية اسلامية تضم السنغال وفولتا العليا تغلب عليه الفرنسيون وأسروه .

وفي مطلع هذا القرن استطاع الفرنسيون بقواتهم التي كانت قد تمكنت على الساحل الغربي من بلاد السنغال ، بسط نفوذهم على ما يسمى اليوم بلاد النيجر وداهومي وفولتا العليا وساحل العاج ومالي وغينيا وموريتانيا والسنغال ،وقد عرفت هذه البلاد أيام الاستعمار بافريقيا الغربية الفرنسية وفي عام ١٣٢٢ هـ ١٩٠٤ م . شكل الفرنسيون في منطقة مالي الحالية اقليما سموه (السنغال العليا والنيجر) ثم استبدلوا به اسم (السودان الفرنسي) .

* الحياة الاقتصادية :

من المحصولات الزراعية في مالي الرز والفول السوداني والقطن .
ومن موارد البلاد المواشي الكثيرة وجلود الحيوانات البرية . والاسماك التي تصاد في نهري النيجر والسنغال وأشجار الصمغ والملح الذي يستخرج بكميات كبيرة من مدينة الملح شمالي تمبكتو. وتقوم الصناعة على المنتجات المحلية . وفي مالي كثير من الطرق المعبدة . وسكة حديد تربط العاصمة باماكو بكل من كوناكري (عاصمة غينيا) وابيدجان (عاصمة ساحل العاج) ووحدة النقد هي الفرنك الجديد .

* السكان واللغة والتعليم :

يبلغ عدد سكان مالي (٤ر٥) مليون نسمة (٦٠ ٪) منهم مسلمون والباقون اكثرهم من الوثنيين وينتمي السكان الى عدد من القبائل أهمها بمبارا ولكل قبيلة لغتها الخاصة بها وبعض هذه اللغات تكتب بحروف عربية لكن الفرنسية هي اللغة الرسمية وقد حاول الاستعمار نشر ثقافته الاوروبية ولغته الفرنسية على حساب العلوم الاسلامية واللغة العربية وفي مالي اليوم بعض الكتاتيب التي تلقن مبادئ القراءة والكتابة العربية والدين الاسلامي وقد افتتحت الحكومة عددا من المدارس الابتدائية والثانوية والفنية ، ومع ذلك فلا يزال التعليم ضعيفا . وليس في مالي جامعات اذ يمضي الطلبة الى داكار وغيرها لمتابعة تعليمهم العالي .

" النيجـــــر "

* الموقع والمساحة والمعالم الطبيعية :

تجاور جمهورية النيجر في الشمال الجزائر وليبيا . وفي الشـرق تشاد وفي الجنوب نيجيريا وداهومي وفي الغرب فولتا العليا ومالي ، وليس لها منفذ على البحر وتبلغ مساحتها (١٫١٨٨٫٧٩٤) كم٢ .

يؤلف القسم الشمالي والاوسط من أراضي النيجر جزءاً من الصحراء الكبرى ويقوم الرعي على أطراف الصحراء ، اما في الجنوب الغربي حيـث يرويه نهر النيجر وفي المناطق الممتدة شرقا حتى بحيرة تشاد فتقوم الزراعة التي تعتمد على الري ومياه الامطار .

* المدن الرئيسية :

نيامي وهي العاصمة وزندروتاهـوا .....

* التاريـخ :

تسرب الاسلام عن طريق دعاته المخلصين الى ارض النيجر وغيرهـا من بلاد السودان في القرون الهجرية الاولى وما جاء القرن الخامس حتى كانت البلاد تحت حكم زعماء الهاوسا والطوارق المسلمين وفي القرن العاشر الهجرى دخلت بلاد النيجر في ظل امبراطورية غاوا السونغية .

وفي مطالع القرن الماضي دانت البلاد للزعيم الديني الكبيـــر عثمان دان غوديو الذى نشر الاسلام في تلك البقاع . وفي هذا القـرن الماضي تطلع المستعمرون الاوروبيون الى امتلاك الاقطار الافريقية واستغلال خيراتها . وستروا نواياهم الاستعمارية بدعوى السياحة واكتشاف منابـــع الانهار ومجاهل البلاد . وهم يريدون بذلك ان يتعرفوا على طبيعـــة الارض ومسالكها ليسهل عليهم غزوها ، كما زعموا أنهم يحبون نشر الحضارة في البلاد المتخلفة وتعليم الافريقي الاخذ بأسلوب وأسباب المدنيـــة

الحديثة . وهم يريدون في الحقيقة افساد الاخلاق واصطياد العواطف وشراء الانصار والعملاء وقد تعاون رجال الكنيسة مع الاستعمار كما هـــو معروف وقد استطاع المبشرون أن يجعلوا كثيرا من سكان البلاد عبيـــدا يسلمون بلادهم ومقاليد امتهم لسادتهم الذين يحملون اليهم الانجيـل يفتحون لهم بزعمهم ابواب الجنة ، فكانوا كما قال بعضهم : اعطونـــا الانجيل وسلبونا الارض ،تركونا ننظر الى السماء بينما كانوا هم ينظرون الى مافي ايدينا . وهذا ماحدث في النيجر وغيرها من البلدان الافريقية في مطلع هذا القرن الهجرى مضى الخبراء البريطانيون لاستكشاف نهـــر النيجر والتقوا بابن عثمان دان فوريو وعادوا بأول دراسة دقيقة للمنطقـة ثم تبعهم الفرنسيون ثم كانت المعاهدة الانكلو فرنسية التي اتفقت فيهـــا الدولتان المستعمرتان على حدود النيجر وتعاونتا طويلا على اخضاع المنطقة حتى تم للفرنسيين احتلال بلاد النيجر نهائيا . وحين فـــازت معظم الشعوب الافريقية حديثا باستقلالها أصبحت النيجر جمهوريـــة مستقلة ضمن الرابطة الفرنسية . وتولى رئاستها السيد ديورى هامانـــي زعيم الحزب التقدمي النيجرى ثم انفصلت عن الرابطة الفرنسية ونالـــت استقلالها التام عام ١٢٨٠ هـ = ١٩٦٠م ولا يزال السيد ديورى هاماني حاكم النيجر وحزبه يحتل كافة مقاعد المجلس التشريعي .

وهناك روابط دينية وتاريخية وثيقة تربط النيجر بنيجيريا الشمالية .

* الحياة الاقتصادية :

تقوم الزراعة في جنوب النيجر واهم المزروعات القطـــن والذرة والفول السوداني . أما الرعي فيقوم في الوسط وتصدر النيجر عددا كبيـــرا من المواشي الى نيجيريا .

وأهم المعادن القصدير ثم التنغستين وخام الحديد . ولا تـــزال الصناعة خفيفة واهمها صناعة الجلود واستخراج الملح .

هناك شبكة من خطوط المواصلات مع الدول المجاورة وفي ميامي مطار دولي . أما نهر النيجر فيصلح للملاحة في بعض شهور السنة .

ووحدة النقد في النيجر هي الفرنك الجديد .

* **السكان واللغة والتعليم :**

يبلغ عدد السكان النيجر حوالي (٣) ملايين نسمة (٨٩٪) منهم مسلمون . ومعظم السكان من قبائل الهوسا والسنغال والطوارق ، وكلهم مسلمون .

ولكل قبيلة لغتها الخاصة . ولكن لغة الهوسا هي اللغة التجارية السائدة بين السكان والفرنسية اللغة الرسمية في البلاد .

وقد عمل الفرنسيون كعادتهم على ان يتركوا أبناء البلاد متخلفين في كل مجالات الحياة ولم يقوموا بنشر التعليم الا ماكان منه في مدارسهم التي تعلم الفرنسية والثقافة الاوروبية البعيدة عن شخصية أبناء البلاد الاصلية . ولا تزال المدارس الآن قليلية لا تفي بحاجة السكان .

كما أن التعليم العالي غير موجود وهناك بعض الطلاب من النيجر يتابعون دراستهم العالية خارج البلاد .

><><><

" تشـــاد

* **الموقع والمساحة والمعالم الطبيعية :**

تقع جمهورية تشاد في افريقيا الاستوائية وتجاوز في الشمال ليبيـا ، وفي الشرق السودان وفي الجنوب جمهورية افريقيا الوسطى ، وفي الغـرب الكمرون ونيجيريا والنيجر وتبلغ مساحتها (١ ر ٨٢٤٠٠٠) كم٢ .

ويمتد في البلاد سهل فسيح تخترقه اودية أنهر شاري ولوتجون وبحر الغزال مع حوض ترسيبي ينحدر تدريجيا وينتهي ببحيرة تشاد .

* **المدن الرئيسية :**

أهم المدن (فورت لامي) وهي العاصمة ثم فورد تشامبولت وموندو .

* **التاريخ :**

وصل الاسلام الى تشاد مع التجار المسلمين الذين كانوا يقبلون من الشمال عبر الصحراء او من مصر عبر السودان ، ومنذ القرن الخامس الهجرى قامت في هذه المناطق ممالك اسلامية اتسع نفوذها حتى شمل البـلاد كلها .

وفي مطالع هذا القرن الهجرى كانت هناك مملكة اسلامية واسعة في هذه المنطقة تضم معظم اواسط السودان ويرأسها السلطان عبدالكريم . وفي هذه الفترة كان الفرنسيون قد تمكنوا من شمال وغرب افريقيا وبدأوا غاراتهم على اواسط افريقيا وعقدوا معاهدات مع بعض سلاطينهـا وقد تصدى لهم أبناء السلطان عبدالكريم وكان قائد قواتهم الامير رابح الذى تصدى للجيوش الفرنسية طويلا ، وفي احدى المعارك مهـم قتل القائد الفرنسي لامي الذي سميت كبرى مدن تشاد باسمه ، استطاع الفرنسيون بعد استشهاد الامير رابح دخول تشاد والانتقام من أبنائها المسلمين ، وقد قتلوا بالساطور في مذبحة كبكب وحدها (٤٠٠) عالم وأخذوا بتنفيذ سياستهم الاستعمارية البغيضة في القضاء على الـروح

الاسلامية في حياة التشاديين وفي سنة ١٩٥٨ أجرت انتخابات في البلاد أصبحت تشاد بموجبها عضوا في مجموعة الشعوب الفرنسية ثم استقلت عنها عام ١٣٨٠ هـ ١٩٦٠ م وأصبح فرانسوا تمباى رئيسا للجمهورية مع احتفاظه برئاسة الوزراء . وفرانسوا تمبلباى من الحزب التقدمي التشادى الذى قام في البلاد برعاية فرنسا وتمكينها ليكون وصيا على المصالح الاستعمارية بعد خروج الفرنسيين وقد عقد تمبلباى مع فرنسا معاهدات فنية واقتصادية ودفاعية ، كما فتح الباب لدولة اسرائيل لتغزو البلاد اقتصاديا وسياسيا .

وقد هب المسلمون التشاديون يقاومون هذا الاستعمار الجديد . وأسسوا أخيرا جبهة التحرير الوطني التشادى (فرومينا) التي بدأت المقاومة الشعبية المسلحة من داخل البلاد وكادت تطيح بحكومة تمبلباى لولا أن استنجد بسادته الفرنسيين فانجدوه بطائرات حربية تحمل أسلحة هدامة حاولت القضاء على الثوار أبناء البلاد ، ولكنها لم تستطع ، وقد واصل المجاهدون مقاومتهم وسيطروا على مناطق واسعة من البلاد .

ومن المؤسف ان الدول الاسلامية الافريقية المجاورة لا تساعد الثوار المسلمين في تشاد اوغيرها ولا ترضى ان تقاوم حكومة تمبلباى وأمثاله من المتسلطين على رقاب المسلمين في افريقيا بحجة انتمائها جميعا الى منظمة الوحدة الافريقية هذه المنظمة التي قامت لتحمي الحكام لا الشعوب المحكومة ، وسكتت عن جرائم هيلاسيلاسي في مسلمي الحبشة وارتيريا ووقفت موقف المتفرج من ذبح زعماء المسلمين في نيجيريا .

* الحياة الاقتصادية :

في تشاد طبيعة كافية لأن تكون مخزن الحبوب في افريقيا ومع ذلك فتشاد اليوم بلد فقير حافظ الاستعمار على فقره وبقائه محتاجا للمساعدات الفرنسية . ولا تزال الزراعة بدائية وأهم المحصولات القطن والرز (الذرة الرفيعة) وفي البلاد مراع واسعة تربى فيها الاغنام وغيرها .

كما أن الاسماك تصاد بكمية كبيرة من بحيرة تشاد . أما المعادن وأهمها البترول الذى اكتشف أخيرا في الصحراء . وطرق المواصلات قليلة وتمكن الملاحة في الانهر لبعض اشهر السنة . ووحدة النقد هي الفرنك التشادى .

* السكان واللغة والتعليم :

يبلغ عدد السكان في تشاد (٣) ملايين نسمة (٨٨٪) منهم مسلمون و(١٠٪) وثنيون و (٥٪) نصارى ويعيش معظم السكان على الزراعة والرعي وصيد الاسماك وتنبثق تقاليد الشعب وآدابه الاجتماعية من الاسلام فهو شعب كريم وشجاع يتفانى في الدفاع عن بلاده كما أنه عرف بحبه للصيد .

* التحرر الوطني التشادى :

ويتكلم التشاديون اللغة العربية مشوبة باللهجة السودانية بالاضافة الى اللهجات المحلية المختلفة وقد كانت العربية منذ قرون لغة الثقافة عند جمهور المسلمين ولكن الفرنسيين الذين حكموا تلك البلاد حاربوا المدارس العربية وعملوا على سيادة لغتهم بين المثقفين . أما التعليم فلا يزال ضعيفا في تشاد .

اذ عمل الفرنسيون على تجهيل المسلمين وقصروا التعليم على الذين اعتنقوا المسيحية ولا تزيد نسبة المتعلمين في البلاد على(٣٪) من السكان وليس في تشاد اليوم الا مدرسة ثانوية واحدة وثلاث مدارس فنية ومعهد للمعلمين . ونظام التعليم في البلاد لقد عمل الاستعمار الاوروبي في تشاد وغيرها على خفض مستوى المسلمين ، وأبعدهم عن الميادين السياسية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية واستمر طويلا يعبث في الأرض فسادا الى أن استيقظ الافريقي من غفلته وهب كالاعصار آلاسود لا يبقى ولا يذر ولم يجد الاوروبيون بد من

التخلي عن مستعمراتهم فخرجوا من اكثرها في أعقاب الحرب العالمية الثانية .

ولكن هذا الاستقلال الذى نالته البلاد الاسلامية في افريقيا لم يكن كاملا فقد خلف الاستعمار في بلاد المسلمين جراحا عميقة لم تندمل بعد اذ ترك أبنا ءها يعانون الجهل والفقر والمرض ومكن للاقلية التي تعلمت في مدارسه أن تتحكم بالاغلبية وتعبث بقدراتها .

++++++++++

تانزانيـا وتنجانيقـا وزنجبـار "

* **الموقع والمساحة والمعالم الطبيعية :**

تقع تنجانيقا وزنجبار شرقي افريقيا ويحد تانجانيقا من الشمال اوغندا وكينيا ومن الشرق المحيط الهندى ومن الجنوب موزامبيق ونياسالاند وروديسيا الشمالية ومن الغرب الكونغو وتكون بحيرات فكتوريا وتنجنيقا وتياسا أجزاء من حدودها . وتبلغ مساحتها (٨٠٠ ر ٨٩١) كم٢ وتتألف أراضيها من سهل ساحلي ضيق وهضبة عالية في الوسط ذات منحدرات سحيقة على طرفيهـا الشرقي والغربي .

أما زنجبـار فجزيرة تقع في المحيط الهندى تجاه ساحل تانجانيقـا وكانت تؤلف مع جزيرة بامبا القريبة لسلطنة زنجبار وتبلغ مساحتها (٢٦٥٢) كيلو متر مربع .

* **المدن الرئيسية :**

أهم المدن زنجبار عاصمة زنجبار وهي ميناء هام يقع على الساحـل الغربي للجزيرة وسكانها خليط من الافريقيين والهنود والباكستانيين والعرب والاوروبيين ودار السـلام عاصمة تانجانيقا وجمهورية تانزانيا وفيها مطـار دولي وميناء هو أهم موانيء الجمهورية .

* **التاريـخ :**

كان لتانجانيقا وزنجبار منذ القديم أهمية تجارية وكان صلتها وثيقـة بجزيرة العرب والهند وحين جاء الاسلام شق طريقه الى ساحل افريقيـا الشرقي مع التجار المسلمين الذين مضوا تجارا ودعاة الى الله وسـرعان ما قامت دويلات اسلامية على طول هذا الساحل . ففي القرن الخامـس الهجري حكمت هناك امبراطورية الزنج الاسلامية التي اتخذت عاصمتهـا كيلوا ومدت سلطانها على طول الساحل الشرقي من افريقيا ووقعت تلـك

المناطق تحت رحمتهم حتى ازاحهم عنها سلاطين عمان واستمر نفوذها حتى ظهر البرتغاليون على الساحل الافريقي .

ففي عام ١٠٦٢ هـ = ١٦٥٢ م قدم امام عمان سيف بن سلطان لنجدة الامارات الاسلامية المتنافرة على الساحل الافريقي وبسط سلطانه على تلك البقاع . ثم امتد نفوذ أئمة عمان من الموانيء الصومالية شمالا الى رأس ديلجاد وجنوبا ونقلوا عاصمتهم من مسقط الى زنجبار ولكن السلطنة لم تلبث ان ضعفت واصبحت عمان محمية بريطانية ووقعت املاكها في أيدى الدول الاوروبية الطامعة فاستولت ايطاليا على القسم الشمالي (الصومال) كما أخذت بريطانيا القسم الاوسط الذى عرف فيما بعد بمحمية كينيا . وحازت المانيا القسم الجنوبي الذى عرف فيما بعد تانجانيقا وحين هزمت المانيا في الحرب العالمية الاولى انتزعت من الجيوش البريطانية تنجانيقا. واستمرت في حكمها الى عام ١٣٨١ هـ = ١٩٦١م حيث استقلت والفت فيها حكومة برئاسة بوليوس بنا ريرى .

أما سلطنة زنجبار التي كانت مع كينيا من نصيب بريطانيا فقد استقلت عام ١٣٨٣هـ = ١٩٦٣م ولكن الانقلاب الذى قام بعد ذلك فيها أطاح بالسلطان جشيد واتى بالشيخ عبد الكريم رئيسا لجمهورية زنجبار ومالبثت أن اتحدت مع تانجانيقا وكونت معها تنزانيا ، الجمهورية المتحدة لتانجانيقا عام ١٣٨٤ هـ = ١٩٦٤م وعين يوليوس يناريرى رئيسا للجمهورية . والشيخ عبدالكريم نائبا للرئيس .

الحياة الاقتصادية :

تزرع تنزانيا الذرة الصفراء والرز والقطن والبن والسيسل (١) والقرنفل (٢)

---

(١) : السيسل نبات معمر يزرع الالياف التي تستخلص من الاوراق ويدخل في صناعة السجاد والحقائب وصبوات السكر والبن .

(٢) : السقرنفل هو شجرة مستديمة الخضرة تستعمل براعمها الزهرية الغير متفتحة لاكساب الاطعمة نكهة طيبة ، تنبت كثرة في اندونيسيا وزنجبار

وتعد تنجانيقا المصدرة الرئيسية للسيسل في العالم كما تعد زنجبار اكثر بلاد العالم انتاجا للقرنفل .

وفي تنزانيا احراج تستفيد منها الخشب والثروة المعدنية الجيدة أهمها الماس والذهب والقصدير .

أما الصناعة فتقوم على استثمار المحاصيل الزراعية مع بعض الصناعات الخفيفة الأخرى .

وفي البلاد طرق معبدة وسكك حديدية وملاحة بحرية وفيها خمسون مطارا وعدة موانيء تجارية .

والوحدة النقدية هي الشلن الافريقي .

* <u>السكان واللغة والتعليم :</u>

يبلغ عدد سكان تنجانيقا (١٠) ملايين نسمة (٦٠ ٪) منهم مسلمون والباقون من النصارى والوثنيين ومعظم السكان الوطنيين من البانتو وفي البلاد جاليات أوروبية وآسيوية عديدة .

يتكلم الشعب لهجات محلية عديدة ولكن اللغة الساحلية هي السائدة واللغة الانكليزية هي اللغة الرسمية .

أما عدد السكان في زنجبار فيبلغ مليون نسمة (٩٩ ٪) منهم مسلمون واللغة العربية معروفة عند كثير من أبناء البلاد وهي ذات أثر واضح في ثقافتهم ولغتهم السواحلية .

ولا تزال هناك كتاتيب تعلم القرآن الكريم واللغة العربية ، وقد قامت بعد الاستقلال مدارس وطنية الى جانب المدارس الاجنبية التي أقامها الاستعمار وفي دار السلام جامعة انشئت حديثا ولا تزال في مراحلها الأولى .

=========

انتشار الاسلام في افريقية

العرب في شمال افريقيـــــــة

ان تاريخ الاسلام في افريقية الذى يستغرق فترة تقرب من الثلاثة عشر قرنا ، والذى ينتظم ثلثي هذه القارة الواسعة ،بما فيها مـــــن مختلف القبائل وشتى الاجناس ، ليضع مشاكل بعينها في طريق بحـث الموضوع بحثا منظما ،اذ يستحيل علينا ان نصور انتشار الاسلام فـــي كافة ارجاء القارة تصويرا دقيقا يقوم على نظام تاريخي . وقد عالجنـــا في فصل سابق الصلة بين انتشار الاسلام وبين الكنائس المسيحية فـــي مصر وبقية افريقية الشمالية ، ثم بينه وبين كنائس بلاد النوبة وبـــلاد الحبشة ، اما في هذا الباب فنريد ان نتتبع تقدمه بين الوثنيين فـــي افريقية الشمالية اولا ، ثم في السودان وعلى طول الساحل الغربـــي ثانيا ، واخيرا على طول الساحل الشرقي ومستعمرة الكاب .

اسلام البربـــر

وان ما لدينا من اخبار انتشار الاسلام في الشعوب الوثنية فـــي شمال افريقية ،لا يكاد يزيد الا زيادة طفيفة على تلك الحقائق القليلـة التي ذكرناها من قبل عن زوال الكنيسة المسيحية . لقد قاوم البربر الجيوش العربية مقاومة عنيفة ، ويظهر ان استعمال القوة في تحويلهم الى الاسلام كان له اثر اكبر مما استخدم في سبيل هذا التحويل مـن وسائل الاقناع والترغيب . فكانوا كلما سنحت لهم الفرصة ، ثاروا على الدين كما ثاروا على حكم الغزاة الذين فتحوا بلادهم ،حتى ليقـــرر المؤرخون العرب ان مرات ارتدادهم عن الدين بلغت اثنتي عشـــرة مرة . وفي تاريخ الكفاح الطويل بين العرب والبربر ، اشــــارات

قليلة بسيطة عن دخول الاخيرين في الاسلام . ويظهر ان اسلام البربر في بعض الاحيان انما كان يدفع اليه علمهم بأنه لا فائدة من التمادى في مقاومة الجيوش العربية . فحين وقف البربر في وجه الغزاة سنة ٧٣ آخر وقفة لهم ، تنبأت الكاهنة ، وكانت نبيتهم ، وزعيمتهم المقدامة ، ان النصر سيتحول عنهم . وارسلت ابناءها الى معسكر القائد العربي ، واوصتهم بأن يسلموا ويقفوا في صف الاعداء . اما هي فقد اختارت لنفسها ان تموت وهي تحارب في جانب مواطنيها في المعركة الكبرى التي حطمت قوة البربر السياسية ، واخضعت افريقية الشمالية للعرب . وعقد الصلح بين الفريقين على شريطة ان يقدم البربر اثنى عشر الفا محارب الى صفوف الجيش العربي ، وتكون من هولاء البربر جيشان ، وضع كل منهما تحت امرة واحد من ابناء الكاهنة . وبتلك الحيلة ، نعني ادخال البربر في جيوش العرب ، امل قواد المسلمين ان يدخلوهم في الاسلام ، وذلك بأن يطمعوهم في الغنائم .

وكان الجيش المؤلف من سبعة آلاف من البربر ، والذى ابحر من افريقية سنة ٧١١ م ليفتح اسبانيا بقيادة طارق وكان هو نفسه بربريا ، يتألف من اشخاص كانوا قد دخلوا في الاسلام حديثا . وقيل ان دخولهم في الاسلام كان عن يقين ثابت . وقد اختير العلماء والفقهاء من العرب ، ليقرءوا ويفسروا لهم آيات القرآن الكريم . ويعلموهم كل ما فرضه الدين الجديد من واجبات . واظهر موسى ، فاتح افريقية العظيم ، حماسة نحو اعلاء شأن الاسلام ، بأن خصص جزءا كبيرا من المال الذى كان يعطيه اياه الخليفة عبد الملك ، ليشترى امثال هولاء الاسرى اذا ما تعهدوا بأن يظهروا انهم جديرون بأن يكونوا

بناء اوفياء للاسلام . " فكان كلما وجد عددا من الرقيق ، معروضا للبيع ،عقب اى انتصار ، اشترى كل الذين يظن انهم سيعتقدون الاسلام راغبين ،والذين كانوا من اصل كريم ،والذين يظهرون ، الى جانب ذلك ، بمظهر الشباب العامل النشيط . وكان اول الامر يعرض على هؤلاء ان يعتقدوا الاسلام ، فاذا ما تحولوا الى خير الاديان ،بعد صقل مداركهم وتهيئتهم لاستقبال الحقائق السامية وكان تحولهم اليه صادقا ، استخدمهم على سبيل تجربة كفاياتهم ، فاذا اثبتوا استعدادا ومواهب طيبة اعتقهم في الحال ، وعينهم في مراكز هامة في جيشه ،ورقاهم حسب كفاياتهم ، واذا كان العكس ، ولم يظهروا صلاحية في اعمالهم ، اعادهم الى مستوى الاسرى العام التابع للجيش ، ليتخلص منهم حسب العادة المتبعة عندهم ، وهي ان ينتزعوا بالسهام ما فيهم من فساد " .

اما معرفة الى اى حد كان اسلام البربر سطحيا ، فيمكن ان نحكم على ذلك مما حدث حين عين عمر بن عبد العزيز الورع في سنة ١٠٠ هـ (٧١٨م) اسماعيل بن عبد الله واليا على شمال افريقية ، وارسل معه عشرة من الفقهاء ليفقهوا مسلمي البربر في امور دينهم ، فلم يكن يظهر حتى ذلك الوقت انهم كانوا يعلمون ان دينهم الجديد يحرم عليهم شرب الخمر . ويقال هذا الوالي الجديد اظهر نشاطا عظيما في دعوة البربر الى قبول الاسلام ، ولكن الحكم بأن جهوده كللت بالنجاح ، بحيث لم يبق واحد من البربر لم يدخل الاسلام ،حكم لا شك غير صحيح . وذلك لان تحويل البربر الى الاسلام كان من غير شك عمل قرون عديدة ، بل انهم يحتفظون حتى الوقت الحاضر بكثير من نظمهم الفطرية التي تتعارض مع الشريعة الاسلامية .

ولم ترسخ قدم الاسلام بينهم الا بعد ان اتخذ شكل حركة قومية ، واصبح مرتبطا بتولي دول البربر الحكم ،تلك الدول التي دخل في عهدها كثير من البربر في حظيرة الاسلام ،وكانوا من قبل يعدون قبول هذا الدين رمزا على ضياع الاستقلال السياسي . اما عن التغيرات المختلفة التي طرأت على حالة البربر السياسية ، فليس هنا مجال الحديث عنها ،ولكن الذى يستحق ان نخصه بالذكر في تاريخ الدعوة الى الاسلام ، هو ظهور المرابطين ، باعتباره حركة قومية عظيمة جذبت عددا كبيرا من قبائل البربر نحو الاندماج في الامة الاسلامية . وفي مستهل القرن الحادى عشر الميلادي نجد يحيى بن ابراهيم شيخ قبيلة صنهاجة ، احدى قبائل الصحراء ، يبحث في المراكز الدينية في افريقية الشمالية ، في اثناء عودته من حج بيت الله بمكة ، عن معلم تقي متفقه ، يصحبه الى ابناء قبيلته الجهلة المظلمين داعيا الى الاسلام : فوجد في اول الامر ان من العسير ان يعثر على رجل يرضى بترك اعتكافه العلمي ويستهين بمخاطر الصحراء ، ولكنه اخيرا وجد في عبد الله بن ياسين الشخص الذى يليق لهذا العمل ،اذ كان فيه من الاقدام ما يكفي للقيام بمثل هذه الرسالة الشاقة ، وكان تقيا زاهدا في حياته ،متفقها في الدين والشريعة وغيرها من العلوم . واذ رجعنا الى القرن التاسع الميلادى وجدنا ان دعاة الاسلام شقوا طريقهم بين بربر الصحراء ، واقروا فيهم دين النبي ، ولكن هذا الدين لم يجد هناك من القبول الا قليلا . وقد وجد عبد الله بن ياسين انه حتى الذين اقروا بالاسلام كانوا يهملون شعائرهم الدينية اهمالا شديدا ،ويستسلمون لكل الوان العادات المرذولة . فكرس نفسه ، متحمسا ، لهدايتهم الى

السراط المستقيم ، وبفقيههم في امور دينهم ، ولكن العنف الذى زجرهم به عن رذائلهم ، وحاول بواسطته ان يصلح سلوكهم ، حول عواطفهم عنه ، فدفعه في الغالب اخفافه في رسالته الى ان يهجر هذا الشعب العنيد ويقصر جهوده على هداية السودان الى الاسلام ولما استحث على الا يترك عملا كان قد زاوله من قبل ، لجأ مع من جمعتهم حوله دعوته من تلاميذ ، الى جزيرة في نهر السنغال حيث بنوا بها رباطا اسلموا انفسهم فيه لعبادة متصلة . اما هؤلاء البربر الذين كانوا اكثر استعدادا للتدين ، والذين حملهم على التوبة تفكيرهم في الرذيلة التي اخرجت معلمهم المتدين من بينهم فجاءوا خاضعين الى جزيرته يلتمسون منه العفو ، ويتلقون تعاليمه في حقائق الدين المخلصة . وعلى هذا النحو تجمعت حوله هناك يوما بعد يوم جماعة من تلاميذه اخذت في النماء ، وكانت على الاخص من لمتونه وهي فخذ من قبيلة صنهاجة ، اخذت اخيرا في الزيادة حتى بلغت حوالي الف شخص . بعد ذلك رأى عبد الله بن ياسين ان الوقت قد حان للخروج الى محيط اوسع للعمل ، فطلب الى اتباعه ان يعبروا عن شكرهم لله على هذا التنزيل الذى انعم به عليهم وذلك بأن ينقلوا العلم به الى غيرهم من الناس : " اخرجوا على بركة الله تعالى وانذروا قومكم ، وخوفوهم عقاب الله ، وابلغوهم حجته . فان تابوا وانابوا ورجعوا الى الحق واقلعوا عما هم عليه فخلوا سبيلهم ، وان ابوا ذلك وتمادوا في غيهم ولجوا في طغيانهم استعنا بالله تعالى عليهم وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا ".
ومن ثم ذهب كل رجل الى قبيلته وعشيرته فوعظهم ان يتوبوا ويصدقوا ، ولكنهم لم ينجحوا في هذه السبيل : كذلك اخفقت جهود عبد الله بن ياسين نفسه ، الذى ترك رابطته لعله يجد رؤساء

البربر في ذلك الوقت اقوى رغبة في الاصغاء لدعوته . واخيرا ، قاد اتباعه في سنة ١٠٤٢ م ، الذين سماهم بالمرابطين — وهو اسم مأخوذ من نفس المادة وهي الرباط اى الخلوة التي اتخذها في جزيرته بنهر السنغال — وهاجم القبائل المجاورة وارغمهم على قبول الاسلام . وقد بدا لقبائل الصحراء ، ان النجاح الذى حالف بن ياسين في غاراته الحربية ، كان حجة اقوى على اقناعهم من جميع تعاليمه ، وسرعان ما تقدموا طواعية الى اعتقاد دين كفل لجيوش اتباعه مثل هذه الانتصارات الباهرة . ومات عبد الله بن ياسين في سنة ١٠٥٩ ، ولكن الحركة التي كان قد بدأها لم تمت بموته ، بل جاءت قبائل كثيرة من البربر الوثنيين لتزيد في جموع ابناء وطنهم المسلمين ، واعتقدوا الاسلام على انه القضية التي كافحوا من اجلها ، وتدفقوا من الصحراء على افريقية الشمالية ، ثم فرضوا سيادتهم آخر الامر على اسبانيا كذلك .

ولا يبعد ان تكون الحركة القومية الكبرى التي نشأت بين قبائل البربر ، واعني بها ظهور الموحدين في بداية القرن الثاني عشر الميلادى ، قد جذبت الى المسلمين بعض القبائل التي كانت بعيدة عن الاسلام حتى ذلك الحين . وقد قرب ابن تومرت ، موسس دولة الموحدين ، الى العامة عقائد هذه الطائفة في التوحيد ، وهي التي تمسكوا بها ، وكان ذلك عن طريق ما ألفه من كتب باللغة البربرية شرح فيها قواعد الاسلام الاساسية ، من وجهة نظره الخاصة ، كما اتاح للقومية البربرية امتيازا ابعد من هذا ، اذ امر بأن يكون اذان الصلاة باللغة البربرية ، ومع هذا ، ظل بعض قبائل البربر على الوثنية حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى ، الا ان الاتجاه

العام كان بطبيعة الحال سائرا نحو اندماج هذه الجماعات الصغرى في الجماعات الاسلامية الكبرى . وقد شهد القرن السادس عشر الميلادي نشأة حركة نشيطة ، في نشر تعاليم الدعوة في بلاد المغرب ، كانت ترجع الى رد الفعل الذي احدثته انتصارات المسيحيين في اسبانيا وافريقية الشمالية — وقد امدت هذه الحركة نظام المرابطين بدافع قوى ، وخرجت جموع كبيرة منهم من الربط في جنوب مراكش ليقوموا بحملة ارشاد سلمية في كافة انحاء بلاد المغرب ، مجددين عقيدة هؤلاء المسلمين الذين فتر ايمانهم ، ومحولين الى الاسلام جيرانهم من الوثنيين . وقام اللاجئون من اسبانيا بنصيبهم في حركة نشر تعاليم الدعوة الى الاسلام هذه ، كما اشرنا الى ذلك من قبل اذ جاءوا لمساعدة الاشراف او ابناء ادريس بن عبد الله ، الذين كانوا قد فروا الى مراكش هربا من غضب هارون الرشيد . ومن الصحراء الكبرى ، ذاعت معرفة الناس بالاسلام اول الامر بين زنوج السودان . ويكتنف الغموض تاريخ هذه الحركة القديم ، ولكن يظهر ان هناك شيئا من الشك في ان البربر هم اول من ادخل الاسلام في البلاد لتي يرويها نهر السنغال والنيجر ، حيث اتصلوا بممالك وثنية كان بعضها (مثل غانة Ghana وصنغاى Songhay) عريقا ي القدم . وكانت لمتونة وجدالة قبيلتان البربريتان اللتان تنتميان الى شيرة صنهاجة تتميزان بصفة خاصة بحماستهما الدينية في تحويل لناس الى الاسلام ، وبجهودهم اثرت حركة المرابطين في قبائل سودان الوثنية . وكان عهد يوسف بن تاشفين مؤسس مراكش ١٠٦٢م) وثاني امراء دولة المرابطين ، حافلا جدا بدخول ناس في الاسلام . واخذ كثيرون من الزنوج الذين كانوا تحت مه يتعلمون مبادئ محمد . وفي سنة ١٠٧٦ م طرد البربر

الذين ظلوا وقتا ما ينشرون الاسلام في مملكة فانة ، الاسرة الحاكمة التي يحتمل انها كانت اسرة فلبي Fulbe ، واسلمت هذه المملكة القديمة عن بكرة ابيها ، وفي القرن الثالث عشر الميلادى فقدت استقلالها واحتلها المندنجو Mandingos .

اما عن دخول الاسلام في مملكة صنغاى Songhay القديمة التي يقال انها وجدت في عهد مبكر يرجع الى سنة ٧٠٠ م ، فلم يذكر لنا التاريخ الا ان اول ملك مسلم كان يسمى زاكسي وكان الملك الخامس عشر من اسرة زا ، وقد اسلم في سنة ٤٠٠ هـ (١٠٠٩—١٠١٠م) واصطلح على تسميته في لغة سنغاى باسم مسلم دام Muslim-dam ويدل هذا الاسم على انه دان بالاسلام بمحض ارادته لا عن طريق الارغام ،ولكن لم يرد اى ذكر عن المؤثرات التي دان لها باسلامه .

في السودان الغربي

وفي هذا القرن نفسه تأسست على النيجر الاعلى مدينتان قدر لهما في القرون المتعاقبة ان تؤثرا تأثيرا قويا في تقدم الاسلام في السودان الغربي — احداهما مدينة جني Genne التي تأسست سنة ٤٣٥ هـ (١٠٤٣—١٠٤٤م) ، والتي قدر لها ان تصبح مركزا تجاريا هاما ،والاخرى مدينة تمبكتو Timbuktu وهي مركز هام لتجارة القوافل مع الشمال ،وقد تأسست هذه المدينة حول سنة ١١٠٠م . وقد اسلم كنبرو Kunburu ملك جني حول نهاية القرن السادس الهجرى (اى حول سنة ١٢٠٠ م) ، فحذا حذوه سكان المدينة ،ويقال ان كنبرو لما عزم على اعتقاد الاسلام جمع كل العلماء في مملكته ،وكان عددهم يبلغ ٤٢٠٠ عالما (ومهما يكن

هذا العدد مبالغا فيه فان الرواية تبين لنا فيما يظهر ان الاسلام تقدم تقدما عظيما في البلاد التابعة لهذا الملك) . ثم طلب الى هوءلاء العلماء ان يدعوا الله كي ينصر مدينته ، ومن بعدها هدم قصره وبنى في مكانه مسجدا عظيما ، وكانت تمبكتو الى جانب شهرتها بالتجارة ، مدينة اسلامية منذ البداية " مادنستها عبادة الاوثان ، ولا سجد على اديمها قط لغير الرحمن " . وبعد ذلك بسنين صارت ذات شأن كمركز للتعاليم الاسلامية والتقوى ، وتوافد عليها الطلبة وعلماء الدين في جموع كبيرة ، مدفوعين بما كانوا يلاقونه فيها من تشجيع ورعاية . وقد اثنى ابن بطوطة ، الذى تنقل في هذه البلاد في اواسط القرن الرابع عشر على الزنوج لحماستهم في اداء عباداتهم وفي دراسة القرآن ، ويخبرنا هذا الرحالة انه اذا كان يوم الجمعة ولم يبكر الانسان الى المسجد لم يجد اين يصلي لكثرة الزحام .

وفي عصره كانت اقوى ولاية في السودان الغربي هي ولاية ملي Melle او مالي Malli ، وكان امرها قد علا قبل ذلك بقرن ، بعد فتح غانة على ايدى المندنجو ، وهم من اعظم اجناس افريقية رقيا : ويذكر عنهم ليو الافريقي Leo Africanus انهم اكثر جميع الزنوج مدنية واشدهم ذكاء واجدرهم بالاحترام ، ويمتدح الرحالون المحدثون صناعتهم ومهارتهم وامانتهم . وكان هوءلاء المندنجو من انشط الدعاة الى الاسلام الذى انتشر بواسطتهم بين الجماعات المجاورة لهم .

وكما جاء في تاريخ كانو Kano Chronicle كانت قبائل المندنجو هي التي عرفت قبائل الحوصة Hausa بالاسلام ، وليس تاريخ ذلك محققا ، كما هو الشأن في معظم التواريخ المتصلة بتاريخ ولايات قبائل الحوصة ، وذلك لان قبائل الفلاني Fulb

التي فتحت هذه الولايات في بداية القرن التاسع عشر الميلادى ، اتلفت معظم سجلاتها التاريخية . ولكن اهمية اعتناق الحوصة للاسلام لا يمكن ان نبالغ فيها ، فهم اصحاب نشاط وذكاء ، وقد اكسبتهم مهارتهم الفائقة في التجارة نفوذا كبيرا بين شتى القبائل التي اتصلت بهم ، فأصبحت لغتهم هي لغة التجارة في السودان الغربي . وحيثما ذهب تجار الحوصة ـ وهم منتشرون من ساحل غينيا Guinea حتى القاهرة ـ نقلوا معهم الدين الاسلامي . وسنتحدث في الصفحات التالية عن نشاطهم في الدعوة للاسلام. اما فيما يتعلق باعتناق الحوصة انفسهم هذا الدين فان الشواهد التاريخية تكاد تكون منعدمة تمام الانعدام ، كما هو الحال فيما يتعلق بظهور ولايات الحوصة السبع ،وملحقاتها ، ويظهر احد دعاة الاسلام الذين بعثوا الى كانوا Kanoa وكتزنا Katsena كان بلا شك استاذا مثقفا ورعا ، وكان من تلمسان ،ذلك هو محمد بن عبد الكريم بن محمد المجيلي ، الذى نبغ حول سنة ١٥٠٠ م . ومن الممكن ان تكون الحوصة قد تأثرت في اسلامها بهذه الموجة الكبيرة من السيطرة الاسلامية التي سرت من مصر صوب الجنوب في القرن الثاني عشر الميلادي. ويفخر تجار كردفان وتجار السودان الشرقي على وجه العموم ، بأنهم ينحدرون من العرب الذين شقوا طريقهم الى هذه البلاد بعد سقوط الخلافة الفاطمية في مصر سنة ١١٧١ . ولكن من المحتمل انه كان هناك ايضا الوان من النفوذ الاسلامي ،وقد اتى هذا النفوذ من الشمالي الشرقي وتطرق الى افريقية الوسطى . ومن مصر ،انتشر حتى دخل كانم Kanem وهي مملكة واقعة الى الشمال والشمال الشرقي لبحيرة شاد ، وبعد ان اعتقد اهلها الاسلام بقليل

اصبحت دولة ذات اهمية كبرى وبسطت سلطانها على قبائل السودان الشرقي الى حدود مصر وبلاد النوبة . ويقال ان اول ملوك كانم من ــ المسلمين حكم اما حول نهاية القرن الحادى عشر او في النصف الاول من القرن الثاني عشر الميلادى . ولكن التفصيلات التي لدينا عن انتشار الاسلام من الشمال الشرقي اندر حتى من تلك التفصيلات التي ذكرناها من قبل عن تاريخ دويلات السودان الغربي . وان مجرد ذكر تواريخ تحول ملوك هذه الدويلات الى الاسلام وتأسيس دول اسلامية ، لا يمدنا الا بأخبار قليلة ، ولكن حقيقة واحدة تبرز لنا واضحة من هذا السجل التاريخي الهزيل ، تلك هي البطء الشديد في تحول الناس هناك الى الاسلام . وان بقاء جموع كبيرة من عبدة الاوثان يعيشون في الاقاليم التي مرت عليها قرون وهي تحت الحكم الاسلامي ، ليدلنا فيما يظهر على ان نفوذ الاسلام ظل محصورا في المدن طويلا ، ولم يتخذ طريقه الى الجماعات الوثنية الا تدريجيا . والواقع ان النفوذ الاسلامي لم يصادف مقاومة عنيدة كتلك التي جعلت جماعة البمبارا Bambara الوثنية يحتفظون بوثنيتهم ، مع انهم (وقد سكنوا السنفال الاعلى والنجر الاعلى) كانوا محاطين مدة قرون بسكان من المسلمين .

وقد حاول مرابط يدعى عمرو كبا Umaru Kaba ان يحول البمبارا الى الاسلام فأخفق ، وكان ذلك في اوائل القرن العشرين ، وقد اسس هذا الرجل جمعية اخوان دينية جديدة ، كانت على صلة بالقادرية ، فلما اخفق في جذب ابناء دينه وجه اهتمامه الى البمبارا الوثنيين ، وحاول ان يدخلهم في الاسلام ويضمهم الى جماعته . ويظهر انه كان في طريقه الى النجاح ، وكان قد حول الى الاسلام

من قبل قرية وتنية في ولاية سنسندنج Sansanding ، حيـــن طرد رئيس الولاية هذا الداعي خارج حدود ولايته ،وامر من دخلوا حديثا في الاسلام من البمبار ان يرجعوا الى عقائدهم الدينيـــــة القديمة .

حيثما كان التزاوج بين امثال هذه الاجناس وبين غيرهم كالعرب والبربر الذين اكثروا من هذا التزاوج ، كان الاندماج في المسلميـن يسير سيرا منتظما ، يضاف الى ذلك ماكان هناك من نشاط فـــي الدعوة قامت به تلك القبائل ـ وهي الفلاني والحوصا ولماندنجـو ـ التي امتازت بحماستها في سبيل دينها مما ساعد على نمو المجتمـع الاسلامي لو لم تكن تلك الحروب الطاحنة التي جعلت كل دويلـــــة اسلامية تقضي على الاخرى . فنهضت قبيلة مالي Malle علـــى انقاض غانة في القرن الثالث عشر الميلادى وحطمت صنغاى غانـــــة في اوائل القرن السادس عشر الميلادى ، وخربت صنغاى بدورهـــا بعد ذلك بقرن على ايدى العرب . لما دالت هذه الـــــدول الاسلامية من جراء المذابح الكثيرة التي تميزت بها الحرب فـــي السودان ، استردت الوثنية كثيرا من مكانتها التي كانت قد فقدتها ، وكما كان الحال في المسيحية ، كان كذلك في العالم الاسلامـــي ، ان كانت هناك فترات تدهورت فيها الحماسة في الدعوة ، ورضـــي المسلمون في بعض اجزاء السودان ان يتركوا الوثنية التي كانـــت تكتنفهم دون ان يمسها اى نشاط في نشر تعاليم الاسلام .

وفي القرن الرابع عشر الميلادى هاجر العرب التنجور من تونس الى الجنوب ،واخترقوا البرنو Bornu وواداى Wadai حتى وصلوا الى دارفور ، وجاء غير من الشرق فيما بعد . وقد لقي احدهـــم

ويدعى احمد حفاوة عظيمة من ملك دارفو الوثني الذى تعلق به فجعلـه مشرفا على شئون بيته واستشاره في كل المناسبات . وان خبرتـــه بأساليب حكم كانت اكثر رقيا من تلك التي كانت في دارفور ، مكنته مـن ان يدخل عدة اصلاحات على كل من شئون بيت الملك الاقتصاديـة وحكومة الدولة . ويقال انه اخضع لسياسته الحكيمة الزعماء المتمردين ، وقسم الاراضي بين فقراء السكان ليضع حدا للاغارات الداخلية ، وبذلك ادخل على المملكة شعورا بالطمأنينة والرضا لم يعرفوه من قبل . ولما لم يكن للملك وريث من الذكور زوج ابنته من احمد ، وعينه خليفة لـه ، وقد ايد هذا الاختيار ان الناس ضجت باستحسانه . واستمرت هـذه الدولة الاسلامية ، التي تأسست على هذا النحو ، حتى القرن الحاضر وكانت اسباب الحضارة التي احدثها هذا الزعيم وذريته قد اقترنـت من غير شك ببعض نشاط في نشر تعاليم الدعوة ، ولكن يظهر ان هؤلاء العرب المهاجرين لم يبذلوا الا جهدا يسيرا جدا في سبيل نشـر دينهم بين جيرانهم الوثنيين . ومن المؤكد ان دارفور لم تدخل فـي الاسلام الا بجهود احد ملوكها ويدعى سليمان ، وقد بدأ حكمـه سنة ١٥٩٦ ، ولم ترسخ قدم الاسلام في الممالك الاخرى ، الواقعة بين كردفان وبحيرة شاد كوداى وباغرمي ، الا في القرن السادس عشـر . وكان اول ملوك باغرمي من المسلمين السلطان عبد الله الذى حكم مـن سنة ١٥٦٨ الى سنة ١٦٠٨ ولكن مملكة وداى كانت المركز الرئيسـي للنفوذ الاسلامي في ذلك الوقت ، وقد اسسها عبد الكريم حول سـنة ١٦١٢ م ، ولم تسلم عامة باغرمي الا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر .

ولكن تاريخ الدعوة الاسلامية في افريقية ابان القرن السابع عشـر

والثامن عشر ضئيل جدا ، بل لا اهمية له اطلاقا اذا ماقارنـــــاه بالنهضة العظيمة في نشاط الدعوة خلال القرن الحاضر . وكان مسلمو افريقية في حاجة الى مؤثر قوى يوقظ عزائمهم الخاملة ،فقد كانـــت حالتهم في القرن الثامن عشر ،فيما يظهر ، حالة فتور ديني تقريبا ، وكانت نهضتهم الروحية راجعة الى تأثير الحركة الوهابية في اواخــــر القرن الثامن عشر ،ومن هنا جاء ما نصادفه في الازمان الحديثـــة من بعض الاخبار التي تتعلق بحركات نشر تعاليم الدعوة بين الزنـوج ، تلك الاخبار التي لم تبلغ من التفاهة والضآلة ما بلغته الاخبار التـــي سردناها من قبل ، ولكنها تمدنا بتفصيلات شافية عن ظهور عدة اعمـال هامة في الدعوة وتقدمها .

دنفديو : وحول نهاية القرن الثامن عشر ظهر من بين جماعـة الفلانى رجل معروف يدعى الشيخ عثمان دنفديو ، عرف بأنه مصلـــح ديني وداع محارب . وقد ذهب من السودان الى مكة لاداء فريضة الحج فعاد من هناك مليئا بالحماسة والغيرة من اجل الاصلاح والدعوةللاسلام وتأثر بمبادئ الوهابيين ، الذين كانت قوتهم آخذة في النماء فـــي الوقت الذى زار فيه مكة ، فأنكر الصلاة على روح الميت وتعظيم من مات من الاولياء ، واستنكر المبالغة في تمجيد محمد نفسه ،وهاجم في نفس الوقت رذيلتين كانتا منتشرتين في السودان ، هما شرب الخمر وفســـاد الخلق .

وحتى ذلك الوقت كانت جماعة الفلاني تتألف من عدة قبائل صغيرة متناثرة تحيا حياة رعوية ،وقد دانت هذه الجماعة بالاسلام في وقت مبكر ، وكانت لا تزال حتى ذلك الحين قانعة بتأليف مستعمرات من الرعـــاة والزراع في مختلف بقاع السودان . وان مالدينا من اخبارهم في مستهل

القرن الثامن عشر ، ليصورهم لنا في صورة اناس مسالمين ،نشيطين في اعمالهم ،ويتحدث عنهم احد الذين زاروا موطنهم على نهر الجمبيا سنة ۱۷۳۱ ،فيقول : " في كل دولة او بلد على كل من جانبي النهر توجد جماعة ذات بشرة سمراء ، يدعون الفولز (اى الفلاني) وهم يشبهون العرب ومعظمهم يتكلم العربية ، لانهم يتعلمونها في مدارسهم ، ولان القرآن ،وهو ايضا شريعتهم ، مكتوب بهذه اللغة . والمامهم على وجه العموم اكثر بالعربية من المام اهل اوربا باللاتينية ، اذ ان معظمهم يتكلمها مع ان لهم لغة غير مهذبة تسمى فولي . ويعيشون قبائل او عشائر ،ويبنون لانفسهم مدنا ، ولا يخضعون لاى ملك من ملوك البلاد التي يقيمون فيها ، مع انهم يعيشون في اراضي هوءلاء الملوك ، وذلك لانهم كانوا اذا اسيء اليهم ، في قوم هم يعيشون بين ظهرانيهم ، هدموا مدنهم وارتحلوا الى قوم آخرين ولهم روءساء من انفسهم يحكمونهم حكما معتدلا الى حد ان كل عمل تقوم به الحكومة يبدو كأنه عمل الشعب اكثر من ان يكون عمل فرد من الافراد . وهذا النوع من الحكومات يدار دولابه في سهولة ويسر ، لان الاهالي اصحاب طبيعة هادئة ، ولانهم تعلموا جيدا ما هو عدل وما هو حق ، حتى ان من يقترف الشر منهم يكون موضعا لكره الجميع . وهذه الجماعة على جانب كبير من النشاط والاقتصاد ، يزرعون من القمح والقطن اكثر مما يفي بحاجتهم ،ويبيعونه بسعر معتدل ويشتهرون بالكرم الى حد ان مواطنيهم يعتبرون ان من نعم الله عليهم ان تكون بجانبهم بلد من بلاد فولي ،وفوق هذا اكسبهم سلوكهم حدا من الشهرة يجعل من العار ان يعاملهم احد معاملة غير كريمة . ومع ان انسانيتهم تعم جميع الناس ،فشفقتهم بأبناء

نفسهم مضاعفة ،واذا علموا ان اى فرد من جماعتهم قد اخذ رقيقا اتحد الفلاني جميعا وحرروه . ولوفرة الغذاء عندهم لا يدعون ابدا واحـــدا منهم يقاسي الحاجة ، بل انهم يعولون المسن والاعمى والاعرج ويساوون بينهم وبين الآخرين . وقلما يغضبون ، ولم اسمع مطلقا واحدا منهـــم يسب الآخر ، ومع هذا فلم تكن وداعتهم صادرة عن حاجة الـــى الشجاعة ، اذ انهم شجعان كأى شعب في افريقية ، وهم مهـــرة حدا في استعمال اسلحتهم ، وكانوا يستخدمون اسلحة تتكون مـــن الزغايات واليطفانات القصيرة ، والقوس والنشاب ، بل يستخدمـــون البنادق في بعض الاحيان ، وهم مسلمون متمسكون بدينهم ، ومن النادر ان يشرب احدهم الخمر او اى مشروب اقوى تأثيرا من الماء " .

وقد وحد دنفديو هذه الجماعات المنفصلة ، المتناثرة في شـــتى اقاليم الحوصا ، وجعل منهم جماعة قوية . وفي سنة ١٨٠٢ حدثـــت اول ثورة من مملكة جوبر التي كانت لا تزال على الوثنية ، والتي بسطت نفوذها على اقصى الشمال من بلاد الحوصا ، وقد حاول ملك جوبر ان يعـــوق قوة الفلاني المتزايدة في بلاده فأدى ذلك الى انّ رفع دنفديو علم الثورة وسرعانً ما وجد نفسه على رأسً جيشً قويً ، لم يتعرض به للقبائـــل الوثنية وحدها ويفرض عليها الاسلام ، بل تعرض ايضا لولايـــات الحوصا الاسلامية ، فسقطت هذه الولايات واحدة بعد اخرى ، واصبحـــت كل اراضي الحوصا تحت حكم دنفديو قبل وفاته سنة ١٨١٦ . ولا يـــزال قبره في سوكوتو Sokoto مثابة تعظمها جموع كثيرة من الزائريـــن .
وقد قسم دنفديو مملكته بين ولديه ، اللذين زادا كذلك في توسيع حدود بلاد الفلاني ومدينة ادماوا ، التي اسست سنة ١٨٣٧ على انقـــاض عدة ممالك وثنية تعتبر حدا لفتوحاتهم نحو الجنوب الشرقي . وكانـــت

مدينة الورن Ilorin ، في بلاد اليوروبا Yoruba ، التي تاسست في عهد دنفديو ، هي الحد الجنوبي الغربي لامبراطورية بول Pul . وقد ظلت السيطرة على هذه البلاد طوال القرن التاسع عشر في ايدى الفلاني ، على تفاوت في التوفيق والنجاح في الحكم ، وظهروا بمظهر القسوة والتعصب في الدعوة الى الاسلام ، حتى قام الحكم البريطاني في نيجريا سنة ١٩٠٠ .

وقد ساعد دخول القانون والنظام في نيجريا الجنوبية على نشر الدعوة الى الاسلام ، كما كانت الحال في جهات افريقية الاخرى التي اصبحت تحت الحكم الاوربي . فاستطاع مسلمو الحوصا ، الذين ينتسب بعضهم الى الطريقة التجانية ، ان يتنقلوا في البلاد بحرية ، وان ينفذوا الى القبائل الوثنية التي كانت حتى ذلك الحين تمنع ، في تعصب وصلابة ، تطرق كل المؤثرات الاسلامية اليها . ويقال ان الاسلام في مملكة اليوروبا بوجه خاص ترسخ قدمه بسرعة . وهناك اسطورة عن محاولة قام بها احد دعاة الاسلام في هذه البلاد ، في وقت مبكر الى القرن الحادى عشر او الثاني عشر الميلادى ، ولكن هذه المحاولة لم تنجح . كان هذا الرجل من الحوصا جاء الى مدينة ايف Ife حاضرة مملكة اليوروبا الوثنية وجعل يدعو الناس ويتلو عليهم آيات من القرآن ، وكان لا يستطيع ان يتكلم لغة اليوربا بطلاقة ، فلم يكن بد من ان يردد على سامعيه في لهجة اجنبية قوله " هلم نعبد الله الذى خلق الجبال والوهاد وخلق كل شيء وخلقنا " . وكان يقوم بذلك من وقت لآخر دون ان ينجح في كسب فرد واحد يتحول الى الاسلام ، وقد مات هذا الرجل بعد وصوله الى مدينة ايف بأشهر قليلة . وبعد موته وجدوا المصحف معلقا على مشجب في حائط حجرته فصار اهل هذه البلاد يقدسونه

على انه من وثن . وحيث اخفق داعية هذا الدين القديم نجـد المحدثين من ابناء دينه ينجحون نجاحا رائعا . وفي فترة الفوضى التي سبقت الاحتلال البريطاني كانت غالبية المسلمين تقيم في مدن كبيرة تكتنفها الاسوار ، ولكنهم يستطيعون في ظل الطمأنينة والامن الجديد ان يستقروا في القرى ، على مقربة من اعمالهم الزراعية. وعلى هذا النحو اخذ نفوذ الاسلام يزداد اتساعا في هذه البلاد وكما كانت الحال في شرقي افريقيا الالمانية ، ثبت ان وجود مسلمين في جيش هذه البلاد قد ساعد على نشر الاسلام . وغالبا ماكان المجندون من الوثنيين يعتنقون الاسلام كي يتجنبوا سخرية الناس ويظفروا باحترامهم . وكذلك نلحظ في مملكة ايجيبو Ijebu ، في نيجريا الجنوبية ، حركة حديثة جدا للدعوة الى الاسلام ، على ان الاسلام لم يدخل في هذا الجزء من نيجريا الا في سنة ١٨٩٣ ، وفي سنة ١٩٠٨ كانت هناك بلدة بها عشرون مسجدا واخرى بها اثنا عشر مسجدا . ويمكن ان نلاحظ سرعة انتشار الاسلام هذه على طول ضفتي نهر النيجر في نيجريا الجنوبية بوجه خاص ، ويقرر احد مبشري المسيحيين ما يأتي : "عندما غادرت هذه البلاد في سنة ١٨٩٨ كان هناك قليل من المسلمين بأسفل اده Iddah ، ولكنهم الآن منتشرون في كل مكان ، ما عدا اسفل ابو Abo ، وعلى هذا النحو من السرعة التي نلحظها في تقدم الاسلام ، سيكون من النادر ان نجد قرية وثنية على ضفتي النيجر في سنة ١٩١٠" .

محمد عثمان الميرغني : وهكذا كان في هذا الجزء من افريقية نشاط كبير في الدعوة الى الاسلام قام به رجال لم يمتشقوا الحسام في سبيل تحقيق غايتهم ـ اعني بذلك تحويل الوثنيين الى الاسلام ،

وعلى هذا الاسلوب كان يسير الذين يتبعون بعض المبادىء الدينية الاسلامية الجليلة ، تلك المبادىء التي كانت تكون الصفة الغالبة على النشاط الديني في افريقية الشمالية . وقد حققت جهود دعاة الاسلام نتائج عظيمة خلال القرن التاسع عشر ، ومع ان كثيرا من اعمالهم لا شك انها لم تدون قط ، لا يزال لدينا اخبار عن بعض الحركات التي بدأها هوءلاء الدعاة . ومن اسبق تلك الحركات حركة يعزى قيامها الى سي احمد بن ادريس ، الذى كان يتمتع بشهرة واسعة كمعلم ديني في مكة من سنة ١٧٩٧ الى سنة ١٨٣٣ ، وكان الزعيم الروحي لجماعة الخضرية ، وقد ارسل قبل موته سنة ١٨٣٥ احد اتباعه ، ويدعى محمد عثمان الاميرغنى ، في رحلة الى افريقية لنشر تعاليم الاسلام . ولما عبر البحر الاحمر الى القصير ، شق طريقه حتى بلغ النيل . وهنا بين جماعات اسلامية انحصرت جهوده بصفة عامة في ضم اعضاء الى الطائفة التي كان ينتسب اليها ، ولكنه لم يصادف في رحلته الى اعالي النهر نجاحا كبيرا حتى وصل الى اسوان ، ونجحت رحلته من اسوان حتى دنفلة نجاحا تاما ، وقد اسرع النوبيون الى الدخول في الطائفة التي كان ينتسب اليها محمد عثمان هذا ، واثرت في هوءلاء الناس تلك الابهة الملكية التي كانت تحيط به تأثيرا فعالا ، كما جذبت اليه كراماته في نفس الوقت عددا كبيرا من الاتباع . وفي دنفلة ترك محمد عثمان وادى النيل ليذهب الى كردفان ، حيث مكث زمنا طويلاً ، وهنا بدأ عمله في نشر الدعوة بين الكفار . وكانت قبائل كثيرة في هذه البلاد وحول سنار لا تزال على الوثنية ، وقد نجحت دعوة محمد عثمان بين هوءلاء القوم نجاحا رائعا جدا ، وعمل على توطيد نفوذه فيهم بأن تزوج ببضع زوجات منهم ، فتولى نسله منهن بعد ان مات في سنة ١٨٥٣ ، نشاط الطائفة التي

اسسها وتسموا امير غنية نسبة اليه .

وقبل ان يقوم محمد عثمان برحلته ،التي دعا فيها الى الاسلام بسنين قلائل ، كانت جنود محمد علي ، موءسس الاسرة التي كانت تحكم مصر حينذاك ،قد اخذت توسع من فتوحاتها في السودان الشرقي ، وشجعت الحكومة المصرية رسل المذاهب الوثنية العديدة في مصر على القيام بدعاية في هذه البلاد التي عرفوها حديثا ، عسى ان تساعد اعمالهم على تهدئة الحال في هذه البلاد ، فواصلوا نشر الدعوة في تلك الاراضي التي استولوا عليها حديثا حيث قاموا باعمال صادفت نجاحا كبيرا ، حتى ان ثورة السودان الحديثة بزعامة المهدي قد عزيت الى الحماسة الدينية التي اثارتها دعوتهم .

القادرية والتجانية : وفي غرب افريقية كانت هناك طائفتان تعملان بصفة خاصة على نشر الاسلام ، هما القادرية والتجانية . وقد تأسست الاولى ، وهي اوسع الجماعات الدينية الاسلامية انتشارا ، في القرن الثاني عشر على يد عبد القادر الجيلاني ، ويقال انه كان اشهر اولياء المسلمين كافة واعظمهم هيبة ، ـ ودخلت القادرية في افريقية الغربية في القرن الخامس عشر على ايدي مهاجرين من توات Tuat ،وهي واحة في النصف الغربي من الصحراء ، فاتخذوا من ولاته Walata اول مركز لطريقتهم ،ولكن احفادهم طردوا عن هذه المدينة فيما بعد ، فلجئوا الى تمبكتو واقاموا في جهة نائية شرقي ولاته . وفي مستهل القرن التاسع عشر نجد النهضة الروحية الكبيرة التي كانت توءثر في العالم الاسلامي تأثيرا عميقا ، تدفع بالقادرية الذين كانوا يقيمون في الصحراء الكبرى وفي السودان الغربي ، الى حياة ونشاط جديدين ، ولم يمض زمن طويل حتى وجدنا فقهاء مثقفين ، وجماعات صغيرة من المريدين قد انتشروا في ارجاء السودان الغربي من السنغال الى مصب النيجر .

وتقوم المراكز الرئيسة لتنظيم دعوتهم في كنكاوتمبو Timbo بجبال (فوتاجالون) ومسردو Musrdo (الواقعة في بلاد الماندونجو Mandingo) . وكانت هذه المدن تؤلف مراكز النفوذ الاسلامي وسط شعب وثني رحب بالقادرية باعتبارهم كتابا وفقهاء وكتاب تمائم ومعلمين . وتسلطت القادرية على من كان يحيط بها شيئا فشيئا . وسرعان ما تطور الدخول في الاسلام من حالات فردية الى جماعة صغيرة من هؤلاء الذين اسلموا كان يرسل منهم في اغلب الاحيان من هم معقد الرجاء الى المراكز الرئيسة للطائفة ، لاتمام دراستهم، بل كانوا يبعثون الى مدارس القيروان او طرابلس ، او الى جامعات فاس والازهر بالقاهرة . وربما قضوا في هذه البلاد عدة سنوات ، حتى يتقنوا دراستهم الدينية ثم يعودون الى اوطانهم مزودين تزودا تاما للاشتغال بنشر العقيدة بين مواطنيهم . وعلى هذا النحو تسربت نواة الاسلام الى عبدة الاوثان والاصنام ،وانتشرت العقيدة تدريجيا انتشارا عظيما بصفة مستمرة وتم ذلك بخطوات غير محسة في الغالب . وكان المعلمون حتى منتصف القرن التاسع عشر ، يؤسسون المدارس في السودان ويشرفون عليها ، وكان هؤلاء المعلمون قد تربوا في كنف القادرية ونظامهم الذى اقاموه على طريقة منظمة مستمرة في دعوة القبائل الوثنية . وكان نشاط هذه الجماعة في الدعوة ذا طابع سلمي للغاية ، يعتمد كل الاعتماد على الارشاد وعلى ان يكون الواحد منهم قدوة لغيره ،كما كان يعتمد على مبلغ تأثير المعلم منهم في تلاميذه ، كما يعتمد على انتشار التعليم . وبهذه الخطة برهن دعاة القادرية في السودان على انهم اوفياء لمبادئ مؤسس الجماعة ولتقاليدها العامة . ذلك لان اهم المبادئ التي كانت تسيطر على حياة عبد القادر هي

حب الجار والتسامح . ومع ان الملوك واصحاب الثراء كانوا يرادفون له هداياهم ، كان كرمه البالغ يجعله دائما في فقر ، ولا نجد في كتبه ولا في مواعظه ما يدل على سوء نية او عداوة نحو المسيحيين . وكان كلما تكلم عن اهل الكتاب ، لم يزد على ان يعبر عن اسفه على ماهم فيه من باطل ، ويدعو الله ان ينير لهم السبيل . وقد اوصى تلاميذه بهذا السلوك السمح الذى كان صفة بارزة في اتباعه في جميع العصور .

اما التجانية التي تنتسب الى طائفة نشأت في بلاد الجزائر حول نهاية القرن الثامن عشر ، فقد سارت منذ قامت في السودان حول منتصف القرن التاسع عشر على نفس اساليب القادرية في الدعوة . وساعد تعدد مدارسهم في الغالب على نشر العقيدة ، ولكن التجانية ، التي كانت تختلف عن القادرية ، لم تتورع عن اللجوء الى السيف ، يستعينون به على نشر خطتهم في تحويل الناس الى الاسلام . واذا ما قدرنا نشاط هؤلاء في الدعوة الى الاسلام في افريقية الغربية تقديرا صحيحا ، فانه يؤسفنا ان نجد شهرة جهادهم او حروبهم الدينية قد طغت على نجاح الدعاة المسلمين ، على الرغم من ان اعمال الاخيرين كانت اجدى على انتشار الاسلام من انشاء دويلات صغيرة قصيرة الاجل . ونجد اخبار الحملات وخاصة عندما كانت تتناول المشروعات او خطط الغزو التي قام بها الجنس الابيض ، تسترعي بطبيعة الحال انتباه الاوربيين اكثر من ان تسترعي انتباههم الاعمال السلمية التي كان يقوم بها دعاة المسلمين ومعلموهم . ولكن تاريخ امثال هذه الحركات له تلك الاهمية ، وهي ان الغزو — كما كان يحدث دائما في حالة الارساليات المسيحية ايضا — قد فتح ميادين جديدة لنشاط الدعوة ، وجعلهم يعتقدون بوجود آفاق واسعة من البلاد لا يزال اهلها على الوثنية .

اما اولى الحركات الحربية التي قام بها افراد التجانية في نشر الدعوة ،فتعزى نشأتها الى الحاج عمر الذى كان قد دخل في هذه الجماعة على يد احد زعمائها الذى تعرف عليه في مكة . ولد الحاج عمر سنة ١٧٩٧ على مقربة من بودور Podor على السنغال الادنى ، ويظهر انه كان رجلا كريم السجايا ،ذا نفوذ شخصي ،ومظهر يوحي بالسيطرة والقوة . وكان ابنا لاحد المرابطين ، وتثقف ثقافة دينية متينة ،واشتهر بعلمه وورعه حين خرج الى الحج سنة ١٨٢٧ . ولم يعد ، من الحج ،الى وطنه الا سنة ١٨٣٣ ،حيث نشط في نشر تعاليم التجانية وهاجم ابناء دينه لجهلهم مهاجمة عنيفة ، وخاصة شيوخ القادرية الذين اثار تساهلهم وتراخيهم بنوع خاص سخطه وغضبه وقد عبر الحاج عمر السودان الاوسط ، فظفر بكثير من الاتباع ، وكُرّم كمهدى جديد ،وما ان وافت سنة ١٨٤١ حتى كان قد بلغ جبال فوتاجالون ، حيث سلح اتباعه وبدأ سلسلة من الحملات في نشر تعاليم الدعوة بين القبائل التي كانت لا تزال على الوثنية ، وكانت تقيم حول النيجر الاعلى والسنغال . وفي احدى هذه الغزوات لقى حتفه في سنة ١٨٦٥ . ولم ينجح ابنه ،احمد وشيخو ،في ضم مختلف الولايات في مملكة ابيه الا سنوات قلائل ، ثم صدعتها المنازعات الداخلية وقدوم الفرنسيين ، وانتقلت اراضيها الى حكم فرنسا .

ذكرنا من قبل طرفا عن دخول الاسلام في هذا الجزء من افريقية . كانت البذرة التي بذرها هناك عبد الله بن ياسين واصحابه تتغذى من الصلة المستمرة مع تجار المسلمين ومع عرب واحة الحوض وغيرهم . ويحدثنا رحالة في القرن الخامس عشر كيف جاهد العرب في تعليم رؤساء الزنج شريعة محمد ، مبينين لهم انه من العار عليهم ،ان يكونوا

روؤساء يعيشون من غير ان تكون لهم اية شريعة من الشرائع الالهية ، وان يفعلوا ما فعلت الجماعات المنحطة التي عاشت من غير ان تكون لها شريعة على الاطلاق . ومن هنا ، قد يظهر ان هوءلاء الدعاة الاول استغلوا الطابع الذى تميز به الدين الاسلامي ، ودستور الحكم فيه ليوءثروا في عقول هوءلاء غير المتحضرين .

ولدينا تفاصيل اوفى عن حركة من هذا النوع ذاته احدث من تلك قامت في جنوب سنغامبيا ، على يد احد الماندنجو ، ويدعى صمودو ، وقد اشتهر باسم صمدو ، وهو جندى وثني موسر ، ولد حول سنة ١٨٤٦ ، واصبح مسلما في عهد مبكر من تاريخ حياته ، واسس امبراطورية في جنوب سنغامبيا في البلاد التي يرويها نهر النيجرالاعلى وروافده . وقد كتب احد موءرخي هذه البلاد بالعربية عن سيرة سمرى ، كتابة تمدنا ببعض تفاصيل ممتعة عن اعماله ، ويبدأ كالاتي :

" هذه قصة الامام احمد صمدو ، احد افراد الماندنجو . لقد انعم الله عليه بعونه منذ اخذ في زيارة الوثنيين عبدة الاصنام ، اولئك الذين يعيشون بين البحر وبلاد وسولو ، وكان يزورهم بقصد دعوتهم الى اتباع دين الله ، الدين الاسلامي . ولتعلموا يامن تقرءون هذا ان الامام صمودو وجه همته اول الامر الى بلدة تدعى فولندية . ولما كان يعمل بالكتاب والشريعة والسنة ارسل رسلا الى ملك هذه البلدة ، ويدعى سنديدو ، يدعوه الى الاذعان لحكومته ، ونبذ عبادة الاصنام ، والى عبادة الاله الواحد العلي الحق الذى تنفع عبادته خلقه في هذه الدنيا وفي الآخرة ، ولكنهم ابو الخضوع ، ففرض عليهم الجزية ، كما امر بها القرآن ، ولكنهم ظلوا في عماوتهم وصممهم ، فجمع الامام للجهاد قوة صغيرة تقرب من خمسمائة رجل ،

كانوا شجعانا اشداء ،وحارب هذه المدينة ، فأعانه الله ونصره عليهم، وقد طاردهم بخيله حتى سلموا . انهم لن يعودوا الى وثنيتهم ، وذلك لان كل اولادهم الآن في مدارس يحفظون فيها القرآن ، ويلمون فيها بأطراف من الدين والتهذيب . والحمد لله على هذا " . وليس من الممكن في هذا المقام ان نتتبع سلسلة فتوحاته التي تميزت بكثرة المذابح والتخريب . وقد بلغ احمد صمودو اوج قوته حول سنة ١٨٨١، وبعد ذلك بقليل دخل في نزاع مع الفرنسيين ، فأسروه سنة ١٨٩٨ بعد سلسلة من الغزوات القاسية ، ومات في سنة ١٩٠٠ . ومع ان فتوحاته انتهت بالقضاء على جموع كبيرة من الوثنيين ذبحهم القساة ، وتظاهر آخرون بقبول الاسلام بدافع الخوف ، يظهر انه لم يكن يهدف الى نفس هذا الغرض الديني الواضح الذى كان يهدف اليه الحاج عمر . وقد خلف للمرابطين من القادرية مهمة الدعوة ،فبذلوا ، بما عرف عنهم من التقاليد التي ساروا عليها في التسامح ، مجهودا كبيرا ليخففوا من اعماله القاسية . وفتحوا المدارس في المدن التي كانت قد قلبت على امرها ، وهناك وضعوا نظام جماعتهم ، وعلموا من دخلوا في الاسلام حديثا ،كما سعوا في نفس الوقت الى جذب مسلمين جدد .

اما فيما يتعلق بهذه الحركات العسكرية في الدعوة الى الاسلام، فمن المهم ان نلاحظ ان الانتصارات الحربية وفتح البلاد لم تكن اهم ما ساعد على تقدم الاسلام في هذه المناطق ، اذ اتضح ان ما قام به الحاج عمر من تحويل الناس الى الاسلام بالقوة قد نسي سريعا فيما عدا هذه المناطق الصغيرة التي بقيت في ايدى خلفائه بصفة نهائية . وعلى الرغم من عظمة انتصاراته المؤقتة وحماسة جيوشه ، لم يبق لهذه الدعوة المسلحة الآثار يسيرة جدا . اما الاهمية الحقيقية لهذه الحركات في

تاريخ الدعوة الاسلامية في غربي افريقية فهي ما اثاره هوءلاء من حماسة دينية ، تجلت في نشاط الدعوة الواسع النطاق بين الشعوب الوثنية ، ذلك النشاط الذي كان ذا طابع سلمي خالص . ولم تكن هذه الحروب الدينية ، اذا ما نظرنا اليها نظرة صحيحة ، الا احداثا عارضة في النهضة الاسلامية الحديثة . ولم تكن بحال ما صفة تميز القوى والوان النشاط التي كانت توءثر تأثيرا حقيقيا في نشر الدعوة الاسلامية في افريقية : والواقع انه لو لم يتبع هذه الحروب نشاط متميز في نشر الدعوة ، لدلت على انها لم تكن ذات اثر فعال على الاطلاق في خلق مجتمع اسلامي خالص والواقع ان الحروب الهدامة والقسوة الغاشمة من جانب الفاتحين من امثال الحاج عمر وسموري ورسل التيجانية بصفة خاصة ، جعلت عقيدة الاسلام مكروهة كرها شديدا من قبائل السودان الوثنية في البلاد التي يرويها السنغال والنيجر . ويكاد يتخذ هذا العداء الذي اضمرته هذه القبائل للدين الاسلامي صورة حركة قومية . ولكن برغم هذا ساعدت هذه الدعوة الاسلامية على نشر الاسلام في نواح كثيرة من غينا وسنغامبيا ، هذه الجهات التي كان التجار الفلانيون في بلاد الحوصا يحملون اليها معارف دينهم في رحلاتهم التجارية المتكررة ، ونجحوا خلال القرن الماضي والقرن الحالي في الظفر بجموع كبيرة دخلت في الاسلام . ومما هو جدير بالذكر نشاط هوءلاء الدعاة من القادرية وتجار المسلمين الذين كسبوا لدينهم مسلمين جددا ادخلوهم في دينهم منذ جلب الاحتلال الفرنسي السلام الى البلاد . وان تغلغل الدين في السودان الفرنسي بالطرق السلمية ، وكذلك تغلغله في اجزاء اخرى من افريقية كانت قد دخلت حديثا تحت سلطان النفوذ الاوربي ، قد لقي تيسيرا بفضل ما اظهره

الموظفون الفرنسيون من الاحترام والتقدير للطبقات المتعلمة ، وكلها بطبيعة الحال من المسلمين ، وما اظهره هوءلاء الموظفون من احتقار سافر للعادات المنحطة والخرافات التي كانت متفشية بين عبدة الفتش الوثنيين .

السنوسية : لكن نشاط نشر تعاليم الدعوة الذى قامت به الفرقة السنوسية لم يكن مقترنا بحال ما بعمل من اعمال العنف والحرب ، ولم يستخدم في خدمة الدين الا كل وسائل الترغيب . وفي سنة ١٨٣٧ — اسس سيدى محمد بن علي السنوسي الفقيه الجزائرى ، فرقة دينية ، تهدف الى اصلاح شأن الاسلام ونشر العقيدة الاسلامية . ولم يمت السنوسي سنة ١٨٥٩ ، حتى كان قد نجح ، في تأسيس دولة دينية ، بقوة عبقريته الصافية دون ان يريق الدماء . ويدين اتباعه بالطاعة والولاء لهذه الدولة التي يوسع خلفاوءه حدودها كل يوم . ويلتزم افراد هذه الجماعة القيام بأوامر القرآن في دقة بما يتفق واكثر مبادىء التوحيد المطلق ، تلك المبادىء التي تجعل التعبد لله وحده ، وتحرم التضرع للاولياء وزيارة قبورهم تحريما تاما . وقد اوجبوا على انفسهم ان يمتنعوا عن شرب القهوة والتدخين ، وان يتجنبوا كل اتصال باليهود او المسيحيين ، وان يساهموا بنصيب معين من دخلهم يضاف الى اموال الجماعة ، اذا لم يستطيعوا ان يكرسوا انفسهم لخدمتها كما اوجبوا على انفسهم ان يقفوا كل نشاطهم على تقدم الاسلام ، وان يقاوموا في الوقت نفسه اى لون من الوان الخضوع للنفوذ الاوربي . وتنتشر هذه الطائفة في افريقية الشمالية كلها ، وتنتشر زواياها حول بلاد شمال افريقية من مصر الى مراكش ، كما تمتد الى الداخل ، في واحات الصحراء وفي السودان . وكان مركز تنظيمها في واحة جغبوب

في الصحراء الليبية بين مصر وطرابلس . وفي هذه القرية كان يتعلم كل عام مئات من الدعاة ثم يرسلون الى كافة اجزاء افريقية الشمالية دعاة للاسلام . وكانت زواياهم الفرعية (ويقال انها بلغت ١٢١ زاوية) تتلقى من زاويتهم الرئيسة في جغبوب التعليمات والاوامر في كل المسائل المتعلقة بتدبير وتوسيع هذه الدولة الدينية الكبرى ، التي كانت تضم في نظام رائع ، آلافا من اشخاص ذوى جنسيات وقوميات متباينة ، ولو لم يكن الحال على هذا النحو لفرقت بينهم الفوارق الجغرافية الشاسعة والمنافع الدنيوية . ولما كان النجاح الذى تحقق على ايدى دعاة هذه الجماعة المتحمسين النشيطين عظيما ، لم يقتصر وجود اتباعهم على كل افريقية الشمالية من مصر الى مراكش وفي ارجاء السودان وسنغامبيا وبلاد الصومال كافة ، بل نجدهم كذلك في بلاد العرب والعراق وجزائر ارخبيل الملايو . ومع ان السنوسية كانت في اول امرها حركة اصلاح داخلية في الاسلام نفسه ، اصبحت الى جانب ذلك حركة لنشر تعاليم الدعوة ، واصبحت عدة قبائل افريقية كانت من قبل وثنية او مسلمة اسلاما اسميا بحتا ، من اتباع الاسلام المتحمسين منذ ان حل فيهم دعاة السنوسية . ومن هذا النوع من النشاط ، نذكر على سبيل المثال ، ما بذله دعاة السنوسية من جهد ليدخلوا في الاسلام هذا الفريق من قبيلة بيلي Baele ، (وهي قبيلة تسكن بلاد انيدى Ennedi الجبلية شرقي بوركو) ، الذى كان لا يزال على الوثنية ، بل انهم حملوا حماستهم الدينية الى البقية الباقية من هذه القبيلة حين وجدوا ان معرفتهم بالاسلام سطحية ، وكانوا مسلمين اسما ، كما ان السنوسية حينما نزلوا بين شعب التيدا Tedas في بلاد تيبستي Tibesti بالصحراء جنوبي واحة فزان ، نجحوا في ادخالهم في الاسلام بعد ان كانوا مسلمين اسما .

يضاف الى هذا ان دعاة السنوسية يقومون بدعاية نشيطة في بلاد الجلا Galla ،فيرسلون اليها كل عام دعاة جددا من هـــرر ، حيث تتمتع السنوسية هناك بنفوذ كبير ، ومنهم كل الرؤساء في بـــلاط الامير تقريبا بدون استثناء . ويستعين دعاتهم على نجاح جهودهـــم في نشر تعاليم الدعوة بفتح المدارس ، وقد ظفروا من استيطانهـــــم في واحات الصحراء — وخاصة في وادى Wada — بزيادة كبيـرة في عددهم ، وذلك بشراء عبيد كانوا يعلمونهم في جغبوب ، فـــاذا ما رأوا انهم قد تعلموا مبادئ الفرقة تعليما كافيا ، اعتقوهم واعادوهـم الى اوطانهم كي يدخلوا اخوانهم في الاسلام . على انه قد يظهـران نفوذ هذه الجماعة في طريقه الآن الى الانحلال .

ومع ان هذه الاخبار التي دونت عن جهود المسلمين في الدعـوة الى الاسلام بين قبائل السودان الوثنية ضئيلة ، فانها ذات اهميـــة بالنظر الى النقص العام في الاخبار الخاصة بانتشار الاسلام في هـــذا الجزء من افريقية . ولكن بينما تعوزنا الشواهد التاريخية الثابتة ، نجد المسلمين الذين يقيمون بين ظهراني عبدة الاوثان والاصنام ويمثلـــون ديانة وحضارة ارقى ، شاهدا حيا على الاعمال التي قام بها دعـــاة المسلمين في سبيل نشر الدعوة ، كما انهم يختلفون (وخاصة على الحافة الجنوبية الغربية من منطقة النفوذ الاسلامي) اختلافا بينا عن القبائـل الوثنية التي افسدت اخلاقها تجارة الخمور الاوربية . وقد اوضح رحالـة حديث هذه المفارقة عندما تكلم عن حالة الانحلال التي وصلت اليهـــا قبائل النيجر الاسفل : " بينما كانت الباخرة تسير بي صعدا في ميـاه النهر (يعني النيجر) ، لم اجد الا قليلا من التغيير للمناظر الـــتي شاهدتها في الاميال المائتين الاولى ، لان الوثنية واكل لحوم البشـر وتجارة الخمور قد ازدهرت كلها في وحدة مؤتلفة . ولكني لما تركـــت

ورائي المنطقة الساحلية المنخفضة ، والفيتني على مقربة من الحدود الجنوبية لما يسمونه السودان الاوسط ، لاحظت تحسنا مطردا في المظهر الاخلاقي عند الاهلين ، واختفت الوحشية ، وتبعتها الوثنية في هذه السبيل . وزالت تجارة الخمور الى حد بعيد ، على حين صارت ملابسهم اكبر واكثر احتشاما ، واصبحت النظافة عندهم عادة ، على حين دل مظهرهم الخارجي على وقار زائد وادب جم . وقد دل كل شيء على ان هناك نواة لمبدأ اكثر رقيا الى حد ما . ومن الواضح ان هذا المبدأ كان يؤثر تأثيرا عميقا في طبيعة الزنجي ويجعل منه انسانا جديدا . ولعلك تدهش لو علمت ان هذا المذهب هو الاسلام . ولما مررت بلكوجا Lokja عند ملتقى نهر بنوى Benué بالنيجر تركت ورائي المراكز الامامية لنشر الدعوة الاسلامية ، فلما دخلت السودان الاوسط وجدتني في دولة احسن نسبيا في طريقة حكمها ، غاصة بجماعة نشيطة من التجار الاذكياء ، واناس مهرة في صناعة المنسوجات ، والنحاس ، والجلد ، والواقع انهم شعب تقدم تقدما عظيما في مراقي الحضارة والمدنية " .

ولكي نقدر نشاط الدعوة الاسلامية في افريقية الزنجية Nigrita تقديرا صحيحا ، يجب الا يغرب عن اذهاننا انه بينما كان الداعي المسلم ، على السواحل وامتداد الحدود الجنوبية لمنطقة النفوذ الاسلامي ، ممهد الطريق لدينه ، فانه كان لا يزال متروكا وراءه هناك مجال واسع للدعاية الاسلامية في البلاد الداخلية التي تمتد نحو الشمال والشرق ، على الرغم من ان الاسلام رسخت اقدامه في هذه البلاد منذ زمن بعيد . وكانت هناك جماعات من الفونج ، وهم الجنس الزنجي الذى كانت له السيادة على سنار ، يدين بعضهم بالاسلام وبعضهم الآخر

بالوثنية . وقد حاول تجار مسلمون من بلاد النوبة ان يدخلوا هؤلاء الوثنيين في الاسلام .

اما قبيلة جوكون Jukun الوثنية ، التي دالت دولتها ، وكانت قوية يوما ما قبل ان يسير الفلاني في سبيل الفوز والغلبة ، فقد ناهضت النفوذ الاسلامي الزاحف ، مع ان وزير ملكهم كان اجنبيا يختار دائما من المسلمين ، وكانت جاليات من الحوصا وغيرهم من المسلمين تستقر بين ظهرانيهم . ولكن هؤلاء المستوطنين من المسلمين لا يصادفون نجاحا في ان يدخلوا في الاسلام احدا من بين الجوكون الذين كانت تقاليد مجدهم القديم تجعلهم يتمسكون بعقيدتهم القومية ، وكانت زعامتها الروحية تتمثل في شخص ملكهم .

ولعله من اليسير ايضا ان نحصي كثيرا من عشائر السودان — وسنغامبيا ، مازالت تحتفظ بعاداتها وعقائدها الوثنية ، او تكسو هذه العادات والعقائد بستار من شعائر الاسلام ، على الرغم من ان اتباع النبي كانوا (في معظم الاحوال) يحيطون بهم منذ قرون ولا يزال الكنو Konnohs ، وهم فرع من قبيلة الماندنجو الكبيرة ، يدين معظمهم بالوثنية ، ولم يتقدم الاسلام بينهم الا في السنين الاخيرة . وكان من اثر ذلك ان الحماسة العظيمة في مهمة نشر الدعوة والتي تجلت بين مسلمي هذه الجهات في خلال القرن الحالي ، لم تجد مجالا واسعا يمكنها من اظهار نشاطها . ومن ثم جاءت الاهمية في تاريخ الدعوة الى الاسلام في هذه القارة ، ثم اهمية حركات الاصلاح في الاسلام ذاته ونهضات الحياة الدينية ، وهي مسائل لفتنا النظر اليها من قبل .

الاسلام على الساحل الغربي من افريقية

اما الساحل الغربي من افريقية فهو ميدان آخر لمشروع الدعوة الاسلامية ، حيث وجد الاسلام نفسه امام شعب ضخم لم يكن قد اسلم بعد ، على الرغم من انه ازدهر على ساحل غينا ، وفي سيراليون وليبريا ،تلك البلاد التي تجد عدد المسلمين في ليبريا اخيرا اكثر من عدد الوثنيين . وهناك ملاحظة من اسبق ما لوحظ على نشاط الدعوة الاسلامية في البلاد المجاورة لسيراليون ، نجدها في التماس لحمل شركة سيراليون Sierra Lone Company امر مجلس العموم بطبعه ، في الخامس والعشرين من مايو سنة ١٨٠٢ ، وهذا نصه : " منذ مدة لا تزيد على سبعين عاما ،استقرت جماعة صغيرة من المسلمين في بلاد تبعد عن سيراليون من ناحية الشمالي بما يقرب من اربعين ميلا وسموها بلاد الماندنجو . وكما هي العادة عند فقهاء هذا الدين (الاسلام) فتحوا مدارس تدرس فيها اللغة العربية والعقائد التي جاء بها محمد ، وجروا على عادات المسلمين وخاصة في عدم بيع ابناء دينهم بيع الرقيق . وقد اقاموا لانفسهم شرائع استخرجوها من القرآن واستأصلوا ما كان هناك من عادات تساعد على تخريب الساحل من السكان . وعلى الرغم من وجود كثير من اضطرابات قومية ، جلبوا الى البلاد حضارة بلغت درجة عظيمة نسبيا ، كما جلبوا اليها الاتحاد والطمأنينة . وكان من اثر ذلك ، ان ازداد السكان زيادة سريعة ، وانتقل الى ايديهم شيئا فشيئا كل النفوذ في تلك الجهة من البلاد التي يقيمون فيها . اما هؤلاء الذين تعلموا في مدارسهم فانهم يسيرون نحو الثراء والقوة في البلاد المجاورة للماندنجو ، ويعودون ومعهم قسط وافر من الدين والشريعة . وهناك رؤساء آخرون ينتحلون

الاسماء التي اتخذها هؤلاء المسلمون لانفسهم بسبب ما يقترن بهـــــا من احترام وتوقير ، ويبدو انه من الممكن ان ينتشر الدين الاسلامي فـي امن وسلام انتشارا سلميا ، في كل المنطقة التي تقع فيها مستعمــــرة المانانجو ، حاملا معه تلك المزايا التي تتغلب فيما يظهر دائما ، على خرافات الزنوج " . ويظهر ان الاسلام لم يجد له منفذا في بــــلاد مندي اخصــــير التي تقع على بعد مائة ميل تقريبا جنوبي سيراليون ، الا في القرن الحاضر ، ولكنه الآن يتقدم تقدما ثابتا . " ولا يقوم هنـاك بالدعوة اية جماعة خاصة من الدعاة تفرغت لهذا الغرض ، بل كل مســـلم هناك داعية نشيط . واذا ما اجتمع في مدينة ستة رجال منهم ، واقل من ذلك او اكثر ، وعزموا على ان يقيموا فيها فترة من الزمن ، سارعوا الى بناء مسجد واخذوا ينشرون الدعوة ، فهم يتقدمون اولا الى رئيــــس المدينة ويحصلون منه على الموافقة على عملهم الذى يقصدون اليــــه ، وربما ظفروا بوعد منه ان يصبح مشايعا لهم ويعلمونه صلاتهم بالعربية ، او يحفظونه منها القدر الذى يستطيع ان يحفظه او يعيه . ويمدونــه بالصيغ والشعائر التي تستعمل في الصلاة ويحرمون عليه تناول المشروبات الروحية ــ وسواء روعي هذا الشرط ام لم يراع اصبح الرجل مسلما " .

وعلى ساحل غينيا تنتشر المؤثرات الاسلامية بوجه خاص على ايدى تجـار الحوصا الذين نجدهم في كل المدن التجارية على هذا الساحل ، وكلما انشئوا لهم مقرا ، اسرعوا الى بناء مسجد ، واثروا في السكان الوثنيين بمسلكهم القائم على الورع وثقافتهم المتفوقة ، وقد دخلت في الاسلام قبائل باجمعها من عبدة الاوثان دون ان يبذل المسلمون اية جهود خاصــة يستوجبها اغراؤهم ، وانما كان ذلك نتيجة لاقتدائهم بما يرون انـــه حضارة ارقى من حضارتهم .

اما اشنتي Ashanti فكان فيها نواة لمجتمع اسلامي يرجع وجوده فيها الى سنة ١٧٥٠ ، ولما كان دعاة الاسلام قد لقوا ترحيبا من اهالي هذه البلاد وظفروا بنفوذ كبير في البلاط ، جدوا في العمل منذ ذلك الحين مع نجاح بطيء ولكنه محقق ، واستطاعوا بواسطة مدارسهم ان يسيطروا على عقول الجيل الاحدث ، ويقال ان هناك علامات واضحة على ان الاسلام ستصير له الغلبة في اشنتي اذ دخل فيه كثير من الروءساء . وفي دهومي Dahomey وساحل الذهب يتقدم الاسلام كل يوم تقدما جديدا ، حتى حين لا يعتقد شيوخ القبائل الوثنية انفسهم الاسلام نجدهم يبيحون لانفسهم ، في اوقات كثيرة ، ان يصبحوا تحت تأثير دعاة هذا الدين ، الذين يعرفون كيف يستغلون هذا النفوذ للدعوة بين عامة الناس . وفي هذا الجزء من القارة تعتبر دهومي واشنتي اهم الدول التي لا تزال يحكمها حكام وثنيون ، ويقال ان تحولهما الى الاسلام لا يحتاج الا الى زمن قصير . ويوجد قرابة ١٠٠٠٠ مسلم في لاجوس Lagos ، كما ان كل المراكز التجارية في الساحل الغربي تضم بين سكانها جماعات اسلامية من القبائل الزنجية الراقية ، من امثال الفلاني والماندنجو والحوصا . وحين يهبط رجال هذه القبائل الى مدن الساحل ، وهم يأتون اليها جماعات ضخمة ، اما تجارا واما جنودا يخدمون في جيوش السلطات الاوربية ، لا يعجزون بحال عن ان يوءثروا في زنجي الاراضي الساحلية ، وذلك بما لهم من جرأة وروح استقلالية . ويرى زنجيي الساحل ان احكام الاوربيين والموظفين والتجار يحترمون الذين يوءمنون بالقرآن اينما كانوا ، وان هوءلاء الموءمنين لا يختلفون عنه في الجنس او المظهر ، ولا في الزى او الطباع اختلافا بعيدا يستحيل

معه ان يدخل في زمرتهم ، بل ان هؤلاء المؤمنين فضلا عن ذلك قد منحوه حظا من امتيازاتهم على شريطة ان يدخل في دينهم . واذا ما اظهر الزنجي الوثني ، مهما كان خاملا مغمورا ، رغبته في قبول تعاليم الاسلام بادروا بضمه اليهم ، فيصبح واحدا منهم متساويا معهم . وليس قبوله في اخوة المسلمين امتيازا يمنحونه اياه متبرمين ، ولكنه امتياز يمنحه اياه عن رغبة وحرية ، دعاة ذو غيرة وحماسة في نشر تعاليم الدعوة . ولهذا فمن مصب السنغال حتى لاجوس ، في مسافة تبلغ الفي ميل يندر فيما يقال ان نجد مدينة ذات اهمية على ساحل البحر ليس فيها مسجد واحد على الاقل ومعه دعاة نشيطون يعملون في اغلب الاحيان جنبا الى جنب مع معلمي المسيحية .

الاسلام على الساحل الشرقي من افريقية

ولننتقل الآن الى تاريخ انتشار الاسلام على الجانب الآخر من قارة افريقية ، ذلك الجانب الذى كان سكانه وثيقي الصلة بالارض التي نشأ فيها الاسلام . على ان الحقائق التي دونت عن المواطن الاولى التي استقر فيها العرب على الساحل الشرقي ضئيلة جدا ، ويذكر احد الكتب التاريخية العربية ، وكان قد وجده البرتغاليون في مدينة كلوا Kiloa حين اجتاحها دون فرنسيسكو دالميدا Don Francisco d'Aimerda في سنة ١٥٠٥ ، ان اول من هاجر كانوا جماعة من العرب نفوا لانهم اتبعوا تعاليم خارجة على الدين ، كان يقول بها شخص يدعى زيدا ، من سلالة النبي ، وقد سموا اموزيديج (وربما قصدوا بذلك امة زيدية) نسبة اليه . ولا يبعد ان يكون زيد الذى اشير اليه هنا هو زيد بن علي حفيد الحسين ، كما

هو احد احفاد علي ابن عم محمد (عليه السلام) : وقد ادعى في عهد الخليفة هشام انه الامام المهدي ، واشعل نار الثورة بين حزب الشيعة ، ولكنه هزم وقتل سنة ١٢٢ هـ (٧٤٠ م) .

ويظهر ان هذه الجماعة عاشت في خوف عظيم من سكان البلاد الاصليين الوثنيين ، ولكنها نجحت بالتدريج في بسط مواطنها على طول الساحل ، حتى جاءتها جماعة اخرى من المهاجرين الذين قدموا من الشاطئ العربي للخليج الفارسي ، من مكان لا يبعد عن جزيرة البحرين . وجاء هؤلاء في سفن ثلاث بزعامة سبعة اخوة ، هاربين من اضطهاد ملك لاساه (الاحساء) ، وهي مدينة قريبة من موطن قبيلتهم . واول مدينة بنوها هي مقدشيو التي ارتفعت فيما بعد الى تلك القوة التي جعلتها سيدة على كل عرب الساحل . ولكن لما كان المستوطنون الاصليون وهم الاموزيديج من حزب يختلف عن حزب اللاجئين الجدد ، حيث كان الاولون من الشيعة والآخرون من اهل السنة ، ابوا ان يخضعوا لسلطة حكام مقدشيو ، وارتدوا الى الداخل حيث اندمجوا في السكان الاصليين وتزاوجوا معهم وتطبعوا بطباعهم وتخلقوا بأخلاقهم .

وقد انشئت مقدشيو حول منتصف القرن العاشر وظلت اقوى مدينة على الساحل زهاء سبعين سنة ، حينما ادى قدوم مهاجرين آخرين من الخليج الفارسي ، الى انشاء وطن آخر ينافسها على بعد منها من ناحية الجنوب . وكان زعيم هؤلاء المهاجرين يدعى عليا ، وهو احد الابناء السبعة لاحد سلاطين شيراز ويدعى حسنا : ولما كانت امه حبشية ، ازدراه اخوته ، وعاملوه معاملة قاسية ، جعلته يصمم على ان يهجر وطنه ويبحث عن موطن في مكان ما . لهذا ابحر

من جزيرة ارمز Ormuz ومعه زوجته واولاده وجماعة صغيرة من اتباعه ، وسار متجنبا مقديشيو ، التي ينتمي سكانها الى مذهب ديني يختلف عن المذهب الذي ينتمي اليه ، فمضى في طريقه صوب الجنوب اذ سمع ان الذهب يوجد في ساحل زنجبار ، واسس مدينة كلو ، وهناك استطاع ان يحتفظ بمركز مستقل ، وان يكون متحررا من تدخل اسلافه المقيمين بعيدا عنه في الشمال .

وبهذه الطريقة ظهر عدد من المدن العربية على طول الساحل الشرقي من خليج عدن حتى مدار الجدى على حافة المنطقة التي كان جغرافيو العرب في العصور الوسطى يطلقون عليه اسم بر الزنج . وايا كانت الجهود التي بذلها المستوطنون المسلمون في تحويل الزنج الى الاسلام ، فالظاهر انه لم يبقى لنا سجل عنها . وهناك قصة غريبة محفوظة في مجموعة رحلات قديمة ، لا يبعد انها كتبت في اوائل القرن العاشر ، تصور لنا الاسلام بأنه دخل في احدى هذه القبائل على يد ملكها نفسه . ذلك ان سفينة تجارية عربية اقصتها الريح عن طريقها في سنة ١٩٢٢ م وارستها الى بلاد الزنج الذين يأكلون لحم البشر ، حيث توقع البحارة موتا محققا ، ولكن حدث لهم عكس ما توقعوه ، اذ تلقاهم الملك لقاء رحيما ورحب بهم ترحيبا كريما عدة شهور ، باعوا في خلالها بضاعتهم بشروط مربحة ، ولكن التجار ردوا عليه كرمه بخيانة شائنة ، فاوثقوه هو وحاشيته حتى ركبوا السفينة يودعونهم . وحملوهم معهم الى عمان رقيقا ، وبعد سنوات قليلة طوحت الريح بهؤلاء التجار انفسهم الى نفس الميناء ، فعرفهم الاهالي وطوقوه بقواربهم ، فسلموا انفسهم متوقعين الموت في هذه المرة فصلى كل منهم على الآخر صلاة الموت . ثم اخذوا الى حضرة الملك ، حيث تبينوا في دهش وعجب ، انه الملك نفسه الذى عاملوه معاملة جد مخزية قبل

ذلك ببضع سنين . وبدلا من ان يقتص منهم بأى نوع من القصاص لمسلكهم الغادر ، ابقى على حياتهم ، وتركهم يبيعون بضاعتهم ولكنه رفض الهدية الثمينة التي قدموها اليه رفضا ينطوى على التقريع. وقبل ان يبرحوا تقدم واحد منهم في جرأة الى الملك وسأله ان يقص قصة فراره . فوصف لهم كيف اخذ رقيقا الى البصرة ، ومنها الى بغداد حيث اسلم وتفقه في الدين ، فلما هرب من مولاه لحق بقافلة من الحجاج كانت ذاهبة الى مكة ، وبعد ان ادى مناسك الحج ، وصل الى القاهرة وصعد في النيل صوب بلاده ، فوصل اليها اخيرا بعد ان تجشم كثيرا من الاخطار ، ووقع في الرق اكثر من مرة . ولما عاد الى مملكته من جديد ، علم قومه دين الاسلام ، " وانا اليوم فرح مسرور لما من الله به علي وعلى اهل دولتي من الاسلام والايمان ومعرفة الصلاة والصيام والحج والحلال والحرام ، وبلغت ما لم يبلغه احد في بلاد الزنج وعفوت عنكم لانكم السبب في صلاح ديني . فعرفوا المسلمين ان يأتونا فانا نحن قد صرنا اخوانا لهم ، مسلمين مثلهم " .

ومن هذا المصدر نفسه نعلم انه حتى في هذه الفترة المبكرة ، كانت جموع كبيرة من تجار العرب ، تختلف الى هذه البلاد الساحلية. ولكن على الرغم من وجود صلة دامت قرونا بين اهليها وبين المسلمين ، كان تأثرهم (فيما عدا اهالي السومال) بالاسلام قليلا قلة ملحوظة . وحتى قبل الفتوحات البرتغالية ، في القرن السادس عشر ، يظهر ان ما تم من حالات قليلة من تحول الناس الى الاسلام كان كله مقصورا على الحدود الساحلية . وكذلك بعد ان تدهور النفوذ البرتغالي في هذا الجزء من العالم ، وعاد هناك الحكم العربي تحت امرة سادة عمان ، والى ان جاء القرن العشرون ، كان من

المسير ان تبذل اية جهود في نشر معارف الاسلام بين قبائل الجهات الداخلية ،عدا قبائل الجلا وقبائل السومال . ويقول رحالة حديث : "لم ار في خلال الرحلات الثلاث التي قمت بها في شرقي افريقية الوسطى ، شيئا يحمل على الظن بأن الاسلام هناك قوة تصبغ البلاد بصبغة من الحضارة والمدنية . ومهما كانت القوة الحية في هذا الدين ، فانها ظلت مستكنة ،ولم يكن العرب ، ولا احفادهم في هذه البلاد دعاة اسلام . وليست هناك بعثات تدعو اليه ،وانما قنع اهل مسقط بأن يسير عبيدهم ، الى حد ما ،وفق شعائر الدين . وقد تركوا قبائل افريقية الشرقية ،الذين كانوا في الواقع ، في جهلهم المطبق راضين فيما يظهر بأن يظلوا سعداء في جهلهم . وتظهر عدم قابليتهم للحضارة ظهورا جليا في هذه الحقيقة الغريبة : وهي انهم اتصلوا خمسة قرون بشعب نصف متحضر ،ولم يترك فيهم ذلك اقل اثر للصفات الراقية التي كان يتصف بها جيرانهم — ولم تنبت وتزهر بذرة واحدة صالحة طوال هذه السنين " . واستسلم العرب في افريقية الشمالية كل استسلام سعيا وراء التجارة وصيد الرقيق ، فأظهروا فتورا في ترقية شئون دينهم ، فكان الفارق كبيرا بين نشاطهم وبين ما اظهره اخوانهم في الدين نحو نشر الدعوة في اجزاء اخرى من افريقية.

الاسلام في اوغندة

على ان هناك حالة جديرة بالذكر نستثنيها ، وهي نشاط نشر الدعوة الذى قام به تجار من العرب اتيح لهم ان يدخلوا اوغندة في النصف الاول من القرن التاسع عشر ، ومن المحتمل انهم عرفوا ان قوة روح الحربية في اهل بجندة جعلت قنص الرقيق من بينهم امرا مستحيلا ،ولهذا سعوا الى كسب ثقتهم عن طريق تحويلهم الى دينهم . واسلم كثيرون من أهل بجندة في عهد الملك موتزا Mutesa ولكن

زيارة استانلي لهذا الملك في سنة ١٨٧٥ ادت الى دخول ارساليات مسيحية في السنة التالية ، واضمحلت قوة المسلمين في هذه الـــدولة بالزيادة السريعة في عدد المتنصرين وقيام الحماية الانجليزية هناك .

ولكن لا يزال في اوغندة عدد من المسلمين يشغلون مراكز هامة ، ومن المقرر ان دخول الولاية الشرقية في الاسلام امر ممكن . ويقال ان عددا ضخما من ذوي النفوذ في بلاد بوسوجا Busoga الغنيــة ، الواقعة في شمال اوغندة ، والتي تخضع لانجلترا ، قد دخل في الاسلام سنة ١٩٠٦ . ومع هذا الاستثناء ، كان الاسلام في افريقية الاستوائية الشرقية حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر منحصرا في البـــلاد الساحلية وما يتاخمها من البلاد . وقد يبدو تفسير ذلك ، في انه لم يكن في مصلحة جلاب الرقيق ان ينشروا الاسلام بين القبائل الوثنيـــة التي يأخذون من بينها ضحاياهم التاعسين ، اذ لو تحولت هذه القبائل الى الاسلام ، لتآخت معهم في الدين ، ولاستحالت الاغارة عليهـــم واسترقاقهم .

الاسلام في افريقية الشرقية

ولما منعت تجارة الرقيق لانتشار الحكم الاوربي في افريقيــــة الاستوائية الشرقية ، تلا ذلك توسع كبير في نشاط نشر الدعوة الاسلامية وتوطد السلام والنظام في الجهات الداخلية ، ومدت السكك الحديدية وانشئت الطرق ، وحينئذ استطاع التاجر المسلم ان يشق طريقه فـــي مناطق كانت مغلقة في وجهه وحتى ذلك الحين . وقد اختارت ادارة هذه البلاد موظفيها من بين اكثر السكان المسلمين ثقافة ، فأنشـأت حكومة افريقية الشرقية (الالمانية) آلافا من الوظائف ، اسندتهـــا

الى موظفين من المسلمين ،استغلوا نفوذهم في ادخال قرى بأجمعها في الاسلام . وكان معلمو مدارس الدولة مسلمين كذلك ، وفي وقت مبكر يرجع الى العقود الاخيرة من القرن التاسع عشر ،لوحظ ان معلمي المدارس من السواحلية ، يقومون بنشاط حي ناجح في نشر الدعوة بين اهالي بندئي وود يجو Bondéj and the wadigo (الذين يسكنون في الداخل على مسافة قصيرة من الساحل) في افريقية الشرقية الالمانية . ولكن نشاط هذه الحركة الجديدة في نشر الدعوة اصبح يسترعي النظر الى حد كبير في الجهات الداخلية في مستهل القرن العشرين ، وخاصة بعد القضاء على ثورة سنة ١٩٠٥ في افريقية الشرقية الالمانية . وقد سايرت حركة التوسع في نشر الدعوة هذه بصفة خاصة ،السكك الحديدية والطرق التجارية الكبيرة ،فانتشرت في خط مستقيم عبر افريقية الشرقية الالمانية حتى حدودها الغربية على بحيرة تنجانيقا ، وانتشرت نحو الشمالي من سمبارا Usambara الى مقاطعة كلمنجارو ، ونحو الجنوب حتى بحيرة نياسا . وكان الذين قاموا بنشر هذه الدعوة من التجار ، وخاصة اهالي الساحل ، من السواحلية والجنود وموظفي الحكومة . وينظر الوثنيون هناك الى قبول الاسلام على انه دليل على الترقي الى حضارة ومنزلة اجتماعية ارفع مما هم فيها ،ويقال ان الازدراء الذي كان ينظر به المسلمون الى الوثنيين طالما كان عاملا حاسما في تحولهم الى الاسلام . ونستطيع ان نتخذ مثالا لتأثير هذا الاحساس من سمبارا الغربية ، التي قيل انها كانت لاتزال في سنة ١٨٩١ موصدة في وجه الاسلام ،وكان شعور الرؤساء والشعب كليهما شعورا عدائيا نحو المسلمين ، فكانوا يكرهونهم ويخافونهم باعتبارهم تجار رقيق ،ولكنه لما انتهى عهد تجارة

الرقيق وانشئت ادارة منظمة ، كان اول من عين من الموظفين الوطنيين كلهم تقريبا من المسلمين . وقد اثر هوءلاء في الزعماء وغيرهم من الشخصيات الهامة التي اتصلت بهم الى حد ان الدخول في الاسلام كان هو التصرف الصحيح للذين اشتغلوا في الدوائر الرسمية ، وبذلك نجحوا في ان يدخلوا في الاسلام بعضا من الزعماء اعظم من هوءلاء الذين نجدهم قد اثروا فيما بعد مثل هذا التأثير في زعماء اقل منهم منزلة . ويظهر ان هناك شواهد قليلة على نشاط دعاة محترفين او نشاط اية فرقة من الفرق الدينية ، ولكن الشواهد لا تعوزنا على وجود جهود منظمة في نشر الدعوة ، كتلك الجهود التي قام بها معلم مسلم ، ذكرانه كان يزور منطقة في بلاد كلمنجار وكل اسبوع زيارة منتظمة ، وظل على ذلك خمسة شهور يدعو الى الاسلام ، وقد رحب بجهوده الاهالي الذين كان يقيم لهم ولائم يقدم لهم فيها طعام الارز وغيره . ومما يلفت النظر في هذه الدعوة الحماسية ان الدعاة لم يقصروا اهتمامهم على الوثنيين وحدهم ، بل سعوا ايضا لكسب متحولين الى الاسلام من بين الاهالي المسيحيين .

وقد شق الاسلام طريقه الى نياسالاند من الساحل الشرقي ايضا ، ودخلها على ايدي النخاسين من العرب وحلفائهم الياوس Yaos الذين جاء اجدادهم من مكان قريب من الساحل الشرقي ، حيث كانوا قد اعتقدوا الاسلام منذ زمن بعيد . ويقال انه من النادر ان نرى عربيا الآن في نياسالاند ، ولكن الياوس يوءلفون قبيلة من اقوى القبائل الوطنية ، وينظرون الى الاسلام على انه دينهم القومي . ومع انه لا تبدو هناك دعوة منظمة ، انتشر الاسلام بسرعة فائقة ابان العقد الاول من القرن العشرين ، وكان انتشاره بين بعض القبائل التي تعد من اشد القبائل ذكاء في نياسالاند .

قبائل الجلا والسومـــال

سجل الاسلام مثل هذا النجاح بين قبائل الجلا والسومال . وقد ذكرنا من قبل استيطان الجلا في الحبشة ، ومن المحتمل ان هـؤلاء المهاجرين ، الذين ينقسمون الى سبع قبائل ، تسمى بالولو جـلا ، وهم اسم الجنس الذى ينتمون اليه ، كانوا جميعا وثنيين في وقـــت اغارتهم على هذه البلاد ، ولا يزال جزء كبير منهم على الوثنية حتـــى يومنا هذا . وبعد ان استقروا في الحبشة لم يلبثوا ان تأقلموا فيها ، واتخذوا لانفسهم ، في كثير من الاحيان ، لغة سكان البلاد الاصليين وتعودوا عاداتهم وتطبعوا بطبائعهم .

اما قصة دخولهم في الاسلام فيكتنفها الغموض : فبينما يقـــال ان بعضهم ادخلوا كرها في الديانة المسيحية ، نجد ان عدم وجـود اية سلطة سياسية في ايدى المسلمين يدحض امكان القيام بأى نشاط في تحويل الناس الى الاسلام على هذا النحو . وفي القرن الثامن عشر قيل ان معظم الذين في الجنوب يعتقدون الاسلام ، اما الذيـــــن كانوا في الجهات الشرقية والغربية فمعظمهم وثنيون . وتشير اخبـار احدث من تلك الى زيادة اخرى في عدد اتباع النبي . وفي سنة ١٨٦٧ تنبأ مونتسنجر Munzinger بأن كل قبائل الجـــلا ستدخل في الاسلام في مدة قصيرة . واذ قد قيل عنهم " انهــــم متعصبون جدا " ، فانا نستطيع ان نستنتج انهم لم يكونوا بحـــال ما غير متحمسين او متراخين في اعتقادهم هذا الدين . ولا شــك ان هذا الرجل المعتق الذى ينتمي الى الجلا والذى قابله داوتـــي Doughty في خيبر قد اظهر درجة عظيمة من الحماسة نحو دينـه ، وكان هذا الرجل قد انتزع من بلده في طفولته وبيع بيع الرقيق في جدة ،

فلما سأله داوتي : الا يزال يضمر السخط نحو هؤلاء الذين سرقوه واسلموا حياته للعبودية في اقاصي الارض ، اجاب ، " ان شيئا واحدا قد عوضني ، — وهو اني لم اعد غارقا في الجهل بين عبدة الاوثان ، ما اعجب عناية الرحمن ، تلك التي جئت بفضلها الى بلاد الرسول هذه ، وتوصلت بها الى معرفة الدين " . "آه ما اشد حلاوة الايمان ، صدقني ايها الرفيق العزيز ، انه امر يعجز كل قلب عن الافصاح عنه ، كم اتمنى ان يهديك الله الى تلك المعرفة السماوية ، ولكني موقن ان اللمسيرعاك حتى لا تهلك قبل ان تدخل هذا الدين . حقا ما اجمل ان اراك مسلما ، وان تصبح واحدا منا ، ولكني اعرف ان الاجل بيد الله . يفعل الله ما يشاء " .

وبعض السكان ، في قبائل الجلا التي تقيم في بلاد الجلا الصميمة ، مسلمون (اذ كانت بعض القبائل قد تحولت الى الاسلام حول سنة ١٥٠٠) ، وبعضهم الآخر وثنيون ، ماعدا تلك القبائل التي تقيم على حدود الحبشة مباشرة ، والتي ارغمها ملك هذه البلاد على انتحال المسيحية في النصف الاخير من القرن التاسع عشر . والمسلمون بين الجبال قلة ، اما في السهول ، فقد صادف دعاة الاسلام نجاحا رائعا ، ولقيت تعاليمهم قبولا من الناس اخذ ينمو نموا سريعا في خلال القرن الماضي . ويذكر انطونيو ستشي Antonio Cécchi الذى زار مملكة لمو الصغيرة في سنة ١٨٧٨ ، قصة عن اسلام ابا باغيبو Abba Baghibo والد الامير الذى كان يحكم اذ ذاك ، على ايدى مسلمين ظلوا عدة سنين يجدون في نشر الدعوة في هذه البلاد في زى التجار . وقد حذا حذوه رؤساء ممالك الجلا المجاورة ورجال حاشيتهم ، وظفرت العقيدة الجديدة بعدد من العامة كذلك ، واستمرت تتقدم بينهم ولكن السواد الاعظم منهم

كان يتشبث بعبادته القديمة . وقد لقي هوءلاء التجار ترحيبا حارا في بلاط روءساء الجلا ، لما وجدوه هناك من سوق لاستبدال حاصلات البلاد التجارية بسلع مستوردة من المصنوعات الاجنبية . ولما كان هوءلاء التجار يرتحلون الى الساحل مرة واحدة كل عام ، او مرة فقط كل عامين ، وكانوا يقضون كل مابقي من الوقت في بلاد الجلا ، لذلك كانت لديهم فرص كثيرة عرفوا جيدا كيف ينتهزونها للعمل في نشر الدعوة الاسلامية ، وحيثما وضعوا اقدامهم كان من الموءكد ان يظفروا بعدد كبير من الداخلين في الاسلام في مدة قصيرة من الزمن . وقد دخل الاسلام هنا في نزاع مع مبشرين مسيحيين من اوربا ، صادفت جهودهم نجاحا قليلا جدا ، على الرغم مما ظفروا به من تنصير نفر قليل — وحتى الذين نصرهم الكردينال ماساجا Cardinal Massaja فانهم (بعدان طرد من هذه البلاد) اما اسلموا ، او انتهوا الى عدم الايمان ، لا بالمسيح ولا بالله — بينما حقق الدعاة المسلمون نجاحا مستمرا ، وشقوا طريقهم بعيدا نحو الجنوب ، وعبروا نهر وابي . وكانت غالبية قبائل الجلا التي تقيم في غرب بلاد الجلا لاتزال وثنية قبيل نهاية القرن التاسع عشر ، ولكن يبدو ان عبادة الطبيعة القديمة بين الذين كانوا في اقصى الغرب ، ونعني بهم الليجا ، كانت في طريقها الى التدهور ، وقد جعل تأثير الدعاة المسلمين الآخذ في النمو ودخل كل قبائل الليجا في حظيرة الاسلام في مدى سنوات قليلة ، امرا محتملا .

وان افريقية الشمالية الشرقية في الوقت الحاضر لتمثل لنا حقبا صورة لنشاط ذى حيوية وحماسة رائعتين في نشر الدعوة من جانب المسلمين . وتفد من بلاد العرب عدة مئات من الدعاة كل عام . وهم

ايضا اكثر نجاحا في جهود هم بين قبائل السومال منهم بين الجلا .
ولا بد ان يكون القرب الشديد بين بلاد السومال وبلاد العرب قد جعل الاولى ،في زمن مبكر ، مسرحا لنشاط الدعوة الاسلامية ، ولكن يظهر لسوء الحظ ان ما دون عن اخبار هذا النشاط قليل .
وقد ذكر ابن حوقل ان اهالي زيلع كانوا مسيحيين في النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي ،ولكن ابا الفداء يتحدث عنهم في النصف الاول من القرن الرابع عشر على انهم مسلمون . ومن المحتمل ان تجارا من العرب اللاجئين الى السومال هم الذين حملوا الدين عبر البحر .
وتشيع لدى السوماليين اسطورة تقول بأن عربيا عريقا في الاصل ، اجبر على ان يغادر بلاده ، فعبر البحر الى عدل ، حيث دعا الى الدين الاسلامي بين اجدادهم . وفي القرن الخامس عشر جاءت من حضرموت جماعة تتألف من اربعة واربعين عربيا يدعون الى الاسلام ، فنزلوا في بربرة على البحر الاحمر ، ومن هناك انتشروا في بلاد السومال ليدعوا الى الاسلام . وقد شق احدهم ، وهو الشيخ ابراهيم ابو زرباي طريقه الى مدينة هرر حول سنة ١٤٣٠ ، واكتسب هناك كثيرين من الذين تحولوا الى الاسلام ، ولا يزال قبره موضع تعظيم في هذه المدينة . وهناك بالقرب من بربرة جبل لا يزال يسمى جبل الأولياء تخليدا لذكرى هؤلاء الدعاة ، الذين يقال انهم كانوا يجلسون هناك في خلوة مقدسة قبل ان ينتشروا في طول البلاد وعرضها لتحويل الناس الى الاسلام . وقد ساد الاسلام شيئا فشيئا في جميع انحاء افريقية الشمالية الشرقية ، ولكن تزايد نفوذ الامبراطور منليك واحتلاله هرر في سنة ١٨٨٦ ادى الى تحول عدد معين من الاهالي الى المسيحية .

ولكي نستكمل هذا الوصف الخاص بانتشار الاسلام في افريقية ، لا يبقى الا ان نشير الى هذه الحقيقة ، وهي ان الدين قد شـق طريقه الى اقصى الجنوب من هذه القارة ، ونعني مستعمرة الكاب . ومسلمو الكاب هؤلاء الذين من سلالة اهل الملايو ، جاء بهـم الهولنديون الى هذه البقعة اما في القرن السابع عشر او الثامن عشر ، وهم يتكلمون لهجة محرفة من لغة البوير ، مع خليط كبير من اللغـة العربية ، وبعض كلمات انجليزية وكلمات من لغة الملايو . وهناك كتاب صغير عجيب ، مؤلف بهذه اللهجة ومكتوب بحروف عربيـة ، وقد نشره وزير المعارف التركية في القسطنطينية سنة ١٨٧٧ ، ليستعمل كتيبا صغيرا لتعليم قواعد الدين الاسلامي . وان الاسماء الهولندية الصرفة التي يتسمى بها بعضهم ، وملامح الوجه التي تلاحظ في كثير منهم ، ليدل على احتمال انهم تلقوا في مجتمعهم في وقت ما بعـض اشخاص من اصل هولندي ، او ان بدمائهم على الاقل مزيجا كبيرا من الدم الهولندي . وكذلك اكتسبوا بعض متحولين الى الاسلام مـن بين الهوتنتوت Hottentots . ولم يكتب عنهم الرحالـون الاوربيون ، بل اخوانهم في الدين ، حتى الايام الاخيرة ، الا مذكرات قليلة . وفي سنة ١٨١٩ لفت كولبروك الاذهان الى نمو الاسـلام ، في بعض مذكرات ممتعة كتبها عن مستعمرة الكاب ، قال : " يقال ان الاسلام يتقدم بين العبيد والسود الاحرار من اهالي الكاب ، ونعني بذلك ، ان الذين تحولوا من الوثنية الى الاسلام من بين الزنـوج والسود على اختلاف انواعهم كانوا اكثر عددا من الذين تحولـوا من الوثنية الى المسيحية ، وهذا على الرغم من الجهود القوية التـي

يبذلها مبشرون اتقياء . وقد ثبت ان النفور الشديد الذى ابداه —
السادة من تعميد عبيدهم كان سببا من اسباب هذا التحول ، وقد
نشأ ذلك من بعض افكار خاطئة او من فرط تخويفهم من الحقوق التي
ينالها العبد الذى يعمد . ولا شك ان العبيد متأثرون بفكرة بقاء
هذا النفور ، ولم يكن من النادر ان يجيب العبد ، اذا ما سئل عن
بواعث تحوله الى الاسلام ، بأنه يجب ان يكون له دين ، وانه لم
يسمح له بأن يتنصر . والتعصب في هذا الامر آخذ في الزوال ، وقد
قلت الآن معارضة هؤلاء السادة في تنصير العبيد عما كان من قبل .
وقد ثبت ان السادة اخذوا يدركون ان العبيد لا يسيئون استعمال
التعاليم التي يتلقونها في واجباتهم الدينية . وهناك جموع آخذة في
الزيادة على ايدى المبشرين ويوجد في كل بلد من البلدان الرئيسة
واحد ممن كرسوا جهودهم على تثقيف العبيد ثقافة دينية ، ويأمل
المبشرون الا تكون جهودهم غير مثمرة . ولكن الداعية المسلم حول
جموعا اكبر بمجهود اقل من مجهود المبشرين " . وفي خلال الخمسين
سنة الاخيرة كان يزور المسلمون في مستعمرة الكاب جماعة من بلاد
اخرى من اخوانهم في الدين المتحمسين ، وقد اثاروا الآن اهتمامهم
بالتعليم اكثر مما مضى ، وبعثوا بينهم حياة دينية اعمق من تلك التي
كانوا يحبونها ، ويقال انهم يقومون بدعوة حماسية ، وخاصة بين الاهالي
السود في الكاب وانهم حصلوا على نجاح محقق . وان حركة نشر
تعاليم الدعوة هذه قوية في الجزء الغربي من مستعمرة الكاب
خاصة . ويقال ان هناك حركة سائرة في طريق التنفيذ لتأسيس كلية في
كليرمونت Claremont بجوار مدينة الكاب ، وانها ستصبح
مركزا لنشر الدعوة الاسلامية . ومن الوسائل التي تستغل الآن تبني

الاطفال الشاردين او المهملين وتنشئتهم على دين الاسلام . ويحج فريق منهم كل عام الى مكة ،حيث يعين لهم شيخ خاص للاشراف عليهم . وكذلك يقال ان عمال الهنود الذين يأتون للعمل في حقول الماس في افريقية الجنوبية دعاة للاسلام .

ولما كانت جزيرة مدغشقر في مكان منعزل ، على بعد يتراوح بين ٢٢٠ ميلا و ٥٤٠ ميلا من الاراضي الاصلية ، فانها تستدعي انتباها خاصا . وان القبيلة الوحيدة التي اسلمت هي قبيلة انتيمورونا Antaimorona التي تحتل جزءا من الساحل الجنوبي الشرقي ، ولا شك ان تحولهم الى الاسلام كان على يد دعاة من بلاد العرب ،ولكن الوقت الذى تم فيه هذا التحول مجهول لنا تماما ، وربما ارجعته الاساطير الى عهد الرسول نفسه ،ولكنا لم نحصل الا في القرن السادس عشر على معلومات موثوق بها عن المسلمين في هذه الجزيرة ،وذلك فيما كتبه الجغرافيون من الطليان والبرتغاليين .

اساليب الدعاة في نشر الدعوة

ومن هذا الوصف التاريخي المجمل نستطيع ان نرى ان الاساليب السلمية كانت الطابع الغالب على حركة نشر الدعوة الاسلامية في افريقية ومع ان الاسلام كثيرا ما شهر السيف كأداة يستعين بها على تقدم فتوحاته الروحية ، نجد ان مثل هذا الالتجاء الى القوة وسفك الدماء كان يسبقه في معظم الحالات جهود سلمية في نشر الدعوة ، كان الداعية يتعقب الفاتح ليكمل النقص في تحويل الناس الى الاسلام والحق ان نجاح الرواد المسلمين نجاحا دنيويا سهل الى حد كبير جدا نجاح الاسلام في جهات كثيرة من افريقية ،كما سهله تأسيس دول اسلامية على انقاض دول وثنية . وان النار وسفك الدماء طالما

ميزا خطة الجهاد ، التي دبرت لاستئصال شأفة الكفار . وان كلمات الشاب المسلم الذى كان من برنو والذى قابله الكابتن بورتن Burton في قصر ملك ابيكوتا Abeokuta ، لتعبر بدون شك عن مطامح كثيرين من مسلمي افريقية : "اعطنا هذه البنادق وهذا البارود ندخل في الحال هذه الكلاب في الاسلام" . ويتردد صدى هذه الكلمات في الرسالة التي يوردها منجو بارك Mango Park باعتبارها موسلة من ملك فوته تورو Futah Toro المسلم الى جاره الوثني: "بهذه السكين سينزل عبد القادر ويحلق رأس دامل ، ان دخل دامل في الاسلام ، وبهذه السكين الثانية سيدق عنق دامل ان ابى ان يدخل في هذا الدين ، فاختر لنفسك" .

ولكن بقدر ما يمكن ان يعزى الاسلام الى البسالة الحربية التي قام بها امثال هوءلاء المتعصبين ، لدينا الدليل القاطع الذى شهد به الرحالون وغيرهم على نشر الدعوة بالطرق السلمية وقيام الداعي المسلم بأعمال تنطوى على الرفق والاناة ، تلك الاعمال التي عملت في سبيل انتشار الاسلام انتشارا سريعا في افريقية الحديثة ، اكثر مما عمل اى اسلوب من اساليب العنف . وربما استأصل الاسلام حقا شأفة مقاومية بالاساليب الاخيرة ، ولكنه عن طريق الاولى بصفة خاصة انجز عملية تحويل الناس الى الاسلام ، ولعل نشاط التحول لا يزال يتقدم في كثير من الاقاليم الساحلية والداخلية . وحيثما شق الاسلام طريقه ، نجد هناك الداعي المسلم حاملا الدليل لعقائد هذا الدين فالتاجر سواء اكان من العرب ام البول ام الماندنجو ، يجمع بين نشر الدعوة وبيع سلعته ، وان مهنته وحدها لتصله صلة وثيقة مباشرة بأولئك الذين يريد ان يحولهم الى الاسلام ، وتنفى عنه كل ما يحتمل

ان يتهم به من دوافع شريرة . واذا ما دخل مثل هذا الرجل قريـــة وثنية فسرعان ما يلفت الانظار بكثرة وضوئه ، وانتظام اوقات الصـــلاة والعبادة ، التي يبدو فيها كما لو كان يخاطب كائنا خفيا . وان ما يتحلى به من سمو عقلي وخلقي ليفرض احترامه والثقة به على الاهالي الوثنيين ، الذين يبدى لهم في نفس الوقت استعداده ورغبته فـــي مدهم بمزاياه ومعارفه السامية — والحاج الذى عاد من مكة مليئـــا بالحماسة من اجل نشر العقيدة ، التي يقف عليها كل جهوده ، متنقلا من مكان الى آخر ، يعيش على صدقات المؤمنين الذين يحملـــون الدليل على الحق بين جيرانهم الوثنيين ، — وطالب العلم الـــذى يلقى تكريما باعتباره رجل علم تفقه في الدين والشريعة الاسلاميـــة ، بل احيانا يزاول الطب ، او على الاقل يكون ذا مهمة عظيمة باعتبـاره كاتب تعاويذ . وآيات من القرآن ، تطوى في قطع من الجلد او القماش وتعلق على الاذرع او حول العنق ، وهي مهمة يستطيع ان يستغلهـا كوسيلة لاكثار عدد المتحولين الى الاسلام ، مثال ذلك ، انه حينمـا تطلب منه هذه التعاويذ النساء العواقر او اللاتي فقدن اولادهـــن اطفالا ، يفرض عليهن ، شرطا لنجاح هذه التعاويذ ، ان ينشـئن اطفال المستقبل على الاسلام . هؤلاء المعلمون الدينيون ، او المرابطون او الالوفا Alofas كما يطلق عليهم بحسب اختلاف اسمائهـــم ، يحظون بأوفى نصيب من التقدير . وفي بعض قبائل افريقية الغربيـــة تضم كل قرية دارا لاستقبالهم ، ويعاملون بأعظم مظاهر الاحترام والتقدير ففي دارفور يحتلون اعظم مكانة بعد هؤلاء الذين يشغلون مناصـــب الحكومة ، كما يحتلون بين الماندنجو مكانة اعظم شأنا ، وينالـــون احتراما يلي احترام الملك ، ويعتبر الرؤساء ، التابعون لمغيرهم اقـل منهم هيبة . وفي تلك الدول التي اتخذ فيها القرآن اساسا للحكـــم في كل المسائل المدنية ، تحتاج الدولة لخدماتهم احتياجا شديـــدا

لكي يفسروا معاني القرآن . وقد بلغ من اجلال الناس لاشخاص هؤلاء المعلمين ، انه لا يتعرض لهم احد حين يجوسون خلال امارات لا يعادى بعضها بعضا فحسب ، بل يتقاتلون مع بعض في حرب فعلية . ويبجلهم الناس مثل هذا التبجيل ، لا في البلاد الاسلامية وحدها ، بل في القرى الوثنية ، التي يؤسسون فيها مدارسهم ، حيث يحترمهم الناس باعتبارهم معلمي ابنائهم ، ويعتبرونهم واسطة بينهم وبين الله سواء في الحصول على حاجاتهم ، او في درء المصائب وصرفها عنهم . وقد درس كثير من هؤلاء المعلمين في مساجد القيروان وفاس وطرابلس وغيرها من مراكز الثقافة الاسلامية ، ولكنهم درسوا بصفة خاصة في الجامع الازهر بالقاهرة . ويهرع الطلاب الى هذا الجامع من كل بقاع العالم الاسلامي ، ومن بينهم في الغالب جماعة من زنوج افريقية — طلبة من دارفور وواداى وبرنو ، بل يشق فريق من المسلمين طريقه سيرا على الاقدام من اقاصي الساحل الغربي فاذا ما اتموا دراستهم في الدين والشريعة الاسلامية ، صار كثيرون منهم دعاة بين اهالي بلادهم الوثنيين . وينشىء هؤلاء الدعاة في المدن التي يزورونها مدارس يختلف اليها الاطفال الوثنيون والمسلمون على سواء ، فيحفظون القرآن ويتفقهون في عقائد الاسلام وشعائره ، فاذا ما نجح الداعي المسلم ، على هذا النحو ، بماله من حظ موفور من العلم والمعرفة الحقيقيتين ، فانه لا يتوانى عن ان يؤثر تأثيرا كبيرا في الاهالي الذين جاء يعيش بينهم ، ويساعده على ذلك أن عاداته وطباعه في الحياة تشبه عاداتهم وطباعهم في كثير من الوجوه . وما دام التاجر قد مهد له الطريق من قبل فلا يرتاب فيه الاهالي . وبالتزاوج مع السكان الذين يرحبون بدخوله في نظامهم الاجتماعي ،

يتوطد نفوذه ويستقر ، وهكذا تنتشر بينهم معارف الاسلام شيئا فشيئا وبطريقة طبيعية الى ابعد حد .

وقد زاد من تيسير جهود الداعي في نشر الدعوة ان الاعتقاد بوجود الله مع انكار الوحي والاديان Deism ، وهو اساس الشعور الديني عند كثير من عبدة الاوثان ، يمكن ان يتحول ، في سهولة ، الى عقيدة التوحيد عند المسلمين ، وكذلك الحال في بعض مظاهر اخرى في فلسفتهم الدينية . وهكذا نجد ان نظرتهم العامة في الحياة وكثيرا من شرائعهم الدينية قابلة لان تصطبغ بصبغة اسلامية ، وان تتحول الى نظام الدين الجديد دون اجراء تغيير كبير .

وان نزول المسلمين في بلاد وثنية هو كذلك ايذان بفتح باب للتجارة اوسع مدى وانتشارا ، وبالاتصال بمراكز اسلامية تجارية كبيرة من امثال جني او سجو Sego اوكانو Kano ، كما ان هؤلاء المسلمين قدموا الى الاهالي نصيبا من مزايا هذه الحضارة المادية مع الدين الاسلامي . ومن ثم " قد يكون الداعية بين القبائل الزنجية غير المتحضرة على ثقة دائما من الاستجابة السريعة : فهو يستطيع ان يمدهم بكثير من الحقائق المتعلقة بالله والانسان تصل الى القلب وتنمي الادراك ، بل يستطيع الى جانب ذلك ان يمنحهم ترخيصا بالدخول في وحدة اجتماعية سياسية ، تخولهم حق الحماية والمساعدة في مسافة تمتد من المحيط الاطلسي الى سور الصين . وحيثما يستطيع المسلم ان يجد هناك دارا اسلامية يجد الاسود الذي تحول الى الاسلام والذي يستطيع ان يردد اركان عقيدته الاثنى عشر واثقا من المأوى والقوت والنصيحة ، وسرعان ما يجد نفسه ، في بلاده ، عضوا في طبقة ذات نفوذ ان لم يكن في الطبقة

السائدة . ويبدو ان هذا هو السر الحقيقي في نجاح الدعاة المسلمين في افريقية الغربية . اما عدد المتحولين الى الاسلام، فانه كان كبيرا، سريعا في التحول، وذلك لسبب واضح هو ان الداعي المسلم كان منذ اللحظة الاولى التي يعترف فيها المتحول الى الاسلام بالعقيدة، يسير سيرا عمليا على المبادئ القائمة على اخاء المؤمنين جميعا وتساويهم امام الله، وهي مبادئ يشترك فيها الاسلام مع المسيحية، غير ان هذا الداعي المسلم، بصفة عامة، اسرع واحسم في القيام بهذا العمل من المبشر المسيحي الذى يشعر في اغلب الاحيان بأنه مضطر الى المطالبة بدليل قوى على اخلاص المتنصر قبل ان يصافحه مصافحة التآخي في المسيحية، والذى كان دائما يثير تعصبا جنسيا لم يكن محتملا ان يزول في جيل واحد، حيث كان يعد المسيحي الابيض، طوال اجيال، سيدا، كما كان يعد الوثني الاسود عبدا " .

ومن المهم، ايضا، ان نلاحظ ان لون الزنجي وجنسه لم يحملا بأية حال اخوانه الجدد في الدين، على ان يتعصبوا عليه . ولا شك أن نجاح الاسلام قد تقدم في افريقية الزنجية Nigritia تقدما جوهريا بسبب عدم كل احساس باحتقار الاسود — وفي الحق يظهر ان الاسلام لم يعامل الاسود قط على انه من طبقة منحطة، كما كانت الحال، لسوء الحظ، في كثير من الاحيان، في العالم المسيحي .

وان هذه الملاحظة لتفسر الى حد ما نجاح المسلم اذا ما قورن بالارساليات المسيحية بين الشعوب الزنجية، ويتضح في اغلب الاحيان ان الاسود المتنصر يميل الى الاحساس بأن ابناء دينه من الاوربيين

ينتمون الى لون من الحضارة لا يلائم طبائعه في الحياة ،على حين يشعر في المجتمع الاسلامي بأنه اكثر تعلقا به واطمئنانا اليه . وقد اجاد احد المشاهدين المحدثين توضيح ذلك في الرسالة الآتية .

" ان الاسلام ، على الرغم من تقصيره ،لا يتطلب من وجهة نظر اهل نيجريا ، ان يفقد احدهم قوميته باعتبار ان ذلك شيء يصحب الدخول في الاسلام ، ولا يستلزم تغييرات انقلابية في الحياة الاجتماعية يستحيل تحققها في المرحلة الحاضرة من تطور اهل نيجريا ،ولا هو يقوض نفوذ الاسرة او سلطة الجماعة . وليست هناك قوة بين الداعي الى الاسلام والمتحول اليه ،فكلاهما متساو احدهما مع الآخر ، لا نظريا ، بل عمليا ،امام الله . وكلاهما افريقي ، وهما من ابناء ارض واحدة . وينفذ مبدأ التآخي الانساني تنفيذا عمليا ، ولا يعني الدخول في الاسلام ان ينصرف الداخل فيه عن شئونه واسرته وحياته الاجتماعية ، ولا عن احترامه لسلطان حكام بلاده الاصليين . وليس هناك من لا يعجب بسلوك المسلم النيجيرى ووقاره — بل بسلوك مسلمي افريقية الغربية عامة ،وان هيئة الرجل العامة لتنم عن شعور بالقومية واعتزاز بالجنس ، يخيل اليك انه يقول : ان كلامنا يختلف عن الآخر ،ولكننا جميعا بشر . وان انتشار الاسلام الذى نشهده اليوم في نيجريا الجنوبية ليؤثر بصفة خاصة تأثيرا اجتماعيا . ويمنح الاسلام هؤلاء الذين يتصلون به منزلة ارقى وفكرة اسمى عن مكانة الانسان من العالم المحيط به ويحرره من ربق الف من الاوهام الخرافية " .

وقد ورد في الروايات الاسلامية ان موسى كان رجلا اسود ، كما قد نتبين ذلك من الآيات القرآنية . " واضمم يدك الى جناحك تخرج

بيضاء من غير سوء آية اخرى " (سورة ٢٠ : آية ٢٣) " ونزع يده ، فاذا هي بيضاء للناظرين . قال الملأ من قوم فرعون : ان هذا لساحر عليم " (سورة ٧ : آية ١٠٥ — ١٠٦) . والقصة الآتية التي وصلت الينا عن العصر الذهبي للدولة العباسية ، مهمة باعتبارها شاهدا على شعور المسلمين نحو السود . وكان ابراهيم بن المهدى ، اخو هارون الرشيد وابن احدى الجوارى ، قد نصب نفسه خليفة في بغداد ، ولكن المأمون الذى كان يحكم اذ ذاك ٨١٩م هزمه وعفا عنه . ويقص ابراهيم قصة مقابلته مع الخليفة على النحو الآتي :

" قال لي المأمون وقد دخلت عليه بعد العفو عني : انت الخليفة الاسود ؟ فقلت : يا امير المؤمنين ، انا الذى مننت عليه بالعفو ، وقد قال عبد بني الحسحاس :

اشعار عبد بني الحسحاس فمن له

عند الفخار مقام الاصل والورق

ان كنت عبدا فنفسي حرة كرما

او اسود الخلق اني ابيض الخلق

فقال لي : " ياعم ، اخرجك الهزل الى الجد " . وانشد :

ليس يزرى السواد بالرجل الشهم

ولا بالفتى الاديب الاريب

ان يكن للسواد فيك نصيب

فبياض الاخلاق منك نصيبي

وعلى هذا النحو ، سرعان ما يضبح الاسود المتحول الى الاسلام مع المؤمنين على قدم المساواة ، ولا يحول دون ذلك لونه او جنسه او اية ملابسة من ملابسات الماضي . ولا شك ان ماكان يلقاه السود

الوثنيون من ترحيب المسلمين بدخولهم في الاسلام ، هو الذى كان يرغبهم في الانضمام الى مجتمع ديني تتطلب حضارته التي تفوق حضارتهم ان يؤثروا التخلي عن كثير من عاداتهم وطباعهم البربرية ، ومما يساعد في نفس الوقت مساعدة كبيرة جدا على تفسير نجاح هذا الدين ان مجرد الدخول في الاسلام يدل ضمنا على الترقي في الحضارة وانه خطوة جد متميزة في تقدم القبيلة الزنجية عقليا وماديا . وكانت القوى المحشودة جنبا الى جنب مع العقيدة الاسلامية ، تبلغ من القوة والبأس الى حد ان البربرية والجهل والخرافة الدينية ، تلك الامور التي كان الدين يجد في القضاء عليها ، لا تجد الا فرصة يسيرة في اطالة المقاومة . وقد اتضح ما تقدمه حضارة افريقية الاسلامية الى الزنجي الذى تحول الى الاسلام ، وضوحا يبعث على الاعجاب في العبارات الآتية : " ان اقبح الرذائل وهي اكل لحوم البشر ، وتقديم الانسان قربانا ، ووأد الاطفال احياء — تلك الرذائل التي نجد ما يبرر الاعتقاد بأنها كانت في وقت ما منتشرة في كل افريقية ، ولا يزال في بقاع كثيرة منها ، حتى تلك الجهات التي لا تبعد عن ساحل الذهب وعن مواطننا — قد اختفت فجأة والى الابد . والمساكنون الذين كانوا يعيشون حتى ذلك الوقت عراة بدءوا يرتدون الملابس بل يتأنقون في ملابسهم ، والمساكنون الذين لم يغتسلوا قط من قبل ، بدءوا يغتسلون ، بل يكثرون من الاغتسال ، لان الشريعة المقدسة تأمر بالطهارة ، وهو فرض لا ينطوى على تأثير قوى جدا في غرائزهم التي جبلوا عليها . ويميل النظام القبلي الى فسح المجال لاساس اوسع نطاقا ، وبعبارة اخرى الى اندماج القبائل بعضها في بعض لتصير امما ، وبازدياد النشاط والمعرفة تصير الامم امبراطوريات

ونستطيع ان نورد كثيرا من امثال هذه الحالات من تاريخ السودان والبلاد المتاخمة له في خلال مئة السنة الاخيرة . ومتى اثيرت الروح الحربية على هذا النحو ، فان المراكز التي تنبعث منها نار الحرب تصبح اقل عددا واكثر انعزالا منها قبل . وفي هذه الحالة تكون الحرب احسن تنظيما كما تكون متأثرة بصورة من صور التقييد ، وهم لا يثيرون القتال دون سبب من الاسباب . وقل السلب المطلق الذى لا يقوم على تفرقة بين من يسلبونهم ،كما اصبح تأمين الناس على املاكهم وارواحهم اكثر من ذى قبل وتنشأ مدارس اولية كتلك المدارس التي وصفها مونجوبارك Mungo Park منذ قرن مضى . حتى لو ان هذه المدارس اقتصرت على تعليم تلاميذها تلاوة القرآن ،لكانت ذات قيمة في نفسها ، وقد تكون خطوة في سبيل ما هو اعظم منها بكثير . وقد اصبح المسجد الجيد البناء النظيف ، بما فيه من اذان للصلاة خمس مرات في اليوم ،وقبلة تتجه الى مكة وامام وصلاة جمعة ، مركزا للقرية بدلا من دار عبادة اوثان او اليويو Juju ذات المنظر البشع . وقد طغت عبادة الله الواحد القهار، الكائن في كل مكان العليم ، الرحيم ، على كل مالقن الاهالي عبادته من قبل ،طغيانا لا حد له ،وبلغت اللغة العربية ،وهي اللغة التي تكتب بها دائما الكتب الدينية الاسلامية ،حدا يفوق كل وصف من الغنى والجمال . واذا ما تعلموا هذه اللغة ، اصبحت لغة التخاطب بين قبائل نصف القارة . وتستخدم كمقدمة لدراسة الادب ، بل هي ادب في ذاتها . وهي الى ذلك لغة شريعة وقانون مكتوبة حلت محل نزوات شيخ القبيلة الاستبدادية — وهذا تغير يعتبر في ذاته تقدما هائلا في الحضارة . وظهرت صناعات وتجارة ، لا كالتجارة الصامتة التي تقوم الاشارات فيها

مقام اللغة في التفاهم ، ولا كالمبادلة البدائية في الخامات ، تلك المبادلة التي نعرف من هيرودوت انها وجدت في افريقية منذ اقدم العصور ،ولا كالمقايضة بالودع ، او البارود او الطباق او الخمر ، تلك المقايضة التي لا تزال تستخدم على طول الساحل وسيلة اساسية في التبادل ،ولكنها صناعات تنطوى على مهارة فائقة ، وتجارة منظمة نظاما محكما . وظهرت هذه المدن الكبيرة في ارض الزنوج بتأثير هذه الصناعة والتجارة وتأثير الحكومات الاكثر استقرارا التي جاء بها الاسلام ، وهي مدن نجد ان الرحالين الاوربيين حين وصفوها اول الامر لم يستطيعوا الا ان يهملوا مجرد وجودها . واني لا استطيع القول بأن الدين هو العلة الوحيدة في هذا النجاح النسبي . وانما اقول انه ملائم لهذا النجاح ودافع اليه . وقد ساعدت الاحوال الجوية والموءثرات الاخرى المختلفة على الوصول الى هذه النتيجة ،ولكن ما الذى بحمل افريقية الوثنية ، حيث توجد الظروف التي تتشابه كثيرا مع تلك ، على ان تقارن بين حالتها وبين هذا النجاح ؟ اما فيما يتعلق بالفرد ، فمن المسلم به من كل الوجوه ان الاسلام يمد السود الذين اسلموا حديثا بالنشاط والعزة والاعتماد على النفس واحترام الذات ،وهذه كلها صفات يندر جدا ان نجدها في مواطنيهم الوثنيين او المسيحيين " .

وقد كتبنا هذه العبارات السابقة التي اقتبسناها قبل تقسيم الجزء الاكبر من افريقية بين حكومات اوربا المسيحية ــ انجلترا وفرنسا والمانيا وقتذاك ــ ولكن طابع الحضارة الاسلامية الغالب لم ينقطع عن التأثير في العقلية الزنجية او عن العمل باعتباره احد الموءثرات التي تساعد على تحويل عبدة الاوثان الافريقيين الى الاسلام ،ولما مست هوءلاء الثقافة الاوربية فجأة ،مضوا قدما في طريق الحضارة ،

ولكنهم ،وقد عجزوا عن ان يقيموا جسرا على البرزخ الذى يفصلهم عن حكامهم الاجانب ،وجدوا في الاسلام ثقافة ملائمة لحاجاتهم وجديرة بتكييف مطالبهم ومطامحهم ،ولذلك ، كان بعيدا كل البعد على انتشار السيادة الاوربية ان تعوق نشاط الدعاة المسلمين ، بل ان انتشار هذه السيادة قد ساعد الى حد كبير على تقدم الاسلام . وقد ساعد دخول السلام في بلاد نهكتها من قبل حروب مهلكة او غارات جلاب الرقيق ، ثم قيام اساليب الحكم والادارة المنظمة والزيادة في تيسير المواصلات بانشاء الطرق ومد السكك الحديدية — ساعد كل ذلك على ترويج التجارة ، ومكن التجار والدعاة المسلمين النشيطين من ان يبسطوا تأثيرهم في مناطق لم تطأها الاقدام من قبل ،وان يجولوا في الاراضي المألوفة وهم اكثر امنا وطمأنينة . زد على ذلك ان منع تجارة الرقيق ازال عقبة من العقبات الكبيرة في سبيل انتشار الاسلام في افريقية الوثنية ، لانه كان من مصلحة العرب وغيرهم من تجار الرقيق المسلمين الا يضيقوا مجال اعمالهم بالتآخي في الاسلام مع ضحاياهم . والآن تدخل في الاسلام من القبائل الوثنية التي لم يصل اليها نشاط الدعوة ايام تجارة الرقيق . وقد ساعدت الحكومات الاوربية على الوصول الى هذه النتيجة بتوظيف المسلمين في الوظائف الثانوية في الادارة المدنية (حيث لم يكن هناك اشخاص متعلمون الا بين المسلمين) وبتوظيف معلمين في مدارس الحكومة ، وجمع جيوشها من بين القبائل الاسلامية ، وعلى هذا النحو زادوا من شهرة الاسلام في نظر الافريقيين الوثنيين — وهي فرصة لم يتوان المسلمون عن استغلالها لمصلحة عقيدتهم .

وليس في القول بأن الاسلام انما يتقدم بقوة السلاح

الا قليلا جـدا من الحقيقـة ، بل الامر على العكـس من ذلـك فتقسيم افريقيـة بين السلطات الاوربيـة ، التي انتزعت السيف من ايدى الرؤسـاء المسلمين الذين كانوا تحت حكمهم حينـذاك ، قد هيـأ للدعوة الى الاسلام ان تصـادف النجـاح بعـد قـرون من الاخفـاق .

****

انتشار الاسلام في ارخبيل الملايو

بين الملايو والعرب والهند

يمدنا تاريخ ارخبيل الملايو في خلال الاعوام الستمائة الاخيرة بفصل من اهم الفصول في قصة انتشار الاسلام ، بفضل ما بذله الدعاة من جهود . ففي غضون هذه الفترة كلها ، نجد شواهد تدلنا على نشاط متصل قام به الدعاة المسلمون في جزر الهند الشرقية ، او في بعضها على الاقل . وفي بدء الدعوة ،لم يكن بد من ان ينفذ الدعاة اعمالهم ،في كل لون من الوان هذه الدعوة ، دون مساعدة او معاضدة من جانب حكام البلاد ، وانما نفذت بقوة الاقناع وحدها ،وصادفهم في سبيل ذلك معارضة شديدة في كثير من الاحيان ،ولا سيما من جانب الاسبان . ولكن الدعاة والوا جهودهم بنشاط لا يعرف الملل ، برغم كل الصعاب ،وبألوان من النجاح متباينة وانجزوا اعمالهم (وخاصة في الوقت الحاضر) اينما كانت هذه الاعمال جزئية او ناقصة .

ومن المحال ان نعرف على وجه التحقيق التاريخ الدقيق لاول دخول الاسلام في ارخبيل الملايو . وربما حمله الى هناك تجار العرب في القرون الاولى للهجرة ،وذلك قبل ان تصل الينا اية معلومات تاريخية عن حدوث امثال هذه المؤثرات في تلك البلاد بزمن طويل . ومما جعل هذا الفرض اكثر احتمالا ، ما نعرفه من ان العرب زاولوا مع بلاد الشرق تجارة واسعة النطاق منذ عصور مبكرة جدا . ففي القرن الثاني للهجرة ، كانت تجارتهم مع سيلان كلها في ايديهم وفي مستهل القرن السابع الميلادى ،لقيت تجارتهم مع الصين ، عن

طريق سيلان ، رواجا عظيما ، حتى لقد وجدنا تجار العرب ، في اواسط القرن الثامن يقيمون في كانتون في جموع غفيرة . وفي الفترة التي بين القرنين العاشر والخامس عشر ، حتى قدوم البرتغاليين ، كان العرب سادة التجارة مع الشرق دون منازع . لذلك نستطيع ان نزعم في شيء من التأكيد المقبول ، انهم لابد ان يكونوا قد اسسوا مستعمراتهم التجارية في بعض جزائر ارخبيل الملايو ، كما فعلوا ذلك في الاماكن الاخرى في عصر مبكر جدا .

ومع اننا لا نجد ذكرا لهذه الجزائر في مؤلفات جغرافيي العرب قبل القرن التاسع ، نجد في حوادث سنة ٦٨٤ م في الاخبار الصينية المدونة حسب السنين ، خبرا عن زعيم عربي ، يظن من التعليقات المتأخرة انه كان زعيم مستعمرة عربية على ساحل سومطرة الغربي .

على ان الدعاة لابد ان يكونوا قد وفدوا كذلك على ارخبيل الملايو من جنوب الهند ، نستدل على ذلك من بعض خصائص معينة وجدت في العقيدة الاسلامية التي اعتقدها سكان هذه الجزائر . ويتبع السواد الاعظم من مسلمي الارخبيل المذهب الشافعي ، الذى يسيطر في الوقت الحاضر على سواحل كوروماندل ومليبار ، كما كانت الحال كذلك حول منتصف القرن الرابع عشر ، عندما زار ابن بطوطة هذه البقاع . فاذا قدرنا ان المسلمين في البلاد المجاورة ينتمون الى المذهب الحنفي ، استطعنا ان نفسر ذيوع تعاليم المذهب الشافعي بشيء واحد ، هو الزعم بأن هذه التعاليم قد جلبت الى هناك من ساحل مليبار الذى كان التجار الآتون من جاوة يترددون على موانيه ، كما كان يتردد عليها التجار القادمون من الصين واليمن وفارس . كذلك لابد ان يكون التشيع قد جاء الى هناك من الهند ايضا ، او من فارس ، ولاتزال

آثاره قائمة في جاوة وسومطره . ونعلم مما ذكره ابن بطوطة ان سلطان سمدرة المسلم قد دخل في صلات ودية مع بلاط دهلي ، وكان من بين علماء الفقه الذين خصهم هذا السلطان المتدين بالرعاية قاض من شيراز وآخر من اصبهان . ولكن قبل هذا الوقت بزمن طويل ، كان التجار المقيمون في الدكن ، الذين قامت الحركة التجارية على ايديهم بين الدول الاسلامية في الهند وارخبيل الملايو ، قد استقروا في جماعات كبيرة في الموانيء التجارية الواقعة في هذه الجزائر ، حيث القوا بذور الدين الجديد .

اساليب نشر الدعوة

ويرجع الفضل في وجود الاهالي المسلمين ، الذين وجدنا ذكرهم في الاخبار التاريخية الاولى التي تشير الى الاسلام في هذه الجهات الى تلك الجهود التي بذلها تجار العرب والهنود في نشر تعاليم الدعوة . فانهم بعد ان استقروا في مراكز التجارة ، تصاهروا الى سكان البلاد ، ومن ثم كون اولئك النسوة الوثنيات وعبيد اسراتهن نواة الجماعة الاسلامية التي لم يأل افرادها جهدا في زيادة عددهم ويمدنا الوصف التالي للوسائل التي اتخذها الدعاة من هؤلاء التجار في جزائر الفيلبين ، بصورة لما كان قد صنعه من غير شك ، تجار المسلمين في الاجيال الكثيرة السابقة : "كان اقوم السبل لادخال دين المسلمين الى هذه البلاد ، ان اتخذوا لغة القوم وكثيرا من عادات الاهالي ، وتزوجوا من نسائهم ، واشتروا عبيدا ليرفعوا من قيمتهم الشخصية ، ونجحوا آخر الامر في ان يدخلوا انفسهم في زمرة الزعماء الذين يتبوءون ارفع مكانة في الدولة . وعملوا يدا واحدة على نحو اكثر حذقا وتناسقا مما كان يصنعه الاهالي ، فزادوا من قوتهم

شيئا فشيئا . ولما كانوا يمتلكون عددا من العبيد ، الفوا فيما بينهم نوعا من الحلف ، واسسوا ضربا من الحكومات الملكية جعلوها وراثية في اسرة واحدة . ومع ان مثل هذا الحلف قد امدهم بقوة عظيمة ، احسوا الحاجة الى التراضي على شروط ودية مع الطبقة الارستقراطية القديمة . كما احسوا الحاجة الى اخذ ضمان لحريتهم من هذه الطبقات التي لم يكن في وسعهم ان يستغنوا عن تأييدها " " ولا بد ان يكون المسلمون الذين استوطنوا ارخبيل الملايو ، على اختلافهم ، قد وضعوا بطريقة تشبه تلك التي تحدثنا عنها ، اساسا سياسيا واجتماعيا ثابتا لجهودهم في سبيل نشر تعاليم الدعوة . انهم لم يفدوا على هذه البلاد غزاة ، كما فعل الاسبان في القرن السادس عشر ، ولم يستخدموا السيف اداة لتحويل الناس الى الاسلام بل لم يدعّوا لانفسهم حقوق جنس اسمى يتمتع بالغلبة والسيادة ، لكي يحطوا بذلك شأن السكان الاصليين ويسلبوا حقوقهم ، بل قدموا في زي التجار ، واستخدموا كل مالديهم من ذكاء اسمى ، ومدنية ازهر في سبيل دينهم ، اكثر من ان يكونوا قد استخدموا ذلك وسيلة لتوسيع نفوذهم الشخصي او لتنمية ثرواتهم . اما وقد قررنا بصفة عامة الوسائل الثانوية التي اتخذوها في نشر الدعوة ، فلنتتبع بالتفصيل جهودهم في نشر تعاليم هذه الدعوة في الجزائر المختلفة .

الاسلام في سومطره

تصور لنا الروايات ان الاسلام دخل الى سومطرة من بلاد العرب . على انه ليس هناك اساس تاريخي صحيح لمثل هذا الاعتقاد ويظهر ان الشواهد كلها تشير الى ان الهند هي المنبع الذى استقى منه اهالي سومطرة معرفتهم بالعقيدة الجديدة . كانت العلاقات

التجارية الفعالة ، قد قامت منذ قرون بين الهند وارخبيل الملايو ، ولا يبعد ان يكون اول دعاة في سومطرة تجارا من الهنود . على انه ليس لدينا اخبار تاريخية عن اعمالهم ، وتنسب اخبار الملايو شرف اول دعوة في مدينة اتجيه Atjeh ، شمال غربي سومطرة ، الى عربي يدعى عبد الله عارف ، قيل انه زار الجزيرة حول منتصف القرن الثاني عشر ، وقيل ان احد تلاميذه ، برهان الدين ، حمل معرفة العقيدة الى الساحل الغربي حتى بريامان Priaman

ولما كان هذا الخبر غير موثوق بصحته ، فانه مع ذلك قد يوضح وجود بعض نشاط في نشر تعاليم الدعوة حول هذه الفترة . ذلك ان اخبار مؤرخي الملايو الخاصة بأتجيه تجعل سنة ١٢٠٥ تاريخا لاعتلاء جنيهان شاه العرش ، وهو الذى تزعم الروايات انه مؤسس الاسرة الاسلامية . وقد قيل انه كان اجنبيا ، من الغرب ، وانه قدم الى هذه السواحل ليدعو الى عقيدة النبي صلى الله عليه وسلم . وقد ادخل كثيرين في هذا الدين ، وتزوج امرأة من اهالي هذه البلاد ، فرحبوا به ملكا عليهم وتلقب بلقب سري بدوكا سلطان ، وهو لفظ خليط من السنسكريتية والعربية . والراجح ان العقيدة الجديدة ظلت وقتا ما مقصورة على الموانيء التي اتصل بها تجار المسلمين ، وان تقدم هذه العقيدة في داخل البلاد كان اكثر بطئا ، فهنا لم يكن بد من ان تصطدم العقيدة بالمؤثرات الهندوكية القوية التي اتخذت لها مركزا في مملكة منانجكباو .

ويتحدث ماركوبولو ، الذى قضى خمسة اشهر على ساحل سومطرة الشمالي في ١٢٩٢ م عن جميع السكان باعتبارهم عبدة اوثان ، اللهم الا في مملكة برلاك الصغيرة على الزاوية الشمالية الشرقية من الجزيرة ،

حيث كان سكان المدن وحدهم مسلمين كذلك ، لان " تجار العرب ، كما ينبغي ان تعلم ، قد بلغ من كثرة ترددهم على هذه المملكة ، انهم ادخلوا الاهالي في شريعة محمد " ،اما سكان المرتفعات فكلهم وثنيون او متوحشون يأكلون لحوم البشر . اضف الى ذلك ان احد اخبار الملايو التاريخية يقول ان اول من ضرب المثل في اعتناق الاسلام ثم حذا رعاياه حذوه ،هو السلطان علي مغايت شاه ، وكان قد حكم اتجيه من سنة ١٥٠٧ الى ١٥٢٢ . ولكن لا يبعد ان يكون شرف اول حاكم مسلم للدولة قد نسب الى هذا السلطان لاعتباره مجدا يضاف الى الحاكم الذى اسس عظمة اتجيه ،واخذ في بسط نفوذه على البلاد المجاورة . كما لا يبعد ان يكون الاصوب انه احدث اثرا في انعاش حياة رعاياه الدينية ، او انه بث روحا جديدة في هذه الحياة ،لا ان يكون قد امدهم بأول معرفة بعقيدة النبي . فقد رسخت قدم الاسلام في سومطرة قبل ذلك الوقت بزمن طويل . وتخبرنا الروايات التي تتحدث عن مدينة سمدرة ، ان شريف مكة ارسل بعثة لتحويل شعب سومطرة الى الاسلام . وكان قائد الجماعة رجلا يدعى الشيخ اسماعيل . وكان اول ما وصلوا اليه من الامكنة في هذه الجزيرة ، بعد ان تركوا مليبار ، بلدة باسوري Pausri (وربما كانت على مسافة قليلة من جنوب الساحل الغربي) ،وبفضل دعوتهم اقتنع شعب هذه البلدة باعتقاد الاسلام . ثم تقدموا شمالا حتى لمبرى Lambri ، ثم اخذوا يساحلون الجزيرة حتى وصلوا الى الجانب الآخر منها ، وابحروا من هناك حتى وصلوا الى آرو Aru على الساحل الشرقي من جهة الجنوب ، وهي تقابل ملقا تقريبا . وفي كلتا هاتين البقعتين ، تكللت جهودهم بنجاح كذلك . وفي ارو ،تحروا الطريق الى سمدرة ،

وهي مدينة على الساحل الشمالي من الجزيرة ، ويظهر انها خاصة كانت هدفا لدعوتهم ، فوجدوا انهم قد تجاوزوها . ومن اجل ذلك قفلوا راجعين الى برلاك Parlak ، حيث كان ماركو بولو قد وجد جماعة من المسلمين قبل ذلك بأعوام قليلة ، وبعد ان ظفروا بمسلمين جدد في هذه البقعة كذلك ، استأنفوا رحلتهم الى سمدرة . وكانت هذه المدينة ، والمملكة التي تسمت باسمها ، قد تأسست اخيرا على يد شخص يدعى مراسيلو Mara Silu . وقد اقنعه الشيخ اسماعيل باعتقاد الاسلام فاتخذ لنفسه اسم الملك الصالح ، وتزوج من ابنة ملك برلاك فأنجب منها ولدين ، ولكي يترك لكل منهما ولاية بعد وفاته ، اسس هذه المدينة الاسلامية ومملكة باسي Pasei وهي كذلك على الساحل الشمالي .

ولا يبعد ان يكون الملك الظاهر الذى وجده ابن بطوطة حاكما في سمدرة عندما زار هذه الجزيرة في سنة ١٣٤٥ ، اكبر هذين الولدين . وقد اظهر هذا الملك اعظم ما تتجلى به المملكة الاسلامية من ابهة ، وامتدت بلاده مسيرة ايام كثيرة على طول الساحل . كان مسلما من اهل السنة ، غيورا على دينه ، مولعا بعقد المناظرات مع الفقهاء وعلماء الدين . وكان بلاطه مقصد الشعراء ورجال العلم . ويذكر لنا ابن بطوطة اسمي قاضيين ، كانا قد اتيا اليه من فارس كما يذكر اسم امير كان قد ورد رسولا على السلطان في دهلي — وهذا يدلنا على ان سومطرة كانت من قبل على اتصال بكثير من ارجاء العالم الاسلامي . كذلك كان الملك الظاهر قائدا عظيما ، وقد اعلن الحرب على الوثنيين الذين يقيمون في البلاد المجاورة حتى اذعنوا لحكمه ، وادوا له الجزية .

وكان الاسلام من غير شك قد احرز في ذلك العهد تقدما عظيما في سومطرة ، وبعد ان توطدت دعائمه على طول الساحل ، اخذ يشق طريقه الى المناطق الداخلية . وكانت دعوة الشيخ اسماعيل وجماعته قد آتت ثمارا وافرة ، فقد تحدث رحالة صيني ، زار هذه الجزيرة في سنة ١٤١٣ ، عن بلدة لامبرى ، فقال ان عدد الاسرات التي كانت تقيم فيها الف اسرة ، كلهم مسلمون ، و "على جانب عظيم من كرم الاخلاق " ، وكان ملك آرو وشعب مملكته يعتقدون جميعا هذا الدين نفسه . وقد حدث ، اما في نهاية هذا القرن نفسه او في القرن الخامس عشر ، ان وجد دين النبي اشياعا من مملكة منانجكباو العظيمة ، التي امتدت اراضيها يوما ما من الساحل الى الساحل وعلى جزء عظيم من الجزيرة يقع شمالي خط الاستواء وجنوبيه . وعلى الرغم من ان قوتها كانت لذلك العهد قد انحلت الى حد بعيد ظلت تضع عقبات كبيرة ، باعتبارها معقلا قديما من معاقل الهندوكية ، في سبيل تقدم الدين الجديد . ومع هذه الحقيقة ، كان تأصل الاسلام في نفوس رعايا هذه المملكة آخر الامر اقوى منه في نفوس السواد الاعظم من سكان المنطقة الداخلية من هذه الجزيرة . ومن الواضح البين ، ان هؤلاء ، وهم اوسط شعوب الجزيرة مركزا ، لم يكن بد من ان يكونوا بأسرهم اسرع دخولا في الاسلام من سكان كثير من سائر المقاطعات التي كانت اشد اتصالا بالمؤثرات الاجنبية .

ولا يزال السواد الاعظم من سكان بلاد البتك Batak ، الى اليوم ، على الوثنية ، بيد ان الاسلام قد ظفر ببعض آثار فيهم ، مثال ذلك فريق يعيشون على حدود اتجيه ، دخلوا في الاسلام على يد جيرانهم المسلمين ، وفريق آخر يسكنون في جبال اقليم راو Rau على خط الاستواء ، تحولوا مثلهم . الى الاسلام .

كذلك عرفت حالات من اسلام البتك على الساحل الشرقي ، وكانوا على اتصال وثيق بسكان الملايو .

ولم تجد الجهود النشيطة التي بذلتها اسرة بدرى Padris المتعصبة لفرض الاسلام على البتك بحد السيف ، فخربوا بلادهم وقتلوا كثيرا منهم . ولكن هذه الوسائل العنيفة لم تجذب احدا الى الاسلام . على انه ، عندما اخمدت الحكومة الهولندية حركة البدرى وضمت الى املاكها الجزء الجنوبي من بلاد البتك ، اخذ الاسلام ينتشر بالوسائل السلمية ، وخاصة عن طريق الجهود الحماسية التي بذلها الموظفون المرؤوسون من الاهالي الذين جاء بهم النظام الجديد والذين كانوا جميعا من سكان الملايو المسلمين ، وكذلك عن طريق نفوذ التجار الذين طوفوا في البلاد ، والذين حذا حذوهم في نشر الدعوة جماعة (الحاجي) وغيرهم من علماء الدين المعروفين . ومن الحقائق الواضحة ، ان البتك الذين كانوا قد ابدوا معارضة عنيدة في دخول الاسلام بينهم قرونا عديدة ، مع انهم كانوا يحاطون بمجموعتين من السكان المسلمين المتعصبين ، وهما الاتشينيون في الشمال واهل الملايو في الجنوب ، قد استجابوا في السنين الاخيرة للجهود السلمية التي بذلت لادخالهم في الاسلام ، واظهروا حماسة في هذه السبيل . ويظهر ان من الممكن ايجاد تفسير لذلك ، فيما اعترى صفاتهم القومية الحاجزة المنيعة ، من ضعف ووهن ، بسبب الاحتلال الهولندى ، والغزو الذى عرض بلادهم للمؤثرات الاجنبية التي دلت على بداية عصر جديد في تطورهم الثقافي ، كما نجد تفسير ذلك ايضا في تلك الخطوات السديدة التي تقدم بها ائمة هذا الدين الجديد ، الذين عرفوا كيف يلائمون بين تعاليمهم وعقائد

البتك الراهنة ، وتقاليدهم المتأصلة في نفوسهم . ويظهر ان تأسيس الارساليات المسيحية بين البتك في سنة ١٨٩٧ قد زود الدعوة الاسلامية في هذه البلاد بباعث لا يستهان به ، بل يظهر ان هذه الارساليات قد مهدت السبيل لنجاح تلك الدعوة ، فقد قيل ان قريتين من قرى البتك ، وكان جميع اهليهما قد تنصروا ، انتقلتا جمعا واحدا الى الاسلام ، بعد تنصرهما بزمن قصير .

ولا يزال في سومطرة الوسطى ، عدد كبير من الاهالي الوثنيين ، على الرغم من ان السواد الاعظم من السكان مسلمون . ولكن هوءلاء على جانب عظيم من الجهل بديانتهم ، اللهم الا اذا استثنينا عددا قليلا من جماعة الحاجي والمعلمين . بل اننا نجد بين شعب كورنتجي وهم في معظمهم يشايعون الاسلام ويتحمسون له ، بعض الطوائف من الاهالي لا يزالون يعبدون آلهة اجدادهم الوثنيين . على ان الجهود تبذل في سبيل نهضة دينية ، كما ان دعاة المسلمين يقومون بغزوات جديدة بين الوثنيين ولا سيما على طول الساحل الغربي وفي مقاطعة سيبيروك Sipirok ادخل معلم ديني ، وكان قد لزم المسجد في المدينة التي كانت تحمل اسم هذه المقاطعة مدة ربع قرن جميع اهالي هذه المقاطعة في الاسلام ، اللهم الا المسيحيين الذين كانوا يعيشون هناك ،وكانوا في الغالب من سلالة الاهالي الذين كانوا عبيدا من قبل . وقد افلحت حركة حديثة لنشر الدعوة ، قامت في العقد الاول من القرن العشرين ، في اجتذاب كثير من مسيحيي هذه المقاطعة الى الاسلام ، بل في اجتذاب فريق ممن يعيش في وسط المحيط الذى تجلى فيه نفوذ الارسالية المسيحية .

وتصور الروايات ان الاسلام دخل الى بالمبنج Palembang حول سنة ١٤٤٠ على يد رادن رحمت ، وسنذكر فيما بعد نبذة

عن نشاطه في الدعوة . ولكن يظهر ان الموئثرات الهندية كانت متأصلة ثابتة في هذه المنطقة ، وان تقدم الدين الجديد كان بطيئا . وقد قيل ان مسلمي بالمبنج كانوا حتى القرن التاسع عشر ، يعرفون القليل عن دينهم ، الا ماكان من طقوسه الشكلية ، اللهم الا سكان الحاضرة الذين كانوا يتصلون بالعرب كل يوم . ولكن قد يظهر ان في العقد الاول من القرن العشرين ،كان هنالك نهضة للحياة الدينية ،ودعاية آخذة في النمو ، اذ ان تقارير الحكومة الهولندية الخاصة بالمستعمرات قد لفتت الانظار الى اطراد انتشار الاسلام بين الوثنيين من اهالي مقاطعات بالمبنج على اختلافها .

ومن جاوه ،حمل الاسلام لاول مرة الى مقاطعات لمبونج Lampong التي تكون اقصى حدود سومطرة الجنوبية ،وذلك على يد سيد هذه المقاطعات ،ويدعى منك كمله بومي . وحول نهاية القرن الخامس عشر ، عبر مضيق سندا Sunda الى مملكة بنتام على ساحل جاوة الغربي تلك المملكة التي كانت قد انتحلت تعاليم الدعاة المسلمين قبل ان يزورها هذا الزعيم بسنوات قليلة . وهنا اسلم هذا الرجل ايضا ، وبعد ان ادى فريضة الحج الى مكة ، نشر تعاليم عقيدته الجديدة التي اعتقدها بين مواطنيه . وقد احرز هذا الدين تقدما لا يستهان به بين اهالي لمبونج ،ولهم مساجد في معظم قراهم ،ولكن الخرافات القديمة لا تزال قائمة في اجزاء المنطقة الداخلية .

وفي مستهل القرن التاسع عشر ،قامت في سومطرة نهضة دينية ، ولم تكن عادمة التأثير في ترويج دعاية للاسلام ابعد مدى واعظم اثرا . وفي سنة ١٨٠٣ رجع ثلاثة من جماعة الحاجي من مكة الى وطنهم سومطرة ، وكانوا في اثناء وجودهم في المدينة المقدسة ، قد تأثروا تأثرا عميقا بالحركة الوهابية التي قامت لاصلاح الاسلام ، فأصبحوا

الان يتوقون الى أن يدخلوا مبادئ هذا الاصلاح بين مواطنيهم ، والى ان يبثوا فيهم حياة دينية اكثر صفاء واشد غيرة . ومن ثم اخذوا في الدعوة الى التشدد في التوحيد الذى تقول به الطائفة الوهابية ، وحرموا التوسل الى الاولياء وشرب الخمر والميسر وسائر الاعمال التي تتعارض مع القرآن . وجعلوا عددا من بين اخوانهم في الدين والاهالي الوثنيين على سواء يدخل في مذهبهم . واخيرا اعلنوا الجهاد على البنك ، ولكن الحركة فقدت صبغتها الاصلية وانحطت فأصبحت حربا وحشية دامية ترمي الى الغزو ، وذلك بوقوع هذه الحركة في ايدى قوم لا وازع لهم يطمحون الى الشهرة . وفي سنة ١٨٢١ وقع هؤلاء الذين يطلق عليهم جماعة البدرى Padris في نزاع مع الحكومة الهولندية ، ولم تأت سنة ١٨٣٨ حتى سقط آخر معاقلهم وكسرت شوكتهم .

في شبه جزيرة الملايو

ويرجع جميع اهالي الملايو الذين يقيمون في شبه جزيرة الملايو اصلهم الى هجرات اتت من سومطرة ، ولا سيما من منانجكباو تلك المملكة المشهورة التي ذكرناها من قبل ، والتي يقال انها كانت في يوم ما اقوى الممالك في الجزيرة . ولا يزال بعض رؤساء الولايات الداخلية ، في الجزء الجنوبي من شبه جزيرة الملايو ، يتقلدون مناصبهم من هذا المكان . اما معرفة الفترة التي تمكنت فيها هذه الجاليات من قلب سومطرة في داخل شبه الجزيرة ، فهذا امر يدخل في باب الحدس والتخمين ، ولكن يظهر ان سنغابور واقصى الحدود الجنوبية من شبه الجزيرة ، قد تلقت هجرة من هذه الهجرات في اواسط القرن الثاني عشر ، وهي التي اسس احفادها ملقا بعد ذلك بقرن

تقريبا . وسرعان ما اصبحت هذه المدينة مدينة كبيرة زاهرة ،لما تميزت به من موقع مناسب في طريق التجارة الآتية من الشرق . وهناك قليل من الشك في ان تجار المسلمين الذين استوطنوا هنا ، هم الذين ادخلوا الاسلام الى هذه البلاد . وتعزو اخبار مؤرخي الملايو عن ملقا تحول هذه المملكة الى الاسلام الى عهد احد ملوكها وهو — سلطان محمد شاه وكان قد اعتلى العرش سنة ١٣٧٦ م . وقد قيل انه حكم هذه البلاد سنوات قليلة ،قبل ان ترسو سفينة بقيادة سيدى عبد العزيز الى شواطيء ملقا آتية من جدة ، وان هؤلاء القادمين قد اقنعوا الملك بتغيير عقيدته وترك اسمه الوطني ، وقد اتخذ لنفسه اسما يحمل اسم النبي . ولكن طابع هذه الوثيقة التاريخية العام يجعل الثقة بها والاطمئنان الى صحتها موضع شك الى حد بعيد ، على الرغم من انه من المحتمل ان يكون تاريخ حادثة هامة كتلك الحادثة ، قد يكون موضع ملاحظة دقيقة (كما حدث ذلك في جهات كثيرة من ارخبيل الملايو) من شعب يعتز بذكر الحادثة ، ويعدها فاتحة عهد جديد في تاريخهم . ويذكر مؤرخ برتغالي تاريخا متأخرا عن ذلك التاريخ ويقول انه حدث في سنة ١٣٨٤ ، كما يقول انه كان قاضيا ، قدم من بلاد العرب في هذه السنة ،وبعد ان حول الملك الى الاسلام ، سماه محمد اسوة بالنبي واضاف كلمة شاه الى اسمه .

وفي اخبار قويدة ، وهي احدى ولايات شبه جزيرة الملايو ، في اقصى الشمال ، رواية عجيبة وصلت الينا عن دخول الاسلام الى هذه المملكة ،حول سنة ١٥٠١م ، واليك هذه الرواية (وقد حذفنا منها بعض حوادث من خوارق العادات) : قدم عالم عربي يدعى الشيخ عبد الله ، الى قويدة ، وزار الراجه ، وسأل عن ديانة البلاد ،

فأجابه الراجه " ديني ودين رعيتي كلها ، هو الذى وصل الينا من الشعب القديم ، اننا جميعا نعبد الاصنام " . فقال الشيخ : " اذن اما سمعتم جلالتكم قط شيئا عن الاسلام ، والقرآن الذى انزله الله على محمد ، ونسخ به كل الديانات الاخرى ، وتركها في حوزة الشيطان ؟ " فقال الراجه : " اذن ارجو منك ،ان كان حقا ما تقول ، ان تعلمنا هذا الدين الجديد ، وتهدينا بنوره . " وتهلل الشيخ عبد الله تهلل الحماسة المقدسة لسؤال الراجه اياه هذا السؤال ، واحتضن الشيخ الراجه ، ثم فقهه في الدين . ولما اقتنع الراجه بتعاليم الشيخ ، ارسل في طلب آنية الارواح (التي طالما عكف عليها) وافرغ ما فيها على الارض بيديه . بعد ذلك امر ان تحضر كل الاصنام التي في قصره ، فجمعت بين يديه اكوام من اصنام الذهب والفضة والطين والخشب ، وكسرها الشيخ عبد الله قطعا بسيفه وبفأس ، واحرقت الاجزاء في النار . وطلب الشيخ الى الراجه ان يجمع كل نساء القلعة والقصر . فلما قدمت جميعا في حضرة الراجه والشيخ ، تعلمن عقائد الاسلام . وكان الشيخ مهذبا لطيف المعشر ، كما كان جذابا رقيقا في لفته ، حتى انه جذب اليه قلوب ساكني القصر . ولم يلبث الراجه ان ارسل في طلب وزرائه الاربعة المسنين . ولما دخلوا البهو ، استولى عليهم الدهش حين رأوا شيخا يجلس الى جوار الراجه . فأبان لهم الراجه المهمة التي جاء من اجلها هذا الشيخ . وعندئذ اظهر الزعماء الاربعة استعدادهم للاقتداء بجلالته ،وقالوا : " اننا نأمل ان يعلمنا الشيخ عبد الله كذلك " . ولما سمع هذا الاخير هذه الكلمات ، احتضنهم ،وقال لهم انه يأمل ، لكي يبرهنوا على اخلاصهم ، ان

يستدعوا شعبهم بأسره الى بهو الاستقبال ، ويحضروا معهم كــل الاصنام التي تعودوا ان يعبدوها ، والاصنام التي انتهت اليهم عن طريق آبائهم الاولين ، واجيب الشيخ الى طلبه ، واحضرت في الوقت المحدد كل الاصنام التي كان الشعب يحتفظ بها ، وهناك حطمت وحرقت واصبحت رمادا تذروه الرياح . ولم يأسف واحد منهم علــى ما اصاب آلهتهم الزائفة من الخراب والدمار ، وكانوا جميعا فرحيــن مستبشرين بدخولهم في حظيرة الاسلام . ثم سأل الشيخ عبد اللــه الوزراء الاربعة : " ما اسم اميركم ؟ " قالوا : " اسمه برا اونج مها وانجسا . قال الشيخ : " فدعونا نستبدل باسمه اسما بلغــة الاسلام " . وبعد تبادل الرأى ، طلب الراجه نفسه ان يحول اسمه الى السلطان مزلف الشاه ، لان الشيخ قد اكد انه اسم مشــهور وانه ورد في القرآن .

والآن بنى الراجه المساجد في البقاع الآهلة بالسكان ، وامــر بأن يلحق بكل مسجد اربعة واربعون شخصا على الاقل من السكان على ان يكونوا جماعة تقيم في المسجد وتعكف على العبادة ، لان اى عدد اقل من ذلك قد يكون غير كاف لتأدية الواجبات الدينية . ومــن ثم بنيت المساجد ، والحقت بها طبول كبيرة تدق لدعوة النــاس الى صلاة الجمع . وظل الشيخ عبد الله ،وقتا ما ، يفقه الناس فــي الدين ، وانثالوا عليه من جميع سواحل قويدة ومقاطعاتها وما جاورها وتعلموا على يديه صيغ الاسلام وشعائره .

وقد وصلت اخبار تحول سكان قويده الى الاسلام على يــد الشيخ عبد الله ، الى اتجيه ، فأرسل اليهم سلطان هذه البــلاد ورجل يدعى الشيخ نور الدين ، وهو داع عربي ، كان قد قدم من مكة ،

بعض كتب ، ورسالة ،وهذا نص الرسالة : ـ " هذه الرسالة من سلطان اتجيه ونورالدين الى اخينا سلطان قويدة والشيخ عبد الله اليمني الذى يقيم الآن في قويدة . ارسلنا اليكم كتابين من كتب الدين حتى تتأكد دعائم العقيدة الاسلامية ، ويتعلم الناس واجباتهم وشعائر دينهم تعلما كاملا " . وارسل الراجه والشيخ عبد الله رسالة يردان فيها على هذه الرسالة ، ويشكرانهما على ما انعما به عليهما .

ومن ثم ضاعف الشيخ عبد الله جهوده وبنى زوايا في كل القرى على اختلافها بالاضافة الى ما فيها من المساجد ، ليكون الانتفاع عاما ، وعلم الناس كل احكام الدين وشعائره . وكان الراجه وزوجته ملازمين للشيخ ، يتعلمان قراءة القرآن . وبحث هذان الزوجان عن امرأة من نسل الراجات لتكون زوجة للشيخ . ولكن لم يرغب احد في ان يهب ابنته زوجة للشيخ ، لان هذا الرجل المقدس كان يوشك ان يعود الى بغداد ، وانه كان لا ينتظر الا ان يفرغ من تعليم شخص تعليما كافيا يقوم مقامه بعد مغادرته البلاد . وكان للسلطان في ذلك الحين ثلاثة اولاد : راجه معظم شاه ، وراجه محمد شاه ، وراجه سليما شاه : وهذه الاسماء كان الشيخ عبد الله قد اخذها من القرآن ، وخلعها على هؤلاء الامراء الذين اسدى هذا الشيخ النصح اليهم بأن يصطنعوا الصبر والاناة ، والا يسرع اليهم الغضب في معاشرتهم عبيدهم والطبقات الدنيا ، وان ينظروا بعين الشفقة والعطف الى عباد الله اجمعين ، والى الفقراء والمعوزين .

ولا يزعمن زاعم ان اعمال الشيخ عبد الله قد كللت بنجاح تام ، لاننا نعلم من اخبار اتجيه ان احد سلاطين هذه البلاد ، وكان قد غزا قويدة في سنة ١٦٤٩ ، قد نصب نفسه " لان يؤسس الاسلام

في البلاد تأسيسا اقوى ثباتا ، ويخرب معابد اللبار " Liar " اى هياكل الاصنام . وعلى ذلك ،كان قد مضى قرن ونصف قرن قبل ان تستأصل شأفة الوثنية من هذه البلاد .

وليس لدينا اخبار اخرى مفصلة في تاريخ تحول اهالي شبه جزيرة الملايو الى الاسلام ، ولكننا نجد في اماكن كثيرة اضرحة دعاة العرب الذين كانوا اول من دعوا بينهم الى هذه العقيدة ، تلقى من هؤلاء الناس تعظيما . وقد ادت معاشرتهم الطويلة للعرب ومسلمي ساحل الهند الشرقي الى جعلهم محافظين شديدي التمسك بفروض دينهم ،واشتهروا بين الناس بأنهم خير من يقتدى به من مسلمي الارخبيل . كما ادى اتصالهم المستمر بالهندوكيين والبوذيين والمسيحيين والوثنيين من سكان بلادهم ، الى جعلهم في الوقت نفسه على جانب من التساهل والتسامح . وهم شديدو التمسك بالمحافظة على صوم رمضان وتأدية فريضة الحج الى مكة . ويرون دائما ان المنافع الدينية التي ينالها الناس ، انما هي في الوقت نفسه ، سعادة دنيوية لهم . واذا وجدوا قرية بها اكثر من اربعين منزلا ، ورأوا ان سعتها تستلزم تنظيمها وتعيين موظفين دائمين للقرية ، جعلوا من بين افراد هؤلاء الموظفين داعيا يعظ الناس في الدين . وقد بنوا بطريقة رسمية مسجدا واسسوه .

في سيام : وفي الشمال ، حيث تتاخم ولايات الملايو منطقة سيام ، اثر الاسلام تأثيرا لا بأس به بين اهالي سيام من البوذيين . ويطلق على من دخلوا في الاسلام منهم السمسم Samsams وهم يتكلمون لغة هي رطانة مزيجة من لغتي الشعبين جميعا . كذلك ادخل في الاسلام فريق من بين القبائل المتوحشة في شبه الجزيرة .

وان تاريخ انتشار الاسلام في الهند الصينية يحوطه الغموض والابهام . ولا يبعد ان يكون تجار العرب والفرس قد ادخلوا دينهم الى المدن الساحلية منذ القرن العاشر ، ولكن يعزى اهم توسع لهذا الدين الى هجرات اهل الملايو التي بدأت في نهاية القرن الرابع عشر .

في جاوه : والآن ، يجب ان نرجع الى وراء قرونا كثيرة ، لنتتبع تاريخ تحول جاوة الى الاسلام . ولا شك ان الدعوة الى مبادئ الاسلام واذاعتها في اهالي هذه الجزيرة ، كانت كلها نتيجة لما قام به افراد من التجار أو من زعماء الجاليات الصغيرة منذ وقت طويل ، فلم يكن في جاوة قوة اسلامية مركزية تشع آثارها في مصلحة الدين الجديد ، او تفرض قبول هذا الدين بالوسائل الحربية . بل على العكس من ذلك ، اصبح دعاة المسلمين في هذه البلاد على ارتباط بالحضارة الهندوكية ، التي كانت قد تغلغلت اصولها في اعماق حياة تلك البلاد ، ورفعت الجاويين الى مستوى عال من الثقافة والرقي ، ويظهر ذلك اكثر وضوحا في تلك النظم والقوانين التي تختلف عن نظم بلاد العرب وقوانينها اختلافا جوهريا . بل لقد اخفقت الشريعة الاسلامية ، الى الآن ، في ان توطد دعائمها توطيدا كاملا ، حتى في الاماكن التي تتغلب فيها سيطرة الاسلام . وهنالك صراع دائم بين انصار عادات الملايو القديمة وجماعة الحاجي ، الذين عادوا بعد ان ادوا فريضة الحج في مكة ، متحمسين متشددين في المحافظة على الشريعة الاسلامية . ومن ثم كان لابد ان يخطو عمل التحول الى الاسلام خطوات بطيئة جدا . ويمكن ان نقول في تأكيد مقبول انه في الوقت الذى نجد فيه ان من الممكن ان نخلص جانبا من تاريخ هذه الحركة التي قامت على نشر

تعاليم الدعوة مما شابه من الاساطير والتقاليد ، نرى لزاما ان يبقى كثير من هذا التاريخ مجهولا لدينا جهلا تاما . ونجد في اخبار الملايو ، التي تفيدنا فيما تمدنا به من وصف لاول الداعين الى هذا الدين ، ان ما كان يدخل ، من غير شك في عمل اجيال كثيرة ، وما كان يجب ان يستمر في خلال قرون شتى ، نراه ينحصر في نطاق سنوات قلائل ، وتكتسب اسماء قليلة معروفة ، كما يحدث غالبا في التواريخ الشعبية ، الشهرة والثقة ، وهي في الحقيقة ترجع الى ما قام به اسلافهم المجهولون من اعمال قوامها الصبر والاناة . زد على ذلك ان الاعمال الهادئة العفة التي قام بها كثير من هؤلاء الدعاة ، لم تكن على الارجح لتسترعي انتباه المؤرخ الذى كان بطبيعة الحال يصوب عنايته اولا وقبل كل شيء الى اعمال الملوك والامراء ومن كان على صلة وثيقة بهم . ونحن اذ نفقد مثل تلك المعرفة العظمى ، لا مفر من ان نرضى بتلك الحقائق التي وصلت الينا .

لذلك نرى ان نورد في الصفحات التالية ، صورة موجزة عن تأسيس الدين الاسلامي في هذه الجزيرة ، كما تصورها الاخبار القومية التي لا شك انها ، على الرغم من امتلائها بالتناقض والخرافات ، تقوم على اساس تاريخي ، ويدلنا على ذلك ما نقش على مقابر الشخصيات الهامة التي ذكرت في هذه الاخبار ، وعلى آثار المدن القديمة ونحو ذلك . لهذا لا بأس من ان نقبل الاخبار الآتية ، مع افتقارها الى دليل يثبت صحتها ، على انها صحيحة في جوهرها ، على ان نأخذ الحذر الذى سبقت الاشارة اليه ، من نسبة آثار فائقة مفرطة الى جهود افراد في نشر تعاليم الدعوة .

كان اول من قام بالمحاولة الاولى لادخال الاسلام الى جاوة ، رجل من اهالي هذه الجزيرة حول نهاية القرن الثاني عشر . وقد ترك

اول ملوك باجاجاران Pajajaran ،وهي ولاية في الجهـــــة الغربية من الجزيرة ، ولدين : اما اكبرهما فقد آثر ان يــــزاول التجارة ،وباشر بعثة تجارية ذاهبة الى بلاد الهند ، تاركا آخـاه الاصغر الذى خلفه على العرش في سنة ١١٩٠ ، وتلقب بلقـــب برابو موندنج سارى Prabo Munding Sari . وفي اثنـــاء تطواف ذلك الابن الاكبر ،لقي بعض تجار العرب ، فدخل فـــي الاسلام على ايديهم ، واتخذ لنفسه اسم حاجي بروا .

ولما عاد الى وطنه ،حاول بمعونة احد دعاة العرب ان يدخـل اخاه والاسرة المالكة في دينه الجديد ولكن جهوده لم تصـــادف نجاحا ، فهرب الى الادغال خوفا من الملك ورعاياه الكفار ولم نسمع عنه شيئا بعد ذلك .

وفي النصف الاخير من القرن الرابع عشر ، تكونت حركة للدعـوة ، نالت نجاحا اعظم ، على يد شخص يدعى مولانا ملك ابراهيم ،وقـد رسا على ساحل جاوة الشرقي مع اخوانه في الدين ، واستقر قريبـــا من بلدة جريسك Gresik ،وهي قبالة جزيرة مادورة . ويقـــال انه كان يرجع نسبه الى زين العابدين احد ابناء احفاد علي ، وانـه كان ابن عم راجه تشر من Chermen . وهنا شغل نفسه فـــي القيام بتحويل الناس الى الاسلام واحرز نجاحا في هذه الســـبيل ، وسرعان ما جمع حوله فئة قليلة من المؤمنين . واخيرا اتصل بابن عمه ، راجه تشر من الذى قدم الى هذه البلاد املا في ان يحول راجــه مملكة ماجاباهيت Majapahit الهندوكي الى الاسلام وان يعقد معه حلفا بعرض زواج ابنته عليه . فلما وصل ارسل ابنه ، صادق محمد الى ماجاباهيت ليحدد وقتا للمقابلة ، على حين شغل هو نفسه ببنـ

مسجد وتحويل السكان الى الاسلام . وكان من اثر ذلك ان تمت مقابلة الاميرين ، ولكن قبل ان يتمكن من موالاة ذلك التأثير الذى بلغوه في ذلك الحين ، تفشى مرض بين شعب راجه تشرمن ، فقضى على ابنته ، وثلاثة من ابناء اخيه ، كان قد صحبهم معه ، وفريقا عظيما من رجال حاشيته ، ومن ثم عاد هو الى مملكته . وقد جعلت هذه الكوارث عقلية راجه ماجاباهيت تتحامل على هذا الدين الجديد ، الذى كان ينبغي ، كما قال هذا الراجه ، ان يكون من الاصوب حماية معتنقيه . وكان من اثر ذلك ان اخفقت البعثة . على ان مولانا ابراهيم تخلف ، ليتعهد مقابر ذويه واخوانه في الدين ، اما هو فقد قضى نحبه بعد ذلك باحدى وعشرين سنة ، وذلك سنة ١٤١٩ ، ودفن في جريسك حيث لا يزال المسلمون يعظمون قبره ويعدونه اول رسل الاسلام الى جاوه .

ويذكر احد مسلمي الصين ، وكان قد صحب سفارة امبراطور الصين الى جاوة في وظيفة مترجم ، قبل موت مولانا ابراهيم بست سنوات ، اي في سنة ١٤١٣ ، قدوم اخوانه في الدين في هذه الجزيرة تحت عنوان " وصف عام لسواحل المحيط " ، حيث يقول : " في هذه البلاد ثلاثة انواع من الشعب : الاول المسلمون الذين جاءوا من الغرب واستقروا هنا ، وزيهم وطعامهم نظيف مناسب ، والثاني الصينيون الذين هربوا واستوطنوا هنا ، وما يأكلون ويستخدمون بديع جدا كذلك ، وكثير منهم قد اعتقدوا الدين الاسلامي وحافظوا على تعاليمه . والثالث الاهالي الذين على جانب عظيم من القبح والفظاظة ، وهم يجيئون ويذهبون حفاة حاسرى الرؤوس ، ويعتقدون في الشياطين في خشوع وتبتل . ولكون بلادهم معروفة بذلك اطلق عليها في كتب البوذية بلاد الشيطان .

والآن نقترب من الفترة التي اصبح فيها لحكم المسلمين السيادة في الجزيرة ، بعد ان تسرب دينهم اليها بما يقرب من قرن . وهنا نرى لزاما ان ندخل في تفصيلات التاريخ ، على نحو اكثر دقة نوعا ما ، لكي نبين ان ذلك لم يكن نتيجة اية حركة قوامها التعصب الديني ، اثارها العرب ، بل نتيجة ثورة قام بها اهالي البلاد انفسهم . الذين (مع انهم بطبيعة الحال اكتسبوا القوة من وراء ارتباطهم برباط دين مشترك) حرضوا على ان يجمعوا كلمتهم لينتزعوا السلطة العليا من ايدى مساكنيهم الوثنيين ، لا بالدعوة الى حرب دينية ، ولكن عن طريق ماوجهه احد المطالبين بالعرش من الطامحين وكان قد لحقه ظلم ، من تحذير وانذار ، فأراد التشفي والانتقام.

ونستطيع ان نصف الحالة السياسية في الجزيرة كما يلي : ـ كانت الامارات الوسطى والشرقية من الجزيرة ، وكانت اكثر الامارات ثروة وعمرانا ، وابعدها تقدما نحو المدنية ، تحت سلطان دولة ماجاباهيت الهندوكية . وفي اقصى الغرب ، نجد تشريبون Cheribon وامارات اخرى كثيرة ، صغيرة مستقلة ، حين كان سائر الجزيرة ، ويشمل كل المقاطعات الواقعة في اقصى حدودها الغربية ، خاضعا لملك باجاجاران .

كان ملك ماجاباهيت قد تزوج من ابنة امير تشاميا Champa وهي ولاية صغيرة في كامبوديا شرقي خليج سيام . ولما كانت تغار من احدى جوارى الملك الحظيات ، بعث الملك بهذه الجارية الى ابنه آريه دمر Arya Damar حاكم بالمبنج Palembang في سومطرة حيث انجبت منه ابنا اسمه رادن بتاه Raden Patah وقد ربي على انه احد ابناء الحاكم . وقدر لهذا الطفل بعد سنوات

(كما سنرى) ان يقدم على انتقام فظيع من جراء المعاملة القاسية التي لقيها من امه . وكانت بنت اخرى من بنات امير تشامبا قد تزوجت من عربي كان قد قدم الى تشامبا للدعوة الى الاسلام . ومن هذا الزواج ، ولد رادن رحمت Raden Rahmat الذى اعتنى والده بتربيته على الدين الاسلامي ، ولا يزال الجاويون يعظمونه باعتباره اعظم رسل الاسلام الى بلادهم ، ولما بلغ العشرين من عمره ، بعث به ابواه ومعه رسائل وهدايا الى عمه ملك ماجاباهيت وفي طريقه ، مكث شهرين في بالمبنج ، ضيفا على اريه دمر الذى كاد ان يقنعه رادن رحمت اعتقاد الاسلام ، الا انه لم يجسر على ان يجهر باسلامه خوفا من الشعب الذى كان متمسكا اشد التمسك بتقاليده القديمة . وواصل رحلته حتى بلغ جريسك حيث رحب به احد دعاة العرب ، واسمه الشيخ مولانا جمادى الكبرى ، باعتباره رسول الاسلام المنتظر الى جاوة الشرقية ، وتنبأ بأن يكون زوال الوثنية على يديه ، وبأن اعماله ستكلل بدخول كثير من الناس في هذا الدين . وقد قوبل في ماجاباهيت بترحاب عظيم ، من ملك تشامبا واميرتها . وعلى الرغم من ان الملك كان نفسه غير راغب في الدخول في الاسلام ، حمل لرادن رحمت مودة واحتراما ، حتى انه عينه حاكما على ثلاثة آلاف اسرة في امبل Ampel على الساحل الشرقي ، على مقربة من جريسك الى الجنوب ، وسمح له بأن يقيم شعائره الدينية ، وان يدخل من يشاء في الاسلام . وبعد وقت قصير ، جذب الى الاسلام معظم هؤلاء الذين كانوا تحت سلطته .

ومنذ ذلك الحين ، كانت امبل مقر الاسلام الرئيسي في جاوه ، وذاعت شهرة الحاكم الذى كان يعمل في حماسة بالغة للدعوة الى

دينه ، وطبقت شهرته الآفاق . ومن ثم قدم الى امبل شخص يدعى مولانا اسحاق ، ليمد له يد المساعدة في تحويل الناس الى هذا الدين ، وعهد اليه في مهمة نشر الاسلام في مملكة بلمبنجن Balambangan في اقصى الحدود الشرقية لهذه الجزيرة .

وهنا شفى ابنة الملك التي كانت مصابة بمرض عضال ، فوهبها ابوها البار زوجة لهذا الشيخ . واعتقدت دين الاسلام وتحمست له ، واباح ابوها لنفسه ان يتلقى تعاليم الاسلام ، ولكنه حين حثه مولانا على ان يجهر بهذا الدين ، كما كان قد وعده ذلك اذا شفيت ابنته على يديه ، طرده من مملكته ، وامر بأن يقتل الطفل الذى كانت بنته توشك ان تضعه . ولكن الام بعثت بالطفل خفية الى جريسك الى ارملة مسلمة غنية ، فربته كأحسن ما تربي الام ابنها ، وعلمته حتى بلغ الثانية عشرة من عمره ، فأسلمته الى رادن رحمت ليتعهده ويرعاه . وبعد ان عرف قصة هذا الطفل ، سماه رادن باكو ، وبعد وقت ، زوجه من ابنته كذلك . بعد ذلك بنى رادن باكو مسجدا في جيرى Giri في الجنوب الغربي من جريسك ، حيث ادخل في الدين آلافا من الناس . وبلغ من عظم نفوذه ان عينه ملك ماجاباهيت بعد وفاة رادن رحمت ، حاكما على امبل وجريسك . وفي هذه الاثناء ، تألفت بعوث دينية كثيرة من جريسك . واستقر ولد رادن رحمت من جهات شتى من الساحل الشمالي الشرقي ، وذاعت شهرتهم بفضل حماستهم الدينية ، وادخال كثير من سكان هذه الجهات في الاسلام . كذلك ارسل رادت رحمت داعيا ، يدعى الشيخ خليفة حسين ، الى جزيرة مادورة المجاورة ، حيث بنى مسجدا وكسب كثيرا من الناس للاسلام .

والآن نرجع الى اريه دمر ، حاكم بالمبنج . ويظهر انه ربى ابناءه على الدين الذى خشي هو ان يجهر به ،وحينذاك ارسل رادن بتاه ،عندما بلغ العشرين من عمره ،مع اخيه في الرضاعة ، رادن حسين ، وكان اصغر منه بسنتين ، الى جاوه حيث نزلا في جريسك . ورفض رادن بتاه ان يصحب اخاه في الرضاعة الى ماجاباهيت ، لانه كان يعلم تمام العلم منبته ونسبه ، ساخطا على المعاملة القاسية التي كانت امه قد لقيتها ، ولكنه بقي في اميل مع رادن رحمت ، على حين واصل رادن حسين سفره الى الحاضرة حيث احتفي به ، ووكل اليه امر مقاطعة من المقاطعات ، واصبح فيما بعد قائد الجيش .

في هذه الاثناء ، تزوج رادن بتاه من حفيدة رادن رحمت ، وكون موءسسة في مكان يدعى بنتره Bintara ، وكان يتميز بقوته الطبعية العظيمة ، في وسط بقعة مليئة بالآجام ، غربي جريسك . ولم يكد يسمع ملك ماجاباهيت عن هذه الجالية الجديدة ، حتى بعث برادن حسين الى اخيه يستقدمه الى الحاضرة ، ويطلب اليه تقديم الطاعة للملك . وقد حمله رادن حسين على ان يفعل ذلك ، فذهب الى البلاط حيث فطن الناس في الحال الى مشابهته الملك ، وحيث قوبل بترحاب ، وعين رسميا حاكما على بنتره . ولما كان لا يزال يتحرق الى الانتقام ويجنح الى تخريب مملكة والده ، عاد الى اميل ، حيث افضى بخططه الى رادن رحمت . وحاول هذا الاخير ان يلطف من غضبه ، مذكرا اياه انه لم يلق قط على يدى ابيه ملك ماجاباهيت ، الا كل لطف ورعاية ، وانه في الوقت الذى كان فيه الامير على جانب عظيم من العدل واكتساب محبة الناس ، ابى عليه

دينه ان يعلن حربا او يلحق به اذى بحال من الاحوال . على ان بتاه لم يقتنع بتلك النصائح (كما يتضح ذلك فيما بعد) ، فعاد الى بنتره ، وكانت في ذلك الحين تزداد أهميتها ويكثر سكانها يوما بعد يوم ، على حين كانت جماعات كبيرة من الاهالي في البلاد المحيطة تدخل في الاسلام . وكان قد وضع خطة لبناء مسجد عظيم ، ولكن بعد ان بدأ بناء هذا المسجد بوقت قصير ،وصلت الاخبار بأن رادن رحمت قد اصيب بداء عياء . فأسرع رادن بتاه الى امبل ، حيث الفى رؤساء الدعوة الى الاسلام يجتمعون حول فراشه ، وينظرون اليه باعتباره زعيما لهم . وكان من بينهم ولدا رادن رحمت ، وقد تقدم ذكرهما ،ورادن باكو الذى كان يقيم في جبرى ، وخمسة اشخاص آخرين . ولفظ رادن رحمت نفسه الاخير بعد ايام قليلة ، فزالت بذلك العقبة الوحيدة الباقية التي كانت تقف في سبيل خطط رادن بتاه الانتقامية ، وصحبه الزعماء الثمانية عائدين الى بنتره حيث اعانوه على اتمام بناء المسجد . وقد اخذوا عهدا على انفسهم ان يساعدوه في محاولته ضد ماجاباهيت . وارتبط الامراء المسلمون جميعا بهذا الحلف ، عدا رادن حسين الذى ظل مخلصا لسيده هو واتباعه جميعا ، وابى ان يدلي بدلوه مع اخوانه في الدين الثائرين .

وتبع ذلك حملة طويلة الامد ، لا حاجة بنا الى الدخول في تفصيلاتها ، ولكن في سنة ١٤٧٨ ، بعد ان نشب قتال مستحر دام سبعة ايام ، هزم ماجاباهيت ، وحلت السلطة الاسلامية محل السيادة الهندوكية في جاوة الشرقية . وبعد ذلك بوقت قصير ، حوصر رادن حسين واتباعه في مكان حصين ، واضطر الى التسليم ،

وسيق الى امبل ، حيث قابله اخوه مقابلة لطيفة . وهرب عدد كبير من الذين ظلوا مخلصين لديانتهم الهندوكية القديمة في سنة ١٤٨١ الى جزيرة بالي ، حيث لا تزال عبادة سيوه هي الديانة السائدة .
ويظهر ان آخرين كونوا ممالك صغيرة بقيادة امراء بيت ماجاباهيت الذى ظل وقتا ما على وثنيته ، بعد ان سقطت قاعدة الهندوكيين الكبيرة .

ولقد ظل اهالي جاوة الوسطى على وثنيتهم وقتا طويلا ، حتى في ظل رؤساء المسلمين ، وكان تقدم الاسلام نحو الجنوب من المراكز الاولى للدعوة على الساحل الشمالي نتيجة عمل قرون . ويتجلى بوضوح تأثير عقيدتهم الهندوكية القديمة حتى الوقت الحاضر ، في الافكار الدينية لاهالي جاوة الوسطى من المسلمين . ومن الادلة الواضحة على تلك الجذور العميقة التي القتها الديانة الهندوكية في هذه الجهة من الجزيرة ، تلك الحقيقة ، وهي ان الرجوع الى كتب القوانين الهندية ومجموعة قوانين مانو بوجه خاص ، لم تتقهقر امام مجموعة القوانين التي كانت اكثر تمشيا مع روح التشريع الاسلامي ، الا في سنة ١٧٦٨ .

دخل الاسلام الى الجهات الشرقية من الجزيرة بعد ذلك بسنوات قلائل ، وربما كان ذلك في اوائل القرن التالي ، بسبب نشاط الدعوة الذى اظهره الشيخ نور الدين ابراهيم احد اهالي تشريبون . وقد كسب لنفسه شهرة عظيمة لشفائه امرأة كانت مصابة بالجذام . وكان من اثر ذلك ان آلافا من الناس جاءوا اليه ليتعلموا شعائر الدين الجديد . وقد حاول من جاوره من الزعماء ان يناهضوا هذه الحركة اول الامر . ولكنهم لما وجدوا ان معارضتهم لا طائل

تحتها سمحوا لانفسهم ان يجروا مع التيار ،ودخل كثير منهم في الاسلام . وارسل الشيخ نورالدين ابراهيم التشريبوني ،ابنه مولانا حسن الدين ،يدعو الى الاسلام في بنتام ، اكثر ولايات الجزيرة انحرافا نحو الغرب ،واحدى ملحقات مملكة باجاجاران الوثنية وهنا تكللت جهوده بنجاح عظيم ، بين الداخلين في الاسلام الذين كانوا طائفة من النساك ،يبلغ عددهم ٨٠٠ وتذكر اخبار هذه الجهة من البلاد ، بنوع خاص ،ان الامير الشاب قد كسب هوءلاء الذين دخلوا في الاسلام على يديه ، بوسائل الاقناع اللطيفة وحدها ، ولبس بحد السيف . بعد ذلك ذهب مع ابيه الى مكة لتأدية فريضة الحج ، وعند عودته ، بسط نفوذه على ساحل سومطرة القريب من بلاده ،دون ان يمتشق سلاحا ، واجتذب الذين دخلوا في الاسلام على يديه بالوسائل السلمية وحدها .

ولكن يظهر ان تقدم الاسلام غربي جاوة كان ابطأ بكثير منه في شرقيها . فقد تبع ذلك ان قام نزاع طويل بين عباد الاله سيبوه واتباع النبي ، ولا يبعد ان تكون مملكة باجاجاران الهندوكية ، التي يظهر انها باشرت السيادة على الامارات في الجهة الغربية من الجزيرة ، في وقت واحد من تاريخ جاوة ، لم تصل الى نهايتها الا في اواسط القرن السادس عشر ، على حين ظلت طوائف وثنية اخرى اقل عددا ،باقية حتى عصر احدث من ذلك بكثير – بل ظل بعضها حتى الوقت الحاضر . ولاحدى هذه الطوائف ، وتسمى البدوى Baduwis ، تاريخ ذو اهمية خاصة . وهم ذرية قوم من اشياع الدين القديم ، هربوا بعد سقوط باجاجاران الى الغابات ومخابيء الجبال ليتمكنوا من موالاة اقامة شعائر دين

وثنيتهم قرونا بعد قيام الممالك الاسلامية في الجزيرة . وجميع اهالي جاوة في الوقت الحاضر مسلمون ،عدا قلة ليس لها شأن يذكر ومع ان كثيرا من الخرافات والعادات قد بقي بينهم من ايام اجدادهم الوثنيين ، لا يزال الميل يتجه دائما الى ارشاد التفكير والسلوك على هدى تعاليم الاسلام . وقد سارت جهود التحويل الى الاسلام تلك المدة الطويلة قدما في هدوء وتدرج ، كما يرجع نمو الولايات الاسلامية في الجزيرة الى تاريخها السياسي اكثر من ان يكون راجعا الى تاريخها الديني ، ذلك ان ما احرزه الدين من تقدم كان نتيجة اعمال الدعاة اكثر من ان يكون نتيجة اعمال الامراء .

وفي الوقت الذي كان مسلمو جاوة يتآمرون على الحكومة الهندوكية ويضعون حكم البلاد في ايديهم بالقوة والعنف ، كانت تدبر ثورة لا تحمل في طياتها الا طابع الهدوء ، في سائر اجزاء الارخبيل ،عن طريق الدعوة الى الاسلام التي قام بها الدعاة الذين كانوا يحرزون نجاحا بطيئا ،ولكنه كان مؤكدا ، فيما بذلوه من جهود في نشر تعاليم الدعوة ولنوجه عنايتنا اولا الى تاريخ حركة الدعاية هذه في جزائر ملوكس .

في ملوكس : ولا بد ان تكون تجارة القرنفل قد ادت الى ارتباط اهل ملوكس بسكان الجزائر في النصف الغربي من الارخبيل منذ ازمان مبكرة جدا ، ونشر الجاويون الذين دخلوا في الاسلام، واهل الملايو الآخرون الذين قدموا الى هذه الجزائر للتجارة ، دينهم بين سكان الساحل . ويرجع رفاق مجلان Magellan هذا الى قصة عجيبة ،عن الطريقة التي ادخل بها هؤلاء الرفاق عقائدهم الدينية بين اهالي ملوكس : " بدأ ملوك هذه الجزائر ، قبل قدوم

اجدادهم . وفي عصور احدث من ذلك ، عندما اذعنوا لحكم سلطان بنتام المسلم ، سمح لهم ان يواصلوا اقامة شعائرهم الدينية ، على شريطة الا يسمح لهم بزيادة الجماعات التي تجهر بالعقيدة الوثنية . ومن الغريب ان يقال انهم لا يزالون يحافظون على هذه العادة ، على الرغم من ان الحكم الهولندى قد توطدت دعائمه في جاوة مدة طويلة ، وانه يحررهم من ضرورة الاذعان لما اتفقوا عليه منذ القدم . وهم يحددون عددهم تحديدا دقيقا ، بحيث لا يتجاوز اربعين اسرة ، فاذا زادت الجماعة على هذا الحد ، وجب على اسرة او اكثر ان يتركوا النطاق الداخلي الذى يقيمون فيه ، ويستقروا بين الاهالي المسلمين في احدى القرى المحيطة بهم .

ولكن على الرغم من ان عمل التحويل الى الاسلام في غرب جاوة كان ابطأ منه في سائر جهات الجزيرة ، كان انتصار الاسلام على العبادة الوثنية التي حل هذا الدين محلها ، اتم منه في المقاطعات التي كانت اسرع في الانضواء تحت حكم راجيات ماجاباهيت ، وانما يرجع ذلك بنوع خاص ، الى تلك الحقيقة ، وهي ان الديانة الهندوكية لم تكن قد تغلغلت بين الشعب في هذه البقعة ، كما تغلغلت في وسط الجزيرة . والشريعة الاسلامية هنا قوة حيوية ، كما ان الحضارة التي جلبت من بلاد العرب الى هذه البلاد ، قد اتسقت مع الحكومة وحياة الشعب . وقد لاحظنا ان مسلمي غربي جاوة في الوقت الحاضر ، وهم الذين يدرسون ديانتهم دراسة تامة ويؤدون فريضة الحج في مكة يؤلفون في العادة ، اشد طبقات الاهالي نجابة ورفاهية .

ولقد رأينا من قبل ان طوائف كبيرة من الجاويين ظلوا على

الاسبانيين بسنوات قليلة يعتقدون خلود الروح ،ولم يقتنعوا الا بحجة واحدة ،وهي انهم كانوا قد رأوا طائرا صغيرا رائع الجمال لا نظير له على الارض ، ولا على اى شيء يتعلق بالارض . وقد اخبرهم المسلمون الذين كانوا يزاولون التجارة في هذه الجزائر ،ان هذا الطائر الصغير قد ولد في الجنة ، وان هذه الجنة هي المكان الذى تستريح فيه ارواح الموتى . ولهذا السبب ،انضم السادة الى طائفة المسلمين لانها تعدهم اشياء كثيرة عجيبة في هذا المكان الذى تستريح فيه الارواح .

ويظهر ان الاسلام بدأ يحرز تقدما لاول مرة في هذه البقعة في القرن الخامس عشر . وقد اذعن ملك تيدور الوثني لما قدمه اليه عربي يدعى الشيخ منصور من اقناع ،واعتقد الاسلام مع كثير من رعاياه. وابدل باسم الملك الوثني ، تجيريلي ليجاتو Tjireli Lijatu اسم جمال الدين ، كما سمى اكبر ابنائه منصورا على اسم معلمهم العربي . وكان هذا الامير الاخير هو الذى اكرم وفادة البعثة الاسبانية التي وصلت الى تيدور في سنة ١٥٢١ ، بعدان لاقى مجلان حتفه المشئوم بزمن قصير . ويسميه بيجافتا ، مؤرخ هذه البعثة ، باسم ريا سلطان موزور Raia Sultan Mauzor ويقول ان عمره كان يزيد على خمس وخمسين سنة ، وانه لم يمض اكثر من خمسين سنة على قدوم المسلمين للاقامة في هذه الجزائر .

ويظهر ان الاسلام قد رسخت قدمه في جزيرة ترنات المجاورة قبل ذلك بوقت قصير . فقد اخبر سكان هذه الجزيرة البرتغاليين ، الذين قدموا الى هذه الجزيرة في نفس السنة التي وصل فيها الاسبان الى تيدور ، ان الاسلام كان قد دخل في بلادهم منذ اكثر من ثمانين سنة بزمن وجيز .

ويروى البرتغاليون كذلك ، ان سلطان ترنات كان اول زعماء ملوكس الذين اصبحوا مسلمين . وتحكي اسطورة دخول الاسلام الى هذه الجزيرة كيف اثار احد التجار ، ويدعى داتو ملا حسين ، حب الاستطلاع في نفوس الشعب عند ما رأوه يتلو القرآن بصوت عال على مشهد منهم . وقد حاولوا تقليد الحروف المكتوبة في المصحف ، ولكنهم عجزوا عن قراءتها ، فسألوا التاجر كيف تمكن من قراءتها ، على حين عجزوا هم عن ان يفعلوا ذلك . فأجاب ان من الواجب عليهم اولا ان يوءمنوا بالله ورسوله . ومن ثم اعربوا عن رغبتهم في قبول تعاليمه ، وانتهوا الى الدخول في العقيدة . وقد قيل ان سلطان ترنات الذى تبوأ ارفع مكانة بين الحكام المستقلين في هذه الجزائر ، قام برحلة الى جريسك في جاوة ، ليعتقد الدين الاسلامي هناك في سنة ١٤٩٥ ، وقد ساعده فيما بذل من جهود لنشر الدعوة شخص يدعى بتاه Pati Putah ، وكان قد قام برحلة من هيتو في امبوينا الى جاوة ليتعلم عقائد الدين الجديد ، وينشر معارف الاسلام بين شعب امبوينا بعد عودته . على انه يظهر ان الاسلام لم يخط اول الامر نحو التقدم الا خطوات بطيئة ، وانه لقي معارضة كبيرة من سكان هذه الجزائر ، الذين تشبثوا بخرافاتهم واساطيرهم القديمة في حماسة وغيرة ، حتى ان الوثنية القديمة ظلت فترة من الزمن مشوبة بتعاليم القرآن ، جاعلة عقول الشعب في حالة مستمرة من القلق كذلك جعلت غزوة البرتغاليين تقدم الاسلام ابطأ مما قد يكون لو ان هذه الغزوة لم تحدث . فقد طردوا القاضي ، الذى وجدوه يفقه الناس في عقائد محمد ، ونشروا المسيحية بين الاهالي الوثنيين ، ولقوا في ذلك شيئا من النجاح ، وان كان قصير الامد . ذلك انه عند ما

استغل اهل ملوكس انصراف البرتغاليين الذين اشتغلوا بمتاعبهم الوطنية الخاصة ،في النصف الاخير من القرن السادس عشر ، وحاولوا التخلص من سلطانهم ، دبروا اضطهادا عنيفا في وجه المسيحيين الذين استشهد كثير منهم ، وارتد آخرون منهم عن ديانتهم ، حتى لم يعد للمسيحية ذلك الشأن الذي كان لها من قبل . ومنذ ذلك الحين ، هيأت مناهضة سلطة المسيحيين صدرا ارحب لقبول المعلمين المسلمين الذين جاءوا من الغرب في جموع تزداد شيئا فشيئا . وقد اجهز الهولنديون على المسيحية في ملوكس بطرد الاسبان والبرتغاليين من هذه الجزائر في القرن السابع عشر ، ومن ثم حمل الاباء اليسوعيون البقية الباقية القليلة من مسيحيي ترنات معهم الى جزائر الفيليبين .

ومن هذه الجزائر ، انتشر الاسلام في سائر ملوكس ، مع ان الذين دخلوا في الاسلام كانوا مقصورين فترة من الزمن على سكان الساحل . وقد جاء معظم الذين دخلوا في الاسلام من بين سكان الملايو الذين يوءلفون جميع اهالي الجزائر الصغرى ، ولكنهم يسكنون في الاراضي الساحلية ، من الجزائر الكبرى وحدها ، على حين يسكن الالفور Alfurs في المناطق الداخلية . ولكن الذين دخلوا في الاسلام في عصور حديثة قد اخذوا من بين هوءلاء الالفور كذلك . بل كان هنالك في عهد مبكر جدا ، في سنة ١٥٢١ ، ملك مسلم لولاية جيلولو Giloio على الجانب الغربي من الطرف الشمالي لجزيرة هلماهيرا . وفي ازمان حديثة ، ادى وجود قوانين خاصة ، سنت لمصلحة دين الدولة ، الى تسهيل تقدم الدين الاسلامي ، الى حد ما ، بين الالفور الساكنين في المناطق الكبرى ، من هذه القوانين انه اذا ثبت ان اى فرد منهم كان يعاشر فتاة مسلمة معاشرة

غير شرعية ، وجب عليه ان يتزوجها ، وان يدخل في الاسلام ، وان اية امرأة من الالفور تتزوج من مسلم وجب ان تعتقد دين زوجها . وقد يكفر المرء عما يقترف من آثام يعاقب عليها القانون ، بالتحول الى الاسلام . واذا اريد شغل منصب شاغر من مناصب الرؤساء ، فانه لا ينظر الى مؤهلات المرشح القانونية ، بقدر ما ينظر الى استعداده لاعتناق الاسلام .

في بورنيو : وعلى هذا النحو ، ينحصر المسلمون في بورنيو غالبا على الساحل ، مع ان الاسلام قد كسب نفوذا في الجزيرة في عهد مبكر ، اعني في مستهل القرن السادس عشر وحول هذا الوقت ، اعتقد هذا الدين شعب بنجرماسين Banjarmasin ، وهي مملكة على الجانب الجنوبي ، كانت خاضعة لمملكة ماجاباهيت الهندوكية ، حتى دالت في سنة ١٤٧٨ . ويرجع الفضل في دخولهم في الاسلام الى احدى الولايات الاسلامية التي قامت على انقاض مملكة ماجاباهيت . والقصة هي ان شعب بنجرماسين طلب المساعدة لقمع احدى الثورات ، وان هذه المساعدة قدمت لهم على شريطة ان يعتقدوا الدين الجديد ، ومن ثم قدم عدد من المسلمين من جاوة ، وقضوا على الثورة ، وعملوا بهذا الشرط فتحولوا الى الاسلام . وعلى الساحل الشمالي الغربي ، وجد الاسبان ملكا مسلما في بروناى Brunai ، عندما بلغوا هذا المكان في سنة ١٥٢١ . وبعد ذلك بقليل ، اعني في سنة ١٥٥٠ ، دخل الاسلام الى مملكة سوكدنه Sukadana ، في الجانب الغربي للجزيرة ، على ايدى العرب الذين جاءوا من بالمبنج في سومطرة . وابى الملك الحاكم ان يترك دين آبائه ، ولكن يبدو ان الدين الجديد ، في غضون الاربعين سنة التي انقضت قبل موته (في سنة ١٥٩٠) قد احرز

تقد ما كبيرا ، واصبح خليفته على العرش مسلما ، وتزوج بنت امير من امراء الجزيرة المجاورة ، التي كان الاسلام فيها قد توطدت دعائمه توطدا ظاهرا منذ وقت طويل ،ويتحدث رحالة في عهده ، زار الجزيرة في سنة ١٦٠٠ عن الاسلام باعتباره الدين الشائع على طول الساحل . على ان سكان المنطقة الداخلية ، كما يخبرنا ، كانوا جميعا وثنيين — واكثرهم في الواقع لا يزال في وثنيته حتى الوقت الحاضر . ويظهر ان تقدم الاسلام في مملكة سوكدنة قد لفت الآن انظار مركز العالم الاسلامي الى تلك البقعة النائية ، وفي عهد الاخير الذى خلفه ، قدم شخص يدعى الشيخ شمس الدين من مكة يحمل هدية تتألف من نسخة من القرآن ، وخاتم موصع بحجر يمني كبير ، مع كتاب ذكر فيه ان هذا الذائد عن الدين ، قد منح لقب شرف سلطان محمد صفي الدين .

وفي النصف الاخير من القرن الثامن عشر ، قيل ان احدى القبائل التى تسكن في الداخل ، وتسمى قبيلة ايدان Idaans وكانت تقطن في المنطقة الداخلية من شمال رورنيو ، كانت تنظر الى مسلمي الساحل نظرة ملوءها الاحترام والتقدير ، باعتبار انهم يعتقدون ديانة لم يدن بها افراد هذه القبيلة انفسهم . ويخبرنا دلرايمبل Dalrymple ، الذى استقى معلوماته عن قبيلة ايدان التي تقيم في بورنيو ، في اثناء زيارته الى سولو Sulu من سنة ١٧٦١ الى ١٧٦٤ ، ان افراد هذه القبيلة " يكنون اسفا صادقا على جهالتهم ،وفكرة وضيعة عن انفسهم لهذا السبب عينه ، ذلك انهم ،عندما كانوا يأتون الى دور المسلمين او سفنهم ، تراهم يظهرون لهم اشد الوان التبجيل والاحترام ، باعتبارهم ذوى

عقول اسمى من عقولهم ،ولانهم يعرفون خالقهم . وهم لا يجلسون في المكان الذى ينام فيه المسلمون ، ولا يضعون اصابعهم في نفس التشونان اوعلبة الفلفل ، ولكنهم يأخذون قليلا منها في خضوع بالغ ، وهم ، في كل مثال ، يعبرون ، بأشد ميولهم واشاراتهم ضعة وحقارة ، عما يضمرونه من تعظيم للاله الذى لا يعرفونه ، بما يظهرونه من احترام وتوقير لهوءلاء الذين عرفوا ذلك الاله ". ويلوح ان هذا الشعب قد اعتقد الاسلام منذ ذلك الحين ، وهذا من الشواهد الكثيرة التي تدل على التأثير القوي الذي احدثه الاسلام في القبائل التي بلغت احط درجات المدنية . وقد تحدث حالات من الدخول في الاسلام ، من حين الى حين ، بين الجاليات المختلفة ، كالعرب ،والبوجي Bugis ، واهالي الملايو ، والصينيين (الذين كانوا قد استوطنوا هذه البقاع منذ القرن السابع) والعبيد الذين دخلوا الى هذه الجزيرة من اقطار مختلفة ، حتى ان مسلمي بورنيو في الوقت الحاضر ، يكونون جنسا خليطا من كثير من العناصر . وكان كثير من هوءلاء الغرباء لا يزالون على وثنيتهم ، عندما قدموا لاول مرة الى بورنيو ، وكانوا ارقى حضارة من قبائل الدياك Dyaks الذين غزاهم هوءلاء الغرباء ،وطردوهم الى الداخل حيث لا يزال السواد الاعظم منهم على وثنيته ، اللهم الا في الجانب الغربي للجزيرة ، حيث تعتقد الاسلام قبائل قليلة العدد من الدياك من حين الى حين . وعندما كان الوثنيون من قبائل الدياك يغيرون عقيدتهم ، كان الاعم الاغلب انهم كانوا اكثر خضوعا للموءثرات الاسلامية ، منهم للتبشير المسيحي ، او كانوا يدخلون اولا في المسيحية ، ثم يتحولون الى الاسلام ،ويبذل المسلمون

جهودا تنطوى على الحماسة ، لاكتساب الداخلين في الاسلام من بين الديانك الوثنيين والمسيحيين على سواء .

في سليبيس : على هذا النحو ، نجد الدين الاسلامي ينمو نموا بطيئا في جزيرة Celebs ، بعد ان نبت بين سكان الساحل ،وشق طريقه ببطء نحو الداخل . على انه لم يعتقد الاسلام الا الجانب الارقى مدنية من السكان . وينقسم هذا الجانب الى قبيلتين : قبيلة مكسر Macassar والبوجي Bugis الذين يسكنون في الجنوب الغربي من شبه الجزيرة ، هذا الى ان البوجي كذلك ، يكونون نسبة كبيرة من اهالي الساحل في اشباه الجزائر الاخرى . ولا يزال الاهالي الذين يقيمون في داخل الجزيرة على وثنيتهم ،عدا الجنوب الغربي لشبه الجزيرة ، حيث يعتقد الاسلام جميع السكان تقريبا ، واكثر سكان الداخل من الالفور ، وهم شعب منحط في مستوى الحضارة ،ويكون السواد الاعظم من سكان الشمال والشرق والجنوب الشرقي من اشباه الجزائر . وفي اقصى اول اشباه الجزائر هذه ، اى في ميناهسا Minahassa ، دخل الناس في المسيحية في جموع كبيرة ،ولم يشق المسلمون طريقهم الى هذه البقعة الا بعد ان رسخت اقدام البرتغاليين في هذه الجهة من الجزيرة ، ونجد الالفور الذين حولهم البرتغاليون الى الكاثوليكية الرومانية ، ينقلبون بروتستانتيين على يد الهولنديين ، الذين قام مبشروهم بأعمالهم في ميناهسا ،ولقوا نجاحا عظيما جدا في هذه السبيل . ولكن الاسلام يشق طريقه في بطء بين القبائل الوثنية من الالفور في جهات شتى من الجزيرة ، سواء في المقاطعات التي تديرها الحكومة الهولندية مباشرة ، او في تلك التي كانت تحت ظل

حكم الروءساء الوطنيين . وعندما زار البرتغاليون الجزيرة لاول مرة ، حول سنة ١٥٤٠ ، لم يجدوا الا قليلا من الغرباء المسلمين في جوا Gowa ، قاعدة مملكة مكسر ، وكان اهلوها لم يدخلوا في الاسلام بعد . ولم يأخذ الناس في الدخول في الاسلام بصفة عامة الا في مستهل القرن السابع عشر ، وتاريخ هذه الحركة ذو اهمية خاصة ، لاننا نلتمس فيها احدى الحالات القليلة ، التي كانت تتنافس فيها المسيحية والاسلام لاكتساب ولاء الشعب الوثني . من ذلك ما يقصه مصنف قديم عن احدى حوادث هذا النزاع بطريقة الاعجاب :

" ينظر البرتغاليون الى كشف قطر على هذا النحو من الاهمية ، على انه مسألة ذات شأن عظيم ، وقد اتخذت التدبيرات لكسب عواطف هوءلاء القوم الذين وجد ان غزوهم امر ليس من السهولة بمكان ، على انهم كانوا ، من جهة اخرى ، على استعداد لان يقبلوا المعروف ، وينقلبوا قوما صالحين ، كخلفائهم ، بالمعاملة الطيبة . كان الشعب اشجع بل احسن فهما وادراكا من السواد الاعظم من الهنود . ولذلك اخذوا بوجه عام يدركون ، بعد مناقشة قصيرة مع الاوربيين ، ان دياناتهم خالية من اى معنى او مغزى ، ولم يكن قليل منهم ، ممن كان قد دخل في المسيحية برعاية دون انطونيو جلفانو Don Antonio Glavano (حاكم ملوكس) ، قد عرفوا تعاليم المسيحية معرفة كاملة ، بحيث يتسنى تعليمهم دينا جديدا . على ان الشعب بأسره ، قد انكر خرافاته القديمة على وجه العموم ، واصبح يوءمن بالله دفعة واحدة . ولكنهم لم يقنعوا بذلك ، فقرروا ان يرسلوا ، في وقت واحد ، الى ملقه يطلبون قساوسة المسيحيين ، والى اتشين يطلبون ائمة في الشريعة الاسلامية ، وعقدوا النية على

ان يعتقدوا ديانة اول من يقدم عليهم من الذين ارسلوا اليهم . ولكن يظهر ان دون رويس بريرا Don Ruis Perera الذى كان حاكم ملقه في ذلك الحين ،كان يعوزه بعض الاهتمام بشئون الدين ، ان احدث تأخيرا كبيرا لا مبرر له ، في ارسال القساوسة المطلوبين . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى ، لم تكد ملكة اتشين ،وهي مسلمة متعصبة ، تتلقى خبرا عن استعداد اهالي جزيرة سليبيس وميلهم ، حتى بادرت الى ارسال سفينة مملوءة بأئمة الشريعة ،الذين وطدوا دعائم دينهم بين سكان الجزيرة توطيدا قويا في زمن قصير ،وبعد فترة من الزمن قدم القساوسة المسيحيون ، وحقروا من شأن الشريعة الاسلامية تحقيرا مريرا ، ولكن دون جدوى ، فقد اختار اهالي سليبيس ديانتهم ،ولم يعد في الامكان حملهم على تغييرها . والحق ان احد ملوك الجزيرة ، وكان قد اعتقد المسيحية من قبل ، تشبث بدينه ، وتحول معظم رعاياه اليه ،ولكن السواد الاعظم من اهالي سليبيس ظلوا مسلمين ،وهم كذلك الى اليوم ، كما انهم اشد حماسة لدينهم من اهالي اية جزيرة من جزر الهند الشرقية " .

وقد قيل ان هذه الواقعة حدثت في سنة ١٦٠٣ ، وان كثرة الاشارة اليها في الآداب المعاصرة تجعل الشك في صحتها التاريخية امرا محالا . وفي ولاية تلو الصغيرة Tallo ، شمالي جوا ، التي كانت دائما حليفة لها ، لا يزال يرى ضريح احد مشاهير الدعاة الى مكسر ، واسمه خطيب تونجال . وقد برهن امير هذه الولاية ، على انه اشد ابطال الدين الجديد حماسة وغيرة ، وعن طريق نفوذه ، اعتقد الاسلام ، كل القبائل التي تتكلم لغة مكسر على وجه الاجمال . ولم تكن نتيجة هذه الحركة ذات طابع سلمي بحت ، فقد انجرف

اهالي مكسر في تيار حماستهم لدينهم الذى اعتقدوه حديثا ، ليقوموا بمحاولة لفرضه على جيرانهم من البوجي . وعرض ملك جوا على ملك بوني Boni ان يعتبره مماثلا له من جميع الوجوه لو انه عبد الاله الحقيقي وحده . وشاور ملك بوني شعبه في الامر فقالوا له : " لم نحارب بعد ، ولم ننهزم بعد " . وقد ذاقوا عاقبة الحرب ، وحلت بهم الهزيمة . وكان من اثر ذلك ان اعتقد الملك الاسلام ، واخذ من ناحيته يحاول ان يفرض عقيدته على رعاياه ، كما حاول ان يفرض هذه العقيدة على ما جاوره من الولايات الصغيرة ، بالقوة والاكراه . ومن الغريب ان يقال ان الشعب طلب معونة ملك مكسر ، فأرسل رسلا يطلبون الى ملك بوني ان يجيب عن الاسئلة الآتية : — هل فعل الملك ما فعله من الاضطهاد بوحي خاص من النبي ؟ — ام فعل ذلك تلبية لنداء عادة قديمة ؟ — ام فعل ذلك جريا وراء لذته الخاصة ؟ فان كان السبب الاول ، فان ملك جوا يتوق الى معرفة تفصيل ذلك ، وان كان السبب الثاني ، فسوف يمد اليه يد المساعدة باخلاص ، وان كان السبب الثالث ، فعلى ملك بوني ان يكف ، لان هؤلاء الذين ظن انه يظلمهم ، انما هم اصدقاء جوا . ولم يجب ملك بوني عن شيء من هذه الاسئلة ، وسير اهالي مكسر جيشا عظيما الى تلك البلاد ، وتغلبوا عليه في ثلاث معارك متتالية ، وارغموه على مغادرة البلاد ، وحولوا بوني الى امارة . وبعد ان ظل شعب بوني خاضعا ثلاثين عاما ، رفعوا لواء العصيان في وجه مكسر بمساعدة الهولنديين ، وادعوا زعامة قبائل سليبيس ، بدلا من سادتهم السابقين . ولا شك ان الدعوة الى الاسلام كانت تسير بين البوجي فيما يظهر تدريجيا وفي بطء ، ولكن لم يكادوا يعتقدون الدين

الجديد حتى اثار هذا الدين ،فيما يظهر ، روح العمل فيهم ، كما اثار العرب من قبل (ولو ان هذا النشاط الذى اوقظ حديثا في كل من هاتين الحالتين كان يتحول الى اتجاهات مختلفة كل الاختلاف) ، وخلق منهم القوم الذين نراهم الآن قوما كانوا من قبل اشجع الناس ، واكثر سكان الارخبيل مزاولة للتجارة واشتغالا في الملاحة . فهم يشقون طريقهم بسفنهم التجارية ، الى كافة انحاء الارخبيل ، من ساحل غينا الجديدة الى سنغافورة ، وقد ادخلت جالياتهم المتنوعة ،التي ميزت قبائل البوجي انفسهم في تكوين هذه الجاليات تمييزا خاصا ، دين الاسلام الى كثير من الجزائر الوثنية : مثال ذلك ، ان احدى مستعمراتهم كانت موءسسة في ولاية تنبسط على جزء كبير من ساحل فلورز الجنوبي حيث احرزوا النجاح ، بعد ان اختلطوا بالاهالي الاصليين ، الذين كان جانب منهم يتألف من الرومان الكاثوليك ، في تحويل كل سكان هذه الولاية الى الاسلام.

كذلك ربط البوجي في بلادهم الاصلية ، جزيرة سليبيس ، بين الجهود في نشر تعاليم الدعوة ، واعمالهم التجارية ،وقد نجحوا في مملكة بولانج مونجندو Bolaang - Mongondou في شبه الجزيرة الشمالي في خلال القرن الحالي ، في ان يضموا الى الاسلام عددا من الاهالي المسيحيين الذين يرجع تاريخ تحولهم الى الاسلام الى نهاية القرن السابع عشر . وكان اول ملك مسيحي لمملكة بولانج — مونجندو يعقوب منوبو Jacobus Manopo (١٦٨٩—١٧٠٩) ، وفي عهده انتشرت المسيحية انتشارا سريعا ، بسبب نفوذ شركة الهند الشرقية الهولندية ، وتبشير رجال الكنيسة من الهولنديين . وكان جميع خلفائه مسيحيين حتى سنة ١٨٤٤ ، عندما اعتقد الاسلام الراجه

الحاكم في ذلك الحين واسمه يعقوب مانويل منوبو ، وكان دخوله في الاسلام بداية سلسلة من الجهود في نشر تعاليم الدعوة ، التي كانت قد احرزت تقدما منذ بداية هذا القرن . ذلك انه حدث حول ذلك الوقت ، ان الجهود الحماسية التي قام بها بعض تجار المسلمين ـ البوجي وغيرهم ـ قد ظفرت بفريق تحولوا الى الاسلام في احدى المدن الساحلية لمملكة مونجندو الجنوبية . ومن هذه المدينة ذاتها ،اخذ داعيان من التجار ، يقال لهما حكيم بجوس وامام تويكو ، ينشران دينهما في سائر انحاء هذه المملكة . وكان اول ماقاما به ، ان ادخلا في الاسلام بعض العبيد ، والنساء الوطنيات اللائي تزوجوا منهن . وقد حث هؤلاء اصدقاءهم واقاربهم على اعتقاد الدين الجديد شيئا فشيئا . ومن مونجندو انتشر الاسلام الى مملكة بولانج الشمالية . وفي هذه البقعة ، في سنة ١٨٣٠ ،كان الاهالي جميعا اما مسيحيين او وثنيين ،عدا جاليتين او ثلاثا من المسلمين . ولكن سرعان ما احرز دعاة الاسلام المتحمسون من البوجي والعرب الذين ساعدوهم على اداء اعمالهم الخاصة بنشر الدعوة ، نجاحا واسع النطاق ،ولم يتسلح المسيحيون الذين كانت معرفتهم بعقائد دينهم تافهة للغاية ، والذين كان ايمانهم ضعيفا جدا ، تسلحا تاما بأسلحة الجدل لكي يواجهوا هجمات العقيدة المنافسة . ولما كانت الحكومة الهولندية تنظر الى هؤلاء المسيحيين نظرة الاحتقار ، ورؤساء الكنيسة يهملون من شأنهم ويكادون ينبذونهم ، بدءوا يتطلعون الى هؤلاء الغرباء ،الذين تزوج بعضهم من نسائهم واستقروا بينهم ،واصبحوا اصدقاءهم . ولما تقدمت مهمة التحويل الى الاسلام في تلك البلاد ، اصبح تردد هؤلاء البوجي والعرب عليها

اكثر — وكان من قبل نادر الوقوع — كما اصبح نفوذهم في تلك البلاد يزداد زيادة كبيرة جدا ، حتى لقد بلغ من عظمه ان تزوج عربـــي ، حول سنة ١٨٣٢ ، ابنة الملك كورنيليوس منوبو Cornilius Manopo وكان يدين هو نفسه بالمسيحية . وحول هذا الوقت نفسه هجر كثيـر من الروساء ، وفريق من اعظم الناس نفوذا بينهم ، دين المسيحيـة واعتقدوا الاسلام . وعلى هذا النحو ، كان الاسلام قد توطـدت اركانه في مملكته ، قبل ان يصبح الراجه يعقوب مانويل منوبو مسلمـا في سنة ١٨٤٤ . وكان هذا الامير قد طلب مرارا الى السلطـات الهولندية في مندو Manado ان تعين خلفا ليعقوب بستيان ، المعلم المسيحي — الذى كان موته خسارة فادحة للطائفـة المسيحية — ولكن دون جدوى . ولما علم من نائب الحكومة الهولندية في مندو انها على حياد تام من حيث ديانة الشعب ، وانه لا يعنيها ان يكون شعب ولايته مسيحيين او مسلمين ، ماداموا مخلصيـن ، صرح امام الملأ انه قد اصبح مسلما ، وحاول كل وسيلة لحمل رعيتـه على الدخول في هذا الدين نفسه . واستغل احد دعاة العرب وقوع زلزال شديد في السنة التالية ، فتنبأ بخراب بولانج مونجنـدو ، اذا لم يبادر شعبها الى الدخول في الاسلام . وهرع كثيـرون من فزعهم الى اتباع هذه النصيحة ومد الراجه واشرافه يد المساعدة للدعاة وتجار العرب ، الذين لم يكونوا على الدوام يستخدمون أرق الوسائل وانبلها في معاملة الذين تراخوا عن هذا الدين . على ان نصف الاهالي تقريبا لا يزالون على وثنيتهم ، وان كان تقدم الاسلام بينهم ، على بطئه ، مستمرا في صورة موكدة .

ولا يبعد ان تكون جزيرة سمبوا Sambawa القريبـة كذلك ، قد تلقت معرفتها بهذا الدين من سليبيس ، عن طريـق

الدعوة التي قام بها الدعاة من مكسر بين سنتي ١٥٤٠ و ١٥٥٠ .
وان جميع السكان الذين نالوا حظا ارقى من المدنية والحضارة مؤمنون صادقون ،ويقال انهم اشد تمسكا في اقامة فرائضهم الدينية من اى شعب من الشعوب الاسلامية التي تجاورهم . ويرجع ذلك بنوع خاص الى حركة تجديدية بعثها شخص يدعى حاجي على ، بعد انفجار جبل تمبورا في سنة ١٨١٥ ، تلك الكارثة المفزعة التي نجمت عن ذلك فاستغلت لاثارة الشعب على ان يحافظوا على مبادىء دينهم على نحو اقوى ، وان يهتدوا الى حياة اكثر ورعا وتدينا . ولا يزال الاسلام في الوقت الحاضر يوالي اجتذاب مسلمين جدد في هذه الجزيرة .

كذلك يرجع الفضل في تحويل السسك Sasaks الذين يسكنون في جزيرة لمبوك Lombok المجاورة الى الاسلام ، الى الدعوة التي قام بها البوجي ، الذين يكونون مستعمرة كبيرة في هذه البقعة ، وقد قدموا اما عن طريق عبور المضيق من سمبوا ، او من سليبيس رأسا ومهما يكن من شيء ، فان التحويل الى الاسلام ،فيما يظهر ، قد حدث بطريقة سلمية ، وينقسم اهالي لمبوك قسمين متميزين ، السسك والبلينيون . اما الجماعة الاولى ، وهم عبارة عن السسك المسلمين ، سكان الجزيرة الاصليين ، فانها تفوق الجماعة الثانية عددا ، الا انهم اصبحوا ، حول منتصف القرن الثامن عشر ، تحت حكم البلينين ،وسرعان ما وجدوا افواجا من جيرانهم الهندوكيين يجتاحون جزيرتهم . وكان حكم البلينيين جائرا للغاية ،وقد بذلوا جهودا — لم تصادف نجاحا كبيرا — لحمل رعاياهم المسلمين على اعتقاد الديانة الهندوكية . وحاول السسك ، دون جدوى ، ان يتخلصوا من نير هؤلاء الحكام الجائرين ، ولجئوا الى الحكومة الهولندية اكثر من مرة ، قبل

ان تجلب حملة سنة ١٨٩٤ تباشير السلام الى الجزيرة ، وان تقيم ادارة منظمة في ظل الحكم الهولندى . وقد جلبت الحكومة الجديدة معها عددا كبيرا من الموظفين الوطنيين من المسلمين ، الذين يستخدمون نفوذهم في مصلحة دينهم ، ومن ثم كان من المتوقع ان تكون احدى نتائج الغزو الهولندى للمبوك ، امداد الاسلام بروح قوية دافعة في هذه الجزيرة .

في الفيلبين : ونجد في جزائر الفلبيين صراعا بين المسيحية والاسلام لكسب ولاء السكان ، وهذا الصراع يشبه في طابعه ما حدث في سلبيبس الى حد ما ، الا انه اكثر عنفا وشدة ، فقد اشتبك فيه الاسبان والمسلمون في نزاع عنيف دام ، حتى القرن التاسع عشر . وليس من المحقق ان نقف على الزمن الذى وصل فيه الاسلام الى هذه الجزائر لاول مرة . وتصور لنا اخبار مندناو Mindanao ، ان الاسلام دخل الى هذه الجزائر من جوهور Johore ، في شبه جزيرة الملايو ، على يد شخص يدعى شريف كابونجسوان ، الذى استقر مع عدد من الاتباع في الجزيرة ، وتزوج هناك . ويقال انه ابى ان ينزل الى الشاطيء حتى يعده هوءلاء الذين قدموا للقائه عند وصوله ، ان يعتقدوا الاسلام . وتوحي هذه الاخبار القديمة بان نزول كابونجسوان على الشاطيء ، ودخول شعب مندناو في الاسلام قد حدث اول الامر في غاية الهدوء والسكينة . ولكنه ، ان وطد سلطته ، اخذ يغزو من جاوره من الزعماء والقبائل ، فعبلوا ديانته عندما انعنوا لسلطانه . وقد وجد الاسبان ، وكانوا قد اهتدوا اليهم في سنة ١٥٢١ ، ان اهالي الجزائر الشمالية قوم همج يعبدون رموزا ساذجة من الاوثان ، على حين وجدوا قبائل

اسلامية اكثر رقيا وحضارة ، في جزائر مندناو وسولو . وقد قاوم اهالـي سولو على وجه الاجمال ،كل الجهود التي يبذلها المسيحيون فـي الغزو والتبشير ، حتى نهاية القرن التاسع عشر ، مقاومة ناجحة ، الى حد ان المبشرين الاسبان يئسوا من الاستمرار في القيام باعمـال التبشير . ويرجع نجاح الاسلام الى حد بعيد ، اذا ووزن بالمسيحية الى الصورة المختلفة التي عرضت بها هاتان الديانتان على اهالـي هذه البلاد . وقد انطوى اعتقادهم المسيحية على فقد الحريـة السياسية كلها ، والاستقلال القومي ،ومن هنا اصبح الناس ينظـرون اليها على انها رمز العبودية . وقد قدر للوسائل التي اتخذهـا الاسبان لنشر دينهم ان تجعل هذا الدين منذ البداية غير محـبب لدى الشعب . وكان عنفهم وتعصبهم على طرفي نقيض مع سلـوك التسامح الذى ظهر به دعاة المسلمين ، الذين تعلموا لغة الشعب، وانتحلوا عاداته ،واصهروا اليه . وبفنائهم في عامة الشعب . لم يدعوا لانفسهم كافة الحقوق التي تقتصر على جنس متميز عن سائر الاجنـاس ، ولا رموا الاهالي بأنهم في مستوى طبقة منحطة . هذا من جهـة ومن جهة اخرى ، كان الاسبان يجهلون لغة الاهالي وعاداتهـم واحوالهم ،وقد ادى فساد اخلاق هؤلاء الاسبان ، بل شحهـم وجشعهم ، الى جعل دينهم مبغضا الى النفوس ،كما كان المقصود من نشر دينهم استخدامه اداة لتقدمهم السياسي . لهذا فانه ليس من العسير ان ندرك المعارضة التي اظهرها الاهالي ازاء دخول المسيحية التي لم تصبح في حقيقة الامر الا ديانة الشعب في تلك الجهات حيث كان السكان من الضعف ،او كانت الجزيرة من الصغر ، بحيث مكنـوا الاسبان من اخضاع البلاد اخضاعا تاما . ولم يكن بد من ان يرغـ

المسيحيون من الاهالي ، بعد دخولهم في المسيحية ، على اداء واجباتهم الدينية خوفا من العقاب ، كما انهم عوملوا معاملة اطفال المدرسة سواء بسواء . وكانت مملكة مندناو الاسلامية ، حتى زمن احتلال الامريكيين جزائر الفيليبين ، ملجأ لهؤلاء الذين رغبوا في التخلص من الحكومة المسيحية البغيضة . وقد كونت جزيرة سولو ، كذلك ، مع انها دخلت اسميا في حوزة الاسبان منذ سنة ١٨٧٨ مركزا اسلاميا آخر مناهضا للمسيحية ،كما وجد به المرتدون من الذين يتكلمون اللغة الاسبانية .

في سولو : وليس لدينا شاهد تاريخي معين ، يبين المدة التي قضاها سكان جزائر سولو في الاسلام ، قبل قدوم الاسبان . وتذكر اخبار سولو اسم الشريف كريم المخدوم باعتباره اول داع الى الاسلام في هذه الجزائر . ويقال انه كان عربيا ، ذهب الى ملقه حول منتصف القرن الرابع عشر ، وادخل السلطان محمد شاه وشعب ملقه في الاسلام . وقد واصل رحلته شرقا ، حتى وصل الى سولو حول سنة ١٣٨٠ ، واستقر في بوانسا Bwansa قاعدة سولو القديمة ، حيث بنى له الاهالي مسجدا وتقبل كثير من الرؤساء تعاليمه . وقد قيل انه زار كل جزيرة في الارخبيل تقريبا ،وانه ادخل في الاسلام ناسا في اماكن كثيرة . ويقال ان ضريحه في جزيرة سبوتو Sibutu ، كما يقال ان الداعي الذى جاء بعده هو ابو بكر ، وقد ذكر كذلك انه عربي ،وانه بدأ نشاط دعوته في ملقه ،وانه شق طريقه الى بالمبنج وبروناى Brunai ،ووصل الى سولو حول سنة ١٤٥٠ ، وبنى مساجد وقام بدعاية ناجحة ، وقد زوجه الراجه بجندا Baginda ، ملك بوانسا المسلم ، من ابنته ،وجعله وريثه . والى ابي بكر يرجع الفضل في تنظيم حكومة

سولو وسن قوانينها على اسس اسلامية قويمة ، بقدر ما كانت تسمح بـه العادات المحلية . وعلى الرغم من انهم دخلوا في الاسلام منذ زمن بعيد ، فان المسلمين من اهالي سولو بعيدون عن التمسك بدينهم ، وفي الحق ان موءثرات العبيد المسيحيين ، على اختلافهم ، وكانوا قد نقلوها معهم من جزائر الفيليبيين في غاراتهم التي كانت تقوم على النهب والسلب ، كانت في العادة من القوة بحيث زعم بعض الباحثين " انهم كانوا قد اعتُرِف بأنهم مسيحيون قبل ذلك بوقت طويل ، ولكن على تقدير ان مثل هذا التغيير لدينهم ، عن طريق القاء تأثير قوى غلاب الى رجال الدين المسيحي ، لابد ان يقوض دعائم سلطة هوءلاء العبيد ، ويمهد الطريق الى نقل ممتلكاتهم الى الحكم الاسباني . وهذه حادثة قد علمتها التجارب القاتلة في قوة وعنف ، كل الشعوب المحيطة التي انتحلت العقيدة المسيحية في تهور واستهتار " . اضف الى ذلك ، ان مسلك العدوان الذى ظهر به قساوسة الاسبان الذين اقاموا بعثة تبشيرية في سولو ، قد خلق في نفوس الاهالي نفورا شديدا من الديانة الاجنبية .

ومنذ احتل الامريكيون جزائر الفيليبيين ، اصبح التأثير الاسلامي محدودا الى حد كبير ، وهو الآن ينحصر في جزيرة بلوان Palawan ، وساحل مندناو الجنوبي ، ومجموعة جزائر سولو . ولكن يقال انه يجد في نشر دعوته بين الجزائر الشمالية ، وانه بدأ نشاط الدعوة حتى في منيلا Manila . ويقال ان احوالا معينة قد ساعدت على نجاحه ، ولا سيما تلك الحقيقة ، وهي ان اهالي جزائر الفيليبين يتحاملون على المسيحية ، بسبب المساوىء التي ادت بهم الى حمل السلاح في وجه رهبان الاسبان .

بين الببوان : وقد قوبل الاسلام ،كما ذكرنا من قبل ،بأسمى آيات القبول من شعوب ارخبيل الملايو الذين يتمتعون بحضارة ارقى ، كما انه لم يرسخ الا قليلا عند الشعوب التي هي اشد انحطاطا وتأخرا . ومن امثلة هؤلاء ، الببوان Papuans في غينا الجديدة وفي الجزائر التي تقع الى الشمال الغربي منها ، نعني بذلك الوايجيو Waigyu والميسول Misool ،والوايجما والسلوتي Salawatti . وكانت هذه الجزائر ، بالاضافة الى شبه جزيرة اونين الى الشمال الغربي من غينا الجديدة خاضعة في القرن السادس عشر لسلطان باتجان ، احد ملوك ملوكس . وبفضل نفوذ حكام باتجان من المسلمين ، اعتقد زعماء الببوان في هذه الجزائر الاسلام . ومع ان عامة الشعب في المنطقة الداخلية قد ظلوا على وثنيتهم حتى الوقت الحاضر ، فان سكان الساحل مسلمون . ولا شك ان اسلامهم يرجع بنوع خاص الى تأثير هؤلاء الذين جاءوا من ملوكس واستقروا في هذه البلاد . وفي غينا الجديدة نفسها ، يظهر ان فئة قليلة جدا من الببوان قد اعتقدوا الاسلام . وقد دخل هذا الدين الى الساحل الغربي (وربما الى شبه جزيرة اونين) على ايدى تجار المسلمين ،الذين اذاعوا دينهم في السكان في عهد مبكر يرجع الى سنة ١٦٠٦ . ولكن يظهر انه لم يصادف نجاحا كبيرا في خلال القرون التي خلت منذ ذلك الحين . وابدى الببوان نفورا شديدا من الدخول في الاسلام ، كذلك النفور الذى ابدوه في قبول تعاليم المبشرين المسيحيين الذين قاموا بأعمال التبشير بينهم منذ سنة ١٨٥٥ ولم يصادفوا نجاحا كبيرا في هذه السبيل . وقد اتهم مسلمو الجزائر المجاورة بأنهم يحتقرون الببوان

احتقارا شديدا بحيث لا يستطيعون ان يبذلوا جهودا لنشـــر الاسلام بينهم . على ان هناك اسم احد الدعاة ، ويدعى الامام ذكـــر (ربما ذكر) ، وكان قد قدم من احدى الجزائر على الجنوب الشرقي من سرام Ceram حول سنة ١٨٥٦ ، وادخل الاسلام الى جزيرة ادى الصغرى Adi ، جنوبي شبه جزيرة اونين . وبعد اداء رسالته عاد الى وطنه ، بعد ان قاوم الحاح السكان الذين طلبوا اليــه ان يستقر بينهم . وقد روت الاخبار ان تجار المسلمين من سرام وجـــرام قد ادخلوا فريقا في الاسلام من بين الوثنيين في خلال العقد الاول من القرن العشرين . وتبذل جهود هائلة لتحويل الببوان فـــي جزائر كي المجاورة الى الاسلام . وقد قيل انه كان من الصعب ان نجد في منتصف القرن التاسع عشر ، اى فريق من المسلمين علـــى هذه الجزائر ، لا نستثني الا سلالة المهاجرين من جزائر بنده . وقبل ذلك بقليل ، كان الدعاة من سرام قد نجحوا في ادخال عدد فـــي الاسلام ، بيد انه قلما كانت تراعى تعاليم الاسلام بينهم ، فقد اباحـــوا لانفسهم اكل اللحوم المحرمة وشرب المسكرات على انه قيل ان النســاء كن اشد تمسكا بأهداب الدين من الرجال ، حتى ان بعولتهــــن كانوا اذا رغبوا في ان يبيحوا لانفسهم اكل لحم الخنزير ، فعلوا ذلك سرا ، لان نساءهم كن لا يسمحن بجلبه الى المنازل . وقد لوحـــظ في سنة ١٧٨٧ ، انه كانت هنالك نهضة في الحياة الدينية بين اهالي جزائر كي ، كما كان عدد المسلمين يكثر يوما بعد يوم . وقد برهـــن تجار العرب من مادورة وجاوة وبالي على انهم دعاة متحمسون للاســلام ولم يدعو وسيلة الا حاولوها لجذب الداخلين في هذا الدين . وكانوا يدعمون حجتهم بالتهديد والعنف تارة ، وبالرشا تارة اخرى . وقـــد

قيل ان العادة قد جرت بأن يتقاضى كل من يدخل حديثا في الاسلام ما يساوي مائتي فلورين (§) من الهدايا ،على حين كان الزعماء يتسلمون مبلغا هائلا يساوى الف فلورين . وفي نهاية القرن التاسع عشر ، قيل ان نحوا من ٨٠٠٠ من سكان جزائر كي كانوا مسلمين من بين مجموع سكان هذه الجزائر الذى يبلغ ٢٣٠٠٠ .

دعاة المسلمين : التجار وطبقة الحاجي : وان الصورة العامة التي رسمناها من قبل عن انتشار الاسلام من الغرب الى الشرق عن طريق ارخبيل الملايو ، لا تؤلف الا جانبا قليلا من تاريخ اعمال الدعوة الى الاسلام في هذه الجزائر . وكثير من حقائق هذا التاريخ لم يدون بأكمله ، وان ما يمكن ان نلتقطه من التواريخ الوطنية ، ومؤلفات الرحالين الاوربيين ، والموظفين والدعاة ، انما هو متفرق ناقص في جوهره . على ان هناك شواهد كافية تدلنا على وجود جهود سلمية في الدعوى لنشر عقيدة الاسلام في خلال السنوات الستمائة الاخيرة . حقا ان السيف كان يمتشق احيانا لتأييد قضية الدين ، ولكن الدعوة والاقناع وليس القوة والعنف ، كانا هما الطابعين الرئيسيين لحركة الدعوة هذه . وان النجاح الرائع هو الذى احرزه التجار بنوع خاص ، الذين كسبوا السبيل الى قلوب الاهالي ، بتعلم لغتهم ، وانتحال اخلاقهم وعاداتهم ، واخذوا في رفق وتدرج ، ينشرون معارف دينهم بأن بدءوا بأن يحولوا الى الاسلام ، نساء البلاد اللائي تزوجوا منهن ، والاشخاص الذين ارتبطوا معهم بعلاقات تجارية . وبدلا من ان يعتزلوا الاهالي في انفة وكبرياء ، امتزجوا شيئا فشيئا في عامة الشعب ، واستخدموا كل ما يتميزون به من تفوق في العقلية والحضارة في القيام بأعمال التحويل الى الاسلام ، واصطنعوا لمبادىء دينهم وطقوسه ، شروطا

حاذقة ، ومخارج ماهرة ، كانوا يرونها لازمة لتقريب هذا الدين الى اذهان الشعب الذى كانوا يرغبون في جذبه اليهم . وفي الواقع " كان دعاة المسلمين — كما قال عنهم بكل Buckle — على جانب عظيم من الحكمة والروية " .

والى جانب التجار ، كانت هنالك جموع ممن يصح ان نسميهم الدعاة المحترفين — وهم الفقهاء ، والقضاة والحجاج . وكان الحجاج في السنين الاخيرة ، نشطين في نشر تعاليم الدعوة بنوع خاص ، وذلك بحث مواطنيهم على لون من الحياة الدينية ، اكثر نشاطا ، واشد تمسكا ، وبتطهيرها من بقايا عادات الوثنية ومعتقداتها . وان عدد الذين يذهبون الى مكة لاداء فريضة الحج من كل جهات الارخبيل آخذ في الزيادة على الدوام ، وتبع ذلك نمو التأثير الاسلامي والفكرة الاسلامية نموا مناسبا . وقد حاولت الحكومة الهولندية ، حتى منتصف القرن التاسع عشر ، ان تضع العراقيل في سبيل الحجاج ، فأصدرت امرا بأنه لا يجوز لاحد ان يؤدى فريضة الحج الى المدينة المقدسة الا اذا حصل على جواز سفر ، وكان لابد ان يدفع للحصول عليه ١١٠ فلورين . وكل من يخالف هذا الامر ، يلزم عند عودته بأن يدفع غرامة تساوى صعفي هذا المبلغ . ومن ثم لا نعجب ان نجد عدد الحجاج في سنة ١٨٥٢ ينخفض حتى يصل الى السبعين . ولكن هذا الامر لم يلبث ان الغي في هذه السنة نفسها ، واخذ عدد الحجاج يزداد منذالغائه زيادة ثابتة .

وبلغ متوسط عدد الحجاج في خلال العقد الاول من القرن التاسع عشر ٧٠٠٠ وفي خلال العقد الأول من القرن العشرين ٧٣٠٠ ، ولكن العدد يتفاوت كثرة سنة فأخرى . وكان اكبر عدد

سجل من جزائر الهند الهولندية ١٤٫٢٣٤ في سنة ١٩١٠ .

ولا شك ان مثل هذه الزيادة تعزى بنوع خاص الى زيادة تيسير المواصلات بين مكة وارخبيل الملايو ، ولكن هذا ،كما لاحظ ذلك احد المبشرين المسيحيين " لا يقلل بحال من اهمية تلك الحقيقة ،ولا سيما ان الحجاج ، الذين نما عددهم بسرعة فائقة ، لم يفقدو بحال من الاحوال من صفاتهم ما حصلوا عليه من كثرة عددهم . فالامر على خلاف ذلك ، يوجد الآن بينهم كثير من هؤلاء اكثر الماما واشمل معرفة بمبادئ الاسلام ، واشد تشربا بالتعصب الاسلامي وكراهية الكفار ،منهم قبل ان يؤدوا فريضة الحج " . وتحمل تقارير الحكومة الهولندية والمبشرين المسيحيين ،دليلا لا مراء فيه على تأثير هؤلاء الحجاج ، وحماستهم في نشر تعاليم الدعوة ، وكانوا يعودون الى اوطانهم مصلحين ودعاة في وقت واحد . والى جانب الحجاج الذين كانوا يقنعون بمجرد زيارة البقاع المقدسة ، وتأدية الشعائر اللازمة ،وهؤلاء الذين يقضون وقتا اطول هناك لا تمام دراساتهم الدينية ، نجد في مكة ،في الوقت الحاضر ، جالية كبيرة من اهالي الملايو ، الذين اتخذوا مقامهم في المدينة المقدسة الى الابد . وهؤلاء على اتصال دائم بمواطنيهم في اوطانهم . وكانت جهودهم في الغالب فعالة في تطهير الاسلام في ارخبيل الملايو من شوائب العادات الوثنية ووسائل التفكير الوثني التي بقيت من العهود القديمة . كذلك طبعت في مكة مجموعة كبيرة من الكتب الدينية باللغات المختلفة التي يتكلمها مسلمو الملايو ،وارسلت الى كل جهات الارخبيل وفي الواقع ان تأثير مكة في الحياة الدينية في هذه الجزائر ،كما قيل بحق ، كان اقوى منه في تركيا او الهند او بخارى .

وكما كان من الممكن ان نتوقع اذا تأملنا هذه الحقائق ، نجد في السنين الاخيرة نهضة عظيمة جدا في نشاط الدعوة في ارخبيل الملايو ، واصبح الحجاج العائدون من مكة ، سواء اكانوا تجارا ام معلمين دينيين ، دعاة الى الاسلام في البقاع التي كانوا يتصلون فيها بالاهالي الوثنيين . اضف الى ذلك ان الجماعات الدينية بسطت نظامها على ارخبيل الملايو ، بل لقد وجدت احدث هذه الجماعات عهدا ، وهي السنوسية ، اتباعا لها في اقصى هذه الجزائر ، ومما يدل على تأثيرها ان كثيرا من سكان الملايو يتسمون باسم سنوسي ، على حين كانوا في مكة يبدلون اسماءهم الوطنية بأخرى عربية .

وقد اتهم المبشرون المسيحيون الحكومة الهولندية بأنها تساعد على انتشار الاسلام . ومهما يكن من شيء ، فان من المحقق ان الذى سهل مهمة الدعاة المسلمين هو تلك الحقيقة ، وهي ان لغة الملايو ، التي لا يكاد يتكلمها الا المسلمون ، قد اتخذت اللغة الرسمية للحكومة الهولندية الا في جاوة . ولما كان موظفو الدولة من الهولنديين (من غير العسكريين) قد الحقوا في كل مكان بجمع حاشد من المسلمين الذين كانوا موظفين مرؤسين ، ورجالا في الهيئة السياسية ، وكتبة ، ومترجمين ، وتجارا ، حملوا الاسلام معهم الى كل مكان ينزلون فيه وكان حتما على كل الاشخاص الذين يربطهم بالحكومة عمل ما ، ان يتعلموا لغة الملايو ، وقلما كانوا يتعلمونها دون ان يصبحوا مسلمين في الوقت نفسه . وعلى هذا النحو ، اعتقد الاهالي ذوو النفوذ والسلطان الاسلام ، وبادرت البقية الباقية الى الاقتداء بهم . وبذلك يعمل الاسلام في الوقت الحاضر على طرد الوثنية من ارخبيل الملايو في سرعة .

١٥٧

خاتمـــــــة

دعاة المسلمين ـــ عدم وجود هيئة منظمة لهم :

في العالم المسيحي الحديث، تتمثل مهمة التبشير في الجمعيات التبشيرية، والموكلين بالتبشير كفاء اجور يتقاضونها، والتبرعـــات والتقارير والصحف. ويبدو ان (مشروع التبشير) تسمية غير صحيحـة متى كان مجردا من هيئة مؤلفة تأليفا منظما بصفة مستمرة. وقد روعي في تأليف هيئة الكنيسة المسيحية، منذ بدء تاريخها، نشر التعاليــم المسيحية بين الكفار. وكان مبشروها، في اغلب الاحيان، قساوسـة ورهبانا، يعينون لهذا الغرض بانتظام. وقد توافرت جماعـــات الاديار (منذ قيام جماعة بندكت فالجماعات التي جاءت بعدها) والجمعيات التبشيرية التي نجدها في ازمان احدث عهدا، على اتجاه خاص ينحصر في ترقية ادارة المهمة المسيحية التي اعترف منذ البدايـة بأنها احدى واجبات الكنيسة الاساسية. اما في الاسلام فان عدم وجود اى لون من الوان الكهنوت او اية هيئة دينية منظمة ايا كانت، قـــد جعل نشاط الدعوة عند المسلمين يتجلى في صور مختلفة تمــــام الاختلاف عن تلك التي تظهر في تاريخ البعوث التبشيرية المسيحية. فليس هنالك جمعيات للدعوة، ولا موكلون مدربون لهذا الغرض، كما انه قلما نجد مواصلة الجهود في هذه السبيل. ويظهر اننا لا نستثني الا جماعات الاسلام الدينية، التي يشبه نظامها، الى حد ما، نظام جماعات الاديار في العالم المسيحي. ولكن حتى في تلك الجماعــات الاسلامية، نجد ان عدم وجود فكرة عن نظام الكهنوت، او اية نظريـة ترى فصل المعلم الديني عن عامة المؤمنين، او ترى ضرورة العكـــوف على تأدية الوظائف الدينية، والتصريح بها ـــ كل ذلك يجعـــل

الاختلاف الاساسي في النظامين ،يظل قائما في كل مكان ، في وضوح وجلاء .

<u>المهمة ملقاة على عاتق الافراد :</u>

ومهما تكن المساوىء التي نجمت من حاجة المسلمين الى طبقة كهنوتية تختص بنشر العقيدة ،فقد وجدوا ما يعوضهم عنها في ذلك الشعور الناشيء عن المسوءولية التي القيت على كواهل الموءمنين من الافراد . ولما لم يكن هنالك واسطة بين المسلم وربه ، كانت مسوءولية خلاصه الشخصي ملقاة على كاهله وحده ، وكان من اثر ذلك ان اصبح المسلم ،كما جرت العادة ، اكثر تشددا واهتماما في اداء واجباته الدينية ، واشد تحملا للمتاعب في سبيل تعلم مبادىء دينه وشعائره . وبذلك يوءثر ،وقد رسخت في ذهنه اهمية هذه المبادىء وتلك الشعائر لنفسه ، ان يصبح رمزا لخلق الداعي الى دينه بين يدى الكافر ولم يكن الساعي في نشر تعاليم الدعوة ، يحيل من ادخله في الدين الى بعض معلمي دينه الثقات ، الذى ربما يقبل الرجل حديث العهد بالايمان في زمرة المسلمين من الناحية الشكلية ، ولم يكن بحاجة الى الخوف من الرقابة الكنسية لارتكاب خطيئة قارون . وعلى ذلك ، مهما تكن المبالغة عظيمة في القول ، ومهما ردد الباحثون القول بأن كل مسلم داعية الى دينه ، يبقى هذا القول حقيقيا . وفي الحق ان قليلا من المسلمين المتمسكين بدينهم تمسكا صحيحا ، الذين يتصلون بالكفار يوميا يهملون ما اوصاهم به نبيهم " ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة " . ومن ثم نجد ، الى جانب ارباب الدعوة المحترفين — وهم المعلمون الدينيون الذين كرسوا وقتهم ونواحي نشاطهم كله في مهمة الدعوة — اخبارا تاريخية لنشر العقيدة الاسلامية

تتضمن سجلا بأسماء رجال ونساء من جميع طبقات المجتمع ، من الملك الى الفلاح ، ومن كل الصنائع والحرف ، قاموا بأعمال ابتغاء نشر دينهم — والتاجر المسلم ، على خلاف اخيه المسيحي ، يظهر بنوع خاص بمظهر النشاط في امثال تلك الاعمال . ونجد في ثبت يتضمن اسماء دعاة الهنود ، نشر في صحيفة احدى جمعيات لاهور الدينية الخيرية ،اسماء معلمي مدارس ،وكتاب للحكومة في مصلحتي القنال والافيون ،وتجار (وفيهم احد العملاء في عربات النقل بالجمال) ومحرر احدى الصحف ،ومجلد كتب ، وعامل في مطبعة ، فقد خصص هؤلاء الناس ساعات فراغهم بعد انجاز عملهم اليومي ، للدعوة الى دينهم في الطرقات واسواق المدن الهندية ، ملتمسين اجتذاب مسلمين جدد من بين المسيحيين والهندوكيين جميعا ، الذين كانوا يجادلونهم ويحملون على عقائدهم .

ومما ينير اهتمامنا ما نلاحظه من ان نشر الاسلام لم يكن من عمل الرجال وحدهم ، بل لقد قام النساء المسلمات ايضا بنصيبهن في هذه المهمة الدينية ، فيرجع الفضل في اسلام كثير من امراء المغول الى تأثير زوجة مسلمة . ولا يبعد ان يكون مثل هذا التأثير سببا في اسلام كثير من الاتراك الوثنيين ،عندما كانوا قد اغاروا على الاقطار الاسلامية . وقد انشأ دعاة السنوسية الذين قدموا لنشر دعوتهم بين التوبو ، شمالي بحيرة شاد ،مدارس للبنات ، واستغلوا ما كانت تحدثه النساء من نفوذ قوى بين القبائل (كما كان لهن هذا النفوذ بين جيرانهن من البربر) ،فبذلوا جهودهم لجذبهن الى صفوف الاسلام . وفي افريقية الشرقية الالمانية ، دخل في الاسلام هؤلاء الوثنيون الذين كانوا يتركون اوطانهم ستة اشهر او اكثر ،للعمل في

السكك الحديدية او الاعمال الزراعية ، على ايدى نساء مسلمـــات ، تعاقدوا معهن على زواج موقت ، فان اولاء النساء كن يرفضـــن ان يتعاملن في شيء مع كافر لم يختتن بعد ، فكان بعولتهن يتجنبـــون ذلك العار الذى كان يلحق مثل هذا اللقب ، بأن يختتنوا وبذلك يقبلون الدخول في الجماعة الاسلامية . وقد قيل ان تقدم الاســلام في بلاد الحبشة ، في خلال النصف الاول من القرن الماضي ، كــان راجعا ، الى حد كبير ، الى ما بذله النساء المسلمات من الجهود ، وخاصة نساء الامراء المسيحيين ، الذين لم يكن بد من ان يتظاهروا بالتحول الى المسيحية ، عندما يتزوجون ، ولكنهم نشئوا ابنــاءهـــم على شعائر الاسلام ، وبذلوا كل ما استطاعوا في سبيل تقدم ذلــك الدين . وتقيم على حدود الحبشة الغربية قبيلة وثنية تسمـــــــى البُرُن Boruns ، وقد دخل بعض افراد هذه القبيلة ، وكانوا قـــد انتظموا في سلك فصيلة من الزنوج ، تحت لواء الحكومة المصريـــــة الانجليزية في السودان في الاسلام ، على ايدى نساء الجنـــــود السود ، في الوقت الذى كانت فيه الكتيبة راجعة الى الخرطــــوم . ويقال ان نساء قزان التتريات بوجه خاص ذوات غيرة ، باعتبارهـــــن داعيات الى الاسلام . ولا تمنع المتمسكة بدينها ، من ان تحتـــــل مكانها الى جانب الولي من الرجال في زمرة الداعين الى العقيـــدة اذا اتفق انها كانت امرأة . وان اسطورة النساء المقدسات ، اللائي ينتمين الى علي ، واللائي يقال انهن طرن في الهواء من كربـــلاء الى لاهور ، وانهن ظفرن بأول من تحول من الهندوكية الـــــى الاسلام ، بفضل تأثير حياة الصلاة والصوم ، التي كن يحيينها فـــي تبتل وخشوع ، كان من الصعب ان يكون لها اصل تاريخي ، لو ان تأثير

امثال اولاء النساء المقدسات كان امرا مجهولا تماما . ومن اضرحة القاهرة التي لقيت او في نصيب من التعظيم ، ضريح السيدة نفيسة ، حفيدة الحسن (الذى مات شهيدا وهو ابن علي) ، والتي اثارت اعجاب الامام الشافعي نفسه ،احد من عاصروها من العظماء ،بتفقهها في الالهيات ،والتي رفعتها تقواها ،وتقشفها الى مصاف الاولياء الصالحين . ويروى انها عندما استقرت في مصر اتفق انها اقامت بجوار اسرة من اهل الذمة ، وكانت لهم بنت مصابة بداء عضال ، بحيث لم تستطع ان تحرك اطرافها ،ولم يكن بد من ان ترقد على ظهرها طوال اليوم . ولزم الامر ان يذهب والدا هذه الفتاة المسكينة الى السوق ذات يوم ،فطلبا الى جارتهما المسلمة ان تتفقد ابنتهما اثناء تغيبهما . وباشرت نفيسة هذا العمل الانساني ،وهي مفعمة بالحب والرحمة . ولما ذهب والدا هذه الفتاة المريضة الى السوق ، سمت نفيسة بروحها ،وابتهلت الى الله ان يشفي هذه المريضة البائسة . ولم تكد تفرغ من دعائها حتى استعادت الفتاة المريضة تحريك اطرافها واصبحت قادرة على ان تذهب للقاء ابويها عند عودتهما . وملأ الشكر والامتنان قلوب افراد الاسرة جميعا ، فانتهوا الى الدخول في ديانة تلك المرأة التي اسدت اليهم هذا الفضل .

حتى المسلم الاسير ، يغتنم الفرص في المناسبات لدعوة آسريه او اخوانه في الاسر الى دينه . وقد تسرب الاسلام الى اوربا الشرقية اول الامر بفضل ما قام به فقيه مسلم ، سيق اسيرا ، ربما في احدى الحروب التي نشبت بين الدولة البيزنطية وجيرانها المسلمين ،وجيء به الى بلاد بتشنج Pechenegs في مستهل القرن الحادى عشر . وقد بسط بين يدى كثير منهم تعاليم الاسلام ، فاعتقدوه في

اخلاص ، حتى انه اخذ في الانتشار بين هذا الشعب . اما سائر التشتج الذين لم يكونوا قد قبلوا دين الاسلام ، فقد ارتابوا من تصرف مواطنيهم ، وانتهى بهم الامر الى نشوب القتال بينهم . وقاوم المسلمون وكان عددهم يبلغ نحوا من اثني عشر الفا ، هجمات الكفار في نجاح ، مع ان هؤلاء كانوا اكثر منهم عددا بما يزيد على الضعفين . ودخلت فلول المهزومين دين المنتصرين . ولم تأت نهاية القرن الحادى عشر ، حتى كان الشعب بأسره قد اعتقد الاسلام ، وكان من بينهم مسلمون تعلموا الفقه والتوحيد . وفي عهد الامبراطور جهابحير (١٦٠٥ — ١٦٢٨) كان هنالك عالم سني من علماء التوحيد يدعى الشيخ احمد مجدد ، وقد تميز بقدرته على مجادلة الشيعة في عقائدهم بنوع خاص . ولما كان هؤلاء مقربين الى البلاط في ذلك الحين ، نجحوا في ايداعه السجن بتهمة تافهة . وفي خلال السنتين اللتين قضاهما في الحبس ، ادخل في الاسلام عدة مئات من عبدة الاوثان الذين كانوا يرافقونه في هذا السجن نفسه . وفي سنوات احدث من ذلك ، قضت الحكومة البريطانية بنفي احد مولوية الهنود الى الجزائر اندمان نفيا مؤبدا ، لانه كان قد قام بنصيب فعال في مؤامرة دبرها الوهابيون سنة ١٨٦٤ ، وهناك ، ادخل هذا المولوى في الاسلام قبل وفاته كثيرا من المحكوم عليهم . وفي افريقية الوسطى ، حكم البلجيكيون على زعيم عربي بالاعدام ، فقضى ساعاته الاخيرة ، وهو يحاول ان يدخل في الاسلام ذلك المبشر المسيحي الذى كان قد ارسل اليه ليزجي اليه التعزيات الدينية .

عوامل نجاحهم : واذا كان المسلمون قد بلغوا مثل هذه الحماسة في نشر الدعوة الى حد انهم كانوا على استعداد للتحدث عنها

في مناسبة وفي غير مناسبة ــ كما يقول داوتي في حصافة ودقة ملاحظة ، " حديثهم دائما (في غير زندقة) عن الدين ، وفي هذا الحديث ما يذكرهم بما ترتاح اليه نفوسهم من التقوى والورع " ، ــ فلنسرد الآن بعض العوامل التي ساعدت على نجاحهم .

في مقدمة هذه الاسباب بساطة العقيدة الاسلامية ، لا اله الا الله محمد رسول الله . وكل ما يطلب من الذى يدخل في الاسلام ، قبول هاتين الشهادتين . وان تاريخ العقائد الاسلامية كله ، ليخفق في عرض اية محاولة من جانب المقامات الدينية ، لحمل جمهرة المؤمنين على الاخذ بأية اشارة منطوية في عبارات اكثر تدقيقا وتعقدا . ان هذه العقيدة البسيطة لا تتطلب تجربة كبيرة للايمان ، ولا تثير في العادة مصاعب عقلية خاصة ، وانها لتدخل في نطاق احد دركات الفهم والفطنة . ولما كانت خالية من المخارج والحيل النظرية اللاهوتية ، كان من الممكن ان يشرحها اى فرد ، حتى اقل الناس خبرة بالعبارات الدينية النظرية . ويعبر الشطر الاول من هذه العقيدة عن مبدأ يكاد يقبله جميع الناس على انه فرض لابد منه ، على حين يقوم الشطر الثاني منها على فكرة علاقة الناس بالله وهي مسألة تكاد تكون عامة شاملة كذلك ، بمعنى ان الله تعالى ، في فترات من تاريخ العالم ، قد وهب بعض تجلية على الخلق ، على لسان انبياء ملهمين . ولا يستطيع اى فرد ان يوضح ذلك ، اعني الطابع العقلي للعقيدة الاسلامية وما جنته من هذا الطابع من الفائدة في نشر الدعوة ، توضيحا يبعث على الاعجاب ، بأكثر مما وضحه البروفسور مونتيه في العبارات التالية :

" الاسلام في جوهره دين عقلي ، بأوسع معاني هذه الكلمة من الوجهتين الاشتقاقية والتاريخية . فان تعريف الاسلوب

العقلي Rationalism بأنه طريقة تقيم العقائد الدينية على اسس من المبادىء المستمدة من العقل والمنطق ، ينطبق عليها تمام الانطباق . والحق ان محمدا الذى كان متحمسا لدينه ، كما كان كذلك يمتلك غيرة الايمان ، ونار الاقتناع ، تلك الصفة القيمة التي بثها كثيرا جدا من اتباعه — قد عرض حركته الاصلاحية على انها وحي والهام : على ان هذا النوع من الوحي ليس الا صورة من العرض والتفسير ، وان لدينه كل العلامات التي تدل على انه مجموعة من العقائد قامت على اساس المنطق والعقل . وتتلخص العقيدة الاسلامية من وجهة نظر المؤمنين في الاعتقاد بوحدانية الله ورسالة نبيه ، اما من وجهة نظرنا نحن الذين نحلل عقائده تحليلا لا روح فيه ، فنعتقد في الله وفي الحياة الآخرة . وهذان المبدآن هما اقل ما ينبغي للاعتقاد الديني ،وهما امران يستقران في نفس الرجل المتدين على اساس ثابت من العقل والمنطق ،ويلخصان كل تعاليم العقيدة التي جاء بها القرآن وان بساطة هذه التعاليم ووضوحها على وجه التحقيق من اظهر القوى الفعالة في الدين وفي نشاط الدعوة الى الاسلام . ومما لا سبيل الى انكاره ان كثيرا من عقائد اللاهوت ونظمه ،وكثيرا من الخرافات كذلك ،من عبادة الاولياء الى استخدام المسابح والتعاويذ قد طعم به الجذع الرئيسي للعقيدة الاسلامية . ولكن على الرغم من التطور الخصب ، بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، لتعاليم النبي ، حفظ القرآن منزلته من غير ان يطرأ عليه تغيير او تبديل ، باعتباره النقطة الاساسية التي بدأت منها تعاليم هذه العقيدة ،وقد جهر القرآن دائما بمبدأ الوحدانية ، في عظمة وجلال وصفاء لا يعتريه التحول ، ومن العسير ان نجد في غير

الاسلام ما يفوق تلك المزايا . وان هذا الاخلاص كمبدأ الدين الاساسي ،والبساطة الجوهرية في الصورة التي يصاغ فيها هذا الدين والدليل الذى كسبه هذا الدين من اقتناع الدعاة الذين يقومون بنشره اقتناعا يلتهب حماسة وغيرة ، ان هذا كله يكون الاسباب الكثيرة التي تفسر لنا نجاح جهود دعاة المسلمين . وكان من المتوقع لعقيدة محددة كل التحديد ، خالية كل الخلو من جميع التعقيدات الفلسفية ، ثم هي تبعا لذلك في متناول ادراك الشخص العادى ،ان تمتلك ، وانها لتمتلك فعلا ، قوة عجيبة ، لاكتساب طريقها الى ضمائر الناس " .

ويرى الاسقف لفروى Lefroy ان " سر القوة الخارقة للعادة التي اظهرها الاسلام في ازهر عصوره في فتوحاته وتقدمه " كامن في ادراك هذا الدين وجود الله ،اكثر منه في وحدانيته ،قال : " ليس قولنا ان الله واحد بأعظم من قولنا انه موجود – بمعنى ان وجوده هو حقيقة الكون المطلقة – وان ارادته هي العليا – وان سيادته مطلقة – وان قوته لاتحد . . . وهذا معناه الايمان بأن هنالك ارادة مطلقة عليا لا تقاوم في وسط كل ما يغمر الكون من الاختلال والاضطراب والفساد الذى يجعله في صورة من الظلمة والوحشة تبعث على الفزع والرهبة ، كما ان معناه الايمان بان الرجل مسير طوع هذه الارادة ،يظهرها ،ويلتزم الطاعة لها – ولو انه من الضرورى ان يأخذ في سبيل اظهار هذه الارادة بأسباب بسيطة بدائية جدا – وهذا هو الذى امد جحافل المسلمين بوسائل الفتح التي لا تقهر ، تلك التي بعثت فيهم روحا من الانقياد الحربي والنظام العسكرى ، كما بعثت فيهم ازدراء الموت ،الامر الذى ربما لم نعرفه قط في اى نظام سابق .

وهذا هو الذى يعطينا في كلمة ،حسب ما نجده متمثلا في ايـــــة روح صادقة فعالة بين المسلمين ، ذلك العمود الفقرى لاخلاقهم ، اعني ذلك الثبات في العزيمة والقوة في الارادة ،وذلك الصبر الذى لا يعرف سبيلا الى الشكوى ، والاستسلام لاشد المصائب واصعبهـــا ، ــ كل ذلك قد ميز خير انصار العقيدة وجملهم " .

واذا قبل الذى يدخل في الاسلام هذه العقيدة البسيطة وتعلمها لم يكن بعد عندئذ من ان يتعلم فرائض الدين الخمس :

١ــ النطـــق بالشهادتين .

٢ــ واقام الصلوات الخمس في اوقاتها .

٣ــ وايتاء الزكاة .

٤ــ وصوم رمضان .

٥ــ والحج الى مكة .

وطالما اعترض بعض الناس على اداء هذا الغرض الاخير باعتباره بقية غريبة من بقايا الوثنية ، ظلت من جملة تعاليم النبي التي تدعــو الى الوحدانية ،ولكن ينبغي الا يعزب عن الاذهان ان الحج قد اقترن بابراهيم ،في نظر النبي ،وان رسالة النبي هي اعادة دين ابراهيــم . ولكن فوق ذلك كله ــ وهنا تكون اهميته العليا في تاريخ نشر الدعــوة في الاسلام ــ ينظم الحج اجتماع المؤمنين في كل سنة ، على اختلاف شعوبهم ولغاتهم ،من كافة انحاء العالم ، للصلاة في ذلك المـــكان المقدس ، الذى يولون وجوههم شطره في كل ساعة من ساعات عباداتهم الخاصة في اوطانهم النائية . ولم تستطع اية محاولة يقوم بها عباقـــرة اى دين ان تتصور وسيلة احسن من هذه الوسيلة تطبع في عقـــــول المخلصين معنى حياتهم المشتركة ،واخوتهم التي ارتبطت بروابـــــط

الدين . وفي ذلك المكان ، حيث نجد عملا ساميا من اعمال العبادة المشتركة ، نرى زنجي ساحل افريقية الغربي يلتقي بالصيني من اقصى الشرق ، ويتعرف التركي الرقيق المهذب على اخيه المسلم من اهل الجزائر المتوحشين الذين يسكنون ابعد اطراف بحر الملايو . وفي هذا الوقت نفسه تتطلع قلوب المؤمنين في كافة انحاء العالم الاسلامي ، في عطف وحنين ، الى اخوانهم الاسعد حظا منهم ، الذين تجمعوا في المدينة المقدسة ، فيحتفلون في اوطانهم بعيد الاضحى ، او كما (يسمى في تركيا ومصر) عيد البيرام او العيد الكبير . وان زيارتهم المدينة المقدسة قد اصبحت في نظر كثير من المسلمين ، التجربة التي حثتهم على الجهاد في سبيل الله ، وقد اوردنا في الصفحات السابقة اشارات متتابعة الى ما قامت به طبقة الحاجي من نصيب فعال في اعمال نشر الدعوة .

والى جانب نظام الحج ، نجد ايتاء الزكاة فرضا آخر يذكر المسلم دائما بقوله تعالى " انما المؤمنون اخوة " — وهي نظرية دينية تتحقق على صورة رائعة تبعث على الدهشة في المجتمع الاسلامي وقلما تعجز عن ان تتجلى في اعمال الشفقة ازاء المسلم الجديد . ومهما يكن جنسه ولونه واسلافه ، فانه يقبل في زمرة المؤمنين ، ويتبوأ مكانه على قدم المساواة مع اقرانه المسلمين .

على انه ليس من الصواب ، ما زعمه بعض الكتاب الاوربيين من انه اذا كان عبد الرجل المسلم كافرا ، فان تحوله الى الاسلام يؤدي الى تحرير رقبته . ذلك ان الشريعة الاسلامية تقتضي بأن دخول العبد في الاسلام ، لا يؤثر في حالة العبودية التي كان عليها من قبل . وتختلف حالة العبد المسلم اختلافا كبيرا تبعا لاخلاق مولاه . ولكن

الحربة هي جزاء التحول الى الاسلام في كثير من الحالات . وان العقول الورعة التقبة لتعترف حتى في الاسترقاق بهداية الله الى الدين الحق ، كما يروى عن الزنوج الساكنين في بلاد النيل الاعلى ، الذين لقيهم داوتي في بلاد العرب . "لا يوجد في نفوس اولئك الافريقيين اى حقد من انهم صيروا عبيدا ... حتى ولو ان سراق البشر القساة قد انتزعوهم من ذويهم . وكان العملاء الذين يدفعون ثمنهم ، يتخذونهم في بيوتهم ، ويختتن الذكور منهم — وان الذى حرر ارواحهم ، الحنين الطويل الى اوطانهم ، هو ان الله قد تفقدهم في ملمتهم ، انهم يستطيعون ان يقولوا ان نعمة الله قد تداركتهم منذ ان دخلوا بفضلها في الدين المنقذ ، لذلك يرون انهم في بلد خير من بلادهم ، فهم في ذلك البلد عتقاء الله ، وهم في بقاع تحيى حياة اكثر مدنية ، وهم في تربة الحرمين الشريفين ، وفي بلد محمد — لذلك بشكرون الله ان بيعت اجسادهم يوما ما بيع الرقيق"

كذلك نجد اداء الصلوات الخمس كل يوم على جانب عظيم من التأثير سواء في جذب الناس او الاحتفاظ بالمسلمين منهم . وقد احسن مونتسكيو في قوله : " ان المرء لاشد ارتباطا بالدين الحافل بكثير من الشعائر ، منه بأى دين آخر اقل منه احتفالا بالشعائر ، وذلك لان المرء شديد التعلق بالامور التي تسيطر دائما على تفكيره"، ان دين المسلم يتمثل دائما في مخيلته ، وفي الصلوات اليومية ، يتجلى هذا الدين في طريقة نسكية خاشعة موءثرة ، لانستطيع ان تترك العابد والمشاهد كليهما غير متأثرين . يتحدث سعيد بن الحسن ، احد يهود الاسكندرية ، الذى اعتقد الاسلام في سنة ١٢٣٨ م ، عن مشهد صلاة في الجمعة في مسجد باعتباره عاملا حاسما في تحوله الى الاسلام . في خلال مرض شديد كان قد انتابه ، رأى في المنام ان صوتا يأمره

بأن يجهر بالاسلام . " وعندما دخلت المسجد " ، (ويستمر في حديثه الى ان يقول) " ورأيت المسلمين يقفون صفوفا كأنهم الملائكة ، سمعت هاتفا يقول ، هذه الجماعة هي التي اخبر الانبياء (صلوات الله عليهم) بقدومها . ولما ظهر الخطيب مرتديا عباءته السوداء استولى على شعور عميق من الرهبة . . . ولما ختم خطبته بالكلمات ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ، يعظكم لعلكم تذكرون ، ولما بدأت الصلاة ، احسست بقوة تدفعني الى النهوض ، لان صفوف المسلمين بدت امامي كأنها صفوف الملائكة ، الذين يتجلى الله القدير في سجداتهم وركعاتهم ، ثم سمعت هاتفا يهتف بي : اذا كان الله قد تحدث مرتين الى بني اسرائيل في كل العصور ، فانه يتحدث الى هذه الجماعة في كل وقت من اوقات الصلاة ، وايقنت في نفسي اني خلقت لاكون مسلما " .

فاذا استطاع ريتان ان يقول : " ما دخلت مسجدا قط ، دون ان تهزني عاطفة حادة ، او بعبارة اخرى ، دون ان يصيبني اسف محقق على انني لم اكن مسلما " ، كان من اليسير ان ندرك كيف ان منظر التاجر المسلم في صلاته ، وسجداته الكثيرة ، وعبادته للاله الذى لا يراه ، في سكينة واستغراق ، قد يؤثر في الأفريقي الوثني ، الذى وهب ادراكا قويا للقوى الخفية ، كما يقترن هذا الادراك عادة بدرجة منحطة من المدنية وقد يحفز حب الاستطلاع على البحث بطبيعة الحال . وان معارف الاسلام التي عرفها الناس على هذا النحو قد تجذب احيانا فردا يدخل في الاسلام ، كان من الممكن ان ينصرف عنه لو انه قدم اليه على صورة لا يرغب فيها ، باعتبارها هبة حرة . ولا حاجة

الى القول بأن صيام شهر رمضان جزء من دليل ثابت يدحض النظرية القائلة بأن الاسلام نظام ديني يجذب الناس عن طريق مراودتهم في ملذاتهم الشخصية ، وكما قال كارليل : " ان دينه ليس بالدين السهل : فانه بما فيه من صوم قاس ، وطهارة ، وصيغ معقدة صارمة وصلوات خمس كل يوم ، وامساك عن شرب الخمر ، لم يفلح في ان يكون دينا سهلا " .

ولكن هؤلاء المسلمين يعنون بتلك الفرائض وغيرها من الشعائر الدينية . ولكن من غير ان يثقلوا بها كواهلهم ، او تجعلهم مغمورين في الحياة ، نجد اركان العقيدة الاسلامية تلتقي دون انقطاع ، تعبيرا ظاهرا في حياة المؤمن ، ومن ثم نجدها ، بعد ان اصبحت متشابكة مع نظام حياته اليومية تشابكا لا سبيل الى الفكاك منه ، تجعل المسلم الفرد ااما ومعلما لعقيدته ، اكثر ، الى حد بعيد ، مما هي الحال مع انصار معظم الديانات الاخرى . ولما كانت عقيدته مصوغة في مثل هذه اللغة الموجزة البسيطة ، كانت لا تتطلب من الذكاء الا قليلا ، وان تحددت هذه الطقوس وواقعيتها ودقتها ليدع المؤمن لا يتخالج في نفسه الشك فيما هو مكلف بأدائه ، فاذا ادى هذه الواجبات ، اطمأن وجدانه الى انه قد انجز كل اوامر الشرع . وقد نجد الى حد بعيد ، في هذه الوحدة التي تربط بين النظامين العقلي والطقسي في هذا الدين ، سر السيطرة التي احدثها الاسلام على عقول الناس . " فاذا اردت ان تجذب اليك جماهير كبيرة من الناس ، لقنهم الحقيقة في صورة حاسمة ، دقيقة واضحة ، وفي اسلوب مرئي محس " .

ومن الممكن ان نورد كثيرا من الظروف الاخرى التي ساعدت

على نجاح الدعوة الى الاسلام — وهي ظروف تتعلق بازمان معينة وبلاد خاصة . ويمكن ان نذكر من بين هذه الظروف تلك الفائدة التي تستمدها اعمال الدعوة الاسلامية من هذه الحقيقة ، وهي ان هذه الدعوة كانت الى حد كبير في ايدى التجار ،وخاصة في افريقية وبلاد اخرى غير متمدنة ، حيث نرى الاجنبي موضع الريبة والشك بطبيعة الحال من اهالي هذه البلاد . ففي حالة التاجر ، نجد مهنته المعروفة التي لا ضرر فيها ،تضمن له مناعة من اى احساس بمثل هذه الريبة ، على حين نرى خبرته بالناس والاخلاق ، وحنكته التجارية في معاملة الناس تنيلانه قبولا حسنا ، وتزيلان ذلك الشعور بالضيق الذى قد ينشأ بطبيعة الحال من وجود الغريب . وهو لا يقع في تلك المساوئ التي تعرقل مهمة الداعي المحترف ،الذى يكون معرضا لان يتهم ببعض الدوافع الشريرة ، من جانب الشعب الذى نجد درجة خبرته وأفقه العقلي محدودين ، والذى يرى ان فكرة اى شخص يتحمل اخطار سفر طويل ، ويطرح جانبا كل المشاغل الدنيوية لغرض واحد ،هو ان يظفر بقوم يدخلهم في دعوته ،امرغامض لا سبيل الى تفسيره ، بل من جانب قوم من العالم اكثر تمدنا وحضارة على اتم استعداد للشك في اخلاص هؤلاء الذين عهد اليهم في نشر الدعوة من المأجورين .

وتختلف الظروف جد الاختلاف ،حينما لم يكن هنالك من سبيل من ان يظهر الاسلام في مظهر الضارع المتوسل في البلد الغريب ،ولكنه يمثل دين الجنس الحاكم في عزة وكبرياء . وقد بينا في الصفحات السابقة ان نظرية العقيدة الاسلامية تلتزم التسامح وحرية الحياة الدينية لجميع اتباع الديانات الاخرى ، اولئك الذين يؤدون

الجزية كفاء حمايتهم . وعلى الرغم من ان صفحات التاريخ الاسلامي قد تلوثت بدماء كثير من الاضطهادات القاسية ، ظل الكفار ، على وجه الاجمال ، ينعمون في ظل الحكم الاسلامي بدرجة من التسامح لم نكن نجد لها مثيلا في اوربا حتى عصور حديثة جدا ، وان التحويل الى الاسلام عن طريق الاكراه محرم ، طبقا لتعاليم القرآن : " لا اكراه في الدين " (سورة ٢ آية ٢٥٧) . " افأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ، وما كان لنفس ان تؤمن الا باذن الله " (سورة ١٠ آية ٩٩ ، ١٠٠) ، وان مجرد وجود كثير جدا من الفرق والجماعات المسيحية في الاقطار التي ظلت قرونا في ظل الحكم الاسلامي ، لدليل ثابت على ذلك التسامح الذى نعم به هؤلاء المسيحيون ، كما يدل على ان الاضطهادات التي كانوا يدعون الى معاناتها بأيدى الطغاة والمتعصبين ، انما كانت ناتجة من بعض ظروف خاصة واقليمية ، اكثر من ان تكون منبعثة عن مبدأ مقرر من التعصب .

وفي امثال تلك الازمان التي حدث فيها الاضطهاد ، كان ضغط الظروف يدفع كثيرا من الكفار الى ان يصبحوا — من الناحية الشكلية على الاقل — مسلمين ، ويمكن ايراد كثير من الامثلة عن افراد اكرهوا في مناسبات خاصة على الاذعان لدين القرآن ولكن مثل هذا التعسف لم يكن بموافقة الشرع الاسلامي في شيء ، سواء منه الديني والمدني وقد ذكرنا من قبل الآيات القرآنية التي تنهى عن الاكراه في الدين ، وتوصي بالدعوة باعتبارها الوسيلة الشرعية الوحيدة لنشر هذه العقيدة ، ويؤيد هذا المبدأ نفسه ما قرره الائمة من المسلمين . ولما هرب موسى بن ميمون ، الذى كان قد تظاهر بالدخول في الاسلام في عهد الموحدين ، الذين كان حكمهم ينطوى

على التعصب الديني ،الى مصر ، واعلن هنالك امام الملأ انه يهودي اتهمه احد فقهاء المسلمين من اسبانيا ،بالارتداد عن الاسلام ، وطلب بأن يوقع عليه اقصى عقوبة يقضي بها الشرع لهذا الجرم . ولكن القاضي الفاضل ،عبد الرحيم بن علي ، وهو من اشهر قضاة المسلمين ، وكبير وزراء صلاح الدين العظيم ،الغى هذا الحكم ، واعلن بصفة جازمة ، ان رجلا قد ارغم على الدخول في الاسلام، لا يصح شرعا ان يعد مسلما ،وبهذه الروح نفسها ، نجد غازان (١٢٩٥– ١٣٠٤م) ،عندما اكتشف ان عبدة البوذية الذين كانوا قد دخلوا في الاسلام في مستهل حكمه (حينما خربت معابدهم) لم يتحولوا الى هذا الدين الا تظاهرا ونفاقا ، يسمح لجميع هؤلاء الذين كانوا جد راغبين في العودة الى التبت ،حيث يستردون حريتهم مرة اخرى بين مواطنيهم البوذيين ،ويتبعون ديانتهم القديمة . ويقص لنا تافرنيير قصة مماثلة عن بعض يهود اصفهان الذين كان الحاكم قد اضطهدهم اضطهادا شديدا الى حد انه " جعلهم يتحولون الى الاسلام بالقوة والخديعة كلتيهما ،ولكن الملك (الشاه عباس الثاني) (١٦٤٢–١٦٦٧) ادرك ان القوة والرهبة وحدهما قد ارغمتاهم على هذا التحول ، فاذن لهم ان يستردوا ديانتهم وان يعيشوا في هدوء وامان " . وتدلنا قصة ذكرها رحالة في فارس يرجع الى عهد اقدم من ذلك بكثير ، الى سنة ١٤٧٨ كيف عكف احد حكام المسلمين ، في تلك الازمان المضطربة ، على القضاء على سورة من التعصب من هذا النوع نفسه في شدة وعنف . بينما كان تاجر ارمني موسر جالسا في حانوته ذات يوم ،قدم عليه حاجي ، كان مشهور بالتقوى والصلاح ،وألح عليه ان يدخل في الاسلام ، وينبذ المسيحية . ولما

اعرب التاجر عن نيته في ان يظل ثابتا على دينه ،وقدم له صدقة ، رغبة فى ان يتخلص منه ،اجابه بأنه لا يريد صدقته ، وانما يريد ان يتحول الى الاسلام . واخيرا ضاق الحاجي ذرعا باصرار التاجر على الرفض ، فاختطف فجأة سيفا من يد احد المشاهدين ، وضرب التاجر على رأسه ضربة قاضية ، ثم لاذ بالفرار . ولما سمع حاكم المدينة الخبر ، استشاط غضبا ، وامر بأن يقتفى اثر القاتل ويودع في السجن . وجيء بالمذنب بين يدى الحاكم ،فطعنه بيده طعنة قضت عليه وامر بأن تلقى جثته نهبا للكلاب ،وقال : " ماذا ،ابهذه الطريقة ينتشر دين محمد ؟ " . ولما ارخى الليل سدوله اخذ عامة الشعب هذه الجثة وحرقوها ، ومن ثم ثار سخط الحاكم لهذا التحقير لاوامره . فأسلم هذا المكان الى عساكره ينهبونه ثلاث ساعات او اربعا ، ثم فرض غرامة امعانا في العقاب . وكذلك استقدم اليه ابن التاجر وعزاه ولاطفه بعبارات طيبة رقيقة ،حتى الحاكم المجنون (٩٩٦-١٠٢٠م) (٣٨٦-٤١١ هـ) الذى حملت اضطهاداته كثيرا من اليهود والمسيحيين على ان يتركوا دينهم ويدخلوا في الاسلام قد سمح فيما بعد لهؤلاء الذين تحولوا الى الاسلام عن غير رغبة ان يعودوا مرة اخرى الى دينهم ،وان يعيدوا بناء اماكن عباداتهم المخربة . ولما كان المسيحيون الشرقيون يلقون اهمالا من جانب اخوانهم المسيحيين في الغرب ، وكانوا في الاغلب الاعم عزلا من اى سلاح ،كما كانوا غير محميين على الاطلاق ، كان يكون من السهل على اى حاكم من حكام الاسلام الاقوياء ، ان يستأصل شأفة رعاياه المسيحيين او ينفيهم من بلادهم ،كما فعل الاسبان بالعرب ،والانجليز باليهود مدة اربعة قرون تقريبا . وكان من الممكن تماما ان ينفذ سليم الاول و(في سنة ١٥١٤) او ابراهيم (في سنة ١٦٤٦) تلك الفكرة البربرية التي

تصوروها للقضاء على رعاياهم المسيحيين ، كالذى صنعه الاول من ذبح ٤٠٠٠٠ شيعي لتدعيم وحدة العقيدة الدينية بين رعاياه المسلمين . وان طبقة المفتي الذين صرفوا اذهان سادتهم عن مثل هذا الغرض الذى ينطوى على القسوة ، انما فعلوا ذلك باعتبارهم ائمة الشريعة الاسلامية والتسامح الاسلامي .

اضف الى ذلك انه على الرغم من ان المبدأ الذى وجد قبولا عظيما في المانيا في القرن السابع عشر – وهو ان لكل منطقة دينها الخاص – لم يقبله قط اى عاهل مسلم ، فمن الواضح ان هذه الحقيقة ، وهي ان الاسلام دين الدولة لم تعجز في انها قد احدثت بعض التأثير في زيادة عدد انصاره . وان الاشخاص الذين لم تتغلغل العقيدة الدينية في نفوسهم قد يكونون على استعداد للتأثر باعتبارات المنافع الدنيوية ، وقد يقوم الطموح والمصلحة الشخصية مقام بواعث اكثر قبولا واستحسانا للتحول الى الاسلام . وقد شكا القديس اوغسطين من مثل ذلك في القرن التاسع ، فذكر ان كثيرا من الناس دخلوا في الكنيسة المسيحية ، لا لشيء الا لانهم املوا في الحصول على بعض المنافع المادية باعتقادهم المسيحية ، قال : " ما اكثر الذين لا يسعون الى المسيح الا لغرض واحد ، هو ان يجنوا من وراء ذلك منفعة لهم ، حسب ما تقتضيه ظروف كل منهم ، يكون لاحدهم مهمة ما فيسعى الى رجال الدين ليحظى منهم بالكلمة الصالحة ، ويهرع آخر الى الكنيسة يطلب منها الحماية من زميل له ، اكثر منه اعتادا وقوة ، قد ضيق عليه الخناق ، ويرمي آخر بذلك الى توسيط زميل له بعض الجاه والسلطان ، لمصلحته الشخصية . ولهذا حجته ، ولذاك حجته . ان الكنيسة تمتلىء كل يوم بأمثال هوءلاء " .

زد على ذلك ايضا ،ان الاسلام لابد ان يكون قد بدا في نظر القبائل المتبربرة وغير المتمدنة التي شاهدت مجد الامبراطورية العربية وعظمتها في اوج قوتها ،بمثل ذلك التأثير والسحر اللذين بدت بهما المسيحية حين عرضت على برابرة اوربا الشمالية ، "عندما وجدوا المسيحية في الامبراطورية ــ تلك المسيحية المهذبة المعقدة التي تعتمد على الابهة وجلال النفوذ والسلطان ــ دينا لبس التاج الى جانب الملوك ،وقد يتفوق عليهم في السيطرة في بعض الاحيان".

ومما يجب ان نزيده على ما تقدم ، هذا التأثير البطيء الدائم ، الذى احدثه الاتصال اليومي بالحياة الاسلامية والتفكير الاسلامي . مما جعل حتى احد الكتاب النساطرة في القرن الثاني عشر ، يضيف كلمات التبجيل والتقديس الى اسم النبي والخلفاء الاولين كلما عرض لذكرهم ،ويستنزل رحمة الله على عمر بن عبد العزيز . وفي عصور حديثة ، يشكو المبشرون المسيحيون من ان نظام التعليم العام في مصر في ظل الاحتلال البريطاني ،ذلك النظام الذى " يضطر الاولاد المسيحيون غالبا بمقتضاه الى ان يجلسوا ويستمعوا للقرآن والدين (اى الدروس الدينية) وهما يدرسان لرفاقهم المسلمين ،على حين لا يوجد مكان يمكن عزلهم فيه " ، انما يميل الى منح المسلمين نفوذا راجحا على اخوانهم التلاميد المسيحيين . ومن انشط اتباع محمد عبده المفتي الاخير رجل كان في الاصل طالبا قبطيا يدرس الطب ثم تحول الى الاسلام بتأثير التعليم الديني الذى كان قد سمعه يلقن في ساعات الدرس بالمدرسة .

ولكن سرد امثال هذه البواعث التافهة يفسر كل حالات التحول الى هذا الدين او الى غيره من الاديان . وينبغي الا تجعلنا هذه البواعث نغض النظر عن العوامل الاخرى في حياة الدعوة الى الاسلام

التي كان لتأثيرها طابع ديني اكثر تميزا ووضوحا . وفي مقدمة هـذه العوامل تأثير حياة الورع والتقوى التي يحياها المسلمون . وقد يبدو ذلك غريبا في نظر جيل تعود ان ينظر الى الاسلام على انه مستودع لكل الوان الرذيلة ، ومع ذلك لا مراء في ان كثيرا من المسيحيين فـي عصور اقدم من ذلك ، اتصلوا بمجتمع اسلامي حي ، وتأثروا تأثـرا عميقا بما تجلى في هذا المجتمع من فضائل . واذا كانت هـذه الفضائل قد اثرت كذلك في الرحالة وفي الغريب ، فلا شك في انه كان لها بعض التأثير في جذب الكافر الذى اصبح يتصل بهم اتصالا يوميا . من ذلك نجد ركلدوس دى مونت كروسيس Ricoldus de Monte Crucis ، وهو مبشر دومينيقاني زار الشـرق في نهاية القرن الثالث عشر ، ينطلق بالثناء على المسلمين الذيـن كان قد اشتغل بين اظهرهم ، يقول : " استولى علينا الدهـش ، كيف ان اعمالا تتصف بمثل هذا الكمال يمكن ان تحيا في ظـل شريعة تصطبغ بمثل هذه النزعة الالحادية . لهذا نستعيد الآن في ايجاز اعمال العرب تلك المتصفة بالكمال . . . من ذا الذى لا يعجـب اذا تأمل جيدا اية عناية فائقة بالدراسة يمكن ان توجد بين العرب ، اى اخلاص في الصلاة ، واية رحمة بالفقير ، واى تبجيل لاسم اللـه والانبياء والاماكن المقدسة . واى وقار في اخلاقهم ، وفي معاملتهـم للغرباء ، واية مودة تربط بين جنسهم ؟ وعلى هذا النحو امتـدح وليم بتي اف نيوبره William Petit of Newburgh حول نهاية القـرن الثاني عشر ، رزانة العرب باعتبارها مظهرا من تعاليم نبيهم ، وموحية اليهم بمعنى من التفوق الخلقي على المسيحيين ، قال : " ولمـا كان محمد يبغض السكارى والنهمين في جميع انحاء الارض ، فانـه

قد علمهم العفة والقناعة ، وقبح الطيب من الطعام ،ونهاهم عن شـرب الخمر الا في اعياد محددة قليلة . ولذلك نرى العرب ، وان كانـوا حقيقة مستسلمين لشهواتهم الجنسية ، متبعين في ذلك ـ كما قيـل ـ سنة ذلك الذي اغواهم ،الا انه من المحزن ان نقول انهم اكثر عفـة وارجح منزلة من رجالنا المسيحيين . وهم آخذون علينا ، بالعـار ، قذارتنا بسبب نهمنا وادماننا تناول المسكرات . ولما سمح صـلاح الدين اخيرا ،اثناء اختباره احوال شعبنا ، وكان صلاح الدين المعول الهدام لاسم المسيحيين منذ عشر سنوات خلت ، انهم يستخدمـون بعض الاطباق عند تناول الطعام ، يروى انه قال ان امثال هذه الآنية تعد عارا على الارض المقدسة . ومن ذلك يتضح ان مظهر مجدنـا يثير علينا العرب الذين يباهون باقتصادهم ، كما انه يشجعهـم ، كأن لسان حالهم يقول " قد نبذ الله السكارى ، فلنقتفِ آثارهـم ، ونلق القبض عليهم ،ماداموا لا يجدون منقذا لهم " .

وادب الصليبيين غني بمثل هذا التقدير للفضائل الاسلامية ، كما تلقى الاتراك العثمانيون في ايام حكمهم الاولي في اوربا ،كثيرا من تقدمات المدح والثناء من افواه المسيحيين ، كما بينا ذلك في احـد ابواب هذا الكتاب .

وهنالك في الوقت الحاضر عاملان رئيسان (فوق ما ذكرنا آنفا مما يصح ان يُؤيد وجهة نظرنا) يعملان على تنشيط الدعوة فـي العالم الاسلامي . اولهما انتعاش الحياة الدينية التي يبدأ تاريخها من حركة الاصلاح الوهابية في نهاية القرن الثامن عشر ، وعلى الرغـم من ان هذا الانتقال الجديد قد فقد كل معنى سياسي في خـارج حدود نجد زمنا طويلا ، نرى تأثيرها من حيث هي نهضة دينيـة

ملموسا في كافة انحاء افريقية والهند وارخبيل الميلايو ، حتى الى الوقت الحاضر ، كما احيت كثيرا من الحركات التي احرزت قصب السبق بين اقوى المؤثرات في العالم الاسلامي . وقد اوضحنا في الصفحات السابقة كيف ان كثيرا من البعوث الاسلامية الحديثة ، يرتبط ارتباطا وثيقا بتلك الحركة الواسعة النطاق ، وان ما اثارته هذه الحركة من حماسة متقدة ، وما سكبته في النظم الدينية القائمة من حياة جديدة ، وما بثته في الدراسة الدينية النظرية وتنظيم الشعائر المنسكية من روح دافعة — ان ذلك كله قد عمل على ايقاظ روح الاسلام الفطرية التي جبلت على نشر تعاليم الدعوة ،كما عمل على الابقاء عليها .

وهناك عامل آخر يسير مع هذه الحركة الاصلاحية جنبا الى جنب ، وهو من نوع يختلف عن هذه الحركة جد الاختلاف — ذلك انه ، ولن نذكر الا وجهة واحدة من هذا الاختلاف ، في الوقت الذى نجد فيه الحركة الوهابية تناهض الحضارة الاوربية مناهضة عنيفة ، نرى العامل الثاني ينزع نوعا ما الى التفكير الحديث ، ويقدم صورة الاسلام بما يتمشى مع هذه النزعة — ذلك هو حركة الوحدة الاسلامية التي تسعى الى ربط جميع شعوب العالم الاسلامي برباط مشترك من المودة والتعاطف . وعلى الرغم من ان هذا لا يساوى بحال العامل الآخر في الاهمية ، نجد هذا الاتجاه الى التفكير ، يهب روحا قوية تدفع الى القيام باعمال نشر الدعوة ، وان الجهد الذى يحقق في الحياة الدنيا المثل الاسلامي الاعلى في اخوة المؤمنين كافة لينعكس على مثل العقيدة العليا المكملة ، وان معنى وحدة شاملة ، وحياة مشتركة تجرى في هذه الشعوب لينفخ في قلوب المؤمنين روحا وحياة ،ويخلق فيها الجرأة على التحدث بين يدى الكفار .

اما معرفة ما ستحدثه هاتان الحركتان من تأثير ابعد مدى في حياة الدعوة الاسلامية فان المستقبل وحده كفيل ببيان ذلك . على ان مجرد نشاطهم في الوقت الحاضر دليل على ان الاسلام لم يمت . ولم يكن النشاط الروحي للاسلام ،كما زعم عدد كبير جدا من الناس ، متمشيا مع سلطانه السياسي . بل على العكس من ذلك نجد فقدان السلطة السياسية والانتعاش المادى ، يعمل على ابراز اجمل الصفات الروحية التي تعد اصدق البواعث التي تحفز على القيام بأعمال الدعوة . وقد تعلم الاسلام منافع الشدائد ،ولما كان بعيدا كل البعد عن الانحدار الى الرخاء المادى لكونه نذير انحلال هذا الدين ، كان من المهم ان تلك البلاد الاسلامية الخالصة التي عاشت اطول وقت في ظل الحكم المسيحي ، تتجلى كأشد ما تكون نشاطا في القيام بنشر تعاليم الدعوة . ويظهر مسلمو الهند والملايو من الحماسة والغيرة في نشر الدين مالا نجده في تركيا او في مراكش .

****

تاريخ الاسلام في روسيا

وقد حاول شعب آخر جذب الروس الى الاسلام قبل ذلك بسنين كثيرة ، ولكنه اخفق كذلك ، وهؤلاء هم البلغار من المسلمين الذين وجدوا حول القرن العاشر الميلادى على ضفاف نهر الفلجا ، والذين قد يرجع الفضل في اسلامهم الى تجار المسلمين الذين كانوا يتاجرون في الفراء وسائر السلع التي كانوا يحصلون عليها من البلاد الشمالية . على انه يظهر ان دخول البلغار في الاسلام لابد ان يكون قد تم قبل سنة ٩٢١ م ، حين ارسل اليهم الخليفة المقتدر (٩٠٨ — ٩٣٢ م) (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ) رسولا من قبله يقوم بتثبيتهم على الدين وتعليمهم مبادئ الاسلام وشعائره .

وقد حاول هؤلاء البلغار تحويل فلاديمير Vladimir ملك روسيا في ذلك الحين (الذى تحدثنا الرواية الروسية) ، انه رأى انه لم يكن بد من ان يختار دينا آخر غير الدين الوثني الذى كان يدين به . ولم يقف في سبيل تحوله هو ورعاياه الى هذا الدين الا الختان وتحريم الخمر المستعملين عند المسلمين ، وصرح ان الروس لا يعدلون عنهما ، لانهما كانا من مباهج الحياة عندهم . وكذلك ابتلي بهذا الاخفاق اليهود الذين جاءوا من بلاد الخزر على بحر قزوين ، واستمالوا ملك هؤلاء الروس الى الديانة الموسوية . وبعد ان اصغى فلاديمير الى حججهم ، سألهم اين بلدهم ؟ فأجابوا " بيت المقدس ، ولكن الله شتت شملنا في كافة انحاء العالم غضبا منه علينا " ، فصاح " اذا فقد بؤتم بلعنة من الله ، ومع ذلك فأنتم تريدون ان تعلموا غيركم . اذهبوا ، فنحن لا نريد مثلكم الا يكون

لنا وطن " . وكان احسن ما اثر في نفس فلاد يمير تلك الفكرة التي رسمها قسيس اغريقي ، حين عرض صورة شاملة لتعاليم المسيحية ، بعد ان نقد الديانات الاخرى نقدا موجزا ، بادئا بخلق العالم وقصة فناء الانسان ، وانتهى بالمجامع السبع المسكونية التي اعترفت بها الكنيسة الاغريقية ، ثم رسم الملك صورة ليوم الدين ، ودخول الصالحين الجنة ، وقذف الكفار في الجحيم ، ووعده بميراث السماء اذا عمد . ولكن فلاد يمير لم يكن يميل الى الاندفاع في اختيار دين يحل محل دينه الوثني ، ومن ثم جمع زعماء الروس في دولته . ولما انهى اليهم ما سمعه عن الديانات المختلفة ، سألهم ان يمدوه بنصائحهم ، فأجابوا : "ايها الامير ، ان كل امرئ يمتدح ديانته فاذا اردت ان تختار احسنها ، فابعث برجال عقلاء الى البلاد المختلفة ليكشفوا لك اية امة من الامم تعظم الله بالطريقة المثلى التي تليق بمقامه الأسمى " . لذلك اختار الامير لهذا الغرض عشرة رجال اشتهروا بالحكمة وسداد الرأى . ووجد هؤلاء السفراء بين البلغار اماكن حقيرة المظهر ، وصلوات تبعث على الكآبة ، ووجوها واجمة ، ووجدوا بين الالمان الكاثوليك حفلات دينية خالية من الابهة والجلال . واخيرا بلغوا القسطنطينية : فقال الامبراطور : " دعهم يشاهدوا جلال إلهنا " ، ثم اخذوا الى كنيسة ايا صوفيا ، حيث كان البطريق ، وهو مرتد ملابسه الرسمية يحتفل بالقداس . وان فخامة البناء ، وملابس القسيسين الكهنوتية الجميلة ، وزخارف المذابح ، ورائحة البخور الزكية ، وسكون الناس المنبعث عن الاحترام والخضوع ، والاحتفال الديني السحري الذى يتجلى في هيبة وخشوع — كل ذلك ملأ قلوب الروس دهشا وعجبا .

وقد بدا لهم ان هذه الكنيسة لابد ان تكون مقام العلى الاسمى ، وانه سبحانه اظهر للبشر مجده في ذلك المكان . ولما عاد الرسل الى كييف ، وصفوا سفارتهم للامير ، وتكلموا في احتقار عن ديانة النبي ، ولم يكن لديهم مايقولونه الا القليل عن الديانة الرومانية الكاثوليكية ، ولكنهم امتدحوا الكنيسة الاغريقية في حماسة وغيرة وقالوا : " ان كل رجل ذاق شربة حلوة ، سوف يعاف من الآن ، اى شراب مر المذاق . ومن اجل هذا ، لانرغب ــ بعد ان وقفنا على عقيدة الكنيسة الاغريقية ــ في اية ديانة اخرى " . وقد استشار فلاديمير زعماء الروس مرة اخرى ، فقالوا له : لو لم تكن الديانة الاغريقية احسن الديانات ، لما اعتقدتها ابدا جدتك اولجا ، احكم البشر . ومن ثم لم يعد فلاديمير مترددا . وفي سنة ٩٨٨م جهر بالمسيحية وفي اليوم التالي لتعميده نبذ الاوثان التي عبدها اجداده ، واصدر مرسوما يقضي بأن يذعن الروس كافة ، سادة وعبيدا ، اغنياء وفقراء ، للتعميد وفق طقوس الديانة المسيحية .

وهكذا اصبحت المسيحية ديانة الروس . فانه بعد الفتح المغولي نجد الصفات القومية التي تميز بها الروس والتتار ، الذين احتفظوا الى الآن بعنصرين منفصلين احدهما عن الآخر ، وما اضمروه من كراهة موبرة للسلطان التتارى ، واخلاص الروس لدينهم ، ونقص الغيرة الدينية عند التتار ــ نجد ذلك كله قد جعل الجنس المحكوم بعيدا عن اعتقاد ديانة هؤلاء الذين فتحوا بلاده . وقد زعم بعض ان تحريم الشريعة الاسلامية الخمور كان عقبة في سبيل اعتقاد اهالي الروسيا هذا الدين .

ويظهر انه لم تكن هنالك حالات عن تحول بعض الروس الى الاسلام ، الا بعد ان صدر في سنة ١٩٠٥ مرسوم ينص على التسامح

الديني في كافة ارجاء الامبراطورية الروسية ، وما تلا ذلك من دعاية نشيطة قام بها المسلمون . وان ما حدث من هذه الحالات يعزى الى قوة التأثير الناتجة من المساعدة المادية التي قدمها التتار الى هؤلاء الداخلين في الاسلام ، كما يعزى الى القوة المعنوية التي تميز بها المسلمون انفسهم .

ولم يكن تتار بلاد الروسيا مجتمعين غير عاملين على تقدم انتشار الاسلام في القرون السابقة ، فان السحنة الهلينية الواضحة التي تشاهد بين هؤلاء الذين يطلق عليهم اسم تتار القرم ، ادت الى الظن بأن هؤلاء المسلمين قد ادمجوا في مجتمعهم الاهالي من الاغريق والايطاليين الذين وجدوهم قد استوطنوا شبه جزيرة القرم . كما نجد بينهم اسلافهم الذين دخلوا في الاسلام من الاهالي الوطنيين في هذه البلاد ، ومن سكان مستعمرة جنوه .

ويحدثنا احد الرحالين في القرن السابع عشر الميلادى ان تتار القرم كانوا يبذلون جهدهم لحث مواليهم على الدخول في الاسلام ، وانهم جذبوا كثيرين منهم الى هذا الدين ، بما كانوا يعدونهم اياه من منحهم الحرية اذا استجابوا لرغباتهم . وكذلك نشطت الدعوة الى الاسلام بين تتار القوم بعد ان صدر مرسوم حرية التدين في سنة ١٩٠٥ .

ولا بأس من ان نشير هنا اشارة موجزة الى التتار في لتوانيا ، حيث استقرت جماعات صغيرة منهم منذ اوائل القرن الخامس عشر . وقد احتفظ هؤلاء المهاجرون المسلمون ،الذين اقاموا بين الاهليين من المسيحيين ، بدينهم القديم . ولكن يظهر انهم (وقد يكون ذلك لاسباب سياسية) لم يحاولوا ان يعلموهم مبادئ هذا الدين

بيد انهم اعتادوا ان يتزوجوا من اللتوانيات والبولنديات ، اللاتي نشأ ابناؤهن نشأة اسلامية ،ولم يسمح لاية مسلمة ان تتزوج من مسيحي . وشجع كبار دوقات لتوانيا زواج النساء المسيحيات من رجال جنود هم التتارية ،الذين قدموا اليهم هبات من الارض ،ومنحوهم مزايا اخرى .

ومن اغرب الحوادث في تاريخ الدعوة الى الاسلام ، ماكان من تحول القرغيز في بلاد آسيا الوسطى على ايدى علماء التتار (الملبات) الذين نشروا الاسلام بينهم في القرن الثامن عشر ، باعتبار انهم دعاة من قبل الحكومة الروسية . وقد اخذ القرغيز ينضمون تحت لواء الروس حول سنة ١٧٣١ م ، وتبودلت الرسائل السياسية معهم كافة باللغة التتارية قرابة ١٢٠ سنة ، واهمين انهم كانوا يشبهون تتار الفلجا من ناحية السلالة البشرية وهناك نوع آخر من سوء الفهم من ناحية الحكومة الروسية ، وهو ان القرغيز كانوا مسلمين ، على حين كانوا في القرن الثامن عشر جميعا ، على وجه التقريب ، يدينون بالشامانية ، حيث كان عدد كبير منهم لا يزالون يدينون بهذا الدين حتى منتصف القرن التاسع عشر . وفي القرن الذى ضمت فيه بلادهم الى الامبراطورية الروسية ، عدا قليل من خاناتهم وسلاطينهم ، كانت لهم معرفة ما بالدين الاسلامي — وكانت هذه المعرفة على درجة كبيرة من الاختلاط والغموض . ولم يجد احد مسجدا واحدا في ارجاء سهول القرغيز كافة ، كما لم يكن هناك اى معلم ديني يقوم بتعليم دين النبي . ويدين القرغيز بدخولهم في الاسلام الى هذه الحقيقة ، وهي ان الروس الذين عدوهم مسلمين ، اصروا على معاملتهم كما لو كانوا كذلك . وقد منحوا

الاموال الضخمة لبناء المساجد ، وارسل عدد كبير من (الملبات)
لانشاء المدارس وتعليم الاطفال مبادئ الاسلام . وكان علماء القرغيز يتسلمون في كل يوم مقدارا صغيرا من النقود يقوم بنفقتهم ، واستحث الآباء على ارسال اطفالهم الى المدارس عن طريق الهدايا وغيرها من وسائل التشجيع والاقناع . ومن الادلة التي لا تقبل الجدل على ان الدعوة الاسلامية قد شقت طريقها في سهول القرغيز من ناحية بلاد الروسيا ، هذه الحقيقة الواقعة ، وهي ان هؤلاء القرغيز خاصة ، الذين كانوا اكثر اتصالا بأوربا ، هم الذين اصبحوا مسلمين اول الامر . وقد اخذت الشامانية القديمة تسير حتى القرن التاسع عشر في بطء وتمهل ، بين هؤلاء الذين طوفوا فيما جاور بلاد خيوة وبخارى وخوقند ، مع ان هذه البلاد كانت بلادا اسلامية عدة قرون .

وقد يكون هذا هو المثل الوحيد لحكومة مسيحية شاركت في نشر الاسلام . وليس اقل غرابة من ذلك ان الحكومة الروسية في هذا العصر كانت تحاول ان تفرض المسيحية على رعاياها المسلمين في اوربا ، استمرارا لما بذلته من جهود في القرن السادس عشر على اثر فتح خانية قزان .

وفي مستهل القرن التاسع عشر ، كان كثير من القرغيز الذين يقيمون في السهول الفسيحة الممتدة جنوبا من مقاطعة تبلسك الى بلاد تركستان لا يزالون على الوثنية ، واتصل بعض بالحكومة الروسية لايفاد بعث تبشيري للدين المسيحي يقيم بين اظهرهم . ولكن الحكومة لم تجبهم الى هذا الطلب بحجة ان " هؤلاء الناس كانوا من البربرية والوحشية بحيث لا يكون فهمهم للانجيل امرا ميسورا . سرعان ما سارت لنشر الدعوة جماعات اخرى لا تعتمد على حسن نية اية حكومة .

كما كانت اكثر غيرة وادراكا ، واحتلت هذا الميدان واجتذبت كافة قبائل القرغيز الى الدين الاسلامي "

وبعد فتح قزان على ايدى الروس في القرن السادس عشر ، تلا احتلال خانية التتار السابقة حركة رسمية للتبشير بالمسيحية ، وعمد عدد من سكان الخانية الوثنيين ، ونشط رجال الشرطة ورجال السلطات المدنية في تأييد اعمال رجال الكنيسة . بيد انه لما لم يكن القسيسون الروسيون يفهمون لغة هؤلاء الذين حولوهم الى الاسلام ، والذين لم يلبثوا ان اهملوا شأنهم ، لم يكن بد من الاعتراف بأن هؤلاء الذين تحولوا حديثا " يحتفظون في غير خجل او حياء بكثير من العادات التتارية المرذولة ، ولم يكونوا يتمسكون بالعقيدة المسيحية او يعرفونها " . ولما اخفقت العظات الروحية ، امرت الحكومة موظفيها بأن يلطفوا من هذه الحالة ، ويحبسوا الناس ويكبلوهم بالحديد ، ويحولوا بذلك دون تعليم هؤلاء الذين لا يطيعون اوامر المطران برغم تعميدهم ، ويثيرون مخاوفهم من ناحية العقيدة التتارية .

وفي القرن الثامن عشر بذلت الحكومة الروسية جهودا جديدة لتنصير القبائل الوثنية ، والتتار الذين ارتدوا عن دينهم ، وبذلوا كثيرا من ضروب الاقناع والاغراء لتعميدهم . ففي سنة ١٧٧٨ امرت الامبراطورة كاترين الثانية بأن يوقع كل من هؤلاء الحديثي العهد بالمسيحية على اقرار كتابي يتعهدون فيه بترك خطاياهم الوثنية ، وتجنب كل اتصال بالكفار ، والتمسك بالدين المسيحي وعقائده والثبات عليهما " على الرغم من هذا كله ، لم يكن هؤلاء الذين اطلق عليهم " التتار " المعمدون الا مسيحيين اسما ، وسرعان ما اخذوا يحاولون

التخلص مما بذلت الكنيسة الارثوذكسية من الجهود التبشيرية ، وتركوا المسيحية ،واعتنقوا الاسلام. ولم يكن هذا الدخول في المسيحية الا خطوة تمهيدية لدخولهم في عقيدة النبي .

وفي الحق انه لا يبعد ان تكون اسماؤهم قد دونت في السجلات الرسمية باعتبارهم مسيحيين ،ولكنهم وقفوا في ثبات وقوة في وجه اية محاولة بذلت لتنصيرهم . ويقول الكاتب في مقال شبه رسمي نشر في سنة ١٨٧٢ : "انه لحقيقة تستحق الانتباه ان سلسلة طويلة من الارتداد الواضح تتفق مع بداية الاجراءات التي اتخذت لتثبيت الداخلين في العقيدة المسيحية . ولهذا يجب ان يكون هناك سبب معقول لحالات الارتداد هذه ، في نفس الوقت الذى كان من المتوقع ان يحدث خلاف ذلك" . ويظهر ان الحقيقة كانت تنطوى على ان هؤلاء التتار لكونهم قد ظلوا دائما مسلمين بقلوبهم ، قاوموا التدابير الفعالة التي اتخذت لتجعل اعتناقهم المسيحية الاسمي حقيقة واقعة بحال من الاحوال . ولكن في النصف الاخير من القرن التاسع عشر ،بذلت جهود لتنصير هذه القبائل الوثنية والاسلامية عن طريق انشاء مدارس بينهم . وكانوا يؤملون من وراء ذلك ان يجذبوا اليهم شبيبة ذلك الجيل ، اذ ظهر لهم انهم اذا لم يفعلوا ذلك ، كان من المحال ان يفوزوا بادخال المسيحية بين التتار . ذلك ان" استمالة مواطني قزان — كما يقول استاذ روسي — امر صعب المنال ، ولكننا نستجلب نفرا قليلا من سكان القرى الواقعة في السهل ،ونروضهم على مخافة الله ، فاذا ما اصبحوا معنا فانهم لن يعرضوا عنا ابدا". ذلك ان القانون الجنائي الروسي كان يتضمن دائما عقوبات صارمة لهؤلاء الذين حادوا عن الكنيسة الارثوذكية ،ويعاقب كل شخص

تثبت عليه تهمة تحويل مسيحي الى الاسلام ،بتجريده من كافة الحقوق المدنية ،وبحبسه مع الاشغال الشاقة مدة تتراوح بين ثماني سنين وعشر . وبرغم اوامر الحكومة نجحت الدعاية الاسلامية في جذب القرى بأسرها الى عقيدة الاسلام ولاسيما القبائل الروسية التي تقيم في الشمال الشرقي .

وتعد مدينة قزان المركز الرئيسي لنشاط هذه الدعوة ، وكان يطبع في كل سنة عدد كبير من المنشورات الاسلامية ، في ذلك المكان ،ويذهب الملبات من الجامعة لتحويل الوثنيين في القرى واعادة التتار ، الذين كانوا قد ارتضوا التعميد ، الى الاسلام . وان ازدياد عدد التتار المسيحيين الذين اخذوا في زيادة صفوف الاسلام ،قد اثار الفزع في نفوس رجال الكنيسة الارثوذكسية . ولكن جهودهم قد اخفقت في وقت نجاح الملبات في هذه السبيل . وقد دونت الاخبار كثيرا عن دخول الناس في هذا الدين افواجا ، ولا سيما على اثر صدور موسوم حرية التدين في سنة ١٩٠٥ . مثال ذلك ما قيل من ان احدى وتسعين اسرة اعتنقت الاسلام في قرية اتومفا Atomva في سنة ١٩٠٩ . وان عددا بلغ من الكثرة حول ٥٣,٠٠٠ نسمة اسلم بين سنتي ١٩٠٦ ، ١٩١٠ . وقد قيل ان اكبر الفضل في نجاح هذه الدعوة يرجع الى مستوى الحياة الاخلاقية في المجتمع الاسلامي ، الذى كان اكثر رقيا ، كما يرجع ايضا الى شعور التآخي الذى كان يشيع في هذا المجتمع ،والذى كان اكثر تماسكا وقوة . اضف الى ذلك ان الاساليب التي لجأ اليها رجال الكنيسة الروسية وايدتها الحكومة ، لتجعل تلك الطبقة التي كان يطلق عليها التتار المسيحيون اكثر تمسكا بالدين ،قد جعلت العقيدة المسيحية امرا غير مألوف لديهم . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى سارت الدعوة الاسلامية

قدما في حماسة بالغة : " فقد كان كل مسلم ساذج امي داعية الى دينه ، وعجزت القبائل الفقيرة الجاهلة الامية من الوثنيين او اشباه الوثنيين عن ان تقاوم هؤلاء الدعاة . وفي كثير من القرى التي عمد اهلها ،انطلق الرجال في زمن الشتاء يحترفون الحياكة في القرى الاسلامية . وهناك يتحولون الى الاسلام ثم يعودون الى قراهم حمسا يجلبون معهم افكارا اسلامية يكون لها اثرها في بيوتهم " .

ومن اهم القبائل التي تأثرت بحركة الدعوة الى الاسلام قبيلة الفوتياك Votiaks التي كان السواد الاعظم منها مسيحيا معمدا ،بيد ان كثيرا منهم اصبحوا مسلمين في القرن الثامن عشر ، وفي مستهل القرن التاسع عشر ، ولا يزال تأثير الاسلام آخذا في النمو ، بين هؤلاء الذين يدينون بالمسيحية وبين هذه البقية اليسيرة ، التي لا تزال على وثنيتها . وان قبيلة الشيريمس Cheremiss كالفوتياك ، قبيلة من الفن Finns ، لا يزال ربعها على الوثنية ، ولكن كثيرين منها كانوا قد اسلموا ،ولا يبعد ان يبادر معظمهم الى الدخول في هذا الدين . وقد تجلت حركة الشيريمس ازاء الاسلام في القرن التاسع عشر ، ومع ان كثيرين منهم كانوا مسيحيين اسما ،فان قراهم باسرها اسلمت برغم القوانين التي تحرم التحول الى اى دين من الاديان عدا مذهب الكنيسة الارثوذكسية . وقد اصبحوا مسلمين باتصالهم المباشر بالباشفرد والتتار الذين كانت تشبه اسرتهم وعاداتهم الاجتماعية اسرة هؤلاء وعاداتهم . وقد بدأت هذه الخطوات احيانا بالتصاهر الى المسلمين ـ مثال ذلك ان احدى اسرات الشيريمس في بعض القرى تصاهرت الى بعض الباشفرد واعتنقت ديانته . ولما كان هؤلاء الذين اسلموا يلقون في قراهم عنتا واضطهادا بتسميتهم "الكلاب المختونين " ، نراهم يهاجرون

ويؤسسون مستعمرة جديدة على بعد اميال ،كما نرى بعض ذوي اليسار من الباشفرد يعينونهم بالمال . ولكن لما كانوا يعدون وثنيين في السجلات الرسمية ،لم يستطيعوا ان يحصلوا على تصريح ببناء مسجد . لذلك انتقل بعض اسرات من الباشفرد التي كانت في الاماكن المجاورة لهم الى المستعمرة الحديثة ، حتى يجعلوا عدد الاهلين بحيث يسمح لهم بالحصول على التصريح الرسمي المطلوب . وطالما اتخذ مثل هذه الخطوة في القرى الاخرى التي جاء المسلمون لاستيطانها والتصاهر الى من فيها من الشيريمس. وكانت هنالك في احوال كثيرة حركة واضحة لنشر الدعوة ، مثال ذلك ان قرية قرقول كانت في مستهل القرن التاسع عشر اهلة بالشيريمس المسيحيين . على انه بعد منتصف هذا القرن بقليل ، تحول بعض الإسرات الى الاسلام على يد احد الشيريمس بعد ان دخل في جماعة الملبات ،وخلفه في الدعوة بعد وفاته احد الباشفرد من اهالي قرية اخرى . وبعد ذلك انتقل الذين دخلوا في الاسلام الى قرى التتار والباشفرد ، بعد ان احتل التتار اماكنهم ، وبعد ان اصبحت القرية بأسرها تتارية في واقع الامر . واحتفظ قليل من شبيبة الجيل بشيء من لغة الشيريمس وتصاهروا مع التتار وحدهم .

واذا تركنا هذا النشاط في تعليم الناس مبادىء الدعوة جانبا ،وجدنا تأثير التتار في الكلام والعادات بين الشيريمس منتشرا انتشارا ملحوظا جدا . فقد انتشرت لغة التتار بينهم ، وجلبت معها افكار الاسلام الادبية والدينية . ويعد ادخال الزى التترى علامة على تفوق الثقافة . واذا لم يرتد احد افراد الشيريمس الزى الذى يرتديه التتار ، تعرض لسخرية اول تتارى يلتقي به او لسخرية اخوانه من الشيريمس . وهذه الحركة الثقافية تجنح الى انتحال

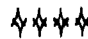
ديانة التتار بصفة نهائية . وقد قيل ان الشيريمس قد اصبحوا بعد اسلامهم على جانب عظيم من الحماسة لنشر دينهم الجديد ، كما تلقوا معونة التتار الموسرين . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى ينظر الروس الى الشيريمس نظرة احتقار ،ويعدونهم جنسا منحطا ، وينبزونهم بألقاب شائنة ، حتى هؤلاء الشيريمس من المسيحيين الذين يقيمون بين اظهرهم . ولا يزال نحو ربع عدد الشيريمس على الوثنية ، ولكن المؤثرات الاسلامية كانت من القوة بينهم بحيث لا يبعد ان يصبح السواد الاعظم منهم مسلمين على مر الايام ، اما الشوفاش Chuvash الذين يبلغ عددهم المليون ،فقد عمدوا بأسرهم تقريبا ، ولا يزال نحو عشرين الفا منهم على الوثنية ، ولكن الاسلام يضمهم الى صفوفه تدريجا ، على حين اصبح بعض الشوفاش من المسيحيين مسلمين . واصبحت البقية الباقية منهم واقعة تحت تأثير الاسلام . وقد نستدل على امتداد حماستهم نحو الذين دخلوا منهم في الاسلام من احدى قرى الشوفاش المسيحية التي يمكن ان نتخذها مثلا في هذا الصدد ، فقد قضى قسيسها سنوات كثيرة في جمع ثلثمائة روبل Roubles كانت ضرورية لاصلاح الكنيسة . وتحولت ثماني اسرات شوفاشية الى الاسلام ، فجمع المسلمون الفي روبل في خلال بضعة اشهر لبناء مسجد . وان مثل هذا النشاط الحي ليعد صفة تتميز بها الدعوة الاسلامية التي كانت منبثة بين القبائل الوطنية في ذلك الحين . وكانت كل اسرة تقبل الاسلام تتلقى المعونة عينا او نوعا : فالبيت يبنى للفرد ، ويباع الحقل والماشية وغيرها لآخر ، فاذا اسلمت اسرات كثيرة في قرية من القرى ، بني لهم مسجد ، واسست مدرسة لاطفالهم .

الاسلام بين تتار سيبيريا

وليس لدينا الا تفصيلات يسيرة عن انتشار الاسلام بين التتار في سيبيريا . ولم ترسخ قدم الاسلام في هذه البلاد الا بعد النصف الاخير من القرن السادس عشر ، ولكن دعاة المسلمين كانوا يشقون طريقهم من حين لآخر الى سيبيريا ، حتى قبل هذه الفترة ، املا في اجتذاب الاهالي الوثنيين لقبول عقيدتهم ، ولكن السواد الاعظم من هؤلاء الدعاة قد ماتوا موت الشهداء . وعندما انضوت سيبيريا تحت لواء الحكم الاسلامي ، في عهد كوتشم خان ، كشف احد الشيوخ المسنين مقابر سبعة من هؤلاء الدعاة ، وكان هذا الشيخ قد قدم من بخارى للبحث عنهم اذ كان يتطلع الى معرفة شيء عن خشوع هؤلاء الشهداء واخلاصهم في دينهم ، واستطاع ان يدلي بأسماء هذا الفريق من الشهداء ، وكانت ذكراهم لا تزال حتى القرن الاخير موضع تجلة واحترام لدى التتار في سيبيريا . ولما اصبح كوتشم خان (الذى كان من سلالة جوجي خان ، اكبر ابناء جنكيز خان) خانا على سيبيريا (حول سنة ١٥٧٠) — وكان قد اكتسب حق توليه العرش ، اما عن طريق قيامه بغزو البلاد ، او (على رواية اخرى) عن طريق دعوة الاهالي اياه لتولي العرش على اثر وفاة الخان السابق دون ان يعقب ذرية ، — بذل قصاراه في تحويل رعاياه الى الاسلام ، وارسل الى بخارى في طلب دعاة لمساعدته في هذه المهمة التي تنطوى على التدين والتقوى . وقد خلف لنا احد الدعاة الذين قدموا من بخارى اخبارا ، وصف فيها خروجه مع احد رفاقه الى حاضرة كوتشم خان ، على ضفة نهر ارتس Irtish . وهناك مات رفيقه بعد سنتين ، وقفل هو راجعا الى وطنه لاسباب لم يتعرض هذا الكاتب لذكرها . ولم يلبث الا قليلا حتى عاد الى بلاد كوتشم خان ثانية لاستئناف عمله ، وبصحبته رفيق آخر ، وذلك حين عاود

كوتشم خان بخارى بطلبه مددا من الدعاة . كذلك قدم دعاة من قزان الى سيبريا ،ولكن تقدم تيار الغزو الروسي وقف جهود كوتشم خان التبشيرية ، قبل ان ينجز منها شيئا كثيرا ،وخاصة عندما وقف كثير من القبائل التي تنضوى تحت حكمه ، يعارضون معارضة قوية كل المحاولات التي بذلها هذا الخان لتحويلهم الى الاسلام .

بيد انه على الرغم من ان الغزو الروسي وقف هذه الجهود ، لم يتوقف تقدم الاسلام في هذه البلاد بحال من الاحوال ،فقد دأب الملبات الآتون من بخارى وغيرها من مدن آسيا الوسطى ، والتجار القادمون من قزان ، على موالاة الدعوة الى الاسلام في سيبريا . وفي سنة ١٧٤٥ تسرب الاسلام لاول مرة الى قبائل التتار التي يطلق عليها Baraba Tatars (وكانت مساكنهم بين نهرى ارتس Irtish وأوب Ob) ،ومع ان كثيرا منهم كانوا حتى مستهل القرن التاسع عشر لا يزالون على الوثنية ، اصبحوا الآن مسلمين بأسرهم . وقد سبق الكلام على اسلام القرغيز : وتاريخ معظم القبائل الأسلامية الاخرى في سيبريا على جانب كبير من الغموض ،وان كان من المحتمل ان يكونوا قد اسلموا في عصر حديث . ومما هو جدير بالذكر تلك الاغاني الشعبية ، التي يتغناها القرغيز ، والتي تحتل مكانة كبيرة بين وسائل الدعاية الاسلامية في الوقت الحاضر . وقد تضمنت هذه الاغاني حقائق الاسلام الاساسية ،مصوغة في اسلوب قصصي اسطورى ، مما جعل هذه الحقائق تصل الى قلوب عامة الشعب في سهولة ويسر .



الاسلام في الاتحاد السوفييتي الآن

يقف الاسلام في الاتحاد السوفييتي بين تيارين متضادين من المؤرخين : تيار يتأثر بالمذهب الشيوعي ، فيشيد بحرية المسلمين في الاتحاد السوفييتي ، وتيار يهاجم سياسة الاتحاد السوفييتي ازاء المسلمين . والذى لا شك فيه ان الدين الاسلامي لاقى كثيرا من المحن في عهود مختلفة من جانب السوفيت ، ولعل الاتحاد السوفيتي غير سياسته تجاه الدين الاسلامي في هذه الآونة لكسب الشعوب الشرقية في مضمار السياسة الدولية .

ويظهر ان الاتحاد السوفيتي غير اتجاهه ازاء الاسلام والمسلمين منذ نهاية الحرب العالمية الاخيرة ، اذ ساهم فيها عدد كبير من المسلمين الروس من شتى المقاطعات الاسلامية والاوربية ، فرأت الحكومة الشيوعية ان تترك لهم امور العبادات ، واداء فرائضهم الدينية ، فسمح لهم بمزاولة بعض نشاطهم القديم ، وترخصوا في اقامة الاجتماعات الدينية ما لم تكن متعارضة مع النظام الشيوعي .

وتدار الجمعيات الدينية الاسلامية بوساطة اربعة مراكز دينية هي :

١ـ المجلس الديني الاسلامي للقسم الاوربي من اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية ولسبيريا ، وهو يدبر الشئون الدينية للمسلمين الذين يعيشون في القسم الاوربي من الاتحاد السوفيتي ـ باستثناء القوقاز الشمالي وداغستان ـ وفي سيبيريا . ومقر المجلس الديني مدينة (اوفا) ، ورئيسه المفتي شاكر خيال الدينوف .

٢ـ المجلس الديني الاسلامي لآسيا الوسطى وكازاخستان . وهو يدير الشئون الدينية للمسلمين الذين يعيشون في اوزبكستان، وقرغيزيا ،وتاجيكستان ، وتركمانستان وكازاخستان ، ومقره مدينة " طشقند " .

٣ـ المجلس الديني الاسلامي لما وراء القوقاز ،ومقره مدينة " باكو " ،ويدير الشئون الدينية للمسلمين من الشيعة والسنيين الذين يعيشون في اذربيجان وجورجيا وارمينيا .

وقد استطاع مسلمو (ماوراء القوقاز) السوفيتية ان ينظموا مجلسا دينيا واحدا للشيعة والسنيين معا .

وتسوى المجالس الدينية المسائل الدينية البحتة المتعلقة بالعقيدة والعبادة ، والتي تظهر في تفسيرها صعوبات او خلافات في الرأى . وقرارات المجالس الدينية في مسائل الشريعة يطلع عليها المسلمون حاملة توقيع المفتي او توقيع شيخ الاسلام . وللمفتي او شيخ الاسلام ان يصدر الفتاوى في هذه المسألة او تلك من مسائل الشريعة .

وهناك مسائل اخرى تعالجها المجالس الدينية : كتعيين الخطباء والائمة لطوائف المسلمين ، والتصديق على انتخاب الائمة بوساطة المسلمين ، وتعيينهم بعد ان تمتحن معارفهم امتحانا وافيا والوسائل المتعلقة بتعيين او فصل او نقل القائمين بخدمات العبادة الدينية ، وتوزيع الوثائق اللازمة عليهم ، وكذلك الرقابة العامة على نشاط الطوائف الاسلامية في الجمهوريات والاقاليم والمناطق ، واختيار مناهج التعليم للمدارس الدينية (سمحت لها الحكومة السوفيتية اخيرا بمزاولة نشاطها) ، ودراسات لتدريب القائمين

بخدمات العبادة الدينية ، والرقابة على تدريبهم في هذه المدارس ، ونشر المؤلفات الدينية ، والتصرف في مسائل انشاء مساجد جديدة ، وادارة المسائل المالية والادارية الخاصة بالمجالس الدينية والرقابة عليها محليا ، وتنظيم بعثات الحج الى مكة ، والاتصال بالهيئات الدينية الاجنبية للمسلمين ، ومسائل اخرى تتعلق بالعقيدة والادارة التنظيمية .

والمألوف فيما يختص بالدراسة الدينية ان يلقن رب العائلة ابناءه مبادئ الدين الرئيسية وفروضه ، وفقا لمقدرته واطلاعه . وبعد هذا الاعداد الاولي يأتي الآباء ــ اذا ارادوا ــ بمدرس خصوصي ليتابع تعليم الابناء الدين .

ولبعض العلماء في آسيا الوسطى وداغستان مثلا عدد من التلاميذ الخصوصيين . وكثيرا ما يكتشفون الطلبة القادرين ، ويوصون المجالس الدينية بالحاقهم بمدارس الدين . ومثال ذلك مدرسة " مسير عرب " في بخارى التي تعمل تحت اشراف المجلس الديني الاسلامي لآسيا الوسطى وكازاخستان . ومدة الدراسة في هذه المدرسة تسع سنوات ، يتلقى الطالب في السنوات الخمس الاولى تعليما متوسطا ، وفي السنوات الاربع الاخيرة يتلقى تعليما عاليا .

والمدرسة داخلية ، ويعيش فيها الطلاب على نفقة المجلس الديني الذي ارسلهم اليها ، ويزورون منازلهم عادة خلال العطلة الصيفية . وعند تخرجهم في المدرسة يعينهم المجلس الديني ائمة وخطباء لطوائف المسلمين ، وشيوخا للمزارات بحسب اعمارهم ومواهبهم وقد يعين بعضهم مدرسا في المدرسة نفسها .

وتعمل مدرسة " بركة خان " في طشقند بالطريقة ذاتها ،

وهي ايضا من ابرز مدارس الاسلام في آسـيا الوسـطى .

وتصدر المجالس الدينية بانتظام النتائج الهجرية وطبعـات جديدة من القرآن الكريم ، وكتب الفقهاء ، كما تصدر الفتـاوى الشرعية ، ومختلف المبادىء والتفسيرات ، متناولة مختلف المسـائل الدينية لخدمة الدين . وفي عام ١٩٤٥ صدر كتاب " الاسـلام ديني " باللغة التترية ، بقلم المفتي السابق عبد الرحمن رسوليـف ، رئيس المجلس الديني الاسلامي للقسم الاوربي من الاتحاد السوفيتي ، ولسيبيريا ، ويشرح الكتاب بالتفصيل جميع الواجبات المتعلقـة بالصلاة شرحا وافيا .

وفي اوائل عام ١٩٥٦ اصدر المجلس الديني الاسلامي لآسيا الوسطى وكازاخستان في طشقند طبعة جديدة من القرآن الكريـم باللغة العربية . وفي خريف عام ١٩٥٦ اصدر المجلس الدينـي الاسلامي للقسم الاوربي من الاتحاد السوفيتي ولسيبيريا طبعة جديدة من القرآن الكريم . كما الف المفتي شاكر خيال الدينوف ، رئيس هـذا المجلس ، كتابا جديدا صدر حديثا بعنوان " الاسلام والعبادات " .

وفي روسيا كثير من الآثار الاسلامية ، وعدد غفير من المساجد في روسيا الاوربية ، ومن اشهر هذه المساجد مسجد " لينينجراد " الذي يؤمه المسلمون هناك لاداء فريضة الصلاة كل يوم ، ويجتمعون فيه ايام الجمع والاعياد الرسمية . ويشرف عليه المجلس الديني الاسلامي للقسم الاوربي من الاتحاد السوفيتي ولسيبيريا وتجمع صلوات عيد الفطـر او عيد الاضحى في جامع " موسكو " عادة ٨٠٠٠٠ مسلم ، اما جامع تل الشيخ ــ وهو احد مساجد طشقند الستة عشر الكبيرة ــ فيتراوح عدد المصلين فيه بين ١٠٠٠٠ ــ ١٢٠٠٠ مسلم ومسلمـة ،

ان يسمح للسيدات بحضور الصلاة على ان يكن بمعزل عن الرجـــال
وفي طشقند وحدها ١٦ جامعا كبيرا ،واذا اضيفت اليهـــا الخلوات والمصليات اربت على المائة ، منها مساجد قديمة ، كمساجـد تل الشيخ ،ومساجد حديثة نسبيا ، كمساجد الرقيات ومررا يوسـف وكريل تاوش واركان كوتشا وغيرها .
وبالقرب من مدينة " مرفا " القديمة (ماري الآن) فـــي تركمانستان لا يزال المسجد الذي بني عام ٨٦٩ قائما حتى الآن . ويدعوه الناس بالجامع الحمداني ،نسبة الى الزعيم المسلم الكبيـــر الحاج يوسف الحمداني ،ويؤمه في الاعياد آلاف من المسلمين فـــي جميع انحاء تركمانستان . وبالقرب من مدينة ماري يقوم صرح من اقـدم الصروح المعمارية في آسيا الوسطى ، وهو ضريح السلطان " سنجق " الذي كان من اتباع الحاج الحمداني . وقد بني الضريح في القـــرن الثاني عشر ،وما زال محتفظا بروعته حتى الآن .
وفي اوزبكستان مسجد " بيبي هانم " زوجة تيمورلنك الاولـى ، وقد ظل محتفظا بروعته طيلة خمسة قرون كاملة . وفي نهاية القـــرن الماضي عانى كثيرا بسبب الزلازل وقد تم بناء المسجد عام ١٤٠٤ بعد خمسة اعوام من البدء في بنائه . ويقول مؤرخ " تيمورلنك" علي يزدي ، الشهير بشرف الدين ،في كتابه " ظفرنامة " ،اي كتـــاب " الانتصارات " : " ان قبته فريدة في نوعها ،وقوسه نسيج وحـده ، ومنارته ترتفع في السماء كي تقول : هذه اعمالنا تشير الينا ، فيصـل قولها اركان العالم الاربعة" .
ومن مباني سمرقند التاريخية ضريح " جور " امير مكانة كبـرى . وقد شيد بأمر تيمورلنك بين عامي ١٤٠٤–١٤٠٥ م فوق قبر احـب

ابنائه وولي عهده السلطان محمد ، المتوفي عام ١٤٠٣م . وفي داخل الضريح مجموعة من الخطوط الرائعة على القبور واصبح ضريح تيمورلنك ضريحا لاسرته بعد وفاته ، ودفن فيه اثنان من ابنائه ايضا ، هما شاروخ وميران شاه . كما دفن فيه احد ملوك اسرة تيمورلنك " اولغ بك جراجاني " .

وفي مدينة " بخارى " جامع " كليان الكبير " . ويرجع تاريخ بنائه الى عام ١٥٤١ م ، ويقع بجوار مدرسة " مسير عرب " التي يرجع تاريخ انشائها الى عام ١٥٣٦ ، ويجاور الجامع والمدرسة مئذنة طويلة اقيمت نحو عام ١١٢٧ م ، اى قبل انشاء الجامع والمدرسة .

وتوءلف هذه المباني الثلاثة البارعة ــ وهي المدرسة والمئذنة والجامع ــ مجموعة معمارية رائعة في قلب بخارى القديمة .

ومن اشهر الاضرحة التي يوءمها مسلمو آسيا الوسطى ضريح الامام " ابو بكر كفال شاشي " ، ويدعونه بالامام لشهرته في آسيا الوسطى كلها ، وضريح مولانا عطا في خيوة ، وقبر سلطان بابا في كاراكالباكيا ، وجامع تازة بير الكبير في باكو .

وتنتمي الاغلبية الساحقة من المسلمين في الاتحاد السوفيتي للطائفة السنية . اما الشيعة فهم قليلون نسبيا ، ومنهم المسلمون في اذربيجان ، وعدد ضئيل منهم يعيش في داغستان وتركمانستان ــ واوزبكستان وفي تاجيكستان يوجد اسماعيليون كما يوجد سنيون .

ويبلغ عدد المسلمين جميعا في الاتحاد السوفيتي نحو ٢٦ مليون مسلم .

ويقول " فنسنت مونتيل " : " ان عدد المسلمين يبلغ نحو ٢١ مليونا : منهم ١١ مليونا في آسيا الوسطى ، ٤,٥ ملايين في

القوقاز ، ٥ر٤ في الفولجا ، وما تبقى موزعون في انحاء البـــــلاد المختلفة " .

ويبلغ عدد المسلمين في منغوليا نحو ٠٠٠ر٢٠ . وقد دخل الاسلام اليها منذ العصور الوسطى من طريق القوافل التجارية التـــي تنتقل بين الصين ومنغوليا .

اما مسلمو القرم فمن اصل تترى مغولي ، وهم رعاة رحـــــل ، ويتبعون في الغالب المذهب الحنفي . وفي ليتوانيا ما يقرب من الفي مسلم .

والجمهوريات الاسلامية في الاتحاد السوفيتي ، هـــــي : تازاكستان ، وازبكستان ، واذربيجان ، والقرغيز ، وكازاخســـتان ، وتركمانستان . ويوجد نفر ضئيل من المسلمين في الجمهوريات غيـــر الاسلامية ، وهي : روسيا ، واكرانيا ، وبيلوروسيا (روسيا البيضـــاء) وجورجيا ، وارمينيا ، ولتوانيا ، ولتونيا ، وكرليا ، ومولدافيا .

ويبلغ عدد المسلمين في تازاكستان نحو مليون وخمسمائة الـــف مسلم ومسلمة ، وهم ينتمون الى اصل ايراني ، وزعيمهم الروحي هـــو القاضي عبد الرشيد موزابكوف .

اما ازبكستان فتبلغ نسبة المسلمين فيها ٩٣٫٠ ٪ من مجمـــوع السكان البالغ عددهم ٤٤٦ر٢٨٢ر٦ نسمة . ونسبتهم فـــي " اذربيجان " ٨٠ ٪ من مجموع عدد السكان البالغ ٧٣٠ر٢٠٩ر٣ نسمة . وفي تركستان ٨٠ ٪ من مجموع السكان البالغ عددهـــم ٩٨٥ر٥٢٣ر١ ، وهم سنيون احناف ، وزعيمهم الروحي هو الامـام الخطيب عبد الرحمن شارينوف .

وفي " القرغيز " تبلغ نسبة المسلمين ٧٨ ٪ من مجموع الســكان

وهم على مذهب اهل السنة . ونسبتهم في تازاكستان ٥٠٪ من مجموع السكان البالغ عددهم ٦٫١٤٥٫٣٧٩ .

ويحرص كثيرون من المسلمين على أداء فريضة الحج ، وزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة ، والاماكن المقدسة . وفي مكة يلتقون بالمسلمين من جميع انحاء العالم في جو تسوده المحبة وترفرف عليه ألوية السلام .

****

الاسلام في اوربا

دخل العرب اوربا عن طريقين : الطريق الاول طريق الاندلس وقد وصلوا منه الى جنوب فرنسا . والطريق الثاني طريق صقلية ومدن ايطاليا ، وقد استطاعوا ان يتوغلوا في ايطاليا ، وان يحاصروا روما مقر الحبر الاعظم . حتى ان البابا يوحنا الثامن (٨٧٣-٨٨٢ م) ظل يؤدي لهم الجزية مدة سنتين .

ثم دخل الاتراك اوربا من الشرق في القرن الخامس عشر .

وكان العرب والاتراك يحملون في هذه الفتوح الدين الاسلامي ، والثقافة الاسلامية اللذين كان لهما اثر كبير في نفوس الاوربيين ، فاعتنق بعضهم الاسلام ، واحب بعضهم الثقافة العربية حبا جما ، وعكف على دراستها والتزود منها ، وانشئت معاهد تهتم بالثقافة الاسلامية والحضارة العربية ، ونقل بعض آثار العرب الى اللغات الاجنبية . وكان تأثير الفلاسفة العرب والعلماء العرب في الحضارة الاوربية قويا ملحوظا .

الاسلام في جزر البحر الابيض

وقد فتح المسلمون جزيرة صقلية ، وظلت في حوزتهم مائة وتسعة وثمانين عاما ، وعمروا مدينة "بالرمو" ، وانشأوا فيها المساجد ، حتى ان الرحالة الجغرافي "ابن حوقل" ذكر في وصفها انه وجد فيها اكثر من مائة وخمسين حانوتا للقصابين لبيع اللحوم ، وانها تضم اكثر من ثلاثمائة مسجد ، وان مسجدهم الجامع قام فيه اكثر من ستة وثلاثين صفا للصلاة ، كل صف يحتوي على مايقارب مائتي رجل مما جعل عدد المصلين يبلغ سبعة آلاف .

وقد قامت صقلية بدور كبير في نشر الثقافة العربية والدين الاسلامي في اوربا . ولم تكن جزيرة صقلية الجزيرة الوحيدة التي احتلها العرب في حوض البحر الابيض المتوسط ، انما استولوا على بعض الجزر الاخرى ، ومنها جزيرة اقريطش " كريت " التي افتتحها عام ٢١٢هـ (٨٢٧م) بحار عربي باسل هو ابو عمر حفص بن عيسى الاندلسي . وفتح المسلمون جزيرة كورسيكا ، موطن نابليون بونابرت ومسقط رأسه ، على يد موسى بن نصير فاتح الاندلس عام ٧١٣ م ، ثم فتحوها بعد ذلك اكثر من مرة ، واستطاعوا البقاء فيها اكثر من قرن ، كما فتحوا جزيرة " سردانيا " منذ فاتحة القرن الثامن للميلاد .

وفتح العرب جزيرة مالطة عام ٢٥٥ م واستولوا على جزيرة قبرص ، وكانت بينها وبين المسلمين علاقات طيبة ، كما كانت تنقسم الى قسمين : قسم للمسلمين ، وقسم للنصارى ، وكان للمسلمين بها امير وحاكم . ويقول ابن حوقل ان جزيرتي قبرص واقريطش " كريت " كانتا جزيرتين كثيرتي الخير والمير والتجارة .

وفي رودس الآن مئات من المسلمين ، ورئيسهم الشيخ سليمان قاشلي اوغلو ، وهو مفتي رودس ، وعالم كبير ، والمسلمون اليونانيون حاربوا في عام ١٩٤٠ ضد ايطاليا واستشهد منهم مئات الشباب ، وفتحوا نصف البانيا .

الاسلام في اليونان

ويبلغ عدد المسلمين في اليونان حوالي مائة الف مسلم ، واكثرهم فلاحون يسكنون في مقاطعة ترافيا الغربية ، وعاصمتهم " كوموتيني " وحكومة اليونان تسمح بنشر الدعوة الاسلامية ، وتشجع .

الحركات الثقافية ،وتبني على حسابها المدارس الاسلامية . وفي العام الماضي نشرت ترجمة يونانية للقرآن الكريم .

والمسلمون في اليونان يبنون المساجد ،وتشجعهم الحكومة على ذلك ،وتمدهم بالمعونة والاموال . ولكن معظم حفظة القرآن في اليونان يرتلونه دون ان يدركوا معناه ومغزاه ، وبعضهم يظن ان الاسلام في المسجد وفي الاسم ،وفي دفتر تقييد المواليد واجراء عملية الختان ونحو ذلك . ولذلك كان لابد من ارسال البعوث الدينية الى البلقان لتعليم المسلمين هناك تعاليم الاسلام الصحيحة، وليفقهوهم في الدين .

وقد ساعدت القوافل التجارية على نشر الاسلام في اوربا ، الى جانب هذه الفتوحات الكبيرة التي اقدم عليها العرب : لا رغبة في سفك الدماء ، انما من اجل تأمين جانبهم ،وصيانة دولتهم ،وعملا على نشر العقيدة الاسلامية ، والمجاهدة في سبيل الله ، ولذلك نشأت واحات اسلامية في اوربا بجهود افراد من السياح والتجار المسلمين والوعاظ والزهاد .

وقد عرف المسلمون الشعوب السلافية ، وكانوا يسمونهم باسم الصقالبة منذ عهد بعيد . وقد اعتنق كثيرون منهم الاسلام، ولا سيما بعد ان استولى العرب على الساحل الشرقي للبحر الادرياتيكي اى مقاطعة دالمسيا في يوغوسلافيا الحالية . وقد كان بعض هؤلاء الصقالبة يفدون الى البلاد العربية منذ العصور الاسلامية الاولى للتزود بالثقافة العربية والتعرف الى الدين الاسلامي .

يقول ياقوت الحموى في كتابه " معجم البلدان " في تفسيره باشقارد : " وجدت بمدينة حلب طائفة كثيرة يقال لهم الباشقاردية ،

شقر الشعور والوجوه جدا ، يتفقهون على مذهب ابي حنيفة رضي الله عنه ، فسألت رجلا منهم استعقلته عن بلادهم وحالهم ، فقال : اما بلادنا فمن وراء القسطنطينية في مملكة امة من الافرنج يقال لهم " الهنكر " . ونحن مسلمون ، ولساننا لسان الافرنج ، وزينا زيهم ، ونخدم معهم في الجندية ، فسألته عن سبب اسلامهم ، مع كونهم في وسط بلاد الكفر ، فقال : سمعت جماعة من اسلافنا يتحدثون انه قدم الى بلادنا منذ دهر طويل سبعة نفر من المسلمين من بلاد بلغار وسكنوا بيننا ، وتلطفوا في تعريفنا ما نحن عليه من الضلال ، وارشدونا الى الصواب من دين الاسلام ، فهدانا الله والحمد لله ، فأسلمنا جميعا ، وشرح الله صدورنا للايمان . ونحن نقدم الى هذه البلاد ونتفقده ، فاذا رجعنا الى بلادنا اكرمنا اهلها وولونا امور دينهم . فسألته : لم تحلقون لحاكم كما يفعل الفرنج ؟ فقال : يحلقها منا المتجددون ، ويلبسون لبسة السلاح مثل الافرنج ، اما غيرهم فلا فقلت : فكم مسافة ما بيننا وبين بلادكم ؟ فقال : من هنا الى القسطنطينية نحو شهر ونصف ، ومن القسطنطينية الى بلادنا نحو ذلك "

وهكذا انتشر الاسلام في اوربا الجنوبية الشرقية . غير ان بعض الملوك ظلوا يحاربون الاسلام مثل الملك كارل الاول روبرت (١٣١٠ — ١٣٤٢ م) الذى اصدر قانونا يمنع فيه الصيام او تناول الطعام على غير الطريقة المسيحية ، ويعاقب من يمتنع عن اكل لحم الخنزير ، او يتوضأ قبل الصلاة . واغرى من يبلغ عن احد من المسلمين بتمليك جزءا من اموال المسلم . واذا قام احد بزيارة مسلم ، او دعا مسلما اليضايفه ، فعلى كليهما ان يأكلا لحم الخنزير . وهكذا اضطهد

المسلمون في هنغاريا ،ولكن المسلمين لم يلبثوا ان تحرروا من هـذا النير بموت هذا الملك ،وظلوا بين مد وجزر سنوات طويلة حتى العصر الحديث .

الاسلام في يوغوسلافيـا

اما في يوغوسلافيا فالمسلمون كثيرون منذ العصور الاولى ،ولاسيما بين قبائل البنجاك والبشناق . وقد وصف احد الرحالة حالـة المسلمين في "البوسنة" فقال : "انه لعجيب حقا ان يتغلب الاسلام في هذه البلاد الاوربية على التقاليد القومية اليوغسلافية ،حتى لينظر اليها المسلمون الآن كأنها عادات اجنبية عنهم . ولعل هـذا هو ما يميزهم عن بقية مسلمي العالم . فهم في قلب اوربا اشد تمسكا بالتقاليد والعادات الاسلامية من اخوانهم في الشرق . وقد اتيح لي ان ازور بعض بيوتهم الجبلية ، وشاهدت اساليبهم في المعيشـة ، وشعرت كأنني في بيوت العرب المتقدمين " .

وقد دخل اهل البوسنة في دين الله افواجا بعد فتحها عـام ١٤٦٣ م ،واسلموا طواعية ومن الادلة الساطعة على عدم اكراه اهالـي البوسنة على اعتناق الاسلام ما ورد في الوثيقة الموجودة في دوجـى ــ احدى البيع الارثوذكسية في هرسك ــ والمؤرخة عام ١٥٠٥ ، وجاء فيها ان كثيرا من الناس اعتنقوا الدين الاسلامي بدون اى اكـراه . وظل الاسلام يعيش بين عدد كبير من مسلمي اوربا الجنوبية الشرقيـة فترة طويلة .

وفي يوغوسلافيا اليوم جالية اسلامية كبيرة العدد تتمتع بحريتهـا الدينية الكاملة ،ويكفلها لها الدستور . وينظم المسلمون شئونهـم الدينية لانفسهم . ويقوم على المسائل الدينية مجلس الاوقاف الاعلى ،

ومقره مدينة سيراجيفو ، وينتخب ثلث اعضائه على الاقل من رجال الدين وفي يوغوسلافيا عدد كبير من المساجد ،علاوة على مئات من المكاتب الاسلامية ، ومدرسة ثانوية دينية في " سيراجيفو " التي تعد عاصمة الاسلام هناك .

وللمسلمين في يوغوسلافيا دورهم في الحياة العامة : فمنهم الوزير في الوزارة الاتحادية مثل عثمان كربيجو فتش ، وحسن بيركتش رئيس لجنة التجارة الخارجية ، ويعادل منصبه منصب وزير التجارة في الدول الاخرى . وحتى المرأة المسلمة خرجت الى الحياة العامة ، وتولت منصب القضاء ، ونابت عن الناس في البرلمان ويوجد مجلس للعلماء يتألف من اربعة اعضاء في سيراجيفو (سراى بوسنة) . وتوجد المشيخة الاسلامية في بلغراد العاصمة ، وعلى رأسها شيخ الاسلام الذى يسمى رئيس العلماء ، ويعين بالانتخاب بوساطة لجنة مكونة من اعضاء مجلس العلماء واهل الفتوى ومدير مدرسة القضاء الشرعي ومندوبي لجنة الاوقاف بمجلس النواب .

وللمسلمين في مجلس النواب ثلاثون نائبا منتخبا . ومن بينهم اعضاء مجلس العلماء ومحكمة التمييز . وهم يبحثون في هيئة خاصة مصالح المسلمين ، وخصوصا ميزانية الاوقاف والمعارف ومجالس المديريات . ولكل مديرية بها خمسة آلاف من المسلمين فأكثر محكمة شرعية ، وقاض شرعي للفصل في شئون الطلاق والزواج والميراث والاوقاف الى غير ذلك ، كما توجد محكمة عليا تسمى محكمة التمييز في سراى بوسنة .

وفي سراى بوسنة ايضا مدرسة للقضاء الشرعي ، ومدرسة للعلوم الشرعية ، ومدرسة للمعلمات والمعلمين يستطيع طلبتها اتمام

دراساتهم العالية فيما بعد في جامعات اسلامية او اوربية وفقـا لاختصاص المدارس .

الاسلام في البانيـا

اما البانيا فقد انتشر فيها الاسلام على يد الاتراك . ولما فتح الاتراك البلقان قاومهم الالبانيون اشد المقاومة بقيادة جـورج كستريوت بن حنا كستريوت . ولكن جورج لم يلبث ان اعتنق الاسـلام وظل في خدمة الجيش العثماني ، وصار من قواده وسمي اسكندر بك .

ويقدر سكان البانيا بنحو مليونين : نصفهم من المسلمين ، والنصف الثاني من الارثوذكس والكاثوليك . ويتعلم المسلمون في بعض مدارسهم القرآن الكريم . ومن اشهر المعاهد الدينية الاسلاميـة في البانيا : مدرسة تيرانا الدينية . وكلمة مدرسة باللغة الالبانيـة هي نفسها باللغة العربية . ويتخرج من مدرسة تيرانا الطلبة مفتيـن وائمة ومؤذنين ووعاظا ومدرسين للديانة .

الاسلام في المانيـا

اما المانيا فيبلغ عدد المسلمين فيها نحو تسعة آلاف مسلـم : منهم ثلاثة آلاف من الالمان ، والباقون من العرب والهند والباكستان وسائر الدول الاسلامية . والحرية الدينية مكفولة بالمانيا . وهنـاك جمعيات اسلامية في بعض المدن ، وجمعية الاخوة الاسلامية التـي يرأسها السيد احمد هارون .

وفي " فرانكفورت " جمعية المسلمين ، ورئيسها شاب المانـي اعتنق الدين الاسلامي ، ويدعى محمد امين . وفي مدينة "هامبورج " جمعية اتحاد المسلمين . وامام برلين يدعى محمد امان ، وهو عالـم

كبير ألف عدة كتب ، منها كتب مصورة للصلاة باللغة الالمانية حتى يقرب فرائض الدين الاسلامي للمسلمين الالمان ، وينوب عن الامام محمد امان السيد محمد احمد ، ويقوم بجهود تبشيرية واسعة .

والمسلمون في المانيا على اتصال دائم بمسلمي سويسرا والنمسا وهولندة وفنلندة والسويد ، ويؤدى المسلمون الالمان صلاتهم باللغة العربية . وهناك ترجمة رصينة للقرآن الكريم بهذه اللغة .

الاسلام في فرنسا

اما فرنسا فيبلغ عدد المسلمين فيها نحو مائتي الف ، منهم عشرون الفا بباريس وضواحيها ، واكثرهم من شمال افريقيا من طبقة العمال في الصناعة والتجارة .

وفي مرسيليا تكية تديرها سيدة يمنية كريمة ترحب بالضيوف واللاجئين الشرقيين . وفي باريس مسجد كبير افتتح في ١٥ يوليو سنة ١٩٢٦ ، وبه قاعة للمحاضرات . وقد بنى المسجد على الطراز الاسلامي المغربي ، وفرش بأنفس البسط والسجاجيد ، وتدلت من سقفه مجموعة فخمة من الثريات . وفي بعض ساحاته احواض رائعة مليئة بالزهور تتوسطها نافورات المياه .

الاسلام في انجلترا

اما انجلترا فيبلغ عدد المسلمين فيها نحو ثلاثين الفا . ويرجع تاريخ الاسلام فيها الى عام ١٨٨٠م حين اعتنق الاسلام اللورد استانلي اوف آلدرلي ، احد أشراف الانجليز وسفير انجلترا في تركيا وقد سمى نفسه عبد الرحمن . وفي عام ١٨٦٦ م اعتنق الاسلام المستر كويليام احد اعيان ليفربول ، وسمى نفسه عبد الله ، وكان بليغا

قوي الحجة . وقد اثار اسلامه السلطان عبد الحميد ، فاستدعباه الى تركيا ومنحه لقب بك ،وعينه شيخا للاسلام في بريطانيا ، فعاد الشيخ عبد الله كويليام الى مدينة ليفربول ، وحول جزءا من داره الى مسجد ،واصبحت داره ملتقى لمحبي الثقافة الاسلامية . وقد اصدر جريدتين اسلاميتين ،واخذ ينشر فيهما آراءه ،فكان لهما اثر كبير في نشر الاسلام في شمال انجلترا .

وظهرت في انجلترا عام ١٨٨٦ م جمعية اسلامية استمرت سبعة عشر عاما . وقد حضر من الهند الى انجلترا شوداري فاتح محمد سيال وخوجه كمال الدين ،وشرعا يدعوان للاسلام حتى اسلم على يديهما اللورد هيدلي . وتأسست في انجلترا جمعيات اسلامية منها الجمعية الغربية الاسلامية ، وتهدف الى حماية حقوق العمال المسلمين من العرب والهند والملايو والصومال ، واكثرهم يشتغل في الموانئ الانجليزية ، وايواء الغرباء المعوزين من المسلمين ، وانشاء المدارس والمساجد لتعليم ابناء المسلمين . كما تألفت في نهاية الربع الاول من القرن العشرين جمعية لايواء المسلمين الغرباء في انجلترا ،وتولى ادارتها بعض محبي الثقافة الاسلامية من الانجليز وبعض* الهنود والعرب من المسلمين .

ويوجد في مانشستر مركز للثقافة الاسلامية لاقامة الشعائر الدينية وقد منح الامام حق عقد الزواج . وفي هذا المركز قاعة لاقامة الصلوات ، وقاعة للمحاضرات ،وقاعة للاجتماعات والحفلات . والطابقان العلويان مخصصان لاقامة الطلبة المسلمين المتزوجين .

ويبلغ عدد المسلمين في مانشستر وضواحيها اكثر من ثلاثمائة مسلم ، وتلقى في المركز محاضرات اسبوعية لتعليم الدين الاسلامي

الحنيف . ويجتمع المسلمون مرة في الاسبوع ايضا للبحث في القضايا الخاصة بالمركز وبأحوالهم عامة في جامعة مانشستر . وفي الكلية الصناعية الكبيرة التابعة لها عدد لا يستهان به من الطلبة العرب والمسلمين يتلقون فيها الدراسات العالية .

اما في مدينة كارديف فتوجد جالية عربية من ابناء اليمن وعدن وبقية الامارات الاخرى ، ويبلغ عددها نحو ١٥٠٠ شخص . وهناك ايضا نحو ٦٠٠ عربي من الصومال لهم جمعية اسمها جمعية شباب الصومال . ويمتلك العرب المسلمون في كارديف بعض المطاعم والمقاهي والفنادق وحوانيت البقالة والخضر والفواكه واللحوم .

وقد بنى المسلمون في كارديف مسجدا يسمى " مسجد نور الاسلام " انشأته " جمعية نور الاسلام العلوية " . وفي كارديف زاوية اطلق عليها اسم الزاوية العلوية الاسلامية ، والحقت بها مدرسة ينفق عليها السيد علي سلمان الزبيدي من ماله الخاص . ويأمل اهل كارديف في بناء مسجد كبير لاقامة شعائرهم الدينية . وفي ضاحية " ووكنج " — وهي تبعد عن لندن ٢٨ ميلا — مسجد بني منذ ثلاثة ارباع قرن بأموال جمعت من الهند . وكانت تنفق عليه والدة المرحوم بيجوم بهوبال بالهند ، ولذلك يسمى ايضا الشاه جهان ، وفي لندن نفسها مركز ثقافي يعمل على نشر الثقافة الاسلامية ، وشرح مبادئ الاسلام .

الاسلام في اسبانيا والبرتغال

لما فتح العرب اسبانيا والبرتغال ، اطلقوا عليهما اسم " الاندلس " . وتاريخ الاسلام في الاندلس حافل بالامجاد والبطولات فقد ظل طيلة ما يقرب من ثمانية قرون يحمل مشعل الحضارة لاوربا

كلها ، ويقيم العمران ، وينشر المدنية والعدل في ربوع البـــــلاد .
وقد دافع عن كيانه حتى آخر ايامه هناك دفاعا باسلا ، ولكـــــن
شاءت الاقدار ان تحل المأساة الدامية ، ويغادر البلاد ابو عبد الله
ـ آخر سلاطين بني الاحمر في غرناطة ـ مغلوبا على امره ، ويسـدل
الستار على مجد سامق ، كان من الممكن ان يمتد فيشمل اوربا كلها .

وقد عمل العرب في الاندلس على نشر الاسلام ، وانشاء المساجد ، وتشجيع العلم حتى قال العالم دوزى : " لم يكن يوجد في بـــلاد الاندلس رجل امي واحد في الوقت الذى لم يكن في اوربا من يلـــم بالقراءة والكتابة الا طبقة القسس " . وقد انشأ الحكم الثاني وحده ٢٧ مدرسة مجانية بلوازمها كي لا يبقى احد من رعيته محروما من نعمة العلم . وكانت جامعة قرطبة اشهر من الجامعة النظامية في بغداد .

ولا تزال آثار المسلمين باقية حتى اليوم في الاندلس . ومـــن اشهر هذه الآثار قصر غرناطة الشهير بالحمراء . وهو قصر فخـــم من ابدع ما صنعته يد الانسان ، وله باب من المرمر منقوش فيه بالخط الكوفي نقشا بارزا : " هذا الباب المسمى بباب الشريعة امر ببنائـه ابو عبد الله ابن يوسف بن الحجاج الخزرجي " . واذا دخلـــت من هذا الباب استقبلك دهليز ساحته مرصوفة بالمرمر ، وحيطانـــه بدروب من اللبن الجيد . وفي جانبيه اماكن السيوف والرماح المعـدة للحرس الملكي الخاص . ثم تنتهي من هذا الدهليز الى طرقة ذات ظل واشجار واثمار ورياحين ، وبها قصر الحمراء . وقد ابدع المؤرخـون في وصف قصر الحمراء ابداعا لا مزيد عليه ، وهو يضم عدة قصور تحـوى مئات القاعات التي زينت ابدع زينة ، وزخرفت اروع زخرفة ، وفيها مـــن بديع الصنع والرواء ما يشهد بما بلغته حضارة المسلمين في الاندلس

من تقـــدم وازدهـــار .

ومن الاثار الاسلامية الباقية حتى الآن في اسبانيا " قصر اشبيلية" وهو قصر فخم بابه من خشب الصنوبر ، ومنظره بهيج جدا ، ويقع في وسط بستان عظيم يشتمل على انواع الاشجار ذات الظلال والثمـار ، وفيه برك وغدران متعددة ، وعليها مقاعد ومجالس ملوك اشبيليـــة ، وجميع السقوف والحيطان والابواب والنوافذ مزينة بالنقوش المحكمـــة البديعة ، المطلية بالذهب .

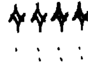
ولا تزال توجد حتى الآن قنطرة الوادى الكبير عند قرطبة ، وطولها اكثر من ٥٠٠ خطوة وعرضها نحو ٢٠ خطوة . وعليهـــا حواجز حجرية . واما قصر الزهراء الذى سارت بذكره الركبـــان والقصر الذى بناه الخليفة عبد الرحمن الداخل ، فلم يبق منهمـــا الا اطلال بالية .

اما جامع قرطبة فيقع على طرف قنطرة الوادى الكبير ، وهو مسجد عظيم يحيط به سور ضخم ارتفاعه نحو ٨ امتار ، ومبني بالاحجـار الصلدة والصخور الضخمة . وارتفاع الجامع نفسه لا يتعدى ثمانية امتار ، وطوله مائة وثمانية وستون مترا ، وعرضه مائة وخمسة وعشرون مترا . وسقفــه مرفوع على اقواس مزخرفة بالقيشاني ، معقودة على عمد من المرمـــر الملون الباهر ، وطول كل عمود منها اربعة امتار ، ويبلغ عدد الاعمـدة في الجامع تسعمائة عمود . وفي الساحة الخارجية عمد عددهـــا مائتان . وارض المسجد مرصوفة بأنواع اللبن الملون المحكم ، والمحراب والمنبر من المرمر الصافي تزينهما نقوش بديعة . وعلى المحـــراب كتبت هذه الآية الكريمة بالخط البارز الكوفي المحلى بالذهـــب " بسم الله الرحمن الرحيم : حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطـــى

وقوموا لله قانتين " ، وكتبت تحت هذه الآية بالصفة المذكورة عبارة :
" الامام الحكم امير المؤمنين " .

تلك هي اهم الآثار الاسلامية الباقية في الاندلس (اسبانيا والبرتغال) ، حتى اليوم ، وهي تشهد بما كان عليه الاسلام في تلك الآونة من قوة النفوذ وامتداد السلطان ، وعلو الذكر ، وارتفاع المكانة . ولولا ما ألم بالاندلس من اضطرابات وفتن وما فشا فيها من شحناء ومنازعات ، لامتد الاسلام الى اوربا ، واستطاع ان يتوغل فيها .

وفي اسبانيا ، حتى اليوم ، عدد من المسلمين لا يزالون يؤدون فرائضهم الدينية في البقاع التي شهدت مجد اجدادهم ، وعظمة آبائهم الاولين . وفيها معهد للدراسات العربية يقوم بخدمة طلاب العلم الذين يرغبون في استكمال ثقافتهم العربية ، كما يبين معالم الثقافة الاسلامية والدين الاسلامي لمن شاء من الباحثين والدارسين .



الاسلام في الامريكتين

الاسلام في الولايات المتحدة الامريكية

لا يمكن معرفة عدد المسلمين في الولايات المتحدة على وجه التحديد ، لانه لا توجد اى هيئة حكومية في الولايات المتحدة تحصر عدد المواطنين وفقا لديانتهم . وتقول بعض المصادر ان عددهم يبلغ (٣٢٫٥٠٠) نسمة ،في حين تقول مصادر اخرى ان عددهم يصل الى (٥٠٫٠٠٠) او (٦٠٫٠٠٠) نسمة .

وقد جاء هؤلاء المسلمون الى الولايات المتحدة من جميع البلاد الاسلامية في الشرق الاوسط وشمال افريقيا ، ومنهم البانيون — ويوغوسلافيون جاءوا من شرق اوربا ،ومنهم تتر واتراك من اواسط آسيا ، بل هناك مسلمون من جنوب آسيا وجنوبها الشرقي .

ويتركز اكبر عدد من المسلمين في الولايات المتحدة في مدينة ديترويت بولاية ميتشيجان ، ففيها نحو ١٥٠٠٠ مسلم ، اما في نيويورك فيقدر عددهم بنحو ٣٠٠٠ ، وفي شيكاغو ٢٥٠٠ ، وفي توليدو بولاية اوهايو نحو ١٥٠٠ مسلم . وهناك جماعات صغيرة متفرقة في الولايات المتحدة منهم ١٥٠ مسلما يعيشون في مدينة سيدار رابيد ، ونحو ٦٠٠ في سكرامنتو بمنطقة كاليفورنيا .

وقد عمل المهاجرون الاولون من المسلمين في مختلف الحرف والمهن التي اتقنوها ،واستطاع كثيرون ان يحسنوا مستواهم العلمي والثقافي . وكانوا في جميع الاحوال يهتمون بتعليم اولادهم ، فاحتل الجيل الثاني — وهم الموجودون الآن — مراكز بارزة في مهن الطب والقانون والمحاسبة ومارس كثيرون من المسلمين ، من ابناء الشرق الاوسط حرفة التجارة .

وهم يقرأون القرآن الكريم باللغة العربية ،وان كان بعضهم لا يجيد القراءة . وقد تلقوا تعاليم الاسلام عن آبائهم او عن امام المنطقة التي يعيشون فيها اذا كانت الجالية كبيرة ،وكان هناك مسجد لاقامة الصلاة وعقد الاجتماعات لتلقي تعاليم الاسلام .

وتوجد في مدينة " سكرامنتو " في ولاية كاليفورنيا جالية باكستانية يشتغل اكثر ابنائها في الزراعة ،وبعضهم يملك مزارع كبيرة تدر عليه آلاف الدولارات . ويملك المسلمون الباكستانيون في مدينة نيويورك ناديا خاصا بهم في حي مانهاتن اطلقوا عليه نادي العصبة الاسلامية . وتهتم هذه الجمعية الاسلامية بالشئون الدينية المتعلقة بالمسلمين الباكستانيين في نيويورك ، واكثرهم يشتغل في المصانع او يدير بعض المطاعم الشرقية او نحو ذلك .

وفي بروكلين جالية يمنية تحمل الطابع اليمني في حياتها ، وهي حوالي ٣٠٠ شخص ، وقد اتجه اكثرهم الى العمل في المصانع او المعامل او نحو ذلك .

وتوجد في نيويورك جالية سودانية واخرى سورية ولبنانية ، وتعيش هذه الجاليات مع الجاليات الاسلامية الاخرى في تعاون ومودة واخاء .

وقد قام الزنوج في امريكا بدور كبير في نشر الاسلام . ومن الذين قاموا بالتبشير له في حي " هارليم " — وهو حي الزنوج في نيويورك — رجلان من المسلمين عام ١٩٣١ م : احدهما زنجي يدعى صوفي عبد الحميد ، نشأ في شيكاغو ، وعاش فترة من حياته في الشرق الاوسط . اما الآخر فكان يدعى حافظ الحكيم ، وكان متضلعا في العلوم الاسلامية . وقد صادفت دعوتهما هوى في قلوب كثيرين من الزنوج لانهما اعلنا لهم ان الدين الاسلامي هو دين المساواة ، ولا فضل

لعربي على عجمي الا بالتقوى ، وان اكرمكم عند الله اتقاكم ،وان الله لا ينظر الى الوان الناس ولا الى صورهم ، انما ينظر الى قلوبهم واعمالهم .

وقد ظلا يدعوان الناس الى حضور دروسهما الدينية في الدار التي خصصت لذلك حتى بلغ عددهم عام ١٩٣٦ (٣٠٠) شخص ، اسلم منهم (٢٥٠) شخصا .

وفي عام ١٩٣٨ م قام احد تلاميذ صوفي وحافظ ، ويدعى عبد الودود ، بتأسيس المركز الاسلامي الغربي الوطني في هارليم ، وطفق ينظم هو وزوجته " رزقه " الاجتماعات الدينية لنشر التعاليم الاسلامية بين زنوج نيويورك . وفي عام ١٩٤٢ قامت سيدة هندية تدعى البيجوم عطية بتأسيس المعهد الاسلامي . وبعد سنتين اسس عبد الودود الجمعية الاسلامية الدولية .

ويقوم محمد جواد تشيرى ، الملقب بخادم الشريعة الاسلامية في امريكا ، بدور كبير في الدعوة الى الدين الاسلامي في الولايات المتحدة . وقد نشأ في مدينة النجف بالعراق ، وسافر في عام ١٩٣٦ الى لبنان ، وهناك درس اصول الدين والشريعة ، ثم سمع به بعض اللبنانيين المسلمين المهاجرين في ديترويت بولاية متشيجان الامريكية ، فدعوه للاقامة هناك لتفقيه الكبار وتعليم الصغار . فسافر اليها في مارس عام ١٩٤٩ . وكان في اول عهده هناك يدرس باللغة العربية لمن يعرفها حتى تعلم هو اللغة الانجليزية واتقنها ، وبدأ يعظ بها .

اما لقب خادم الشريعة الاسلامية فقد اطلقه عليه مسلمو امريكا لانه وقف حياته على خدمة الدين . وقد تبرع السيد الرئيس

جمال عبد الناصر بمبلغ ٤٤ الف دولار لانشاء مركز اسلامي في ديترويت يقوم بخدمة جميع المسلمين على اختلاف مذاهبهم ، ويبلغ عددهم نحو ١٥٠٠٠ . ويدير هذا المركز مجلس ادارة منتخب من اعضاء الجالية الاسلامية يتولى جمع الاكتتاب لاستكمال المشروع الذى يتكلف حوالي ٢٠٠٠٠٠ دولار .

وقد تقرر تزويد مساجد ديترويت بمكتبات تساهم فيها وزارتا التربية والتعليم والاوقاف والمؤتمر الاسلامي والازهر ، وفيها يتم تعليم اللغة العربية والدين للناشئين والكبار على السواء ، كما سيختار لهذه المساجد والمراكز ائمة من الازهر . ويسمى زعيم المسلمين في ديترويت الامام وهبي اسماعيل ، وهو من مواطني البانيا السابقين .

وفي توليدو بولاية اوهايو يقوم الشيخ كامل (عود تيش) بالدعوة الى الاسلام . وقد تلقى علومه في كلية اسلامية في يوغسلافيا ، ثم التحق بالازهر وتخرج فيه ، ثم عمل مدرسا ومترجما في القاهرة بعض الوقت ، ثم دعته الجالية الاسلامية في شيكاغو عام ١٩٤٦ ليكون اماما . وفي عام ١٩٥٨ انتقل الى توليدو في ولاية اوهايو ، وكان يدرس اللغة العربية ، ويفسر القرآن الكريم ، ويؤم المصلين . كما كان يدعى لعقد الزواج بين الطوائف الاسلامية في مختلف مدن الولاية ، ويلقي ست محاضرات على الاقل شهريا في مختلف الموضوعات الاسلامية .

وفي امريكا الآن نحو اثني عشر مسجدا ، وفي مقدمتها مسجد واشنطن الجديد ، واصغرها مسجد الجالية الباكستانية في مدينة سكرامنتو في ولاية كاليفورنيا . وهناك غير ذلك عدد كبير من المصليات. وربماكان اول مسجد بني في نصف الكرة الغربي هو مسجد الجالية السورية اللبنانية في ديترويت . وقد تم انجازه في عام ١٩٢٢ م ، غير ان

الجالية شرعت في بناء مسجد آخر . واكبر مسجد قديم في امريكا هـو مسجد ولاية ايوا الذى تم بناؤه عام ١٩٣٥ م . ويوجد في نيويورك مسجد متوسط يؤمه كثيرون من الجالية التترية البولندية .

وفي مدينة لوس انجلوس بنى رجل امريكي اعتنق الأسلام، اسمه محمد عبد الله رينولدز ، مسجدا على شاطئ امريكا الغربي .

اما مسجد واشنطن فهو اكبر المساجد الامريكية واجملها . وقد الحق به معهد للدراسات الاسلامية ، ومركز للتعاون الثقافي بين الشرق والغرب ، ومكتبة تضم آلاف الكتب القيمة من جميع انحاء العالم . وللمركز جناح لسكنى المدير والمكاتب التابعة للمعهد .

وقد استقبل المركز الاسلامي كثيرا من كبار الضيوف المسلمين مثل الرئيس الاندونيسي احمد سوكارنو ، وشاه ايران ، وملك المغرب ، وملك المملكة العربية السعودية ، ورئيس وزراء افغانستان ، وكثيرين غيرهم من الضيوف الممتازين من جميع انحاء العالم الاسلامي .

ويفتح المركز الاسلامي في واشنطن ابوابه في شهر رمضان المبارك لصلاة التراويح . وفي عيد الفطر المبارك وعيد الاضحى يجتمع مئات من المسلمين في المساجد لاداء فريضة الصلاة ، ولتبادل التهاني بهذا اليوم السعيد .

وقد تكلف بناء المركز الثقافي الاسلامي في واشنطن ٣ ملايين دولار ، وساهمت جميع الدول الاسلامية في بنائه . وقد تبرع السيد يوسف ابو الهوى بربع مليون دولار لبناء هذا المركز ، واقامت شركة البترول العربية السعودية ، ومركزها الظهران ، حديقة فيحاء مليئة بالزهور الجميلة ، والاشجار المنسقة حول المركز فزادته جمالا وروعة .

ويوجد في مدينة " سان فرانسيسكو " مركز ثقافي اسلامي ، يرأسه طبيب ايطالي اعتنق الاسلام ، وهو الدكتور كابريو . ويشغل منصب امين الصندوق احد اطباء الاقليم الشمالي ، ويعمل في احد مستشفيات مدينة " سان فرانسيسكو " . ووكيلة المركز سيدة امريكية اعتنقت الدين الاسلامي ، وسمت ابناءها اسماء عربية مسلمة ، وهي صاحبة اياد بيض على المركز الاسلامي في " سان فرانسيسكو " .

وقد عقد المسلمون في الولايات المتحدة في صيف عام ١٩٥٤ موءتمرا في مدينة شيكاغو ، حضره مندوبون كثيرون من شتى الجمعيات الأسلامية ، واشترك فيه من الاقليم الجنوبي الدكتور محمود الشواربي الاستاذ بجامعة ماريلاند ، وقرر الموءتمر تكوين اتحاد يسمى " اتحاد المنظمات الاسلامية في الولايات المتحدة وكندا " ، وانتخب السيد عبد الله عجوم اول رئيس لاول اتحاد اسلامي في نصف الكرة الغربي ، لما قام به من جهود كبيرة ، وما بذله من مساع مشكورة في تكوين هذا الاتحاد .

وقد اقامت هذه المنظمة الاسلامية دعائم دستورها على الآية القرآنية الكريمة " واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا " . والهدف الذى يرمي اليه دستور هذا الاتحاد هو تنمية روح الاسلام وفلسفته واخلاقه وثقافته بين اعضاء المنظمة واطفالهم ، وايضاح روحه ومبادئه السامية عن طريق النشرات وغيرها .

وفي يونية عام ١٩٥٨ عقد اتحاد الجمعيات الاسلامية في الولايات المتحدة وكندا موءتمره السابع الذى استغرق ثلاثة ايام ، وحضره ٧٠٠ مندوب يمثلون ٤٥ اتحادا اسلاميا في امريكا الشمالية . وقد بدأ الموءتمر بحفلات التعارف ، ثم بصلاة الجمعة .

وانشيء في نيويورك مجلس اسلامي اعلى لمدينة نيويورك ، مثل فيه كثير من الجمعيات الاسلامية ، وهي : جمعية اتحاد وادي النيل وجمعية الاتحاد النوبي السوداني ، وجمعية شمال افريقيا الامريكية ، وجمعية الاتحاد الباكستاني بأمريكا ، والجمعية اليمينية الامريكية ، والجمعية الدولية الاسلامية ، والجمعية الاندونيسية ، والجمعية الاسلامية الامريكية ، والارسالية الاسلامية الامريكية ، وجمعية الملايو الامريكية ، والاتحاد العام للجمعيات المراكشية ، وجمعية الشباب الاسلامي ، والجمعية الثقافية للسيدات المسلمات .

ويقوم الشيخ وهبي اسماعيل — وهو عالم الباني درس في الجامع الازهر ، ويرأس الجمعية الاسلامية الالبانية في مدينة "دترويت" بولاية ميتشجان — باعداد دليل عام للمسلمين في الولايات المتحدة الامريكية وكندا . وليس من شك في ان اتمام هذا العمل العظيم سوف يعود بفائدة كبيرة على المسلمين هناك ، ويوضح للبلاد العربية سفراءها المسلمين الذين يقومون بدورهم في خدمة القضايا الاسلامية والعربية في صمت وسكون ، ودون صخب ولا ضوضاء .

كما تعمل جمعية التعريف الدولي للاسلام على طبع عدد من النشرات والكتيبات . ومن بينها نشرات عن الفكرة الدولية في الاسلام ، وحقوق المرأة في الاسلام ، والنظم الاقتصادية في الاسلام ، وآراء فلاسفة العرب وعلمائه في الاسلام ، ولماذا اسلمنا ، وفضل الاسلام على الحضارة الغربية ، ونظرة الاسلام الى الرق والرقيق ، والاسلام والتسامح الديني ، والاخاء الدولي الاسلامي ، والاسلام والديموقراطية ، والحرية والاخاء والمساواة في الاسلام ، وآراء بعض من اسلموا من المثقفين الاوربيين والامريكيين .

وتقوم الجمعية بطبع هذه النشرات بناء على توصيات سكرتيـــــر جمعية التعريف الدولي بالاسلام وهو الدكتور محمود يوسف الشواربي صاحب كتاب "الاسلام في امريكا".

الاسلام في امريكا الجنوبية

يقال ان العرب حاولوا اكتشاف امريكا الجنوبية في القرن العاشر للميلاد او اوائل القرن الحادى عشر. ويستند اصحاب هذه الروايـة الى ما كتبه الادريسي المؤرخ المعروف في كتابه "نزهة المشتاق فـــي اختراق الآفاق"، من ان جماعة من مسلمي الاندلس، من اهـــل الحامة، على مقربة من لشبونة، يعرفون بالمغرورين ــ وهم ثمانيـــة فتيان اخوة او ابناء عم ــ انشأوا لهم مركبا كبيرا، وشحنوا فيه مـــن الماء والزاد ما يكفيهم لاشهر، ثم خرجوا الى بحر الظلمات من ثغـــر لشبونة عند مهب الريح الشرقية، وساروا في الغرب نحو احد عشر يوما، وصادفوا مهالك كادت تودى بهم، حتى انقذهم لفيف من البـــربر، واعلموهم ان بينهم وبين الاندلس مسيرة شهرين، وان المكان الـــذى رسوا فيه يقع في اقصى المغرب. ولا يستبعد ان يكون الشاطــــئ الذى رسوا فيه جزيرة سان بول او احدى جزر فرناند و دى نورونهــــا الواقعة في مياه امريكا الجنوبية على مسافة نحو مائة وخمسين ميلا من شرق البرازيل، فان مثل هذه المدة التي قطعوها تحملهم الى هـــذه المنطقة ولا يستبعد بعد ذلك ان يكون هؤلاء العرب قد استوطنـــوا هذه الجزيرة، ثم توغلوا في القارة الجنوبية، ونشروا دين الاســـلام هناك بين طائفة من الناس.

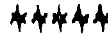
وفي اقاليم امريكا الجنوبية مسلمون يقومون بدور كبير في ميــــدان

الحضارة والتقدم ، ويعيشون جنبا الى جنب مع اهالي البلاد في مودة واخاء . ويبلغ عدد المسلمين في امريكا الجنوبية نحو ٣٠٠٠٠٠ نسمة على حسب الاحصائية التي اصدرتها جمعية تقريب المذاهب الاسلامية والتي يرأسها العالم الايراني الشيخ تقي الدين القمي .

ويقوم المسلمون بأداء شعائرهم الدينية في المساجد والجوامع المنتشرة في احياء متفرقة من اقاليم امريكا الجنوبية .

وهنالك عدد كبير من الزنوج المسلمين ، الذين اسلموا نتيجة لاختلاطهم بالعرب الوافدين من اسبانيا وبلاد المغرب ، ومن الوطن العربي بوجه عام ، ولاطمئنانهم الى ان الاسلام هو دين المساواة ، ولايمانهم بأن لا خلاص لهم — في هذا العالم المتطاحن — الا باعتناقهم دينا لا يجد رسوله العربي فضلا لعربي على عجمي الا بالتقوى ، وتمسكهم بشريعته .

الله فوق الخلق فيها وحده   والناس تحت لوائها اكفاء



مستقبل الاسلام في العالم

اتجاه العالم بأسره الى الجاهلية :

لاسباب تاريخية عقلية ، طبعية قاسرة ، تحولت اوربا جاهلية مادية ، تجردت من كل ما خلفته النبوة من تعاليم روحية ، وفضائل خلقية ، ومبادئ انسانية ، واصبحت لاتؤمن في الحياة الشخصية الا باللذة والمنفعة المادية ، وفي الحياة السياسية الا بالقوة والغلبة ، وفي الحياة الاجتماعية الا بالوطنية المعتدية ، والجنسية الفاشمة ، وثارت على الطبيعة الانسانية ،والمبادئ الخلقية ، وشغلت بالآلات ، واستهانت بالغايات ،ونسيت مقصد الحياة ، وبجهادها المتواصل في سبيل الحياة وبسعيها الدائب في الاكتشاف والاختبار مع استهانتها المستمرة بالتربية الخلقية وتغذية الروح وجحودها بما جاءت به الرسل ، وبامعانها في المادية ،وبقوتها الهائلة مع فقدان الوازع الديني ، والحاجز الخلقي ، اضبحت فيلا هائجا ، يدوس الضعيف ، ويهلك الحرث والنسل ، وبانسحاب المسلمين من ميدان الحياة ،وتنازلهم عن قيادة العالم وامامة الامم ،وبتفريطهم في الدين والدنيا ، وجنايتهم على انفسهم وعلى بني نوعهم ، اخذت اوربا بناصية الامم ، وخلفتهم في قيادة العالم ،وتسيير سفينة الحياة والمدنية التي اعتزل ربانها ، وبذلك اضبح العالم كله ــ بأممه وشعوبه ومدنياته ــ قطارا سريعا تسير به قاطرة الجاهلية والمادية الى غايتها ، واصبح المسلمون ــ كغيرهم من الامم ــ ركابا لا يملكون من امرهم شيئا ، وكلما تقدمت اوربا في القوة والسرعة ، وكلما ازدادت وسائلها ووسائطها ، ازداد هذا القطار

البشرى سرعة الى الغاية الجاهلية حيث النار والدمار والاضطراب والتناحر والفوضى الاجتماعية والانحطاط الخلقي والقلق الاقتصادي والافلاس الروحي ، وها هي اوربا تستبطيء الآن اسرع قطار ، وتريد ان تصل الى غايتها بسرعة الطائرة بل بسرعة القوة الذرية .

استيلاء الفلسفة الاوربية على العالم :

وليس على وجه الارض اليوم امة او جماعة تخالف الامم الغربية في عقائدها ونظرياتها وتزاحمها في سيرها وتعارضها في وجهتها وتناقشها في مبادئها وفلسفتها الجاهلية ، ونظام حياتها المادى لا في اوربا ولا في امريكا ، ولا في افريقية وآسيا ، والذى نرى ونسمع من خلاف سياسي ونزاع بين الامم فانما هو تنافس في القيادة ، وتنازع فيمن يكون هو القائد الى هذه الغاية المشتركة ، فدول المحور انما كانت تكره ان يبقى الحلفاء مستبدين بالقيادة العالمية منذ زمن طويل مستأثرين بموارد الارض وخيراتها واسواقها ومستعمراتها ، وبشرف السيادة على العالم وحدهم مع انها لا تقل عنهم في القوة والعلم والنظام والنبوغ والذكاء ، بل ربما تفوقهم ، اما انها كانت تريد ان تسير الى غاية اخرى وان تقوم بدعوة المسيح ، وتقيم في الارض القسط ، وان تقود الامم الى الدين والتقوى وتنصرف بها وتتجه من المادية الى الروحانية والاخلاق ، فهيهات هيهات .

اما روسيا الشيوعية فليست الا ثمرة الحضارة الغربية ، قد اينعت وادركت ، ولا تمتاز عن الشعوب والدول الاوربية الا ان روسية قد خلعت جلباب النفاق والزور ونفذت ما تزوره وتبطنه الامم الغربية منذ زمن طويل ، وتعتقده منذ قرون في الاخلاق والاجتماع ، وقد استبطأت

روسية سير هاتيك الامم والدول في سبيل اللادينية والمادية ، فهي تريد ان تتولى قيادة العالم ، وتسير بالامم الانسانية سيرا حثيثا الى ما وصلت اليه .

الشعوب والدول الآسيوية :

اما الشعوب والدول الآسيوية والامم الشرقية فهي في طريقها الى الغاية التي وصلت اليها شعوب اوربا في الحضارة والسياسة وتدين بما تدين به هذه الشعوب في الاخلاق والآداب والاجتماع ، وتعتقد ما تعتقده عن الحياة والكون ، وتتحلى بما تتحلى به من سيرة وخلق وتهذيب ، الا انها لا ترضى ان يتولى امرها النزلاء الاجانب ويقيموا عليها الحجر كما يقام على السفيه ، وان تكون للاوربيين عليها دول وامبراطوريات ينعمون في ظلها ويرتعون في جنباتها ، ولا يكون لها مثلها في الشرق وافريقية وآسيا ، ولا تستمتع حتى في داخل بلادها بما استمتع به الاوربيون طويلا حتى في خارج بلادهم . اما انها تنكر على الاوربيين ما يتهم وتنقم منهم اخلاقهم وسيرتهم وتنعى عليهم فلسفتهم ومبادئهم فلعل ذلك لا يخطر منها على بال ، بل قد زين لها كل ما تتصف به الامم الاوربية فحلى في عينها .

وكلما سنحت لهذه الامم فرصة الاستقلال وملكت زمام امورها تجلت اخلاقها ومبادئها وظهرت سيرتها الجاهلية في صورتها الطبيعية الحقيقية ، فاذا هي افظع صورة وابشعها في التاريخ ، قساوة قلب وضراوة بالدم الانساني وهتكا للاعراض ونهبا للاموال وقتلا وتدميرا ، وقد ظهرت من بعض هذه الشعوب الآسيوية على اثر استقلالها من الحكم الاجنبي فظائع ومنكرات تستبشعها الوحوش والسباع وتستك منها الاسماع ، فقد عاملت بعض الشعوب المواطنة

بعصبية دينية وسياسية ، معاملة عز نظيرها في التاريخ ، رضعـــاء يقتلون ويقطعون اربا اربا ، ونساء تهتك اعراضهن ثم يقتلن من غيــر رحمة ولا حياء ، وآبار تسمم وبيوت تهدم ونيران تشعل وقنابل تقـذف ، واذا دخلوا قرية فاتحين منتصرين افسدوها وجعلوا اعزة اهلهـــا اذلة ووضعوا فيها السيف ، وعاث الوحوش في الدماء والاعراض حتى اقفرت القرى ، وامتلأت الابار بالسيدات اللاتي آثرن الموت على هتك الاعراض ، هذا عدا نساء قتلن بهمجية وطرق فظيعة لم تسبق في التاريخ الى غير ذلك من الافاعيل التي يشك فيها الناس في البلاد الاسلاميـة والمتحضرة .

هذا غير ذلك الاضطهاد الديني والمقاطعة الاجتماعية التـــي تلقاها تلك الطوائف في بلادها ، وما تلقى ثقافتها ودياناتها من مطاردة ومهاجمة من تلقاء هذه الشعوب فتحرم الحرية الثقافية واللسانية وترغـم على لغة مصطنعة دائرة ، ويحاول الاقوياء ان يمحوا كل اثر من آثـــار حضارتها وثقافتها ويختلقوا عليها الاكاذيب والجنايات ، ويمثلـــوا قصة الحمل والذئب كل يوم ، فيعزل رجالها من الوظائف وتسد فـــي وجوههم ابواب المعاش والتجارة والحرف ، وتقفل دكاكينهم ومحالهـــم التجارية وتصادر املاكهم واموالهم بعلل واهية مضحكة .

ثم ان هذه الامم افلست افلاسا شائنا في الدين والاخلاق ، وقد اشربت في قلوبها حب المال والمادة ، وتسلط عليها شيطان الاشـــرة والجشع حتى ضجت منها الحكومات وتعبت ، فقد ارتفعت الاســعار ارتفاعا فاحشا ، فلما التجأت الحكومة الى التسعير اختفت الســلع والاموال ، واصبح الناس ، لا يجدون كسوة ولا طعاما ولا حاجة الا بالسعر الذى يريده التاجر ، فنفقت السوق السوداء وشاعت الجنايـات

والخيانات والارتشاء والتهريب ،واصبحت الحكومة والتجار كفرسي رهان او قرني ميدان ،كل يريد ان يغلب صاحبه وينتهز فرصته ، واصبح الناس حبة بين حجرى الرحى لا يدرون كيف يفعلون .

وقد حاول رجال الاصلاح والديانة ان ينفخوا في هذه الامم حياة جديدة ويبثوا فيها روح الاخلاق والفضيلة والامانة والاقتصاد — فأخفقوا اخفاقا تاما ،وعلموا ان خلق امة بأسرها اهون من اصلاح هذه الامم وتهذيبها وقد انقطعت مادتها وانقضى اجلها .

وهكذا اصبح العالم شرقا وغربا في ازمة روحية وخلقية واجتماعية واقتصادية تطلب حلا سريعا عاجلا .

الحل الوحيد للازمة العالمية :

والحل الوحيد هو تحول القيادة العالمية وانتقال دفة الحياة من اليد الاثيمة الخرقاء التي اساءت استعمالها الى يد اخرى بريئة حاذقة .

ان تحول القيادة من بريطانيا الى امريكا ومنهما جميعا الى روسيا لا يغني غناء ولا يغير من الموقف شيئا ، فان هذا التحول ليس الا نقل المجداف من اليمين الى الشمال اذا تعبت الاولى او بالعكس ، فما دام المجداف واحد فلا فرق بين يمينه وشماله ، وليست بريطانيا وامريكا وروسيا الا ايدى رجل واحد تتداول دفة الحياة ،وتتناوب تجديف السفينة على خط واحد الى جهة واحدة .

ان التحول المؤثر الواضح هو تحول القيادة من اوربا — بالمعنى الواسع الذى يشمل بريطانيا وامريكا وروسيا ومن كان على شاكلتها من الامم الآسيوية والشرقية — التي تقودها المادية والجاهلية ، الى

العالم الاسلامي الذى يقوده سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم برسالته الخالدة ودينه الحكيم .

هذا هو التحول الذى يغير وجه التاريخ ، ويحول مجرى الامور وينقذ العالم من الساعة الرهيبة التي ترقبه .

ان حقا على العالم الاسلامي ان يمني نفسه بهذا المنصب الخطير ، ويطمح اليه ، وان حقا على كل بلد اسلامي وشعب اسلامي ان يشد حيازيمه لذلك ، وان حقا على كل مسلم ان يجاهد في سبيله ويبذل ما في وسعه ، فهذه هي المهمة الشريفة التي نيطت بالامة الاسلامية يوم برزت الى عالم الوجود ، ويوم ظهرت نواتها في جزيرة العرب .

العالم الاسلامي على اثر اوروبا :

من الغريب الواقع ان المسلمين قد اصبحوا في الزمن الاخير في كثير من نواحي الارض حتى في مراكز الاسلام وعواصمه حلفاء للجاهلية الاوربية وجنودا متطوعين لها ، بل صار بعض الشعوب والدول الاسلامية يرى في الشعوب الاوربية التي تزعمت حركة الجاهلية منذ قرون ونفخت فيها روحا جديدة ، وركزت اعلامها على الشرق والغرب ناصرا للمسلمين ، حاميا لذمار الاسلام المستضعف ، حاملا لراية العدل في العالم قوآما بالقسط .

ورضي عامة المسلمين بأن يكونوا ساقة عسكر الجاهلية بدل ان يكونوا قادة الجيش الاسلامي ، وسرت فيهم الاخلاق الجاهلية ومبادئ الفلسفة الاوروبية سريان الماء في عروق الشجر والكهرباء في الاسلاك ، فترى المادية الغربية في البلاد الاسلامية في كثير من مظاهرها

وآثارها ، ترى تهافتا على الشهوات ونهما للحياة نهم من لا يؤمن بالآخرة ، ولا يوقن بحياة بعد هذه الحياة ، ولا يدخر من طيباتها شيئا . وترى تنافسا في اسباب الجاه والفخار وتكالبا عليها فعل من يغلو في تقويم هذه الحياة واسبابها ، وترى ايثارا للمصالح والمنافع الشخصية على المبادئ والاخلاق ، شأن من لا يؤمن بنبي ولا بكتاب ولا يرجو معادا ، ولا يخشى حسابا . وترى حبا للحياة وكراهة للموت ، دأب من يعد الحياة الدنيا رأس بضاعته ، ومنتهى امله ، ومبلغ علمه ، وترى افتتانا بالزخارف والمظاهر الجوفاء كالامم المادية التي ليس عندها اخلاق ولا حقيقة حية ، وترى خضوعا واستكانة للانسان حيث يملك المال او القوة او المنصب والجاه شأن الامم الوثنية وعبدة الاضنام .

المسلمون على علاتهم موئل الانسانية وامة المستقبل :

ولكن برغم كل ما اصيب به المسلمون من علة وضعف فانهم هم الامة الوحيدة على وجه الارض ، التي تعد خصيم الامم الغربية وغريمتها ومنافستها في قيادة الامم ، ومزاحمتها في وضع العالم والتي يعزم عليها دينها ان تراقب سير العالم وتحاسب الامم على اخلاقها واعمالها ونزعاتها ، وان تقودها الى الفضيلة والتقوى ، والى السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة ، وتحول بينها وبين جهنم بما استطاعت من القوة ، والتي يحرم عليها دينها ويأبى وضعها وفطرتها ان تتحول امة جاهلية .

هذه هي الامة التي يمكن ان تعود في حين من الاحيان خطرا على النظام الجاهلي الذى بسطته اوروبا في الشرق والغرب وان تحبط مساعيها .

وقد وصف هذا الخطر شاعر الاسلام الحكيم " محمد اقبال " في قصيدته البديعة : (برلمان ابليس) على لسان ابليس ، ذكر فيها ان الشياطين وزملاء ابليس واعوانه اجتمعوا في مجلس شورى ، وتباحثوا في سير العالم واخطار الغد وفتنه ، وما يتوجسون من خيفة على نظامهم الابليسي ومهمتهم الشيطانية ، فتذاكروا في فتن واخطار قد احدقت بهم وهددت نظامهم ، وحللوا خطبها وتناذروا شرها ، فذكر احدهم الجمهورية وحسب لها حسابا كبيرا ، فقال الثاني : لا يهولنك امرها فانها ليست الا غطاء للملوكية ، ونحن الذين كسونا الملوكية اللباس الجمهوري ، اذ رأينا الانسان بدأ يتنبه ويفيق ويشعر بكرامته ، وخفنا ثورة على نظامنا قد لا تحمد عاقبتها ، فألهيناه بلعبة الجمهورية ، وليس الشأن في الامير والملك . ان الملوكية لا تنحصر في وجود شخص ترتكز فيه الملوكية وفرد يستبد بالسلطان ، انما الملوكية ان يعيش الانسان عيالا على غيره مستشرفا الى متاع غيره ، سواء في ذلك الشعب والفرد . اما رأيت نظام الغرب الجمهوري وجه مشرق وضاح وباطنه اظلم من باطن جنكيزخان .

فقال الآخر : لا بأس اذا بقيت روح الملوكية ، ولكن ماذا يقول النائب المحترم في هذه الفتنة الدهماء التي اثارها هذا اليهودي الذي يدعى كارل ماركس ذلك الباقعة الذى ليس نبيا ولكنه يحمل عند اتباعه كتابا مقدسا ، هل عندك نبأ أنه اقام العالم واقعده ، واثار العبيد على السادة حتى تزعزت مباني الامارة والسيادة ؟

فقال الآخر مخاطبا رئيس المجلس : ياصاحب الفخامة ، ان سحرة اوربا وان كانوا مريديك المخلصين ولكني لم اعد اثق بفراستهم ها هو السامري اليهودي الذي هو نسخة من مزدك (الزعيم الفارسي

الا باحي) قد كاد يأتي على العالم بقواعده فاستنسر البغاث ، واصبح الصعاليك يزاحمون الملوك بالمناكب ويدفعونهم بالراح (اعلام ارض جعلت بطائحا) انا قد استهنا بخطب هذه الحركة الاباحية وها هي قد استفحلت وتفاقم شرها ، وها هي الارض ترجف بهول فتنة الغد ، ياسيدى ان العالم الذي كنت تحكمه سينقض عليك ، وينقلب نظام العالم ظهرا لبطن .

فتكلم رئيس المجلس (ابليس) وقال : اني املك زمام العالم واتصرف به كيف اشاء ، وسيرى العالم عجبا اذا حرشت بين الامم الاوربية فتهارشت تهارش الكلاب ، وافترس بعضها بعضا فعل الذئاب واذا همست في آذان القادة السياسيين واساقف الكنائس الروحانيين فقدوا رشدهم وجن جنونهم .

اما ما ذكرتم عن الاباحية المزدكية فكونوا على ثقة ان الخرق الذى احدثته الفطرة بين الانسان والانسان لا يرفوءه المنطق المزدكي لا يخوفني هوءلاء الطرداء والصعاليك السفهاء .

ان كنت خائفا فاني اخاف امة لا تزال شرارة الحياة والطموح كامنة في رمادها ، ولا يزال فيها رجال تتجافى جنوبهم عن المضاجع وتسيل دموعهم على خدودهم سحرا ، لا يخفى على الخبير المتفرس ان الاسلام هو فتنة الغد وداهية المستقبل .

انا لا اجهل ان هذه الامة قد اتخذت القرآن مهجورا ، وانها فتنت بالمال وشغفت بجمعه وادخاره كغيرها من الامم ، انا خبير ان ليل الشرق داج مكفهر ، وان علماء الاسلام وشيوخه ليست عندهم تلك اليد البيضاء التي تشرق لها الظلمات ويضيء لها العالم ، ولكني

اخاف ان قوارع هذا العصر وهزته ستقض مضجعها وتوقظ هذه الامة وتوجهها الى شريعة (محمد صلى الله عليه وسلم) . اني احذركم وانذركم من دين محمد (صلى الله عليه وسلم) حامي الذمار، حارس الذمم والاعراض ، دين الكرامة والشرف ، دين الامانة والعفاف ، دين المروءة والبطولة ، دين الكفاح والجهاد ، يلغي كل نوع من انواع الرق ، ويمحو كل اثر من آثار استعباد الانسان ، لا يفرق بين مالك ومملوك ، ولا يؤثر سلطانا على صعلوك ، يزكي المال من كل دنس ورجس ويجعله نقيا صافيا ، ويجعل اصحاب الثروة والملاك مستخلفين في اموالهم امناء لله وكلاء على المال . واى ثورة اعظم واى انقلاب اشد خطرا مما احدثه هذا الدين في عالم الفكر والعمل يوم صرخ ان الارض لله لا للملوك والسلاطين .

فابذلوا جهدكم ان يظل هذا الدين متواريا عن اعين الناس وليهنكم ان المسلم بنفسه هو ضعيف الثقة بربه قليل الايمان بدينه ، فخير لنا ان يبقى مشتغلا بمسائل علم الكلام والالهيات وتأويل كتاب الله والآيات ، اضربوا على آذان المسلم فانه يستطيع ان يكسر طلاسم العالم ويبطل سحرنا بأذانه وتكبيره ، واجتهدوا ان يطول ليله ويبطئ سحره ، اشغلوه يا اخواني عن الجد والعمل حتى يخسر الرهان في العالم . خير لنا ان يبقى المسلم عبدا لغيره ، ويهجر هذا العالم ويعتزله ويتنازل عنه لغيره زهدا فيه ، واستخفافا لخطره يا ويلتنا ويا شقوتنا لو انتبهت هذه الامة التي يعزم عليها دينها ان تراقب العالم وتحسبه .

رسالة العالم الاسلامي :

لا ينهض العالم الاسلامي الا برسالته التي وكلها اليه مؤسسه

صلى الله عليه وسلم والايمان بها والاستماتة في سبيلها ، وهي رسالة قوية واضحة مشرقة ، لم يعرف العالم رسالة اعدل منها ولا افضل ولا ايمن للبشرية منها .

وهي نفس الرسالة التي حملها المسلمون في فتوحهم الاولى ، والتي لخصها احد رسلهم في مجلس يزدجرد ملك ايران بقوله "الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور الاديان الى عدل الاسلام ، رسالة لا تحتاج الى تغيير كلمة وزيادة حرف ، فهي منطبقة تمام الانطباق على القرن العشرين انطباقها على القرن السادس الميلادى كأن الزمان قد استدار كهيئته يوم خرج المسلمون من جزيرتهم لانقاذ العالم من براثن الوثنية والجاهلية .

فلا يزال الناس اليوم عاكفين على اصنام لهم — من اوثان منحوتة ومنجورة ومقبورة ومنصوبة — ولا تزال عبادة الله وحده مغلوبة غريبة ، ولا تزال الفتنة قائمة على قدم وساق ، ولا يزال اله الهوى يعبد ، ولا يزال الاحبار والرهبان والملوك والسلاطين واصحاب القوة والثروة والزعماء اربابا من دون الله تقرب لها القرابين وينصب لها الجبين .

وكذلك العالم اليوم رغم اتساعه وتوفر وسائل السفر والانتقال من مكان الى مكان ، واتصال الشعوب والامم بعضها ببعض اضيق بأهله منه بالامس ، قد ضيقته المادية التي لا تنظر الا الى قدمها ولا تؤمن الا بفائدة صاحبها ، ولا تعرف غير العكوف على الشهوات وعبادة الذات . وقد خنقته الاثرة التي لا تسمح لاثنين بالعيش في اقليم واسع والوطنية الضيقة التي تنظر الى كل اجنبي شزرا وتجحد له كل فضل وتحرمه كل حق .

ثم ضيق خناق هذه الحياة المادية المسيطرون الذين يحتكرون وسائل الحياة والرزق والقوت ، يضيقون هذه الحياة لمن شاءوا ويوسعونها لمن شاءوا ، ويبسطون الرزق — زعموا — لمن شاءوا ويقدرونه لمن شاءوا ، فأصبحت المدن الواسعة اضيق من جحر ضب واصبح الناس في بلادهم في شبه حجر كحجر السفيه واليتيم ، وضاقت على الناس الارض بما رحبت وضاقت عليهم انفسهم ، واصبح الناس في اقلال واصفاد من المدينة والمملكة مهددين في كل وقت بمجاعات مصطنعة وحقيقية ، وحروب خارجية وداخلية ، واضرابات واضطرابات اسبوعية ويومية .

نعم ومن جور الاديان الى عدل الاسلام ، ولا تزال في هذا العصر المتنور الراقي المثقف اديان تعبث بعقول الناس وتسخرهم كالحمير والبقر ، وتزين لاتباعها قتل مئات من البشر لاجل بقرة ذبحت في عيد الاضحى ، او شجرة مقدسة عضدت في قرية من القرى .

وهنالك اديان بغير اسم الاديان لا تقل في نفوذها وسلطانها ، ولا تقل في جورها وعدوانها وعبثها بعقول اتباعها وفي عجائبها عن الاديان القديمة ، وهي النظم السياسية والنظريات الاقتصادية التي يؤمن بها الناس كدين ورسالة ، وهي اقل مسامحة لمن لا يدين بها واشد قسوة على منافسيها ، واضيق عطنا من الاديان الجاهلية ، وما حرب اسبانيا الاهلية التي دامت مدة طويلة ، وسفكت فيها دماء غزيرة ، وما حرب الصين التي قامت بين الجمهوريين والشيوعيين من اهل الصين ، وحرب (كوريا) التي قامت بين الجنوبيين والشماليين ، الا نتيجة اختلاف في العقيدة السياسية والنظريات الاقتصادية .

فرسالة العالم الاسلامي هي الدعوة الى الله ورسوله والايمان

باليوم الآخر ، وجائزته الخروج من الظلمات الى النور ، ومن عبادة الناس الى عبادة الله وحده ، والخروج من ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور الاديان الى عدل الاسلام ، وقد ظهر فضل هذه الرسالة وسهل فهمها في هذا العصر اكثر من كل عصر ، فقد افتضحت الجاهلية وبدت سوآتها للناس واشتد تذمر الناس منها ، فهذا طور انتقال العالم من قيادة الجاهلية الى قيادة الاسلام ، لو نهض العالم الاسلامي ، واحتضن هذه الرسالة بكل اخلاص وحماسة وعزيمة ، ودان بها كالرسالة الوحيدة التي تستطيع ان تنقذ العالم من الانهيار والانحلال .

الاستعداد الروحي :

ولكن العالم الاسلامي لا يؤدي رسالته بالمظاهر المدنية التي جادت بها اوربا على العالم ، وبحذق لغاتها وتقليد اساليب الحياة التي ليست من نهضة الامم في شيء ، انما يؤدي رسالته بالروح والقوة المعنوية التي تزداد اوربا كل يوم افلاسا فيها ، وينتصر بالايمان والاستهانة بالحياة والعزوف عن الشهوات ، والشوق الى الشهادة والحنين الى الجنة ، والزهد في حطام الدنيا وتحمل الاذى في ذات الله صابرا محتسبا قال الله تعالى : (ولا تهنوا في ابتغاء القوم ان تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون) فقوة المؤمن وسر انتصاره في ايمانه بالآخرة وزجائه لثواب الله ، فاذا كان العالم الاسلامي لا يرى الا ما تراه اوربا من العرض القريب ، ولا يطمع الا فيما تطمع فيه اوربا من حطام الدنيا ولا يؤمن الا بما تؤمن به اوربا من المحسوسات والماديات ، كانت اوربا بقوتها المادية احق بالانتصار والسيادة من العالم الاسلامي الذي

يتخلف عنها في القوة المادية تخلفا شائنا ولا يفوقها في القـــــوة المعنويـة .

لقد اتى على العالم الاسلامي حين من الدهر وهو مستخـف بهذه القوة المعنوية لا يحتفل بها ، ولا يحتفظ بالبقية منها ، ولا يغذيها ، حتى نضب معينها في قلبه ، فلما خاض العالم الاسلامي في المعارك التي تحتاج الى الايمان ، والصبر والثبات ، وتحمــل الشدائد والنكبات ، وزلزل بعض الزلزال ، ولجأ الى القوة المعنويـة الكامنة في نفوس المسلمين ، كانت كسراب بقيعة يحسبه الظمـــآ ن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ، هنالك عرف انه قد جنى علـــى نفسه جناية عظيمة باهمال هذه القوة الروحية وتضييعها ، وبحث في جعبته فلم يجد شيئا يسد مكانها ويغني غناءها .

وخاض العالم الاسلامي في معارك حاسمة ، وهو يرى ان المسلمين تقوم قيامتهم ، وسوف يهرعون للدفاع عن الاسلام وحماية بلادهـــم المقدسة ، ويغضبون لله ورسوله وحرماته ، وان الاقطار الاسلاميـــة تشتعل نارا وتتوقد حمية وحماسة ، فاذا الحادث لم يؤثر في العالـم الاسلامي التأثير المنتظر ، واذا النظر ضئيل والسخط خافت ، واذا العالم الاسلامي كعادته — في غدواته وروحاته — منهمك في لذاتـــه وشهواته ، كأن لم يحدث كبير شيء ، فعرف ان الحمية الدينيـــة قد ضعفت في العالم الاسلامي ، وان شعلة الجهاد قد انطفأت او — كادت ، وهنالك عرف الناس ضعف العالم الاسلامي وخذلانه وهوانـه على انفسهم .

فالمهم الاهم لقادة العالم الاسلامي ، وجمعياته وهيئاتـــه الدينية وللدول الاسلامية غرس الايمان في قلوب المسلمين واشـــعال العاطفة الدينية ، ونشر الدعوة الى الله ورسوله ، والايمان بالآخـــرة

على منهاج الدعوة الاسلامية الاولى ، لا تدخر في ذلك وسعا ، وتستخدم لذلك جميع الوسائل القديمة والحديثة ،وطرق النشر والتعليم ، كتجوال الدعاة في القرى والمدن ، وتنظيم الخطب والدروس ، ونشر الكتب والمقالات ،ومدارسة كتب السيرة ،واخبار الصحابة ، وكتب المغازي والفتوح الاسلامية ، واخبار ابطال الاسلام وشهدائه ، ومذاكرة ابواب الجهاد ، وفضائل الشهداء وتستخدم لذلك الراديو والصحافة وكتب الادب ، وجميع القوى والوسائل العصرية .

والقرآن وسيرة محمد صلى الله عليه وسلم قوتان عظيمتان تستطيعان ان تشعلا في العالم الاسلامي نار الحماسة والايمان ، وتحدثا في كل وقت ثورة عظيمة على العصر الجاهلي ، وتجعلا من امة مستسلمة ، منخذلة ناعسة ، امة فتية ملتهبة حماسة وغيرة .

ان علة علل العالم الاسلامي اليوم هو الرضا بالحياة الدنيا والاطمئنان بها ،والارتياح الى الاوضاع الفاسدة والهدوء الزائد في الحياة ،فلا يقلقه فساد ،ولا يزعجه انحراف ،ولا يهيجه منكر ، ولا يهمه غير مسائل الطعام واللباس ،ولكن بتأثير القرآن والسيرة النبوية ـ ان وجدا الى القلب سبيلا ـ يحدث صراع بين الايمان والنفاق ، واليقين والشك ، بين المنافع العاجلة والدار الآخرة ، وبين راحة الجسم ونعيم القلب ، وبين حياة البطالة وموت الشهادة ، صراع احدثه كل نبي في وقته ، ولا يصلح العالم الا به . هنالك تفوح روائح الجنة ، وتهب نفحات القرن الاول ،ويولد للاسلام عالم جديد لا يشبه العالم القديم في شيء .

الاستعداد الصناعي والحربي :

ولكن مهمة العالم الاسلامي لا تنتهي هنا ، فاذا اراد ان يضطلع

برسالة الاسلام ويملك قيادة العالم فعليه بالمقدرة الفائقة ، والاستعداد التام في العلوم والصناعة والتجارة وفن الحرب ، وان يستغني عن الغرب في كل موفق من مرافق الحياة ، وفي كل حاجة من الحاجات ، يقوت ويكسو نفسه ، ويصنع سلاحه ، وينظم شئون حياته ، ويستخرج كنوز ارضه وينتفع بها ، ويدير حكوماته برجاله وماله ويمخر بحاره المحيطة به بسفنه واساطيله ، ويحارب العدو ببوارجه ودباباته واسلحة بلاده ، وتزيد صادراته على وارداته ، ولا يحتاج الى الاستدانة من الغرب ، ولا يضطر الى ان يلجأ الى راية من راياته وينضم الى معسكر من معسكراته .

اما ما دام العالم الاسلامي خاضعا للغرب في العلم والسياسة والصناعة والتجارة ، يمتص الغرب دمه ، ويحفر ارضه فيستخرج منها ماء الحياة ، وتغزو بضائعه اسواق العالم الاسلامي وبيوته وجيوبه كل يوم فتستخرج منها كل شيء ، وما دام العالم الاسلامي يستدين من الغرب الاموال ، ويستعير منه الرجال ، ليديروا حكوماته ، ويشغلوا الوظائف الخطيرة ويدربوا جيوشه ، ويستورد منه البضائع ويجلب منه الصنائع ، وينظر اليه كأستاذ ومرب ، وسيد ورب ، لا يبرم امرا الا باذنه ولا يصدر الا عن رأيه ، فلا يستطيع ابدا ان يواجه الغرب فضلا عن ان يناهضه ويغالبه .

هذه هي الناحية العلمية والصناعية التي اخل بها العالم الاسلامي في الماضي فعوقب بالعبودية الطويلة والحياة الذليلة ، وابتلى العالم الاسلامي بالسيادة الاوربية الجائرة التي ساقت العالم الى النار والدمار والتناحر والانتحار ، فان فرط العالم الاسلامي مرة ثانية في الاستعداد العلمي والصناعي والاستقلال في شئون حياته كتب الشقاء للعالم وطالت محنة الانسانية وبلاؤها .

تبوء الزعامة في العلم والتحقيق :

وقد تنازل العالم الاسلامي – بما فيه العالم العربي – منذ زمن طويل عن مكانته في القيادة العلمية والتوجيه ، والاستقلال الفكري ، واصبح عيالا على الغرب متطفلا على مائدته حتى في اللغة العربية وآداب اللغة وعلومها ، وحتى في علوم الدين كالتفسير والحديث والفقه . واصبح المستشرقون هم المرشدين الموجهين في البحث والتحقيق والدراسة والتأليف ، وهم المنتهى والمرجع والحجة في الاحكام والآراء الاسلامية والنظريات العلمية والتاريخية ، وهم الاسوة في النقض والابرام . وعدد كبير منهم قسوس وارساليون ويهود ومسيحيون متعصبون ، يضمرون للاسلام وصاحب رسالته – صلى الله عليه وسلم – العداء والبغضاء ، وللحضارة الاسلامية السخرية والاستهزاء ، ويخونون في النصوص والنقول ، ويحرفون الكلم عن مواضعه . ومنهم عدد لم يتقن اللغة العربية ولم يبرع فيها ، وهم يخطئون في فهم النصوص وترجمتها اخطاء فاحشة ، وقد تغلغلت افكارهم ودعاياتهم في الاوساط العلمية الحديثة في العالم الاسلامي وتجلت بصورة واضحة في الدعوة الى فصل الدين عن السياسة ، وان الدين قضية شخصية لا شأن له بالمجتمع ، وان الدين عقيدة وعبادة وخلق لا شأن له بالسياسة والحكم ، وفي الدعوة الى تغيير مفهوم الدين واحكام الشريعة الاسلامية على اساس الحضارة الغربية وفلسفتها الى غير ذلك من الافكار التي يدعو اليها تلاميذ المستشرقين والخاضعون لهم في الشرق الاسلامي .

وقد عجز كتاب الشرق المسلمون والمفكرون الشرقيون عن مواجهة الحضارة الغربية وجها لوجه ونقد اسسها وقيمها نقدا حرا جريئا

فيه الابتكار ، وفيه الاستقلال ، وقد بلغ بعضهم من ضعف التفكير ، والاغراق في التقليد منزلة رأى فيها ان الحضارة الغربية هي آخر ما وصل اليه العقل البشرى وانه لا منزلة وراءها ، ومنهم من دعا الى تطبيق الحضارة الغربية برمتها ، وعلى علاتها في الشرق ، ودعا بعض الاقطار الاسلامية العربية الى اعتبار نفسها جزءا لا يتجزأ من القارة الاوربية واذابتها فيها واختيار الثقافة اليونانية التي هي اصل الثقافات الاوربية .

وندر في هذه الطبقة وجود "عملاق" يكفر بالحضارة الغربية وفلسفة حياتها وقيمها ويشرح الحضارة الغربية واسسها التي قامت عليها في ثقة واعتداد وعلم وبصيرة . ونستثني من هذه الكلية بعض الافراد الافذاذ كالعلامة "محمد اقبال" من المسلمين القدامى ، والاستاذ "محمد اسد" من الاوربيين المهتدين بالاسلام .

ولا بد — اذا اراد العالم الاسلامي ان يقوم على قدميه ويفكر بعقله — ان يقاوم هذا الخضوع ويكون فيه علماء عماليق وكتاب جهابذة يتناولون الحضارة الغربية بالنقد والتشريح ، وكتابات المستشرقين وآراءهم بالجرح والتعديل . ويتبحرون في العلوم الاسلامية ويتعمقون فيها حتى يفيد منهم كبار المستشرقين في اوربا وامريكا ويصححون بهم آراءهم واخطاءهم ، ويتوجه رواد العلم والتحقيق والدراسات العالية الى عواصم العالم العربي وحواضر العالم الاسلامي ، كما اعتادوا ان يتوجهوا الى عواصم اوربا وامريكا . فهذه المدن الاسلامية اولى بأن تكون مركزا للثقافة الاسلامية والعلوم الدينية وآداب اللغة العربية من العواصم الاوربية وجامعات اوربا ، ومن سقوط الهمة والقناعة بالدون ان تتخلى هذه العواصم العريقة في العلم والدين عن زعامتها العلمية ومكانتها الرئيسية .

التنظيم العلمي الجديد :

ولا بد للعالم الاسلامي من تنظيم العلم الجديد بما يوافق روحه ورسالته . وقد ساد العالم الاسلامي على العالم القديم بزعامته العلمية ،فتسرب بذلك في عقلية العالم وثقافته ، وتغلغل في احشاء الادب والفلسفة ،وظل العالم المتمدن قرونا يفكر بعقلنه ويكتب بقلمه ويؤلف بلغته ، فكان المؤلفون في ايران وتركستان وافغانستان والهند لا يؤلفون كتابا له شأن الا باللغة العربية ، وكان بعضهم يؤلف الاصل بالعربية ويلخصه بالفارسية كما فعل الغزالي في : "كيمياء السعادة" .

وان كانت هذه الحركة العلمية التي ظهرت في صدر الدولة العباسية متأثرة باليونان والعجم ،وغير مؤسسة على الفكر الاسلامي النقي والروح الاسلامي ، وان كانت فيها مواضع ضعف من الناحية العلمية والدينية ،ولكنها سادت على العالم بقوتها ونشاطها ، واضمحلت امامها النظم العلمية القديمة .

وجاءت نهضة اوربا فنسخت هذا النظام القديم باختباراتها ونقدها العلمي ،ووضعت منهاجا جديدا للعلم والدراسة كان نسخة صادقة لروحها وعقليتها ونفسيتها المادية ،فلا يخرج منه الطالب الا وهو متشبع بهذه الروح ،وخضع العالم مرة ثانية لهذا النظام التعليمي وخضع له العالم الاسلامي بطبيعة الحال — اذ كان مصابا بالانحطاط العلمي والشلل الفكري من زمان ،وكان لا يجد المدد والغوث الا في اوربا — فقبل هذا النظام التعليمي على علاته ، فهو النظام السائد اليوم في انحاء العالم الاسلامي .

وكانت نتيجة هذا النظام الطبيعية ، صراعا بين النفسية الاسلامية — ان كانت لا تزال في النفوس لم تقتلها البيئة — وبين النفسية الجديدة ، وبين وجهة الاخلاق الاسلامية ووجهة الاخلاقية الاوربية ، وبين الميزان القديم والجديد للاشياء وقيمتها ، وكانت نتيجة هذا النظام حديث الشك والنفاق في الطبقة المثقفة ، وقلة الصبر ونهامة الحياة وترجيح العاجل على الآجل ، الى غير ذلك مما هو من طبائع المدنية الاوربية .

فاذا اراد العالم الاسلامي ان يستأنف حياته ، ويتحرر من رق غيره واذا كان يطمح الى القيادة ، فلا بد اذن من الاستقلال التعليمي ، بل لابد من الزعامة العلمية وما هي بالامر الهين ، انها تحتاج الى تفكير عميق ، وحركة التدوين والتأليف الواسعة ، وخبرة الى درجة التحقيق والنقد بعلوم العصر مع التشبع بروح الاسلام والايمان الراسخ بأصوله وتعاليمه ، انها لمهمة تنوء بالعصبة اولي القوة ، انما هي من شأن الحكومات الاسلامية ، فتنظم لذلك جمعيات ، وتختار لها اساتذة بارعين في كل فن فيضعون منهاجا تعليميا يجمع بين محكمات الكتاب والسنة وحقائق الدين التي لا تتبدل وبين العلوم العصرية النافعة والتجربة والاختبار ، ويدونون العلوم العصرية النافعة والتجربة والاختبار ، ويدونون العلوم العصرية على اساس الاسلام وبروح الاسلام وفيها كل ما يحتاج اليه النشئ الجديد ، مما ينظمون به حياتهم ويحافظون به على كيانهم ويستغنون به عن الغرب ويستعدون للحرب ، ويستخرجون به كنوز ارضهم وينتفعون بخيرات بلادهم ، وينظمون مالية البلاد الاسلامية ويديرون حكوماتها على تعاليم الاسلام بحيث يظهر فضل النظام الاسلامي في ادارة البلاد ،

وتنظيم الشئون المالية على النظم الاوربية ، وتنحل مشاكل اقتصادية عجزت اوربا عن حلها .

وبالاستعداد الروحي والاستعداد الصناعي والحربي والاستقلال التعليمي ينهض العالم الاسلامي ، ويؤدي رسالته وينقذ العالم من الانهيار الذى يهدده . فليست القيادة بالهزل ، انما هي جد الجد ، فتحتاج الى جد واجتهاد ، وكفاح وجهاد واستعداد اى استعداد .

****

زعامة العالم العربـــــي

اهمية العالم العربي :

ان العالم العربي له اهمية كبيرة في خريطة العالم السياسية ، وذلك لانه وطن امم لعبت اكبر دور في التاريخ الانساني ، ولانـــه يحتضن منابع الثروة والقوة الكبرى : الذهب الاسود الذى هـــو دم الجسم الصناعي والحربي اليوم ، ولانه صلة بين اوربا وامريكـا ، وبين الشرق الاقصى ، ولانه قلب العالم الاسلامي النابض يتجـــه اليه روحيا ودينيا ويدين بحبه وولائه ، ولانه عسى ـ لا قدر اللـه ـ ان يكون ميدان الحرب الثالثة ، ولان فيه الايدى العاملة ، والعقول المفكرة ، والاجسام المقاتلة ، والاسواق التجارية ، والاراضي الزراعية ، ولان فيه مصر ذات النيل السعيد بنتاجها ومحصولها وخصبهـــا وثروتها ورقيها ومدنيتها ، وفيها سورية وفلسطين وجاراتهـــا ، باعتدال مناخها وجمال اقليمها واهميتها الاستراتيجية ، وبـــلاد الرافدين بشكيمة اهلها ومنابع البترول فيها والجزيرة العربيـــة بمركزها الروحي وسلطانها الديني ، واجتماع الحج السنوى الـــذى لا مثيل له في العالم وآبار البترول الغزيرة . كل ذلك قد جعـــل العالم العربي محط انظار الغربيين ، وملتقى مطامعهم وميـــدان تنافس لقيادتهم ، وكان رد فعله ان نشأ في العالم العربي شـعور عميق بالقومية العربية ، وكثر التغني " بالوطن العربي " و " المجـد العربي " .

محمد رسول الله روح العالم العربي :

ولكن المسلم ينظر الى العالم العربي بغير العين التي ينظـــر

بها الاوربي ، وبغير العين التي ينظر بها الوطني العربي ، انه ينظر اليه كمهد الاسلام ومشرق نوره ومعقل الانسانية ، وموضع القيادة العالمية ، ويعتقد ان سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم العربي هو روح العالم العربي واساسه وعنوان مجده ، وان العالم العربي بما فيه من موارد الثروة والقوة وبما فيه من خيرات وحسنات - جسم بلا روح ، وخط بلا وضوح اذا انفصل - لا سمح الله بذلك - عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقطع صلته عن تعاليمه ودينه ، وان سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام هو الذى ابرز العالم العربي للوجود ، فقد كان هذا العالم وحدات مفككة ، وقبائل متناحرة ، وشعوبا مستعبدة ، ومواهب ضائعة ، وبلادا تتسكع في الجهل والضلالات ، فكان العرب لا يحلمون بمناجزة الدولة الرومية والفارسية ولا يخطر ذلك منهم على بال ، ولا يصدقون بذلك اذا قيل لهم في حال من الاحوال ، وكانت سورية التي تكون جزءا مهما من العالم العربي مستعمرة رومية تعاني الملكية المطلقة والحكم الجائر المستبد ، لا تعرف معنى الحرية والعدل ، وكان العراق مطية لشهوات الدولة الكيانية مثقلة بالضرائب المجحفة والاتاوات الفادحة . وكانت مصر قد اتخذها الرومان ناقة حلوبا ركوبا ، يجزون صوفها ويظلمونها في علفها ، ثم انها تعاني الاضطهاد الديني مع الاستبداد السياسي ، فما لبث هذا العالم المفكك المنحل ، المظلوم المضطهد ، ان هبت عليه نفحة من نفحات الاسلام الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، ادرك رسول الله من هذا العالم وهو ضائع هالك وأخذ بيده وهو ساقط متهالك ، فأحياه باذن الله وجعل له نورا يمشي به في الناس ، وعلمه الكتاب والحكمة وزكاه ، فكان هذا العالم بعد البعثة المحمدية سفير الاسلام ، ورسول الامن والسلام ، ورائد العلم والحكمة ، ومشعل

الثقافة والحضارة . كان غوثا للامم ،غيثا للعالم ، هنالك كانت الشام وكان العراق ،وكانت مصر ،وكان العالم العربي الذى نتحدث عنه ، فلولا محمد صلى الله عليه وسلم ، ولولا رسالته ،ولولا ملته ، لما كانت سورية ، ولا كان العراق ،ولا كانت مصر ، ولا كان العالم العربي ، بل ولا كانت الدنيا كما هي الآن حضارة وعقلا ، وديانة وخلقا ، فمن استغنى عن دين الاسلام من شعوب العالم العربي وحكوماته ، وولى وجهه شطر الغرب او ايام العرب الاولى ،او استلهم قوانين حياته او سياسته من شرائع الغرب ودساتيره او اسس حياته على العنصرية او العروبة التي لا شأن لها بالاسلام ، ولم يرض برسول الله قائدا ورائدا ، واماما وقدوة ،فليرد على محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم نعمته ويرجع الى جاهليته الاولى ، حيث الحكم الروماني والفارسي ، وحيث الاستعباد والاستبداد ، وحيث الظلم والاضطهاد ، وحيث الجهل والضلالة ، وحيث الغفلة والبطالة ، وحيث العزلة عن العالم ، والخمول والجمود ، فان هذا التاريخ المجيد ، وهذه الحضارة الزاهية ، وهذا الادب الزاخر ، وهذه الدول العربية ، ليست الا حسنة من حسنات محمد عليه الصلاة والسلام .

الايمان هو قوة العالم العربي :

فالاسلام هو قومية العالم العربي ، ومحمد صلى الله عليه وسلم هو روح العالم العربي وامامه وقائده والايمان هو قوة العالم العربي التي حارب بها العالم البشرى كله فانتصر عليه ، وهو قوته وسلاحه اليوم كما كان بالامس ، به يقهر اعداءه ، ويحفظ كيانه ويؤدى رسالته ان العالم العربي لا يستطيع ان يحارب الصهيونية او عدوا آخر بالمال

الذى ترضخه بريطانيا او تتصدق به امريكا ، او تعطيه مقابل ما تأخذ من ارضه من الذهب الاسود ، انما يحارب عدوه بالايمان والقوة المعنوية ، وبالروح التي حارب بها الدولة الرومية والامبراطورية الفارسية في ساعة واحدة فانتصر عليهما جميعا . انه لا يستطيع ان يحارب اعداءه بقلب يحب الحياة ويكره الموت ، وبجسم يميل الى الدعة والراحة ، وعقل يخامره الشك وتتنازع فيه الافكار والاهواء ، او بين مضطربة وقلب متشكك ضعيف الايمان وقوة متخاذلة في الميدان فالمهم لامراء العرب وزعمائهم وقادة الجامعة العربية ان يغرسوا الايمان في الشعوب العربية ، وجماهير الامة واولياء الامور ، والجيوش العربية والفلاحين والتجار ، وفي كل طبقة من طبقات الجمهور ، ويشعلوا فيها شعلة الجهاد في سبيل الله ، والتوق الى الجنة ، ويبعثوا فيها الاستهانة بالمظاهر الجوفاء وزخارف الدنيا ، ويعلموهم كيف يتغلبون على شهوات النفس ومألوفات الحياة ، وكيف يتحملون الشدائد في سبيل الله ، وكيف يستقبلون الموت بثغر باسم ، وكيف يتهافتون عليه تهافت الفراش على النور .

- علم الله عند بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم ان الروم والفرس والامم المتحضرة المتصرفة بزمام العالم المتمدن لا تستطيع بحكم حياتها المصطنعة المترفة ان تتعرض للخطر وتتحمل المتاعب والمصاعب في سبيل الدعوة والجهاد وخدمة الانسانية البائسة ، ولا تستطيع ان تضحي بشيء من دقائق مدنيتها وتأنقاتها في الملبس والمأكل وان تتنزل عن حظوظها ولذاتها وزخارفها فضلا عن حاجاتها ، وانه لا يوجد فيها افراد يقوون على قهر شهواتهم ، والحد من طموحهم والزهد في فضول الحياة ومطامع الدنيا ، والقناعة بالكفاف . فاختار

لرسالة الاسلام وصحبة الرسول عليه الصلاة والسلام امة تضطلع بأعباء الدعوة والجهاد وتقوى على التضحية والايثار ، تلك هي الامة العربية القوية السليمة التي لم تبتلعها المدنية ولم ينخرها البذخ والترف واولئك اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ابر الناس قلوبا واعمقهم علما واقلهم تكلفا .

قام الرسول بهذه الدعوة العظيمة فأدى حقوقها من الجهاد في سبيلها وايثارها على كل ما يقف في وجهها ، والعزوف عن الشهوات ومطامع الدنيا فكان في ذلك اسوة واماما للعالم كله ، كلمة وفد قريش وعرض عليه كل ما يغرى الشباب ويرضى الطامحين من رئاسة وشرف ومال عظيم وزواج كريم ، فرفض كل ذلك في صرامة وصراحة ، وكلمه عمه وحاول ان يحد من نشاطه في سبيل الدعوة فقال " ياعم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على ان اترك هذا الامر حتى يظهره الله او اهلك فيه ما تركته " ثم كان اسوة للناس في عصره وبعد عصره بقيامه بأكبر قسط من الجهاد والايثار ، والزهد وشظف العيش واقل قسط من العيش واسباب الحياة ، فقد اوصد على نفسه الابواب وسد في وجهه الطرق وتعدى ذلك الى اسرته واهل بيته والمتصلين به فكان اكثر الناس اتصالا به واقربهم اليه اقلهم حظا في الحياة ، واعظمهم نصيبا في الجهاد والايثار ، فاذا اراد ان يحرم شيئا بدأ ذلك بعشيرته وبيته ، واذا سن حقا او فتح بابا لمنفعته قدم الآخرين وربما حرمه على عشيرته الاقربين . اراد ان يحرم الربا فبدأ بربا عمه عباس بن عبد المطلب فوضعه كله ، واراد ان يهدر دماء الجاهلية فبدأ بدم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب فأبطله ، وسن الزكاة وهي منفعة مالية عظيمة مستمرة الى يوم القيامة فحرمها على عشيرته بني

هاشم الى آخر الابد ، وكلمه علي بن ابي طالب يوم الفتح في ان يجمع لبني هاشم الحجابة مع السقاية فأبى وطلب عثمان بن طلحة وناوله مفتاح الكعبة وقال : هاك مفتاحك ياعثمان اليوم يوم بر ووفاء ، وقال خذوها خالدة تالدة فيكم لا ينزعها منكم الا ظالم ، وحمل ازواجه على الزهد والقناعة وشظف العيش وخيرهن بين عشرتهن مع الفقر وضيق العيش ، ومفارقته مع السعة والرخاء وتلا عليهن قوله تعالى : " يا ايها النبي قل لازواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين امتعكن واسرحكن سراحا جميلا ، وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله اعد للمحسنات منكن اجرا عظيما " فاخترن الله والرسول ، وتأتيه فاطمة تشكو اليه ما تلقى في يدها من الرحى ويلغها انه جاءه رقيق فيوصيها بالتسبيح والتحميد والتكبير ويقول لها انه خير لها من خادم . وهكذا كان شأنه مع اهل بيته والمتصلين به فالاقرب ثم الاقرب .

وآمن به رجال من قريش في مكة فاضطربت حياتهم الاقتصادية اضطرابا عظيما ، وكسدت تجاراتهم ، وحرم بعضهم رأس ماله الذى جمعه في حياته ، وحرم بعضهم اسباب الترف والرخاء واناقة اللباس التي كان فيها مضرب المثل ، وكسدت تجارة بعضهم لاشتغاله بالدعوة وانصراف الزبائن عنه وحرم بعضهم نصيبه في ثروة ابيه .

ثم لما هاجر الرسول الى المدينة وتبعه الانصار تأثرت بذلك بساتينهم ومزارعهم فلما ارادوا ان يقبلوا عليها بعض الوقت ويصلحوها لم يسمح لهم بذلك وانذرهم الله به فقال " وانفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة " .

وهكذا كان شأن العرب والذين احتضنوا هذه الدعوة منهم فقد كان نصيبهم من متاعب الجهاد وخسائر النفوس والاموال اعظم من نصيب

اى امة في العالم وقد خاطبهم الله بقوله : " قل ان كان آباؤكم وابناؤكم واخوانكم وازواجكم وعشيرتكم واموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها احب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين" وقال : "ماكان لاهل المدينة ومن حولهم من الاعراب ان يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه " لان سعادة البشرية انما كانت تتوقف على ما يقدمونه من تضحية وايثار ما يتحملون من خسائر ونكبات فقال : (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات " وقال : " احسب الناس ان يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ؟ " وكان احجام العرب عن هذه المكرمة وترددهم في ذلك امتدادا لشقاء الانسانية واستمرارا للاوضاع السيئة في العالم فقال: " الا تفعلوه تكن فتنة في الارض وفساد كبير " .

وقد وقف العالم في القرن السادس الميلادى على مفترق الطرق اما ان يتقدم العرب ويعرضوا نفوسهم واموالهم واولادهم وكل ما يعز عليهم للخطر ويزهدوا في مطامع الدنيا ويضحوا في سبيل المصلحة الاجتماعية بأنانيتهم فيسعد العالم وتستقيم البشرية وتقوم سوق الجنة وتروج بضاعة الايمان ، واما ان يؤثروا شهواتهم ومطامعهم وحظوظهم الفردية على سعادة البشرية وصلاح العالم فيبقى العالم في حمأ الضلالة والشقاء الى ما شاء الله ، وقد اراد الله بالانسانية خيرا وتشجع العرب بما نفخ فيهم محمد صلى الله عليه وسلم من روح الايمان والايثار وحبب اليهم الدار الآخرة وثوابها - فقدموا انفسهم فداء للانسانية كلها وزهدوا في مطامع الدنيا طمعا في ثواب الله وسعادة النوع الانساني وجاهدوا بأموالهم وانفسهم في سبيل الله ، وضحوا بكل ما يحرص عليه

الناس من مطامع وشهوات وآمال واحلام واخلصوا لله العمل والجهاد فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين .

وقد استدار الزمان كهيئته يوم بعث الرسول ووقف العالم على مفترق الطرق مرة ثانية اما ان يتقدم العرب ــ وهم امة الرسول وعشيرته ــ الى الميدان ويغامروا بنفوسهم وامكانياتهم ومطامحهم ويخاطروا فيما هم فيه من رخاء وثراء ودنيا واسعة ،وفرص متاحة للعيش واسباب ميسورة فينهض العالم من عثاره وتتبدل الارض غير الارض . واما ان يستمروا فيما هم فيه من طمع وطموح ، وتنافس في الوظائف والمرتبات وتفكر في كثرة الدخل والايراد وزيادة غلة الاملاك وربح التجارات والحصول على اسباب الترف والتنعم فيبقى العالم في هذا المستنقع الذى يتردى فيه منذ قرون .

ان العالم لا يسعد وخيرة الشباب في العواصم العربية عاكفون على شهواتهم تدور حياتهم حول المادة والمعدة لا يفكرون في غيرهما ولا يترفعون عن الجهاد في سبيلهما ولقد كان شباب بعض الامم الجاهلية الذين ضحوا بمستقبلهم في سبيل المبادىء التي اعتنقوها اكبر منهم نفسا ، واوسع منهم فكرا ، بل كان الشاعر الجاهل "امرؤ القيس" اعلى منهم همة ،اذ قال :

ولو انني اسعى لادنى معيشة كفاني ولم اطلب قليل من المال
ولكنما اسعى لمجد مؤثل وقد يدرك المجد المؤثل امثالي

ان العالم لا يمكن ان يصل الى السعادة الا على قنطرة من جهاد ومتاعب . ان الارض لفي حاجة الى سماد وسماد ارض البشرية الذى تصلح به وتنبت زرع الاسلام الكريم هي الشهوات والمطامع الفردية التي يضحي بها الشباب العربي في سبيل علو الاسلام وبسط الامن والسلام على العالم وانتقال الناس من الطريق المؤدية الى جهنم

الى الطريق المؤدية الى الجنة .

انه لثمن قليل جدا لسلعة غالية جدا .

العناية بالفروسية والحياة العسكرية :

من الحقائق المؤلمة ان الشعوب العربية قد فقدت كثيرا من خصائصها العسكرية ، ورزئت في فروسيتها التي كانت معروفة بها في العالم ، فكانت رزيئة كبيرة وخسارة فادحة ، وكانت سببا من اسباب ضعفها وعجزها في ميدان الجهاد ، فقد اضمحلت الروح العسكرية ، وضعفت الاجسام ونشأ الناس على التنعم ،وقد حلت السيارات محل الجياد حتى كادت الخيل العربية تنقرض من الجزيرة العربية ،وهجر الناس المصارعة والمناضلة وسباق الخيل وانواع الرياضة البدنية والتدريبات العسكرية ، واستبدلوا بها العابا لا تفيدهم شيئا ، فالمهم لرجال التعليم والتربية قادة الشعوب العربية ان يربوا الشبيبة العربية على الفروسية والحياة العسكرية ، وعلى البساطة في المعيشة وخشونة العيش والجلادة وتحمل المشاق والمتاعب ، والصبر على المكروه .

وقد كتب المربي الكبير امير المؤمنين عمر بن الخطاب الى بعض عماله العرب وهم في بلاد العجم : " اياكم والتنعم وزى العجم ، وعليكم بالشمس فانها حمام العرب ، وتمعددوا ، واخشوشنوا ، واخشوشبوا ، واخلولقوا ، واعطوا الركب اسنتها ، وانزوا نزوا ،وارموا الاغراض " .

وقال قال النبي صلى الله عليه وسلم : " ارموا بني اسماعيل فان اباكم كان راميا " وقال : " الا ان القوة الرمي ، الا ان القوة الرمي " .

ومن واجب رجال التربية وولاة الامر ان يحاربوا بكل قوتهم ما يضعف روح الرجولة والجلادة ويبعث على التخنث والعجز ، من عادات وادب وصحافة وتعليم ، ويأخذوا على يد الصحافة الماجنة والادب الخليع الملحد ، الذى ينشر في الشباب النفاق والدعارة والفسوق ، وعبادة اللذة والشهوات ، ولا يسمحوا لهؤلاء التجار الذين يحبون ان تشيع الفاحشة في الذين آمنوا ان يدخلوا في معسكر محمد صلى الله عليه وسلم الذي بعث ليتمم مكارم الاخلاق ، ويفسدوا على الناشئة الاسلامية قلبها واخلاقها ، ويزينوا لها الفسوق والعصيان وحب الفحشاء ، بثمن بخس دراهم معدودة ، وقد شهد التاريخ بأن كل امة اصيب رجالها في رجولتهم وغيرتهم ، ونساؤها في انوثتهن وامومتهن ، وطغى فيهن التبرج ، ومزاحمة الرجال في كل شيء ، والزهد في الحياة المنزلية ، وحبب اليهن العقم ، افل نجمها وكسفت شمسها فأصبحت اثرا بعد عين .

هذه كانت عاقبة اليونان والرومان والفرس ، وان اوروبا لفي طريقها الى هذه العاقبة ، فليحذر العالم العربي من هذا المصير الهائل .

محاربة التبذير والفرق الهائل بين الغني والصعلوك :

وقد اعتاد العرب لاسباب كثيرة وبتأثير الحضارة الغربية حياة الترف والدعة والاعتداد الزائد بالكماليات وفضول الحياة والاسراف والتبذير والاستهانة بمال الله في سبيل اللذة والشهوة والفخر والزينة .

وبجانب هذا الترف والنعيم وحياة البذخ والتبذير ، جوع وعرى وفقر فاضح ، يرى الناظر مناظره الشائنة في عواصم البلاد العربية فتدمع العين ويحزن القلب وينتكس الرأس حياءً وخجلا ، فبينا هنالك رجل

عنده فضول الثياب وزائد الطعام والشراب ، يعرف كيف يستهلكه اذا ببدوي لا يجد قوت يومه وكسوة جسمه ، وبينما امراء العرب واغنياؤهم على سيارات تباري الريح وتثير النقع ، اذا بفوج من النساء والاطفال عليه ثياب سوداء قد اصبحت خيوطا من طول اللبس يعدو لاجل فلس او قرص ، فما دامت المدن العربية تجمع بين القصور الشامخة والسيارات الفاخرة ، وبين الاكواخ الحقيرة والبيوت المتداعية الضيقة المظلمة ، وما دامت التخمة والجوع يزخران في مدينة واحدة ، فالباب مفتوح على مصراعيه للغزو الفكري والمبادئ المستوردة — والاضطراب والقلق لا تغلقها دعاية ولا قوة ، واذا لم يسد النظام الاسلامي في بلاده بجماله واعتداله يحل محله نظام جائر بعسفه وقهره عقابا من الله كرد فعل عنيف .

التخلص من انواع الاثرة :

لقد اتى على العالم العربي عهد في التاريخ كانت الحياة فيه تدور حول فرد واحد — وهو شخص الخليفة او الملك — او حول حفنة من الرجال — هم الوزراء وابناء الملك — وكانت البلاد تعتبر ملكا شخصيا لذلك الفرد السعيد والامة كلها فوجا من المماليك والعبيد ، يتحكم في اموالهم واملاكهم ونفوسهم واعراضهم ، ولم تكن الامة التي كان يحكم عليها الا ظلا لشخصه ولم تكن حياتها الا امتدادا لحياته .

لقد كانت الحياة تدور حول هذا الفرد بتاريخها وعلومها وآدابها وشعرها وانتاجها ، فاذا استعرض احد تاريخ هذا العهد او ادب تلك الفترة من الزمان وجد هذه الشخصية تسيطر على الامة او المجتمع ، كما تسيطر شجرة باسقة على الحشائش والشجيرات التي تنبت في ظلها وتمنعها من الشمس والهواء ، كذلك تضمحل هذه

الامة في شخص هذا الفرد وتذوب فيه وتصبح امة هزيلة لا شخصية لها ولا ارادة ، ولا حرية لها ولا كرامة .

وكان هذا الفرد هو الذى تدور لاجله عجلة الحياة ، فلاجله يتعب الفلاح ويشتغل التاجر ويجتهد الصانع ويوءلف الموءلف وينظم الشاعر ، ولاجله تلد الامهات ، وفي سبيله يموت الرجال وتقاتل الجيوش ، بل ولاجله تلفظ الارض خزائنها ويقذف البحر نفائسه وتستخرج كنوز الارض خيراتها .

وكانت الامة — وهي صاحبة الانتاج وصاحبة الفضل في هذه الرفاهية كلها تعيش عيش الصعاليك ، او الارقاء المماليك ، قد تسعد بفتات مائدة الملك وبما يفضل عن حاشيته فتشكر ، وقد تحرم ذلك ايضا فتصبر ، وقد تموت فيها الانسانية فلا تنكر شيئا بل تتسابق في التزلف وانتهاز الفرص .

هذا هو العهد الذى ازدهر في الشرق طويلا وترك رواسب في حياة هذه الامة ونفوسها وفي ادبها وشعرها ، واخلاقها واجتماعها وخلف آثارا باقية في المكتبة العربية ، ومن هذه الآثار الناطقة كتاب " الف ليلة وليلة " الذى يصور ذلك العهد تصويرا بارعا ، يوم كان الخليفة في بغداد او الملك في دمشق او القاهرة ، هو كل شيء ، وبطل رواية الحياة ومركز الدائرة . ان هذا العهد الذى يمثله كتاب " الف ليلة وليلة " بأساطيره وقصصه ، وكتاب الاغاني بتاريخه وادبه ، لم يكن عهدا اسلاميا ، ولا عهدا طبيعيا معقولا ، فلا يرضاه الاسلام ولا يقره العقل ، بل انما جاء الاسلام بهدمه والقضاء عليه ، فقد كان هذا هو العهد الذي بعث فيه محمد صلى الله عليه وسلم فسماه الجاهلية ونعى عليه وانكر على ملوكه — ككسرى وقيصر — وعلى اثرتهم وترفهم اشد الانكار

ان هذا العهد غير قابل للبقاء والاستمرار في اى مكان وفي اى زمان ولا سبيل اليه الا اذا كانت الامة مغلوبة على امرها او مصابة في عقلها او فاقدة الوعي والشعور او ميتة النفس والروح .

ان هذا الوضع لا يقره عقل ، ومن الذى يسوغ ان يتخم فرد او بضعة افراد بأنواع الطعام والشراب ويموت آلاف جوعا ومسغبة ، ومن الذى يسوغ ان يعبث ملك او ابناء ملك بالمال عبث المجانين ، والناس لا يجدون من القوت ما يقيم صلبهم ومن الكسوة ما يستر جسمهم ، ومن الذى يسوغ ان يكون حظ طبقة — وهي الكثرة — الانتاج وحده والكدح في الحياة والعمل المضني الذى لا نهاية له ، وحظ طبقة — وهي لا تجاوز عدد الاصابع — الا التلهي بثمرات تعب الطبقة الاولى من غير شكر وتقدير وفي غير عقل ووعي ، ومن الذى يسوغ ان يشقى اهل الصناعة واهل الذكاء واهل الاجتهاد واهل المواهب واهل الصلاح ، وينعم رجال لا يحسنون غير التبذير ولا يعرفون صناعة غير صناعة الفجور وشرب الخمور ؟ ومن الذى يسوغ ان يجفى اهل الكفاية واهل النبوغ واهل الامانة ويقصوا كالمنبوذين ويجتمع حول ملك او امير فوج من خساس النفوس وسخاف العقول وفاقدى الضمائر ممن لا هم لهم الا ابتزاز الاموال وارضاء الشهوات ، ولا يحسنون فنا من فنون الدنيا غير التملق والاطراء والمؤامرة ضد الابرياء ، ولا يتصفون بشيء غير فقدان الشعور وقلة الحياة .

انه وضع شاذ لا ينبغي ان يبقى يوما فضلا عن ان يبقى اعواما .

انه ان سبق في عهد من عهود التاريخ وبقي مدة طويلة فقد كان ذلك على غفلة من الامة او على الرغم منها ، وبسبب ضعف الاسلام وقوة الجاهلية ، ولكنه خليق بأن ينهار ويتداعى كلما اشرقت شمس

الاسلام واستيقظ الوعي وهبت الامة تحاسب نفسها وافرادها .

فالذين لا يزالون يعيشون في عالم "الف ليلة وليلة" انما يعيشون في عالم الاحلام ،انما يعيشون في بيت اوهن من بيت العنكبوت ،انما يعيشون في بيت مهدد بالاخطار لا يدرون متى تعمل فيه معاول الهدم ،وان سلموا من كل هذا فلا يدرون متى يخر عليهم السقف من فوقهم فانه بيت قائم على غير اساس متين وعلى غير دعائم قوية .

الا ان عهد الف ليلة وليلة قد مضى فلا يخدعن اقوام انفسهم ولا يربطوا نفوسهم بعجلة قد تكسرت وتحطمت ، ان الملوكية مصباح ــ ان جاز هذا التعبير ــ قد نفد زيته واحترقت فتيلته ، فهو الى انطفاء عاجل ولو لم تهب عاصفة .

انه لا محل في الاسلام لاي نوع من انواع الاثرة ، انه لا محل فيه للاثرة الفردية او العائلية التي نراها في بعض الامم الشرقية والاقطار الاسلامية ولا محل فيه للاثرة المنظمة بشكل او بآخر والتي نراها في غير العالم الاسلامي .

ان الاثرة بجميع انواعها ستنتهي وان الانسانية ستثور عليها وتنتقم منها انتقاما شديدا ، انه لا مستقبل في العالم الا للاسلام السمح العادل الوسط وان طال اجل هذه "الاثرات" وارخي لها العنان وتمادت في غيها وطغيانها مدة من الزمان .

ان الاثرة ــ مهما كان نوعها او شكلها ــ غير طبيعية في حياة الامة وانها تتخلص منها في اول فرصة ،انه لا محل لها في الاسلام ولا محل لها في مجتمع واع بلغ الرشد ولا امل في استمرارها ، فخير للمسلمين وخير للعرب ان يخلصوا انفسهم منها ويقطعوا صلتهم بها قبل ان تغرق فيغرقوا معها .

ايجاد الوعي في الامة :

ان اخوف ما يخاف على امة ويعرضها لكل خطر ويجعلها فريسة للمنافقين ولعبة للعابثين هو فقدان الوعي في هذه الامة ، وافتتانها بكل دعوة واندفاعها الى كل موجة وخضوعها لكل متسلط وسكوتها على كل فظيعة وتحملها لكل ضيم ، وان لا تعقل الامور ولا تضعها في مواضعها ولا تميز بين الصديق والعدو وبين الناصح والغاش وان تلدغ بجحر مرة بعد مرة ولا تنصحها الحوادث ، ولا تروعها التجارب ، ولا تنتفع بالكوارث ، ولا تزال تولي قيادها من جربت عليه الغش والخديعة والخيانة والاثرة والانانية ، ولا تزال تضع ثقتها فيه وتمكنه من نفسها واموالها واعراضها ومفاتيح ملكها وتنسى سريعا ما لاقت على يده من الخسائر والنكبات فيجترىء بذلك السياسيون المحترفون ، والقادة الخائنون ويأمنون سخط الامة ومحاسبتها ويتمادون في غيهم ويسترسلون في خياناتهم وعبثهم ثقة ببلاهة الامة وسذاجة الشعب وفقدان الوعي .

ان الشعوب الاسلامية والبلاد العربية ــ مع الاسف ــ ضعيفة الوعي ــ ، اذا تحرجنا ان نقول : فاقدة الوعي ــ فهي لا تعرف صديقها من عدوها ولا تزال تعاملهما معاملة سواء او تعامل العدو احسن مما تعامل الصديق الناصح وقد يكون الصديق في تعب وجهاد معها طول حياته بخلاف العدو ، ولا تزال تلدغ بجحر واحد ألف مرة ولا تعتبر بالحوادث والتجارب ، وهي ضعيفة الذاكرة سريعة النسيان تنسى ماضي الزعماء والقادة ، وتنسى الحوادث القريبة والبعيدة وهي ضعيفة في الوعي الديني والوعي الاجتماعي واضعف في الوعي السياسي ، وذلك ما جر عليها ويلا عظيما وشقاء كبيرا .

فمن اعظم ما تخدم به هذه الامة وتوءمن من المهازل والمآسي التي لاتكاد تنتهي هو ايجاد الوعي في طبقاتها ودهمائها وتربية الجماهير العقلية والمدنية والسياسية ولا يخفى ان الوعي غير فشو التعليم وزوال الامية وان كانت هذه الاخيرة من انجح وسائلها ،

وليعرف الزعماء السياسيون والقادة ان الامة التي يعوزها الوعي غير جديرة بالثقة ولا تبعث حالتها على الارتياح وان اطرت الزعامة والزعماء وقدستهم فانها — مادامت ضعيفة في الوعي — عرضة لكل دعاية وتهريج وسخرية كريشة في فلاة تلعب بها الرياح ولا تستقر في مكان .

استقلال البلاد العربية في تجارتها وماليتها :

وكذلك لابد للعالم العربي — كالعالم الاسلامي — من الاستقلال في تجارته وماليته وصناعته وتعليمه ، لا تلبس شعوبه وجماهيره الا ما تنبته ارضه وتنسجه يده ، وتستغني عن الغرب في جميع شئون حياتها ، وفي كل ما تحتاج اليه من كسوة ، وطعام ، وبضائع ، ومصنوعات واسلحة ، وجهاز حربي ، وآلات وماكينات ، وادوية ، فلا تكون كلا على الغرب وعيالا عليه في معيشتها ومتطفلة على مائدته .

ان العالم العربي لا يستطيع ان يحارب الغرب — اذا احتاج الى ذلك ودعت اليه الظروف — وهو مدين له في ماله ، عيال عليه في لباسه وبضائعه ، لا يجد قلما يوقع به على ميثاق مع الغرب، الا القلم الذى صنع في الغرب ، ولا يجد ما يقاتل به الغرب ، الا الرصاص الذى افرغ في الغرب ، ان عارا على الامة العربية ان تعجز عن الانتفاع بمنابع ثروتها وقوتها ، وان يجرى ماء الحياة من عروقها وشرايينها الى اجسام غيرها ، وان يدرب جيوشها وكلاء الغرب وضباطه

ويدير بعض مصالح حكومتها رجاله ، فلا بد للعالم العربي ان يقوم هو نفسه بحاجاته ، وتنظيم التجارة والمالية ، وحركة التوريد والتصدير ، والصناعة الوطنية ، وتدرب الجيش ، وصنع الآلات والماكينات وتربية الرجال الذين يضطلعون بجمع مهمات الدولة ووظائف الحكومة في خبرة ومهارة فنية ، وامانة ونصيحة .

رجاء العالم الاسلامي في العالم العربي :

والعالم العربي بمواهبه وخصائصه وحسن موقعه الجغرافي واهميته السياسية يحسن الاضطلاع برسالة الاسلام ، ويستطيع ان يتقلد زعامة العالم الاسلامي ، ويزاحم اوربا بعد الاستعداد الكامل وينتصر عليها بايمانه وقوة رسالته ونصر من الله ، ويحول العالم من الشر الى الخير ، ومن النار والدمار الى الهدوء والسلام .

الى قمة القبلة العالمية :

ما اعظم التطور الذى حدث في تاريخ العرب على اثر بعثة محمد صلى الله عليه وسلم نادت به سورة الاسراء وقصة المعراج في لغة صريحة بليغة وفي اسلوب مبين مشرق . وما اعظم النعمة التي اسبغها الله على العرب . نقلهم من جزيرتهم التي يتناحرون فيها الى العالم الفسيح الذى يقودونه بناصيته ، ومن الحياة القبلية المحدودة التي ضاقوا بها الى الانسانية الواسعة التي يشرفون عليها ويوجهونها ، واصبحوا بفضل هذا التطور العظيم الذى فاجأ العرب وفاجأ العالم يقولون بكل وضوح وشجاعة لامبراطور المملكة الفارسية العظمية واركان دولته : " الله ابتعثنا ليخرج بنا من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور الاديان الى عدل الاسلام " .

نعم لقد خرجوا من ضيق الدنيا اولا الى سعتها ثم اخرجوا الامم من ضيق الدنيا الى سعتها آخرا ، وهل اضيق من الحياة القبلية والجنسية ، واوسع من الحياة الانسانية الآفاق ؟ وهل اضيق من الحياة التي لا يفكر فيها الا في المادة الزائلة والحياة الفانية ولا يجاهد الا في سبيلها من الحياة الايمانية الروحانية التي لا نهاية لها ولا تحديد ؟ .

لقد خرجوا من ضيق جزيرة العرب ، ومن ضيق الحياة فيها ، ومن ضيق التفكير في مسائلها ومصالحها ، ومن ضيق التناحر على سيادتها ، ومن ضيق التكالب على حطامها القليل وملكها الضئيل وعيشها الذليل ، الى عالم جديد من السيادة الروحية والخلقية والعلمية والسياسية ، ليس الدانوب الفائض والنيل السعيد والفرات العذب والسند الطويل الا سواقي حقيرة وترعا صغيرة فيه ، وليست جبال الالب والبرانس وعقاب لبنان وقمم هماليا الا تلالا متواضعة وسدودا صغيرة ، وليست البلاد الواسعة كالهند والصين وتركستان الا احياء ضيقة وحارات صغيرة ، ونقطا مغمورة في هذا العالم ، وليست هذه الارض كلها — اذا نظر اليها من ارتقى الى قمة هذه السيادة — الا خريطة صغيرة ملونة يراها الطائر المحلق في السماء ، وليست الامم الكبيرة — مع ثقافتها وحضاراتها وآدابها — الا اسرا صغيرة في امة كبيرة .

لقد قام العالم الكبير على اساس العقيدة الواحدة ، والايمان العميق والصلة الروحية القوية ، وكان اوسع عالم عرفه التاريخ ، وكانت الشعوب التي تكون هذا العالم اقوى اسرة عرفها التاريخ . تنصهر فيها الثقافات المختلفة ، والعبقريات المختلفة ، فتتكون منها ثقافة

واحدة هي الثقافة الاسلامية ،التي لم تزل تظهر في نوابغ الاسلام الذين لا يحصيهم عدد وفي المآثر الاسلامية ــ بين علمية وعملية ــ التي لا يستقصيها التاريخ .

لقد كانت ــ ولا تزال ــ قيادة هذا العالم بجدارة واستحقاق اشرف قيادة واعظمها واقواها في تاريخ الزعامة والقيادة ،وقد اكرم الله بها العرب لما اخلصوا لهذه الدعوة الاسلامية وتفانوا في سبيلها فأحبهم الناس في العالم حبا لم يعرف له نظير ،وقلدوهم في كل شيء تقليدا لم يعرف له نظير ، وخضعت للغتهم اللغات ،ولثقافتهم الثقافات ،ولحضارتهم الحضارات ، فكانت لغتهم هي لغة العلم والتأليف في العالم المتمدن من اقصاه الى اقصاه ، وهي اللغة المقدسة الحبيبة التي يؤثرها الناس على لغاتهم التي نشأوا عليها ، ويؤلفون فيها اعظم مؤلفاتهم واجب مؤلفاتهم ،ويتقنونها كأبنائها واحسن ،وينبغ فيها ادباء ومؤلفون يخضع لهم المثقفون في العالم العربي ،ويقر بفضلهم وامامتهم ادباء العرب ونقادهم .

وكانت حضارتهم هي الحضارة المثلى التي يتمجد الناس ويتظرفون بتقليدها ، ويحث علماء الدين على تفضيلها على الحضارات الاخرى ويطلقون على كل ما يخالفها من الحضارات ــ اسم " الجاهلية " و " العجمية " وينهون عن اتخاذ شعائرها ومظاهرها .

وبقيت هذه القيادة الشاملة الكاملة مدة طويلة والناس لا يفكرون في ثورة عليها ، وفي التخلص منها ، كما هي عادة المفتوحين والامم المغلوبة على امرها في كل عهد ،لان صلتهم بهذه القيادة ليست صلة المفتوح بالفاتح او المحكوم بالحاكم او الرقيق بالسيد القاهر ، انما هي صلة المتدين بالمتدين ،وصلة المؤمن بالمؤمن ، وعلى الاكثر انما هي

صلة التابع بالمتبوع الذى سبقه بمعرفة الحق والايمان بالدعوة والتفاني في سبيلها ، فلا محل للثورة ، ولا محل للتذمر ، ولا محل لنكران الجميل ، انما اللائق ان يعترفوا لهم بالفضل ، وتلهج السنتهم بالشكر والدعاء ، وان يقولوا : " ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم "

وهكذا كان ، فقد ظلت هذه الامم المفتوحة تعتبر العرب المنقذ من الجاهلية والوثنية ، والداعي الى دار السلام ، والقائد الى الجنة والمعلم للحضارة ، والاستاذ في الادب .

هذه هي القيادة العالمية التي هيأتها البعثة المحمدية ، واعلنتها سورة الإسراء ، وهي القيادة التي يجب ان يحرص عليها العرب اشد الحرص ، ويعضوا عليها بالنواجذ ، ويسعوا اليها بكل ما اتوا من مواهب ويتواصى بها الآباء والابناء ، ولا يجوز لهم — في شريعة العقل والدين والغيرة — ان يتخلوا عنها في زمن من الازمان ، ففيها عوض عن كل قيادة مع زيادة ، وليس في غيرها عوض عنها وكفاية ، وهي القيادة التي تشمل جميع انواع القيادة والسيادة ، وهي تسيطر على القلوب والارواح ، اكثر من سيطرتها على الاجسام والاشباح

ان الطريق الى هذه القيادة ممهدة ميسورة للعرب ، وهي الطريق التي جربوها في عهدهم الاول " الاخلاص للدعوة الاسلامية واحتضانها وتبنيها والتفاني في سبيلها وتفضيل منهج الحياة الاسلامي على جميع مناهج الحياة " .

وبذلك — من غير قصد وارادة لنيل هذه القيادة وتبوئها — تخضع لهم الامم الاسلامية في انحاء العالم ، وتتهالك على حبهم واجلالهم



صدر بإشراف لجنة الإنجاز

سعر المبيع للطالب (١٥٠) ل.س

مطبعة ابن حيان دمشق